الخلود في فلسفات الشرق الأدنى القديم

وائل بن عبدالرحمن القاسم

الناشر: الأكاديمية العربية في الدنمارك – ٢٠١٥م.

تــنـبـيـهـا ت:

١- هذا الكتاب هو في الأصل بحث تكميلي، قدمه الباحث إلى مجلس كلية الآداب والتربية، بالأكاديمية العربية في الدنمارك، كجزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في الفلسفة.

٢- نُشرتْ هذه الرسالة في الموقع الرسمي للجامعة، ونُشر معها تسجيل صوتي لكامل مجريات المناقشة.
وسيطبع البحث في كتاب ورقي، بعد الانتهاء من تشذيبه وتخليصه من صبغته الأكاديمية، بشكل يجعله مناسبًا للمثقف العادي.

٣- هذه النسخة كانت قبل المناقشة، وهناك نسخة أخرى أحدث، حيث قام الباحث بإجراء الكثير من التعديلات وفق ملاحظات لجنة المناقشة.

وبإمكان من أراد سماع المناقشة أو تحميل النسخة النهائية من البحث، زيارة موقع الجامعة لاحقا

الأكاديمية العربية في الدنمارك
كلية الآداب والتربية/ الفلسفة
الدراسات العليا - ماجستير



الخلود
في
فلسفات الشرق الأدنى القديم

بحث تكميلي مقدّم إلى مجلس كلية الآداب والتربية
في الأكاديمية العربية بالدنمارك
وهو جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في الفلسفة

إعداد الطالب:
وائل عبدالرحمن عبدالعزيز القاسم

إشراف:
أ.د. يوسف سلامة

تَخالَفَ النّاسُ حتى لا اتّفاقَ لَهُمْ

إلاّ على شَجَبٍ وَالخُلفُ في الشجبِ

فقِيلَ تَخلُصُ نَفْسُ المَرْءِ سالمَةً

وَقيلَ تَشرَكُ جسْمَ المَرْءِ في العَطَبِ

وَمَنْ تَفَكّرَ في الدّنْيَا وَمُهْجَتِهِ

أقامَهُ الفِكْرُ بَينَ العَجزِ وَالتّعَبِ

____________________أبو الطيب المتنبي

الإهداء

إلى والدي الحبيب الدكتور عبدالرحمن عبدالعزيز القاسم، شفاه الله وعافاه.

إلى والدتي الغالية نورة القاسم، رعاها الله وأدامها لنا.

إلى زوجتي الغالية مزنة اللاحم، التي تحمّلت الكثير وضحّت بالكثير أثناء دراستي.

إلى ابنيّ الحبيبين التوأمين غسان وعزام، اللذين ولدا أثناء إعدادي لهذه الأطروحة.

إلى أخي العزيز فارس وأختي العزيزة هيفاء.

وإلى كل من يحبني ويتمنى لي الخير والنجاح.. أهدي هذا البحث..

شكر وعرفان

أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى المشرف على بحثي، الأستاذ الدكتور يوسف سلامة، الذي قدّم لي الكثير، ولم يبخل عليَّ بتوجيهاته ونصائحه القيمة التي كان لها الدور الأكبر في مساعدتي على إنجاز هذا البحث.

كما أتقدّم بوافر الشكر والامتنان، إلى الأستاذ الدكتور وليد الحيالي، مؤسس الأكاديمية ورئيسها، فقد بدأ معي من الصفر، منذ أن كنتُ في الفصل التأهيلي، ومرورًا بالفصول الأخرى للمقررات، وانتهاء بفصول كتابة هذه الرسالة.

والشكر موصول إلى جميع أساتذتي الكرام الذين تشرفتُ بالتتلمذ عليهم في الأكاديمية العربية في الدنمارك، وإلى الأساتذة الأفاضل الذين سيتفضلون عليَّ بمناقشة أطروحتي المتواضعة.

مقدمة :

* أهمية البحث ومشكلته:

ترجع أهمية البحث إلى المشكلات التي لا يستطيع الإنسان إلا أن يواجهها وأن يكوّن رأيًا أو موقفاً نحوها. والمشكلات المطروحة هنا تحتمل رؤيتين: رؤية دينية، وفي هذه الحالة يقبل المؤمن ما تقول به الأديان وينتهي كلُّ شيء بما تقرره الأديان من حلول لهذه المشكلات. ورؤية فلسفية يتحمّل العقل وحده بموجبها عبء طرح الأسئلة ومسؤولية العثور على أجوبة لها إن كان لها أجوبة، وإلا فليس للعقل إلا أن يعتصم بموقف الشك والارتياب وتعليق الحكم حول القضايا المطروحة في هذه الحضارات موضع البحث. وبما أن هذه الرسالة داخلة في نطاق الفلسفة، فإن الباحث سيقوم بدراسة دقيقة لشتى المواقف المتعلقة بمشكلة البحث داخل حضارات الشرق الأدنى القديم.

ومشكلة البحث المطروحة هنا متعلقة بمسألة المصير الإنساني بعد الموت: هل يكون الموت هو اللحظة الأخيرة في هذه الحياة والفناء هو الخاتمة الطبيعية لهذه الحياة، أم أن ثمة شكلاً من أشكال الحياة قد يكون ممكناً بعد الموت؟ وسؤال المصير هذا يقودنا إلى التساؤل عن طبيعة الموت وعن موقف الإنسان منه. والقضيتان السابقتان تجبران العقل الإنساني على الانتقال منهما إلى التفكير في مسألة الخلود: هل الخلود ممكن، وأي نوع من الخلود، خلود الجسد أم خلود الروح أم خلود لكليهما؟ تلكم هي مشكلة البحث التي ستعالجها هذه الرسالة.

* أسئلة البحث:

١- ماذا نعني بكلمة خلود؟ ما مدلولها اللغوي، وماذا يقصد بموضوع (الخلود) في الفلسفة، وما هي النظرة الدينية له؟

٢- كيف نظرتْ فلسفات الشرق الأدنى القديم للموت، وهل كان الرافديون والمصريون والفرس القدماء يؤمنون بوجود حياة ثانية في عالم آخر، وما هي معتقداتهم حولها وتصوراتهم عنها؟

٣- هل كانت فلسفات الشرق الأدنى القديم كلّها تتفق على الإيمان بخلود الروح والجسد في حياة ثانية تالية، أم بخلود الروح فقط، أم أنهم كانوا يختلفون في آرائهم ومواقفهم ومعتقداتهم، بين من يؤمن بخلود الروح وحدها، أو بخلود الجسد والروح معًا. وتستخدم هنا كلمة (خلود الجسد) بشكل لا يخلو من مفارقة.

* الدراسات السابقة:

هناك الكثير من الدراسات التي تتعلق بالموضوع من ناحية أو أخرى. ولكني لم أجد كتابًا واحدًا أو رسالة واحدة تتناول الموضوع من زواياه المختلفة في الحضارات التي ينصبُّ عليها هذا البحث. وكثير من الفصول المتفرقة حول العديد من مشكلات البحث يمكن أن تكون مصدرًا نافعًا لهذه الرسالة.

* منهج البحث:

لكل بحث منهج يناسبه، ولا يختار الباحث المنهج اختيارًا شخصيًا. وبما أن الموضوع المطروح للدراسة يتعلق ببعض المعتقدات الخاصة ببعض الحضارات القديمة، فلابد أن يكون المنهجُ تاريخيًا وتحليليًا ومقارنًا.

وقد قسّمتُ بحثي إلى:

مدخل..

الفصل الأول التمهيدي: ما الخلود؟

أ- الخلود في اللغتين العربية والإنجليزية.

ب- الخلود في الاصطلاح الفلسفي، والنظرة الدينية للخلود.

الفصل الثاني:

الخلود في الزرادشتية والفلسفة الفارسية القديمة:

المبحث الأول:

لمحة عامة عن فلسفات بلاد فارس القديمة.

المبحث الثاني:

الموت وطقوسه وما يتعلّق به عند قدماء الفرس.

المبحث الثالث:

خلود الروح في عقائد قدماء الفرس.

المبحث الرابع:

خلود الجسد في عقائد قدماء الفرس.

مدخل:

ساد بين فئام من الباحثين والعلماء والكتّاب البدء بالفلسفة الإغريقية عند حديثهم عن الفكر الإنساني التأملي، وحتى الذين يهتمون بالشرق القديم فإن الكثيرين منهم لا ينظرون إلى فلسفاته إلا على أنها معتقدات دينية فقط، فلا يولون جوانبه العقلية والفكرية التأملية ما تستحق من الاهتمام المفترض، بوصفها فلسفات حقيقية قوية لا مجرد معتقدات دينية. والحقيقة أن في هذا من الإجحاف الكثير، فالفلسفة في نظري كالسلسلة التي تتكون من حلقات، وكل حلقة منها مرتبطة بحلقتين، الحلقة السابقة لها والحلقة اللاحقة لها، فهذه السلسلة، أي سلسلة الفلسفة لها –كأي سلسلة أخرى حقيقية أو مجازية- حلقة أولى بدأتْ منها، ومن هنا ولدت النقاشات في الساحة الفلسفية حول الحلقة الأولى التي بدأتْ منها سلسلة الفلسفة، أي حول السؤال الكبير الذي يقول:

هل بدأتْ الفلسفة من الإغريق أم من المشارقة؟

وتعدَّدتْ الإجابات وكثر الجدل، واستشهد كلُّ فريق بحجج ضد الفريق الآخر المخالف. وأعتقدُ أننا بحاجة قبل الاسترسال في مناقشة علاقة الفلسفة الشرقية بالفلسفة اليونانية، وتأثر الشرق بالإغريق، وهل هناك فلسفات شرقية وعربية أم أنها ترجمات ومنقولات...الخ.

أعتقد أننا قبل هذا كله بحاجة إلى مناقشة البدايات الأولى للفلسفة، بل ومناقشة (ما قبل الفلسفة) إن صح التعبير. حيث كنتُ وما زلت أتوقف كثيرًا عند الدراسات الفلسفية التاريخية التي تكرر دائما أن بدايات الفلسفة كانت من بلاد اليونان، وأول من قال بهذا هو أرسطو الذي أرجعها إلى قومه الإغريق بقوله: إن "طاليس" هو مؤسس ضرب من التفلسف وهو الفلسفة الطبيعية، وهكذا جعل الفلسفة تبدأ بطاليس ومدرسته الملطية في القرن السادس قبل الميلاد، في حين أن ديوجنيس اللايرتي، أول من أشار إلى أن الفلسفة نشأتْ عند الشرقيين القدماء[١].

وبعد طول بحث في هذا الموضوع، ظهر لي أن الفلسفة الشرقية القديمة عامة، والفكر الفلسفي في الشرق الأدنى القديم خاصة، كان له نصيب من (بدايات الحكمة والفكر التأملي).

بالإضافة إلى أن التاريخ أثبت أن عددًا من فلاسفة اليونان الأوائل، كفيثاغورس ودمقريطس وغيرهم من الذين يتكرر أن الفلسفة وُلدتْ عندهم، قدموا إلى شرقنا القديم ونهلوا من ينابيعه، وتأثروا بما فيه من معارف وعلوم.

وهذا ما يعترف به كثير من الإغريق أنفسهم، فها هو المؤرخ الإغريقي الشهير "ديوجين لا إرس "الذي عاش في القرن الثالث قبل المسيح يحدثنا في كتابه (حياة الفلاسفة) عن فلسفة المصريين والفرس في العصور الغابرة حديثاً يُثبت أن الشرق قد سبق الغرب إلى النظر العقلي وأنه كان أستاذه وملهمه.[٢]

والحاصل أن الكثيرين يتفقون معنا على هذا الظلم الواقع بحق الشرق، والذي يتلخص في قول التيار الآخر مثلا: إن أول الإبداعات الفلسفية وصلتنا من الإغريق. وهو قول ظالم لعموم الشرق، وللشرق

---

[١]- أنظر: جون كولر، الفكر الشرقي القديم، المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت، ١٩٩٥م، مقدمة المراجع د. إمام عبدالفتاح إمام، ص ٧.

[٢]- محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مطبعة البيت الأخضر بمصر، ١٩٣٨م، ص ١٤.

الأدنى القديم بشكل أخص، الذي اتفق جميع العلماء على أن أبرز حضاراته قامت في بلاد النهرين ومصر وإيران القديمة.

لن أطيل في هذه الجزئية، وخلاصة موقفي هي أن اختزال معنى الفلسفة في مفاهيم ورؤى معينة ضيقة تسبَّبَ في الزعم بأنها نشأتْ من بلاد اليونان.. أما إذا وسعنا الدائرة فسنصل إلى نتيجة مفادها أن الشرق القديم سبق اليونان إلى كثير من العلوم، وسبقهم أيضا –فيما يظهر- في (النواحي الفكرية التأملية) التي ارتبطتْ بالأساطير والقضايا الميثولوجية، والعقائد والنواحي الثيولوجية واللاهوتية والروحانيات والمعرفيات الإنسانية العامة المختلفة.

ولا شك أن موضوع بحثي هذا يدخل في ذلك السبق، بل يأتي على رأس السبق، ففلسفات الشرق الأدنى القديم تحديدًا، سبقتْ كلَّ الفلسفات الغربية اللاحقة وغيرها من الفلسفات الأخرى في الرؤى المتعلقة بالموت، وبمسألة الخلود بنوعيه، أي خلود الروح وخلود الجسد بعد الموت.

ولذلك جاءت أطروحتي كمسح لفكر الشرق الأدنى القديم، بحضاراته الثلاث الأبرز، الرافدية والزرادشتية والمصرية، بحثًا عن الحكماء والفلاسفة، للتعرّف على مواقفهم وآرائهم ووجهات نظرهم المختلفة من موضوع الخلود بعد الموت.

ولا شك أن مسألة الخلود بعد الموت مسألة في غاية الأهمية عند غالب البشر؛ لأن جميع تحوّلات الإنسان وتبدلاته ووداعاته ونهاياته ناقصة، إلا الوفاة فإنها التحوّلُ الكامل والوداع النهائيُّ الكليُّ الوحيد الأكيد؛ ولذلك يهرب الناس منها ويخشونها ويهابونها، ويبذلون أقصى ما بوسعهم لتجاهلها وتناسيها والفرار منها؛ بكل ما يملكون من وسائل الترفيه، وأسباب العلاج، وأنواع الغذاء، وأدوات الصراع من أجل البقاء.

إن كل تغيّر أو تغيير ضخم، هو انتقال من طور إلى طور آخر، وكل الانتقالات الكبيرة مخيفة ومرعبة وشاقة على الإنسان؛ لأن الجديد مجهول غامض والقديم مألوف محبوب؛ ولذلك يخاف الإنسان من كل تغيير عظيم يحصل أثناء حياته؛ ولكن كل التحوّلات الدنيوية مهما بلغتْ من الضخامة، تهون وتهون ألف مرة ومرة، إذا قورنت بالتحول والانتقال الأخير الكبير من الدنيا إلى المثوى الأخير وعالم الأموات المجهول ودهاليزه المهابة.

ولاشك أني كباحث مؤمن بالخالق العظيم مبدع ومهندس الوجود، أسعى -بلا قيود ولا حدود- للمعرفة التي تزيدني إيمانًا بوجوده. والتعمق في البحوث عامة، وفي الفلسفية منها على وجه الخصوص يساهم بشكل كبير في ذلك.

كيف لا وقد قرر كثير من فلاسفة العرب والعجم ذلك بصور عديدة، منها أن ابن رشد مثلا كان لا يعتبر الفلسفة شيئا أكثر من النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع. ويضيف ابن رشد: "فالموجودات إنما تدل على الصانع بمعرفة صنعتها وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم"[١].

---

[١]- ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحقيق محمد عمارة، دار المعارف- القاهرة، ط٢، ص٢٢.

وفي هذا أيضًا يقول فرانسيس بيكون باختصار جميل: "إنّ القليل من الفلسفة قد ينزع بعقل الإنسان إلى الإلحاد؛ ولكن التعمّق فيها ينتهي بعقول الناس إلى الإيمان حتمًا؛ لأن عقل الإنسان عندما ينظر إلى الأسباب الثانوية المبعثرة قد يتوقف عندها ولا يتجاوزها، ولكن عندما يشاهد تسلسلها واتحادها، واتصالها بعضها بعضًا ينتهي به ذلك إلى الإيمان بوجود العناية الإلهية. قد لا أعتقد بجميع القصص والأساطير التي جاءت بالكتب الدينية، ولكن لا يمكن أن أعتقد بعدم وجود عقل مدبر لهذا العالم"[١].

لقد انبثقتْ فكرة هذا البحث من اقتناعي أن تأثير "الموت" بوصفه باعثاً أساسيًا على التفلسف -كما قرر كثير من الفلاسفة الأوائل- لا يقل عن تأثير "الدهشة" وغيرها من بواعث الفلسفة الأخرى عند أرسطو وغيره.

ثم من اقتناعي بأن أهم ما في موضوع الموت هو ما بعده، وهل هناك خلود أم لا؟ أي هل هناك حياة أخرى أم أن الأمر ينتهي بوفاة الإنسان ومغادرته هذه الحياة التي نعيش فيها؟

إن البحث والمقارنة بين الإجابات عن هذا السؤال الكبير أمرٌ في غاية الأهمية في نظري للإنسان.. انظروا مثلا إلى ردة الفعل الطبيعية لأحد الفلاحين البسطاء على افتراض عدم وجود الروح، حيث يقول الكاتب الإسباني ميجيل أنامنوا: "كنتُ أتحدث إلى فلاح ذات يوم، وقد اقترحتُ عليه فرض عدم وجود الروح، وأنه لن يكون بعث ولا نشور بالمعنى التقليدي المعروف. فأجابني الفلاح قائلاً: وما فائدة وجود الله إذن"[٢].

إن هذا السؤال الفلسفي العميق الذي طرحه هذا الفلاح يؤكد فكرة كانت ومازالت قوية جدًا عندي، وهي أن الإيمان بأيّة عقيدة إلهية مرتبط جدًا بالعقيدة الأخروية التابعة لها، أي بالعقيدة الأخروية في نفس الديانة التي يؤمن الإنسان بإلهِهَا، ويتفق معي الكثيرون في هذا بعدة أساليب وصياغات فلسفية، من أوضحها مثلا قول مارتن لوثر: "إذا لم تعتقد في اليوم الآخر، ما ساوى إلهك عندي شيئا"[٣].

كنتُ أسأل نفسي دائمًا منذ أن بدأت في القراءات الفلسفية الأولى هذا السؤال: لماذا انقسم الفلاسفة إلى مثاليين وماديين؟ أو بشكل أدق في ظني: لماذا انقسموا إلى فلاسفة روحانيين وماديين؟![٤].

توقفتُ طويلا في تلك البدايات -أي في بداياتي مع الفلسفة والفلاسفة- عند هذه النقطة التي كانت تتكرر في الكتب التي بدأتُ بها كغيري من الناس الذين دخلوا إلى هذا المجال.. كنتُ أتوقف طويلا عند أسئلة من قبيل: هل خلف المادة روح، أم أن خلف المادة مادة؟! أيهما أسبق: الروح أم المادة؟! وأيضًا: هل الوعي سابق للمادة أم العكس؟ أو: هل الفكر سابق للمادة؟! أم أن المادة هي السابقة الخالقة؟!

---

[١]- ولْ ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة د. فتح الله المشعشع، مكتبة المعارف - بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص ٩٥.

[٢]- د. سيد عويس، الخلود في التراث الثقافي المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع، ١٩٩٩م ، ص ٥٤.

[٣]- المصدر السابق، نفس الصفحة.

[٤]- وهذا ما خلصت إليه واقنعني بعد طول بحث، رغم أن السائد في الكتابات الفلسفية هو التقسيم إلى: فلسفة مثالية وفلسفة مادية. ولكن الأقرب عندي هو ما ذكرته، وقد ذكره الكثيرون ومنهم رابوبرت، يقول في كتابه مبادئ الفلسفة ص١١٢ بتعريب أحمد أمين: وقد أخطأ بعض الناس فهم "الروحانية" فلقبوها (مذهب المثال) مع أن مذهب المثال هذا يقابله (مذهب الواقع) لا (مذهب الماديين) كما ستعلم عند الحديث عن نظرية المعرفة.

ووجدتُ إجابات كثيرة، منها قول بوليتزر مثلا: "عمد الفلاسفة إلى تحديد موقفهم من هذا السؤال الرئيسي في الفلسفة، الذي يطرح بعدة صور عن علاقات المادة والروح، فانقسم الفلاسفة وفق إجاباتهم إلى معسكرين كبيرين، فالذين تبنوا التفسيرات غير العلمية أكدوا أن الروح هي التي خلقت المادة، وهؤلاء كونوا معسكر المثالية. أما أولئك الذين بحثوا عن تفسير علمي للعالم، والذين يعتقدون أن الطبيعة أو المادة هي العنصر الأساسي.. هؤلاء كانوا ينتمون إلى مختلف مدارس المادية[١].

ولكن إجاباته وأمثاله خلقتْ سؤالاً كبيرا جديدًا يلحُّ عليَّ دائمًا وهو: ما هو الهدف من هذا الانقسام، ولماذا يصرُّ المثاليون والماديون على مواقفهم، وعلى قضاء هذه الأوقات الطويلة في دحض حجج بعضهم البعض؟!

هل الدهشة حقًا هي الباعث الأول على الفلسفة كما يقول أرسطو، وهل هذا ينطبق على الجميع؟ أم أن هناك دوافع وبواعث أخرى أهم وأبرز من الدهشة؟ أو بصياغة أخرى: هل هناك بواعث أو دوافع جعلت من بعض البشر فلاسفة، أو ساهمت بدخولهم من باب الفلسفة الكبير واستمرارهم في السير بعد الدخول -بلا تعب ولا كلل- في طريق التفلسف الطويل، لمسافات طويلة استهلكت من أعمارهم أكثرها؟!

استمرَّ هذا السؤال حتى وقعتْ عيني على كلام تكرر في عدد قليل من المراجع بصور عديدة، وهو أن للموت علاقة كبيرة بهذا، أي أن للقلق من فكرة الرحيل دورًا بالاندفاع نحو الفلسفة، وإطالة الجدل في أسئلتها، خاصة الكبرى المؤرقة.

ومن ذلك مثلا ما قاله فيلسوف التفكيك الفرنسي جاك دريدا في آخر حواراته، عندما حدد وظيفة الفلسفة وأنها لا تتوقف عند تعليمنا كيف نعيش، بل يجب أن تعلمنا أيضًا كيف نموت كما ظل "سقراط" يؤكد، بمعنى كيف نتقبل فكرة الفناء؟[٢].

وحين كنتُ أبحث في ذلك الصراع بين الماديين والروحانيين أو المثاليين، وهو الصراع الفكري العنيف الذي تحركه دائمًا "رهبة المصير" في رأيي.. حين كنتُ أبحث في هذا الاختلاف بينهم، وقعت عيني على ما يعزز ظني، حيث يقول الألماني بوخنر: "ذهب كثير من الفلاسفة إلى أن الموت هو السبب الأساسي الذي حمل على الفلسفة، وإذا صحَّ هذا كانت (الفلسفة التجريبية)[٣] في عصرنا هذا قد حلّت أكبر لغز في الفلسفة، فقد أبانت منطقيًا وتجريبيًا أن لا موت، وأن الموت -وهو أكبر سر غامض- ليس إلا تغيرًا مطردًا من حال إلى حال، وأن كلَّ شيء في هذا العالم لا يفنى ولا يزول، من أصغر دويبة إلى أكبر جرم سماويّ، من حبة رمل أو قطرة ماء إلى أعظم موجود في الخليقة، أعني الإنسان وأفكاره. نعم يتغيّر شكل الموجود، أما الموجود نفسه فدائم لا يلحقه الفناء، فإذا نحن متنا فلا يعني ذلك أننا فُقدنا، وإنما فَقَدنا شعورنا الشخصي أو شكلنا العارض، الذي لبسته حقيقتنا الأبدية وقتاً قصيرًا، وسنبقى أبدًا في العالم وفي جنسنا وفي ذريتنا وأعمالنا وأفكارنا. وعلى الجملة:

---

[١]- جورج بوليتزر، مبادئ أولية في الفلسفة، دار الفارابي -بيروت، ط٥، ٢٠٠١م، ص ص٣١-٣٢.

[٢]- بينوا بيترز، سيرة جاك دريدا، الصادرة عن دار فلاماريون. نقلا عن رشيد بوطيب، سيرة جاك دريدا بحسب بينوا بيترز، موقع كتّاب العراق، ٢٠١١/٠٢/٠١م.

[٣]- الفلسفة التجريبية أو الإمبريقية: هي مذهب فلسفي يقول بأن التجربة هي أساس العلم بالأشياء. يؤمن التجريبيون أن المعرفة الإنسانية تأتي بشكل رئيسي عن طريق الحواس والخبرة، وينكرون -غالبًا- وجود الأفكار الفطرية في الإنسان.

سنبقى فيما قدمناه من عمل -مادي أو نفسي- وما خلفناه من أثر لبني جنسنا أو للعالم أجمع في الأيام القصيرة التي عاشتها أشخاصنا"[١].

واستمر بحثي حتى وقعت عيني على كلام فيلسوف إسبانيا وأديبها الكبير ميغيل أونامونو عن الموت، حيث جعله (المشكلة الكبرى في الفلسفة)[٢].

قرع ذلك الكلام أجراسًا مدوية في عقلي، أعني الكلام الذي ورد بصور مختلفة منها مثلا فيما أذكر: الموت هو الباعث الرئيسي للفلسفة. أو قول البعض: تساؤل الإنسان عن مصيره بعد الموت هو مشكلة أساسية في الفلسفة، أو أنه -بشكل أدق- يمثل ناحية مهمة من نواحي المشكلة الأساسية في الفلسفة، التي تكتمل صورتها بتأمل عدة تساؤلات مماثلة، مثل: كيف ومن أين جاء العالم؟ وكيف ومن أين جاء الإنسان؟ وكيف سينتهي العالم، وهل سينتهي حقًا بصورة معينة؟! وإلى أين يذهب الإنسان بعد الموت؟ وما شابه ذلك من الصور التي تطرح بها هذه التساؤلات الكبرى وأمثالها.

إن بحث هذا الموضوع من الأهمية بمكان عندي، لكل ما ذكرته في الأسطر السابقة؛ بالإضافة إلى ارتباطه بموضوع (الأخلاق) أيضًا، فالأديان السماوية وبعض الأديان والفلسفات الأخرى تتفق على أن عدم الإيمان بالبعث والحياة الأخرى يستلزم تزعزع الأخلاق عند الإنسان، بل وسقوط وانهدام كل كياناته الأخلاقية في هذه الدنيا من جهة، وربما انهدام إيمانه بالله أيضًا من جهة ثانية.

وها أنا أنطلق في صفحات هذا البحث باحثًا عن إجابات وآراء فلسفات الشرق الأدنى القديم، لإشباع فضولي الإنساني الطبيعي تجاه هذا النوع من المواضيع، رغم إيماني العميق بخالقنا العظيم وبحكمته وإرادته الكونيتين.

ما هو المحرك الذي جعل الفلاسفة يطيلون الحديث والتفصيل في مواضيع الموت والخلود؟ وما هو السبب الذي جعل غالب الأديان تركز على ما بعد الموت لحث الناس على الخير من أجل الخلود في النعيم، وفي المقابل تحذيرهم من الشر حتى لا يكون الخلود في العذاب؟ وما هو العامل المشترك -مثلا- بين بحث "جلجامش" وغيره في العصور السابقة عن نبتة الخلود أو أكسير البقاء الأبدي، وبين بحوث العلم الحديث عن الطرق التي تؤدي إلى إطالة عمر الإنسان وتعميره في الأرض، وبين تحنيط الفراعنة جثث أمواتهم اعتقادًا منهم أنهم سيعودون للحياة يومًا؟!

ما هو الجامع بين كل ذلك؟ ما هو الدافع المشترك لكل ذلك؟

أعتقد أن الجواب هو أن الجميع يدندن حول نزوع وفضول إنسانيين داخليين، وحلم جماعي كبير، يشترك فيه غالب البشر، وهو الرغبة في الخلود الأبدي في عالم آخر بعد الموت، والفضول لاستكشاف تفاصيل ذلك من ناحية، وكذلك الرغبة في البقاء أطول فترة ممكنة على قيد الحياة من ناحية ثانية.

---

[١]- من كتاب "القول الفصل في المادية" للفيلسوف الألماني بوخنر، وهو من أشهر الفلاسفة الماديين في القرن التاسع عشر. نقلا عن: أ. س. رابوبرت، مبادئ الفلسفة، دار العالم العربي – القاهرة، ط١، ٢٠١٢م، ص ١١٠

[٢]- د. إمام عبد الفتاح إمام، في تقديمه لترجمة كتاب جاك شورون: الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين، المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت، ١٩٨٤م. ص ١٣.

والحقيقة أن لديّ قناعة عامة منذ بداياتي الأولى في الاطلاع الفلسفي والتأملي، وهي أنه من الخلل والخطأ -في رأيي- أن يتم النظر إلى الرؤى والمواقف والتصوّرات والمعتقدات المتأخرة في المذاهب والتيارات والملل الدينية والفلسفية المختلفة، بمعزل عن رؤى ومواقف وتصوّرات وعقائد الإنسان القديم السابقة، لا سيّما الموغلة في القدم، وعلى رأسها تيارات فلسفات الشرق الأدنى القديم بلا أدنى شك.

إنني أجزمُ واثقًا أن جلَّ البشر إن لم يكن كلّهم يشتركون في ذلك الشعور الرهيب القوي بالخشية من الموت والرحيل عن هذه الحياة، وهو الشعور الذي يبدأ مع الإنسان غالبًا في مراحل مبكرة من عمره، حيث نلاحظ باستمرار في كلِّ المجتمعات تقريبا أن اليافعين وصغار السن يبدؤون مبكرًا في طرح كثير من أسئلة القلق الوجودي إن صح التعبير.. ومنها مثلا:

س١: كيف خلقنا أو وجدنا في هذه الحياة أو كيف جئنا إليها؟

س٢: ما هو سبب هذا الخلق؟ وهذا السؤال قد يُعبّر عنه الإنسان بعد تجاوز مرحلة الطفولة وبدايات المراهقة بأساليب أخرى أنضج وأعمق، مثل: ما الحكمة من خلقنا، أو: ما هو مبرر وجودنا في هذه الحياة؟

وتتوالى الأسئلة المماثلة حتى يصل الإنسان إلى طرح **(السؤال المشترك الضخم)** الذي يهمنا ويؤرقنا هنا بشكل أكبر من سابقيه، وهو:

س٣: لماذا يجب علينا جميعًا أن نموت؟ وماذا سيحصل لنا بعد الموت؟

هل سنعيش حياة أخرى أم لا، وهل نحن خالدون أم أن مصيرنا للفناء والزوال والاندثار؟**!**

ورغم أن غالب البشر كما أسلفتُ يشتركون في هذا، إلا أني أشعر منذ سنوات طويلة أن هذه الأسئلة السابقة ومثيلاتها تلحُّ عليَّ بصورة أظنها أشد من إلحاحها على كثير من البشر، خاصة السؤال الثالث المتعلق بما بعد الموت.

ولا شك أننا في مجتمعاتنا المسلمة -كغيرنا من أصحاب الأديان- نجد الكثير من الراحة وسكينة النفس عندما نطالع الإجابات الكثيرة الواضحة في نصوص ديننا؛ فقد أوضحتْ نصوصنا المقدسة كلَّ التفاصيل عن الآخرة وما فيها من نعيم مقيم للمحسنين والصالحين والمستقيمين منا، وما فيها -في المقابل- من جحيم وعذاب للعصاة والمفسدين...الخ.

ولكن هذا لا يمنع في اعتقادي من السعي إلى إشباع فضولي حول هذا الموضوع من الناحية العقلية الفلسفية الصرفة، خاصة في تلك الحضارات الأولى الموغلة في القدم، التي سبقتْ ما عرفناه من الرسل والأنبياء والحكماء في كثير من الأديان السماوية وغيرها من الديانات والفلسفات الدينية اللاحقة، وبذلك يكون البحث عن موضوع الخلود في فلسفات تلك الحضارات بحثًا عن **(الجذور الأولى)** لفكر الإنسان حول هذه المسألة، فالرافديون والمصريون والفرس القدماء، هم من أقدم بناة الحضارات في التاريخ الإنساني كلّه كما هو معلوم.

ولذلك كله ولغيره من الدوافع والأسباب، فقد ارتأيتُ الغوص في بحور فلسفات (الشرق الأدنى القديم) بحضاراته الثلاث الأبرز، الفارسية والرافدية والمصرية.. سعيًا لإطفاء نيران فضولي الذي

يشتعل في أعماقي دائما في هذا الشأن منذ أن كنتُ طفلا صغيرًا وشابًا يافعاً، ورغبة في مقارنة مواقفهم وآرائهم ومعتقداتهم ببعضها، للخروج بتصوّر عام عن فلسفات الشرق الأدنى القديم في موضوع الخلود، ثم وضع النتيجة بجوار ما أعرفه من معتقدات الأديان السماوية وغيرها من الديانات والفلسفات، لتكتمل لديّ الصورة، أعني صورة مواقف الإنسان وحكمائه المختلفة في مختلف الأزمنة والأمكنة من موضوع الموت وما بعده عامة، ومواقفه من الخلود بنوعيه الروحي والجسدي على وجه الخصوص.

كم هو مهم التنقيب والبحث المترابط عن إجابات الحكماء والفلاسفة الأوائل وغيرهم من أهل تلك الحضارات الشرقية العريقة القديمة، التي سبقت فلاسفة اليونان وغيرهم من فلاسفة الغرب في الفكر التأملي والنظر العميق لكل ما يحيط بالإنسان ويقلقه في هذه الحياة، وعلى رأس ذلك مواضيع الموت وما بعده وما يتعلق به، فمن المعروف عند المهتمين والمتخصصين في الفلسفة، والتاريخ، والآثار، والعقائد والأديان، وغيرهم من عامة الناس، أن قدماء الفراعنة والرافديين والفرس، كانوا من أكثر البشر اهتمامًا بمثل هذه المواضيع، فبمجرد أن يُطرح موضوع الموت والخلود، تتبادر إلى الأذهان في كثير من الأحيان مواضيع من قبيل: التحنيط في مصر القديمة، وملحمة جلجامش وسعيه إلى الخلود في الحضارة البابلية الرافدية، وما قاله زرادشت مثلا عن تلك القضايا، من أقوال مقاربة لكثير مما جاء لاحقا في الإسلام والمسيحية، بل واليهودية أيضًا عند من يرجح أسبقية الزرادشتية على اليهودية، ولذلك مال البعض إلى أن زرادشت نبي له دين سماوي، وأن الزرادشتية أثرت في كثير من الأديان اللاحقة لها.

إن لدراسة الخلود بعد الموت في الشرق الأدنى القديم أهمية مرتبطة من ناحية أولى بأهمية موضوع الخلود عند كثير من البشر الذين يحبون التعرّف على الآراء والقناعات المختلفة المتعلقة بمصيرهم بعد مغادرة الحياة الدنيا، ومرتبطة أيضًا بقدم تلك المرحلة المبكرة التي سيجري فيها البحث من ناحية ثانية.

ولا شك عندي أن سبر أغوار الإرث الفلسفي الإنساني القديم الوالد لكثير مما جاء بعده من فلسفات وأفكار تأملية وعقائدية مختلفة، والوصول إلى قعر ماضي المتأملين الأوائل من البشر في حضارات الإنسانية الأولى، بحثا عن إجاباتهم حول المسائل الكبرى والقضايا الضخمة في الفلسفة، كحقيقة الخلود بعد الموت وما شابهه من المواضيع.. لا شك عندي أن ذلك أمر هام ومفيد للباحث نفسه، قبل أن يكون مفيدًا لغيره من الناس الذين سيطلعون على بحثه، لا سيما أهل الاختصاصات المفتقرة إلى مثل هذه الدراسات، كالباحثين في المجالات الفلسفية والتاريخية والعقائدية والآثارية المختلفة.

إن الرجوع إلى البدايات والجذور الأولى لفكر الإنسان التأملي في الشرق الأدنى تحديدًا، والربط والجمع بين ما عند أولئك الأقوام حول مسألة "الخلود" بنظرة شمولية، كفيل بمعرفة الأسس الأولى التي انطلق منها ومرّ بها التفكير الإنساني قبل أن يستقر على معتقداته الراهنة المعروفة اليوم حول الخلود والحياة الثانية، فليس هناك قضية أرَّقتْ وأقلقتْ وأرهبتْ الإنسان في مختلف عصوره كقضية الموت، والعصور القديمة في الشرق الأدنى من أهم العصور التي بدأت فيها التأملات العقلية وما نتج عنها من آراء ومواقف وقناعات فلسفية حول حقيقة العالم اللاحق، ومصير الإنسان فيه، وهو المصير الذي يبدأ مع لفظ الإنسان لآخر نفس من أنفاسه.

لقد قررتُ الحفر والتنقيب في (فلسفات أقدم حضارات البشر)، بحثا عن فكرة تهم (غالب البشر)، بل قد لا نبالغ إن قلنا: بحثًا عن أهم فكرة عند البشر على الإطلاق. فمن النادر أن يوجد إنسان عاقل لا

تنتابه بين فينة وأخرى أفكار ومشاعر وأحاسيس وتساؤلات حول مصيره بعد الموت. ومن شبه المستحيل أن يوجد إنسان عاقل يعيش دون أن يفكر برهبة وقلق -ولو لمرات معدودة- عن حاله ومصيره بعد الوفاة، أهو الخلود أم الفناء؟.

إنّ آباء الفكر الإنساني التأملي الموجودين في الحضارات الثلاث التي ستكون مناط بحثي هذا، لمّا أن أدركتْ عقولهم حتمية الموت وعجْز الإنسان عن الفرار منه، سبقوا غيرهم من الفلاسفة والمتأملين والأنبياء والحكماء والأدباء اللاحقين، في محاولة التعرّف على مصير الإنسان بعد الموت وتكوين تصوّرات معينة عن ذلك المصير.. وكل ما سأفعله في بحثي هذا هو محاولة التعرّف على أبعاد محاولتهم في التعرّف على ذلك المصير.

فأنا -ككثير من الناس- يدور في داخلي صراعٌ رهيبٌ عنيف بين المشاعر المرتبطة بغريزة البقاء وحب الحياة، والمشاعر الأخرى المبنية على إدراك الحقيقة المرّة، أعني حقيقة حتمية الرحيل والمغادرة يومًا من هذه الدنيا، مهما طالتْ أعمارُنا، وهذا الصراع المتعب جدًا للكثيرين، لم أجد له علاجًا أو مسكناً يخفف من عنفوانه وثوران براكينه وشدة هبوب أعاصيره إلا الاستمرار في البحث والتعرّف على الآراء المختلفة حول موضوع (الحياة الثانية) والتصوّرات المتعددة لمسألة الخلود.

فعقول محبي المعرفة من البشر كالعصافير، التي تحلّق كل يوم في الفضاءات، تاركة أعشاشها وفراخها، بحثاً عن أقواتها وأرزاقها، التي قد تكون بعيدة جداً عنها.. فهذه العقول السويّة العاشقة للاطلاع تشبه تلك العصافير، حيث تحلّق في سماوات المعرفة بحثاً عن أقوات الأرواح وأرزاق الأذهان، مهما كانت بعيدة عنها، فقد يجد الإنسان العاقل المميز السوي غاياته الثقافية ومسدّاته العقلية وضوالّه المعرفية في مناطق بعيدة تختلف مذاهبها العقائدية أو رؤاها الفكرية أو مرتكزاتها الأخلاقية وغيرها، عن السائد في مجتمعه والمسيطر عليه من الثقافات المألوفة المتوارثة.

إني أعترفُ أن (الخوف من الموت) هو المحرك الأول الذي دفعني لاختيار عنوان هذا البحث والمضي قدما فيه، ولا شك أن هذه القضية، أي قضية الخوف الطبيعي من الموت ورهبة المجهول.. لا شك أنها كانت وما زالت وأظنها ستستمر في تصدّر قائمة القضايا المطروحة في كلّ أصقاع الأرض في عالم الأمس وعالم اليوم وعالم الغد، حيث تواتر الاهتمام بها من غالب الفلسفات والمذاهب والعقائد والمدارس الفكرية والاجتماعية والدينية المختلفة.

وآمل أن تساعد وتساهم نتائج هذه الدراسة في الوقوف الدقيق الواضح المترابط على معتقدات وأفكار الإنسان القديم جدًا حول موضوع الخلود؛ بنوعيه الروحي والجسدي، في حضارات الشرق الأدنى الثلاث التي أنوي البحث في فلسفاتها وأفكارها التأملية والدينية، بهدف تكوين الصورة البانورامية العامة، والانطباع الشمولي الكلي عن موضوع الخلود فيها.

والله من وراء القصد..

أ- الخلود في اللغتين العربية والإنجليزية.

قال صاحب اللسان: " الخُلْد: دوام البقاء في دار لا يخرج منها. خَلَدَ يَخْلُدُ خُلْداً وخُلوداً: بقي وأَقام. ودار الخُلْد: الآخرة لبقاءِ أَهلها فيها". وقال أيضًا: "خَلَدَ إِلى الأَرض وأَخْلَد: أَقام فيها، وفي التنزيل العزيز: ولكنه أَخلد إِلى الأَرض واتبع هواه؛ أَي ركن إِليها وسكن، وأَخْلَد إِلى الأَرض وإِلى فلان أَي ركن إِليه ومال إِليه ورضي به".

وقال أيضًا: "وخَلَّده الله وأَخْلَده تخليداً؛ وقد أَخْلَد الله أَهلَ دار الخُلْد فيها وخَلَّدهم، وأَهل الجنة خالدون مُخَلَّدون آخر الأَبد، وأَخلد الله أَهل الجنة إِخلاداً، وقوله تعالى: أَيحسب أَنَّ ماله أَخلده؛ أَي يعمل عمل من لا يظن مع يساره أَنه يموت، والخُلْد: اسم من أَسماءِ الجنة؛ وفي التهذيب: من أَسماءِ الجنان؛ وخَلَد بالمكان يَخْلُد خُلوداً، وأَخْلَد: أَقام، وهو من ذلك؛ قال زهير: لِمَن الديارُ غَشِيتَها بالغَرْقَد، كالوَحْي في حَجَر المسِيل المُخْلِد؟ والمُخلِد من الرجال: الذي أَسن ولم يَشِب كأَنه مُخَلَّد لذلك، وخَلَد يَخْلِد ويخْلُدُ خَلْداً وخُلوداً: أَبطأَ عنه الشيب كأَنما خلق لِيَخْلُد. التهذيب: ويقال للرجل إِذا بقي سواد رأْسه ولحيته على الكبر: إِنه لمخلِد، ويقال للرجل إِذا لم تسقط أَسنانه من الهرم: إِنه لمخلِد، والخوالد: الأَثافي في مواضعها، والخوالد: الجبال والحجارة لطول بقائها؛ وقال: إِلاَّ رَماداً هامداً دَفَعَتْ، عنه الرياحَ خَوالِدٌ سُحْمُ الجوهري: قيل لأَثافي الصخور خوالد لطول بقائها بعد دروس الأَطلال"[١].

وقال ابن فارس: "الخاء واللام والدال أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الثبات والملازمَة، فيقال: خَلَدَ: أقام، وأخلَدَ أيضاً. ومنه جَنَّةُ الخُلْدِ.

قال ابن أحمر:

خَلَدَ الحبيبُ وبادَ حاضِرُهُ ** إلاَّ مَنازِلَ كلُّها قَفْرُ

قال الله تعالى: وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ [الأعراف ١٧٦]. فأما قوله تعالى: وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ [الإنسان ١٩]، [فهو] من الخُلْد، وهو البقاء، أي لا يموتون"[٢].

وعند الجوهري: "الخُلْدُ: دوامُ البقاء. تقول: خَلَدَ الرجلُ يخلُدُ خُلوداً. وأخلَدَه الله وخَلَّدَه تخليداً.. قال الشاعر المُخَبَّلُ السعدي:

عنه الرياحَ خَوالِدٌ سُحْمُ ** إلاّ رَماداً هامِداً دَفَعَتْ"[٣].

وفي قاموس الفيروزآبادي: "الخُلْدُ، بالضم: البَقاءُ، والدوامُ. وخَلَدَ خُلوداً: دامَ. وخَلَدَ خَلْداً وخُلوداً: أبْطَأ عنه الشيْبُ، وقد أسَنَّ. وخَلَدَ بالمكانِ، وخَلَدَ إليه: أقامَ"[٤].

---

[١]- محمد بن مكرم بن منظور، معجم لسان العرب، (مادة: خلد)
[٢]- أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة. (خلد)
[٣]- إسماعيل بن حمّاد الْجَوْهَري، معجم الصحاح في اللغة. (مادة: خلد)
[٤]- القاموس المحيط، للفيروز آبادي. (خلد)

وفي المعجم الوسيط: خلدا وخلودا دَامَ وَبَقِي وَيُقَال خلد فِي السجْن وَفِي النَّعيم وَيُقَال خلد فلَان بالمكان أَطَالَ بِهِ الْإِقَامَة. و(أخلد) بفلان لزمَه وَإِلَيْهِ اطْمَأَن وَسكن، وَفِي حَدِيث عَليّ يذم الدُّنْيَا (من دَان لَهَا وأخلد إِلَيْهَا) وَالشَّيْء أبقاه وأدامه[١].

وفي كتاب المنجد في اللغة: دارُ الخُلْد: دار الإقامة، وقد خَلدَ يَخْلُد خُلْدًا وخُلودًا، فهو خالدٌ: إذا أقام فلم يَبْرَحْ[٢].

وخَلّد (بالتشديد) يتعدّى إلى المفعولين. ومعناه: أبقاه في مكان ما دائماً إلى الأبد، كخَلّدْه السجن، وكما جاء عند الثعالبي: الأيام صحائف أعماركم فخلّدوها أحسن أعمالكم. وخاتم التخليد: هو خاتم يختم به ملك الفرس البراءة أي الفرمان حين يهب الهبات[٣].

(و) خَلَدَ (بالمكانِ) يخلُد خُلُوداً، (و) كَذَا خَلَدَ (إليه)، إِذَ بَقِيَ و (أَقام كأَخْلَدَ، وخَلَّد، فيهمَا) . قَالَ الصاغانيّ: خَلَدَ إِلَى الأَرض خُلُوداً وَخلَّد إِلَيْهَا تَخْلِيداً، لُغتانِ قَلِيلتانِ فِي أَخْلَد إِليها إِخلاداً. وسَوَّى الزّجّاج بَين خَلَّدَ وأَخْلَدَ، يُقَال: خلَّدَه اللهُ تَخْلِيداً، وأَخلَدَه إِخلاداً. وأَهلُ الجَنَّة خالِدونَ مُخَلَّدون، وأَخلَد اللهُ أَهْلَ الجنَّة إِخلاداً. وَقَوله تَعَالَى: {يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ} (الْهمزَة: ٣) أَي يَعْمَلُ عَمَلَ مَن لَا يَظُنُّ مَعَ يَسارِه أَنه يَمُوت. وَيُقَال للرّجلِ إِذا بَقِيَ سَوادُ رأْسِه ولِحْيتِه، على الكِبَرِ، إِنه لمُخْلِدٌ. وَيُقَال للرّجل، إِذا لم تَسقُط أَسنانُه من الهرَمِ: إِنه لمُخْلِدٌ. وَهُوَ مَجازٌ، وَقيل: هُوَ بِفَتْح اللّام، كأَن الله أَخْلَده عَلَيْهَا[٤].

ونفهم أيضًا من الخلود اللزوم، فإذا لزم الرجل صاحبه يقال: أخلد به إخلادًا، وكذلك أعصم به إعصاما[٥]. وأَخْلَدَ فلانٌ إِلَى كَذَا وَكَذَا _ أَي: رَكَن إِلَيْهِ ورضِيَ بِهِ. قَالَ الفَرّاء فِي قَوْله جلّ وعزّ: {وَلكنه أخلد إِلَى الأَرْض وَاتبع هَوَاهُ} [الأعراف: ١٧٦] أَي: رَكَنَ إِلَيْهَا وسَكَنَ. وَيُقَال: خَلَدَ إِلَى الأَرْض -بِغَيْر ألف- وَهِي قَليلَة. قَالَ اللَّيْث: الخلُودُ: البقاءُ فِي دارٍ لَا يُخرَجُ مِنْهَا، والفِعْلُ: خَلَدَ يَخْلُد. قَالَ: وأَهْلُ الجَنَّة خالِدُون مُخَلَّدُون آخِر الأَبَدِ، وأَخْلَدَ الله أهلَ الْجنَّة إخلاداً، والْخُلْدُ: اسمٌ من أَسماء الْجِنَان.. كما يأتي الخلود أو الإخلاد أحيانًا بمعنى السكون أو طول السكون، ففِي (نَوَادِر الْأَعْرَاب): يُقال: رأَيْتُهُ مُخْمِداً وَمُخْبِتاً وَمُخْلِداً_ إِذا رَأَيْتَه مُضْرِباً لَا يَتَحَرَّكُ[٦].

وأخلد إِلَى الأَرْض إخلادا إِذا ألصق بهَا نَفسه، هَكَذَا فسر أَبُو عُبَيْدَة قَوْله تبَارك وَتَعَالَى: {أخلد إِلَى الأَرْض} إِذا لصق بهَا. وَقد سمّت الْعَرَبُ خَالِدا وخويلدا ومخلدا وخليدا ويخلد وخلادا. وخلد يخلد خلودًا من دوَام الْبَقَاء لَا غير، وَالْخُلُود لَا يكون فِي الدُّنْيَا[٧].

---

[١]- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، منشورات دار الدعوة، (مادة: خلد)

[٢]- علي بن الحسن الهُنائي الأزدي، : المُنَجَّد في اللغة، عالم الكتب – القاهرة، ط ٢، ١٩٨٨م، ص ٧٨.

[٣]- رينهارت بيتر آن دُوزِي، : تكملة المعاجم العربية، وزارة الثقافة والإعلام - الجمهورية العراقية، ط ١، ١٩٧٩م، ج ٤، ص ١٦٣.

[٤]- محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية – الكويت، دون رقم طبعة ولا تاريخ، ج ٨، ص ٦٣.

[٥]- أنظر: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط ١، ٢٠٠١م، ج ٢، ص ٣٤.

[٦]- المرجع السابق، ج ٧، ص ص ١٢٤-١٢٧.

[٧]- أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، دار العلم للملايين – بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ج١، ص ص ٥٧٩-٥٨٠.

وقد ارتبط الخلود عند العرب بالبقاء في استخدامات كثيرة مختلفة، كإطلاقهم وصف (مخلد) على بعض الدواب، فالمخلد من الدواب عندهم هو ما تبقى ثناياه حتى تخرج رباعياتُهُ[١].

وخلَد ذِكْرُه: بقي على مرّ الزمن.. خلَّد التَّاريخُ اسمَه: أبقاه وأدامه، جعله خالدًا، كقولنا: خلَّدته مؤلفاته العلميَّة.. وقوله {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ}: باقون على ما هم عليه لا يشيبون... وخلَّد ذِكراه: داوم الاحتفال بها، أي جعل ذكراه قائمة بالأذهان. ويأتي الخلود بمعنى السكون والميل والاطمئنان، كقولنا: خلَد إلى الرَّاحة/ خلَد للرَّاحة: أي مال وسكن واطمأنّ إليها، ركن إليها "خلَد لـ/ إلى النوم: استلقى على فراشه للنوم.. وخلَد بالمكان/ خلَد في المكان: دام وبقي فيه، أو أطال الإقامة فيه، ومنه: "خلَد في السجن- خلَد في الناس بمآثره".. ومنه أيضًا قوله {ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} - {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ} - {وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا}. والخوالِد: الجبال. وأخلَدَ/ أَخلَدَ إلى/ أخلدَ بـ/ أخلدَ في يُخلد، إخلادًا، فهو مُخْلِد، والمفعول مُخْلَد (للمتعدِّي) وأخلد الشَّيءَ: أبقاه وأدامه {يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ}. وأخلد إلى الأرض/ أخلد إلى الرَّاحة: خلد إليها، اطمأن وسكن إليها، وركَن إليها... أخلد إلى الهدوء/ النوم- {وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}. وأخلد بالمكان/ أخلد في المكان: أي لزمه مستقِرًّا فيه، أقام به.. وكذلك أخلد بصاحبه: لزِمه. وتخلَّدَ في يتخلَّد، تخلُّدًا، فهو مُتخلِّد، والمفعول مُتَخَلَّد فيه.. تخلَّد في آثاره: مُطاوع خلَّدَ: دام ذكرُه على مرّ الدُّهور... وخلَّده بالمكان/ خلَّده في المكان: أقامه فيه وأبقاه، ومنه "وعد الله المؤمنين بأن يخلِّدهم في الجنة". ودار الخُلْد عند المسلمين: الجنّة أو النّار[٢].

ونختم بأن علماء العربية فرَّقوا بين الخلود والبقاء من ناحية، وبين الخلود والدوام من ناحية ثانية، على النحو التالي على سبيل المثال:

١- الفرق بين الخلود والبقاء: أن الخلود استمرار البقاء من وقت مبتدأ، والبقاء يكون وقتين فصاعدًا، وأصلُ الخلود اللزوم ومنه أخلد إلى الأرض، وأخلد إلى قول فلان، أي لزم معنى ما أتى به، فالخلود هو (اللزوم المستمر) ولهذا يُستعمل في الصخور وما يجري مجراه ومنه قول لبيد: *حمر خوالد ما يبين كلامها* وقال علي بن عيسى: الخلود مضمر بمعنى في كذا، ولهذا يقال خلّده في الحبس وفي الديوان، ومن أجله قيل للأثافي خوالد، فإذا زالتْ لم تكن خوالد، ويقال لله تعالى (دائم الوجود) ولا يقال خالد الوجود[٣].

٢- الفرق بين الخلود والدوام: قيل: الفرق بينهما أن الخلود يقتضي طول المكث، في قولك فلان في الحبس، ولا يقتضي ذلك دوامه فيه، ولذلك وصف سبحانه بالدوام دون الخلود، إلا أن خلود الكفار في النار المراد به التأبيد بلا خلاف بين الأمة[٤].

هذا ما يتعلق بالخلود في اللغة العربية.

---

[١]- أنظر: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، مجمل اللغة لابن فارس، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ج١، ص ٢٩٩.

[٢]- د. أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة ،عالم الكتب – القاهرة، ط ١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، ج ١، ص ص ٦٧٦-٦٧٧.

[٣]- : أبو هلال الحسن العسكري، معجم الفروق اللغوية، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، ط١، ١٤١٢هـ، ص ٢٢٦.

[٤]- أبو هلال العسكري، المرجع السابق، ص ٢٤٠.

أما في اللغة الإنجليزية، فنجد أن كلمة **(خلود)** العربية، تقابلها كلمتان متكررتان في كثير من المراجع، وهما: ١- كلمة: **(eternity).** ٢- كلمة: **(Immortality)**. ويبدو أنهما كلمتان مترادفتان أو متقاربتان.

حيث جاء في قاموس أكسفورد **(Oxford Dictionary)** ما يلي حول الكلمتين:

١- معنى كلمة **(eternity)** :

infinitive or endless time. a period of time that seems very long, especially on account of being tedious or annoying. a ring given as symbol of lasting affection. e.g. their love was sealed for all eternity. the ability to live forever - eternal life.

٢- معنى كلمة **(Immortality)** :

the ability of deserving to be remembered for a long time. very especial and famous and therefore likely to be remembered for a long time.

أمّا قاموس كمبردج **(Cambridge Dictionary)** فنجد فيه ما يلي:

١- معنى كلمة **(eternity)** :

time that never ends ,or has no limits. e.g. – The movies went on for what seemed like an eternity.

٢- معنى كلمة **(immortal)** :

someone who is so famous that they are remembered for a long time after they are dead. (immortalize) v. means to make someone or something so famous that that person or thing is remembered for a very long time. **(mortal)** Adj. , of living things ,especially people ,unable to continue life forever ,having to die. e.g. : men engaged in mortal combat fighting till one of them dies. The dictionary states a figurative meaning : New computing technology dealt a mortal blow to printing companies.

أمّا معجم **(Merriam Webster Dictionary)** فنجد فيه الآتي:

١- معنى كلمة **(eternity)** :

as time without an end **,** a state that comes after death and never comes to an end. Or time that seems endless.

٢- معنى كلمة **(Immortality)** :

which is a synonym as a quality or state of someone or something that will never die or be forgotten , the quality or state of being immortal , the un ending existence.

The word **mortality** is the opposite : the quality or state of being a person or living thing and certain to die. The word also means the number of deaths that occur in a particular time or place.

Eternal Adj. : having no beginning or end in time , lasting forever, continued without intermission.

ونختم بمعجم كولينز الإنجليزي **(Collins English Dictionary)** حيث نجد فيه ما يلي حول الكلمتين:

١- معنى كلمة **(eternity)** :

Not subject to death. The condition of being **eternal**. The condition of timeless existence believed by some to characterize the after life.

٢- معنى كلمة **(Immortality)** :

not subject to death or decay. Having everlasting fame, and remembered throughout time. The opposite word **mortal**: subject to death. causing death. great or very intense , such as **"mortal pain"**.

وإذا تأملنا الشروحات الواردة في المعاجم الإنجليزية الأربعة حول معاني كلمة **(eternity).** وكلمة **(Immortality)**، المقابلتين لكلمة **(خلود)** في اللغة العربية، فسنجد أن في المعاني والشروحات الإنجليزية قدرًا من التشابه والتقارب والانسجام مع التفسيرات والمعاني الواردة في معاجم اللغة العربية السالفة الذكر.

فرأينا أن **(قاموس أكسفورد)** يورد في معاني كلمة (eternity) أنها تعني الخلود والبقاء غير المحدود بالزمن، وأنها تعني الوقت الطويل اللانهائي خاصة إذا كان وقتاً مملا أو مزعجًا. وتعني أيضًا الحياة الأبدية في المفهوم الديني. كما تعني كذلك الخاتم الذي يهدى كرمز للحب الخالد. وتطلق أيضًا على حالة الشخص العظيم الذي لا تُنسى سيرته على مر الأيام والدهور.

وكذلك الحال في **(قاموس كمبردج)** حيث يشرح كلمة eternity بالخلود أو الزمن غير المحدود أي الزمن السرمدي، ويشرح كلمة immortality المرادفة لها في المعنى بأنها تعني الخلود والديمومة والاستمرار. وينتقل إلى الصفة immortal أي (خالد لا يفنى) أو لا ينسى ذكره وتطلق للشخص الذي يظل ذكره بعد الموت. وكذلك تطلق على الأشياء التي تبقى مع الزمن. وتستخدم الصفة أيضا بمعنى (قاتل) مثال: انخرط الرجال في صراع مميت. ويورد القاموس أيضًا استخداماً

مجازياً لكلمة mortal في جملة: (إن تقنيات الحاسوب قد وجهت ضربة قاضية لشركات الطباعة.) أي مميتة حسب فهمي.

ويفسّر معجم **(ميريام وبستر)** كلمة eternity بأنها الزمن اللانهائي أو الزمن السرمدي أي الخلود. ويورد من معانيها (حالة ما بعد الموت السرمدية) التي لا حدود لها. أو أنها تعني الوجود المتصل وكذلك الشهرة الخالدة. وهي الزمن الذي لا بداية له ولا نهاية، أو المتواصل دون انقطاع. ويشرح الصفة eternal أي (خالد – دائم). وعكس الكلمة هي كلمة mortality التي تعني الفناء أو الموت الجماعي، ومنها الصفة mortal أي بمعنى المعرّض للزوال، وأن كلَّ الأحياء إلى فناء وزوال. وتعني الكلمة أيضًا معدّل الوفيات في زمان أو مكان ما.

أما القاموس الرابع الأخير (**معجم كولينز)** فرأينا أنه يعرّف كلمة eternity بأنها حالة عدم الخضوع للموت. وهي الزمن السرمدي اللانهائي والوجود الدائم. وهي الحياة الدائمة التي يعتقد فيها المؤمنون في الآخرة. كما يعرّف كلمة immortal المرادفة بأنها عدم التعرّض للفناء، وهي أيضًا تعني الشخص أو الشيء الذي يدوم ذكره طويلاً بعد مماته. أما كلمة mortal المعاكسة في المعنى، فيعرّفها بالحي المعرض للموت والفناء. وتعني أيضًا الشيء المسبب للموت. ويستخدمها مجازاً في الألم الشديد (الألم المميت)[١].

---

[١]- استعنتُ في فهم الكلام المنقول نصيًا من المعاجم الإنجليزية بوسيلتين، الأولى هي وسائل الترجمة الإلكترونية، والثانية وهي الأهم: مناقشة النصوص المنقولة مع بعض الأصدقاء الضليعين في الإنجليزية، وخصوصًا الصديق محمد العبادي الذي أفادني كثيرًا فشكرًا له.

ب- الخلود في الاصطلاح الفلسفي، والنظرة الدينية للخلود.

إن مسألة استمرار الحياة بعد الموت من عدمها من المشكلات القديمة التي تعجز قدرة العلم عن حلّها، ولذلك لا يمكن العمل على حل أمثال هذه المشكلات إلا بطريقتين لا ثالثة لهما كما يقول فيلسوف جامعة هارفرد "وليم ارنست هوكنج"، الأولى هي طريقة الإيمان الروحي، والثانية هي طريقة التأمل الفلسفي العقلي، فالحل لا يمكن أن يكون عن طريق أي شيء يمكن إثباته، أو حتى تتضمنه الحقائق العلمية المؤكدة، الخاصة بعلم النفس أو علم الطبيعة أو غيرهما من العلوم. أما فيما يتعلق بالتأمل الفلسفي نفسه، فإن الفلسفة لا تستطيع أن تفسر المشكلة التي يقابلها الدين بالإيمان.

ولذلك فالفكر الإنساني لم يتوقف طيلة عصوره عن تصور ووضع (مذاهب إيمانية) تعينه على تحمّل الموت عن طريق التوجه إلى موطن الخيال، فالمسألة المهمة ليست في معرفة الأسس التي تقوم عليها هذه المذاهب الإيمانية، بقدر ما هي في فهم الأسباب التي تدفع بالإنسان إلى تبنيها واعتناقها. فالإيمان القوي بـ (خلود الإنسان) يسمح له بالخلاص من كثير من أشكال وأنواع القلق.

والمهم الآن هو أن بعض معاجم الفلسفة العربية تستند في تعريف الخلود immortality على المعنى اللغوي العربي، وقد ظهر لنا في المبحث السابق أن معناه الدوام والبقاء، يقال (خلَد في النعيم) و(خَلَد في السجن) أي دام وبقي، "ويراد به في الفلسفة والدين: عدم الفناء بعد الموت، ودار الخلود في كثير من الأديان: الجنة، وخلود النفس: بقاؤها بعد الموت بقاءً غير محدود محتفظة بصفات الذات الفردية"[١]. ويعرف آخرون خلود النفس بأنه: "بقاء النفس بعد فناء الجسد متعلقة ومريدة ومدركة ذاتها بذاتها"[٢].

وخلود الروح أو النفس مبدأ أساسي مقرر في الأديان، والقول بخلود النفس الفردية: مذهب المؤمنين بالدين السماوي، ومذهب الفلاسفة الروحانيين، إلا أن بعض الفلاسفة العقليين ذهب إلى أن الخلود كلي لا فردي، ومعنى ذلك أنه لا بقاء بعد الموت إلا للجوهر العاقل، وهو واحد وكلي، أما النفس الفردية، فإنها إذا فارقت البدن، انضمت إلى هذا الجوهر الكلي واتحدت به، وقريب من ذ لك أيضاً مذهب القائلين بأن البقاء للإنسانية لا للأفراد، ومنهم أوغوست كونت[٣].

ومما قيل عن الخلود في الاصطلاح الفلسفي: "خُلُود النفس: أ- بقاؤها بعد فناء البدن مع الاحتفاظ بخصائصها ومميزاتها الفردية. ب- نظرية قال بها أفلاطون بين اليونان وقررتها المسيحية والإسلام، وعدّها بعض المحدثين من مسلمات العقل العلمي"[٤].

فهو، أي الخلود "مصطلح يدل على الحياة في الشكل الروحاني أو الفيزيائي لمدة زمنية غير محدودة، أي شكل من أشكال الحياة دون نهاية أو موت سواء كانت تلك الحياة فيزيائية بشرية أو غير بشرية أو روحانية تعتبر نوعا من الخلود. وتؤمن بعض المدارس الفلسفية تدعى "الخلودية" بالقدرة

---

[١]- جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٨٢م، ج١، ص ٥٤٤.

[٢]- د. مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة – القاهرة، ط ٣، ١٩٧٩م، ص ١٨٩.

[٣]- جميل صليبا، المرجع السابق، نفس الصفحة، بتصرّف يسير مني.

[٤]- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الفلسفي، نشرته الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية – القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٨١.

للوصول إلى إنسان خالد لا يموت. في حين ترفض معظم الأديان هذه الفكرة وتعتبر الإله أو الكون هو الخالد الوحيد"[١].

والخلود هو البقاء الدائم الذي لا يأتيه فساد ولا يعتريه فناء، أو هو الدوام والبقاء، وكل ما يتباطأ عنه التغيّر والفساد.. والخلود معناه أنه توجد حياة بعد هذه الحياة، وأنها تتميز عن هذه الحياة بأنها دار البقاء، والدنيا دار الفناء.. ويذهب القائلون بالخلود إلى البرهنة عليه برغبة الإنسان في الخلود، التي تفصح عن حنين متأصل فيه إلى حياة كانت له قبل هذه الحياة، في دار أبقى من هذه الدار.. ويسخف خصومهم الفكرة بدعاوى من العلم والتجربة، تشترط وجود العقل بوجود البدن، واستمرار البدن باستمرار العقل، ومن ثم يكون من المعقول أن يتوقف استمرار الحياة العقلية على استمرار الحياة البدنية. وكان ديكارت يقول إن العقل هو جوهر الإنسان، وأن الإنسان بما أنه مفكر، فإنه متميز عن جسده، وحتى لو لم يوجد كجسد، فإنه كجوهر، مفكرٌ لن يتوقف عن التفكير، وأطلق على العقل بهذه الصفة اسم الروح؛ ولكنه لم يشرط الروح بوجودها في بدن.. وقال القائلون بالخلود إن الخلود قد يكون بالروح وحدها؛ لأنها جوهر الإنسان وحقيقته، بينما يبلى الجسد ويفنى.. وذهب بعضهم إلى أن الخلود يكون بالروح والجسد معًا، لأن الجسد هو الصورة الإنسية، ومن ثم يكون بعث الإنسان ومقامه بالروح والجسد معًا كما في الدنيا.. والأول يسمّى مذهب خلود الروح، والثاني يسمّى مذهب المعاد. ومذهب الخلود بالروح يقول أصحابه إن الإنسان مخلوق مركب من عنصرين، مادي يموت ويفنى وهو الجسد، ولا مادي لا يموت ولا يفنى وهو الروح، وأن الروح توجد في الجسد فيما يشبه التقمص أو الحلول، ومع أن الروح لا مادية، إلا أنها جوهر له كيانه، وكل شخص بما هو كذلك ليس جسمًا، ولكنه الروح التي هي حقيقته وجوهره، وهي العنصر الخالد فيه[٢].

ومعنى الخلود والأزلية والأبدية عند البعض: أ- ديمومة لا محدودة، وهذا هو المعنى القديم، ولكنه – في نظرهم- الأقل تداولا في الفلسفة. ب- سمة ما يقع خارج الزمان. فثمة تصوّران للخلود، تصوّر زمني وتصوّر لازمني، والثاني مرتّبٌ وجوبًا على الأول؛ لأنه فكرة ديمومة منعتقة من كل السمات الخاصة بالديمومة[٣]. والخلود:١- ديمومة لا محدودة طرفاها افتراضيان، الأزلية والأبدية. ٢- الخلود هو كل ما يقع خارج الزمن[٤].

وبعد إيراد كل ما سبق، لابد من التأكيد على ضرورة فهم الفرق بين الخلودين الفيزيقي والميتافيزيقي قبل الاسترسال في صفحات البحث، فكل خلود فيزيقي يؤدي إلى خلود ميتافيزيقي أيضًا بالضرورة، فلا أعتقد أن أحدًا بإمكانه تصور خلود الجسد دون الروح، فهذا يستحيل عقليًا، فالجسد بلا روح ليس إلا كتلة هامدة من اللحم والعظم. فالطفل في بطن أمه يبدأ بالتكوّن ولكنه لا يتحرك ولا تدب الحياة فيه إلا بعد أن تحل الروح فيه إن صح تعبيري.

والعكس غير صحيح بالتأكيد أيضًا في نظري، فالخلود الروحي الميتافيزيقي، لا يستلزم الخلود الفيزيقي المادي، أي لا يستلزم خلود الجسد مع الروح، رغم أنه يحتمل ذلك. ومن هنا قالت كثير من

---

[١]- مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع - الأردن، ٢٠٠٩م، ص ٢١٤.

[٢]- د. عبدالمنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٠م، ص ٣٣٦.

[٣]- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات - بيروت – باريس، ط١، ١٩٩٦م، ص ٣٧٠.

[٤]- د. خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات الفلسفية، دار الفكر اللبناني – بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص ٧٣.

العقائد والفلسفات الدينية بخلود الروح وحدها؛ وقالت أديان وفلسفات أخرى بخلود الجسد وروحه معًا.. أما كون الجسد يخلد وحده فلم يقل به أحد من المؤمنين بوجود الروح فيه –على حد علمي- لاستحالة ذلك. وبذلك نصل إلى أن الخلود خلودان: خلود فيزيقي مادي، وهو خلود الجسد وفيه الروح. وخلود ميتافيزيقي مجرد، وهو خلود الروح وحدها بعد انفصالها عن الجسد. ولكننا قبل كل هذا يجب أن نتساءل: هل كل الأديان والمذاهب الفلسفية تؤمن بوجود الروح أصلاً؟!

والإجابة هي "لا"، فالروح خفية متوارية تختلف عن الجسد الظاهر المحسوس المدرك، ولذلك اختلفوا في وجودها، ومن هنا قد تظهر إشكالية، هي أن في هذه الفقرة ما قد يفهم منه مناقضتها لما سبق، فإذا كان هناك من ينكر وجود الروح أصلا، فمن المنطقي احتمالية وجود من يؤمن بإمكانية خلود الجسد وحده. والحقيقة أن هذه النقطة شائكة ونادرة؛ ولكن ما أريد قوله أن الفلاسفة تناولوا النفس البشرية بإسهاب لا حدود له: سألوا واختلفوا في الإجابة عن أسئلة شائكة معقدة من قبيل: الإنسان نفس وبدن، يجوع فيأكل ويشرب، وينام فيحلم، ويفرح ويضحك، ويبكي ويتألم، ويخرج فضلاته- أكرمكم الله- ويتحرّك؛ فما هي العلاقة بين النفس والبدن؟ وهل البدن غير النفس، أم أنهما كلٌّ واحد يظهر من زاويتين؟! وهل الروح هي النفس أم أن هناك فرق؟ وينقسمون في مسألة الوجود الحقيقي للنفس، وصورة هذا الوجود وماهيّته، وتتفرع عن انقسامهم هذا وتتقاطع وتتداخل معه انقسامات وجدليات أخرى طويلة. والخلاصة هي أن الذي ينكر وجود الروح أو النفس، لابد أنه يؤمن بوجودها بشكل آخر مخالف للمألوف، ومن ذلك مثلا أن البعض يعتقد أنها **(مجرد قوة عضوية)** أو وظيفة بدنية يؤديها المخ المنظم عندنا أكثر من تنظيمه عند بقية الحيوانات.

وبالتالي فالنوادر الذين يقتنعون بهذا التصوّر الغريب، لا إشكالية معهم أيضًا، فهم إمّا أن يؤمنوا بخلود أو إمكانية خلود الجسد ومعه هذه الجزء (القوة العضوية) أو العضو المؤدي لهذه الوظيفة البدنية.. وإمّا أنهم ينكرون خلود أو إمكانية خلود الجسد بكل أجزائه، ومنها هذا العضو وقوته التي يسميه غيرهم (الروح).

وعلى العموم فأبرز الذين ينكرون مسألة الخلود على قسمين: ١- أشياع وحدة الوجود القائلون بعودة النفس إلى (الكل المطلق) وفقدانها الشعور بذاتها فيه.٢- الماديون المنكرون للروح إطلاقًا أو الحسيون أو الواقعيون أو التجريبيون إن سميناهم من جهة المعرفة، المنكرون لما يعلو على التجربة أو إدراك الحس أو إدراك الواقع؛ أو الظاهريون إن سميناهم من جهة المعرفة كذلك، المنكرون للجوهر مادة أو روحا[١].

وبعد أن انتهينا من استعراض أبرز ما ذكرته المعاجم والموسوعات الفلسفية عن الخلود، يحسن بنا أن نستعرض بعض آراء كبار الفلاسفة في الخلود، قبل أن نختم بالتعريج على نظرة الأديان؛ بالإضافة إلى بعض الكلام المختصر عن الخلود من الناحية النفسية.

<u>وللاطلاع على كل ذلك، ولمزيد من التفاصيل الضرورية حول بقية هذا المبحث: أنظر الملحق رقم (١) في نهاية الرسالة.</u>

[١]- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص ١٨٩.

الفصل الثاني:

الخلود في الزرادشتية والفلسفة الفارسية القديمة:

المبحث الأول:

لمحة عامة عن فلسفات بلاد فارس القديمة.

بَادِئَ ذِي بَدْءٍ يحسن بنا أن نشير إلى ما اتفق عليه الكثيرون، وهو أن الزرادشتية هي الفلسفة أو الديانة الأبرز في بلاد فارس القديمة، وأنها جاءت امتدادًا لما كان سائدًا قبلها، وأن ما بعدها أيضًا جاء كامتداد لها.

بمعنى أن الزرادشتية شديدة الارتباط بديانة الميديين والفرس السابقين لزرادشت من جهة، رغم أن زرادشت -مع تبنيه لكثير مما كان سائدًا قبله- خالف السابقين له في كثير من المعتقدات، فحرَّم ومنع الكثير من السلوكيات والطقوس والممارسات المختلفة السابقة له.

ومن جهة ثانية، ارتبط ما جاء بعد الزرادشتية بها أيضًا بقوة، وأبرز تلك الفلسفات التالية لها هي المانوية والمزدكية. وبالتالي فإننا عندما نقول: (الفلسفة الدينية الفارسية القديمة)، فإننا نعني بها الزرادشتية والديانة السابقة لها من ناحية، والفلسفات الدينية اللاحقة المرتبطة بها من ناحية ثانية.

فأما ديانة الميديين والفرس السابقة لزرادشت، فالمعروف هو أن الدولة الفارسية ولدتْ من رحم دولة الميديين، الذين كان لهم شأن أيما شأن في تحطيم دولة أشور[١]، فقد "أقام الميديون دولة قوية ازدهرتْ في القرن السابع قبل الميلاد، وقضوا على الدولة الأشورية. وقامت الدولة الفارسية على إثر الدولة الميدية، وكانت على علاقة قربى مع الميديين واتسعت الإمبراطورية الفارسية في القرن السادس قبل الميلاد، وضمت إضافة لبلاد فارس، بلاد آشور وبابل وليديا وآسيا الصغرى، ومناطق أخرى مجاورة، وكانت الدولة الفارسية مركزية بإدارتها وقوانينها، ثم جعل دارا الأول الزرادشتية ديناً رسمياً للدولة وغدا كهنتها يشكلون الطبقة الأكثر نفوذاً"[٢].

فأصبحت تعاليم زرادشت المصدر الروحي للفرس، منذ عهد هذا الملك، أي دارا الأول، الذي أعطى رجال الزرادشتية القوة، فزاد واستمر تأثيرهم في الناس، إلى درجة أن أصبح ملوك الفرس لا يقدمون على شيء إلا بعد استشارتهم[٣].

وبالرجوع إلى الأصول الأولى، نجد أن الكثيرين يتفقون على أن أفواجًا من الآريين أو الشعوب التي تعرف بالهندوأوروبية، بدأت تغزو إيران في الألف الثاني قبل الميلاد، وغالبًا في أواخره، وقد قدم هؤلاء من الشمال والشمال الشرقي من بلادهم الأصلية، التي كانت على الأرجح تمتد من المنطقة

---

[١]- أنظر: وِل ديورَانت، قصة الحضارة، دار الجيل - بيروت، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – تونس، ١٩٨٨ م، مج ١، ج ٢، ص ٣٩٩.

[٢]- حسين العودات، الموت في الديانات الشرقية، الأهالي للطباعة والنشر – دمشق، ط٢، ١٩٩٢م، ص ٥٩ .

[٣]- أنظر: محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية – بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ص ٢٨٢.

الواقعة بين نهري الدانوب والأورال، في جنوب روسيا، واختلطوا مع الشعوب التي كانت موجودة في المنطقة، والتي سبقتهم إليها، فشكلوا شعبين شقيقين هما الميديون والفرس[١].

وما زالت الرؤية حول ديانة الميديين والفرس السابقة لزرادشت مشوشة وشديدة التعقيد والتداخل والغموض، ولكن "ورغم أن الغموض يكتف ديانة الميديين والفرس قبل زرادشت ، ولم تتشكل صورة متكاملة لدى الباحثين عن المعتقدات والآلهة القديمة التي سادت في المناطق التي انبثقت وانتشرت فيها الزرادشتية، إلا أن المعطيات التاريخية الضئيلة تظهر لنا العلاقة الوثيقة بين الزرادشتية والمعتقدات السابقة عليها"[٢].

وبالمجمل فإن معتقدات الميديين والفرس قبل زرادشت كانت تدور حول نقاط رئيسية، أبرزها تأليه العناصر الطبيعية، وعبادة قوى الطبيعة والحيوانات والأسلاف والأجداد، فعبدوا إله الشمس الذي ينضج محاصيلهم وسموّه (ميترا)، وعبدوا إلهة الخصب والأرض وسموها (أنيتا)، بالإضافة إلى إله المطر، وإله الريح، وإله السحاب، وغيرها من الآلهة الكثيرة.. كما عبدوا الثور المسمّى (هوما) الذي مات ثم بُعث حيًا ووهب الجنس البشري دمه شرابًا ليسبغ عليه نعمة الخلود[٣]. وهذا ما يؤكده المؤرخ هيرودوت بقوله: "إن الفرس كانوا يعبدون الشمس والقمر والنجوم والماء والأرض منذ زمن بعيد"[٤].

ومما يحسب لكثير من السلطات الفارسية القديمة سماحها للشعوب المختلفة المحكومة بالمحافظة على عقائدها الدينية، ورغم ميل بعض الناس إلى الأدب والعلوم والفلسفة، إلا أنهم في الجملة لم يهتموا بالعلوم عامة، التي ظل يعمل بها أبناء الشعوب الأخرى. ورغم أنهم كانوا مولعين ببعض أنواع الشعر والأساطير، إلا أنهم لم ينشئوا أدبًا يمكن أن يطلق عليه ذلك الاسم، ولم يتركوا من المخلفات الأدبية إلا الكتب الدينية وبعض رسائل الملوك والوثائق القانونية وما شابه[٥].

والحقيقة المهمة التي لابد من تسليط الضوء عليها بقوة، هي أن ديانة الفرس القدماء قبل زرادشت، تأثرتْ بوضوح بكثير من أديان الهند، فقد "تأثر الإيرانيون بالمعتقدات الهندية القديمة، لاتصالهم بالهنود، فلقد انحدرتْ قبائل إيرانية قديمة من أخرى هندية، وكان ذلك تقريبًا في الألف الثاني قبل الميلاد، حيث هاجر (الآريون) من الشمال زاحفين في طريقين أحدهما إلى شمال غرب الهند وإلى غرب آسيا، لكن فريقاً ثالثاً استوطن بعد ذلك إيران - وهو الاسم الذي اشتق منهم. وكشفت ديانات الهند وإيران معاً من خلال كتبهم المقدسة (الفيدا - الأفستا) عن عدد من الخصائص المتشابهة، فالإله (مترا) على سبيل المثال يظهر في كليهما، كما أنهم يتصورون نظام الكون بطريقة متشابهة، بالإضافة إلى أن هناك تشابهاً واضحاً في كثير من طقوسهم الدينية"[٦].

---

[١]- د. نعيم فرح، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار الفكر، ١٩٧٢م، ص ٨٣.

[٢]- نوري إسماعيل، الديانة الزرادشتية، دار علاء الدين – دمشق، ط٢، ١٩٩٧م، ص ٢٨.

[٣]- أنظر: سليمان مظهر، قصة الديانات، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط٤، ١٩٩٥م، ص ٢٨٠.

[٤]- أنظر: نوري إسماعيل، الديانة الزرادشتية، مرجع سابق، ص ٢٩.

[٥]- نعيم فرح، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٩٢.

[٦]- د. هنية مفتاح القماطي، الفكر الديني القديم – دراسة في نشأة المعتقدات، منشورات جامعة قاريونس – بنغازي، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٠٥.

ليس هذا فحسب، فبجانب تأثر قدماء الفرس بالديانات الهندية وخاصة الهندوسية في العصور الفيدية، نجد هناك تأثرات أخرى، حيث ساهمت الطقوس والأساطير البابلية والأكادية والآشورية والميتانية في تكوين الزرادشتية وما مهد لها من مقدمات وإرهاصات دينية وفلسفية.

حيث نجد أن الكثير من الآلهة التي دُمجت ضمن منظومة الفلسفة الدينية الفارسية عامة والزرادشتية خاصة هي آلهة سادت لدى أكثر شعوب المنطقة ولاسيما لدى الميتانيين. وغير خافٍ أن الميتانيين كانوا يقدسون آلهة قدماء الآريين تقديسًا كبيرًا مثل "ايندرا" و "أروانا" و"آسوين" حيث كانوا يضعونها في مراتب آلهتهم القومية. بالإضافة إلى أن أكثر القصص والمفاهيم الدينية الزرادشتية مستمدة من معتقدات شعوب المنطقة مثل قصة الخلق، والطوفان البابلي وصراعات الآلهة والتنين رمز الموت والجدب. وتأثرت الإضافات اللاحقة التي جرى إضافتها إلى الزرادشتية بالأديان السماوية السائدة بالمنطقة. وكذلك فقد اتسمتْ الزرادشتية بصبغة محلية حسب المنطقة التي تعتنقها، فقد أظهرتْ الحفريات الأثرية وجود آلهة محلية قديمة إلى جانب قائمة المعبودات الزرادشتية[١].

وأيضًا قبل زرادشت، كان السحر مسيطرًا، بالإضافة إلى تعدد الآلهة وعبادة الأصنام، كما كان الكهنة يتحكمون في شؤون البشر بوصفهم وسطاء بين الناس والآلهة.

وتختلف المراجع في شرح ووصف تلك الحالة المتفق عليها عند الكثيرين، ومن أوجز وأشمل ذلك أن الفرس القدماء بجانب عبادتهم للرياح والعواصف والنار والنجوم والكواكب وما شابه، فقد كانوا أيضًا يعبدون الهوما (الثور المقدس) وأولوا عنصري النار والنور اهتمامًا خاصًا، فكانوا يقدّمون القرابين إلى النار ويصلّون إليها، ومع تعدد الآلهة في إيران القديمة ظهرت التماثيل والأصنام التي تم نحتها من الطين والخشب، وأحياناً من الذهب والفضة، وعندما فعل الإيرانيون ذلك اكتفوا بالتجمع لتقديم القرابين والصلاة لتلك الأوثان في المعابد، ولم يعودوا يذهبون إلى الجبال لعبادة آلهتهم، ومع مرور الوقت زادت الصلوات والتراتيل التي تقدّم للآلهة المتعددة، ولم يستطع الناس حفظها، ومن ثم ظهر الكهنة الذين يقومون بحفظ هذه الصلوات والطقوس والتراتيل، وبالتالي فإن هؤلاء الكهنة كانوا بمثابة وسطاء -قبل ظهور زرادشت- بين البشر والآلهة، حيث تحكموا في البشر بإيهامهم بأنهم أفضل من كل البشر، وأنهم مقربون من الآلهة نتيجة وجودهم في المعابد صحبة الآلهة، فالآلهة تفعل كل ما يريده الكهنة، وصدّق الإيرانيون الكهنة، وأصبح الكهنة سحرة، فانتشر الإيمان بالسحر في كل بلاد إيران القديمة[٢].

وكنتيجة لتأثر هذه الفلسفة الدينية القديمة بالهندوسية، نجد لديهم مثلا أن من أفضل الفضائل (الطهر والأمانة) لأنهما يوصلان إلى الحياة الخالدة، وأن على الإنسان عندهم واجبات ثلاث: أن يجعل العدو صديقاً والخبيث طيبًا والجاهل عالمًا[٣].

لقد كان قدماء الفرس مؤمنين جدًا بكثير من الأفكار العجيبة والأساطير والخوارق والماورائيات والمعتقدات المؤثرة في فكرهم وفلسفتهم، كإيمانهم –مثلا- بأن الإله (أهورا مزدا) شرّع الاحتفالات المتمثلة في أعيادهم الدينية، التي أقامها لهم تخليدًا لذكرى مراحل خلق الكون، فقد استغرق هذا الخلق -حسب معتقداتهم- سنة كاملة، ثم استراح لمدة خمسة أيام أقام فيها هذه الأعياد المازدية. كما أنهم

---

[١]- نوري إسماعيل، الديانة الزرادشتية، مرجع سابق، ص ٢٩.

[٢]- د. هنية مفتاح القماطي، الفكر الديني القديم، مرجع سابق، ص١٠٦.

[٣]- حسين العودات، الموت في الديانات الشرقية، مرجع سابق، ص ٦١.

كانوا يؤمنون بأن الإله أهورا مزدا خلق الإنسان الأول المسمّى (كاجومارد cajmard) في مركز العالم، وخلق البقرة الأولى (إيفاكولات evagolath)[١].

وهناك أسطورة فارسية قديمة تقول: إن الإنسان الأول الذي قتله أهريمن، أنجب ذكرًا وأنثى (وهما "ماشيا" و"ماشياناج") اللذين عاشا خمسين سنة مستغنين عن الطعام والشراب، ينعمان بحياتهما دون متاعب، حتى ظهر لهما "أهريمن" في صورة شيخ هرم، فأتى على شجرة وأكل من ثمارها فعاد شابًا، وعندما اتبعه وقلّده الزوج البشري الأول بالأكل من ثمار نفس الشجرة، وقعا في البلايا والشرور[٢].

ويؤمنون أيضًا بقدسية "يوم النيروز" الذي يرشون فيه الماء، اعتقادا منهم أن الله يرسل للسماء أوامره المتعلقة بالمطر، وغير المطر، وهو يوم يقيم الله في الأموات ويرد إليهم أرواحهم.. كما سادتْ لديهم أيضا مظاهر عبادة الأرواح، كنتيجة لتأثرهم بفكر بلاد النهرين وسورية القديمة، الذي دخل إلى بلاد فارس، فقد ساد بين الفرس قبل زرادشت الاعتقاد بوجود الأرواح الشريرة، وعلى رأسها إله الشر والظلام (أهريمن) والصراع المستمر[٣]. والخلاصة أنهم ينظرون إلى يوم النيروز بوصفه عيدًا (العام الجديد الفارسي) وذلك إحياءً لذكرى اليوم الذي حدث فيه خلق العالم، ففي يوم النيروز يتم تجديد الخلق[٤].

مع ضرورة الانتباه إلى التغيّرات الفكريّة والعقائديّة التي طرأتْ على الديانة الفارسية القديمة في مراحلها المتأخرة أو اللاحقة، حيث انتقلت عقائدهم من التأكيد على المظاهر المادية إلى التأكيد على المظاهر الروحية، فحل إله النور (أهورا مزدا) في المرتبة الأولى، بدلا من (مترا) إلهة الشمس التي كان لها التقديس الأول في الأزمنة الأولى السابقة، ومن ذلك أيضًا أن طقوس عبادتهم تغيرت، وأصبحت تميل إلى البساطة والتجرد الروحاني، فلم يعد لديهم اهتمام كبير ببناء المعابد والهياكل والأصنام، بل كان يكفي أن يجتمعوا في العراء عند مذبح حجري، يوقد فيه كهنتهم النار، ثم ينصرف المتعبدون للصلاة، وهم يشربون مشروبًا مسكرًا يُسمّى (الهوما) يغيبهم في نشوات مقدسة[٥].

هذا ما يتعلق بأبرز معتقدات وأفكار الميديين والفرس القدماء قبل ظهور زرادشت وإبّان ذلك الظهور.. وبتأمل كل ما سبق وربطه بما نجده في "الزرادشتية" سيثبت لنا بوضوح أن ما جاء به زرادشت لم يكن أكثر من امتداد طبيعي لما كان سائدًا قبله، من الشعائر والممارسات والعبادات والنظم والتصورات الدينية المختلفة في بلاد فارس.

فمع أن زرادشت أدان معظم الموروثات الفارسية السابقة له، إلا أنه ارتبط ببعض أفكار ذلك التراث، حيث لم يتحرر منها بشكل كامل، "فهو بوصفه كاهنا وضع عددًا من ترنيماته في الشكل التقليدي المأثور، فرأى أن طقوس النار القديمة -مثلا- هي رمز النور والقانون الكوني لله، فاستخدمها في

---

[١]- محمد سليمان حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، دار علاء الدين – دمشق، ١٩٩٩م، ص ١٥. وأنظر أيضًا: كارم محمود عزيز، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، مكتبة النافذة -الجيزة، ط١، ٢٠٠٦م، ص ٧٢.

[٢]- د. كارم محمود عزيز، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، مكتبة النافذة - الجيزة، ط١، ٢٠٠٦م، ص ١٥٦.

[٣]- المرجع السابق، محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، ص ١٦.

[٤]- حسن نعمة، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني - بيروت، ١٩٩٤م، ص ٧٨.

[٥]- محمد سليمان حسن، تيارات الفلسفة الشرقية مرجع سابق، ص ١٦، بتصرّف يسير.

صلواته، كما أن بعض صفات الإله-على أقل تقدير-هي تعديلات للأفكار الآرية القديمة، كفكرة الحق مثلا. ولقد كان على استعداد كذلك لاستخدام الصورة المعتادة لمحاسبة الفرد بعد الموت. لكن كل ما أخذه من أفكار سابقة له قد عدّله وشكله من جديد بطريقة فريدة، فحبه لله تطلب منه أن يعمل من أجل العدالة، والوفاق الاجتماعي"[١].

لقد جاء زرادشت كمصلح اجتماعي عقائدي، أراد -كما هي طريقة أمثاله دائمًا- أن يصلح مجتمعه وفق قناعاته، ويخلصه من الأخطاء والانحرافات السائدة فيه. وقد حار الحائرون في زرادشت هذا، واختلف الباحثون من المهتمين والمتخصصين في أمره، وطال جدلهم كثيرًا حول حقيقته، فذهب بعضهم إلى أنه شخصية أسطورية، من نسج الخيال الذي نسب إليها منظومة من الأفكار والشعائر والمعتقدات، تحت مسمى الديانة الزرادشتية [٢] ، وهذا الرأي أراه ضعيفا، بل مردودًا لا يصح عندي بعد طول بحث وتأمل، فدلائل وجوده الحقيقي لا تعد ولا تحصى.

وذهب آخرون إلى أنه هو النبي إبراهيم الخليل -عليه السلام- وهذا الرأي يؤكده كثير من محبيه وأتباع ديانته، وهذا رأي ضعيف أيضًا عندي، ومرجوح لقلة المصادر وضعف الحجج التي يستدل بها أنصار هذا الرأي، وليس هذا مقام الإسهاب فيها، وقد بحثتُ طويلا فلم أقف على دليل واضح قاطع الدلالة على هذا الأمر، بل وقفتُ على العكس، أي على كثير من البراهين التي تنقض هذا الافتراض وتدحضه جملة وتفصيلا. مع ضرورة التنبه هنا إلى أن اسم (زرادشت) أطلق على عدة شخصيات في المصادر التاريخية، منها إبراهيم الخليل عليه السلام وغيره؛ ولكن المؤكد أن زرادشت الذي نحن بصدد فلسفته هنا، هو شخصية أخرى لا علاقة لها بالنبي إبراهيم ([٣]).

وهذا ما تؤكده الروايات الزرادشتية نفسها، فبحسبها "وجد ثلاثة أشخاص سموا بزرادشت، وكان هذا الاسم بمثابة لقب ديني لهم، فقد اعتبروا (هوشنكك) الذي أوجد النار، الزرادشت الأول، ويفترضون أن الثالث هو إبراهيم، أما الثاني فهو زرادشت المعني صاحب الأناشيد"[٤].

كما اختلف المهتمون أيضًا في معنى اسم (زرادشت) وأشهر الأقوال هو أنها كلمة لها علاقة بالجمل والجِمال أو بقيادة الجِمال أو الاشتياق لها وحبها، أو (صاحب الجمل الأصفر) كما تكرر في كثير من المصادر بصياغات كثيرة متشابهة[٥].

والخلاصة هي أن الراجح أنه من الجنس الآري، أي من نسل "الآريين" الذين تحدثنا عنهم سابقاً، الذين توافدوا إلى بلاد فارس على شكل دفعات استقرت كل دفعة منهم في جهة، وهذا التشتت في أماكن الاستقرار هو ما أوجد الاختلاف الواسع في مكان وزمان ولادة زرادشت، وأقرب الآراء للصواب هو أنه ولد في الجهات الشمالية من دولة "إيران" المعروفة اليوم، وبشكل أدق يرى

[١]- جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت، ١٩٩٣م، ص ٩١.
[٢]- المصادر التي أوردت الخلاف في زرادشت هل هو شخصية أسطورية أم حقيقية كثيرة، ومنها من أوجز ذلك، ككتاب الديانة الزرادشتية، لنوري اسماعيل، مرجع سابق، الصفحات ٥-٦-٧.
[٣]- أنظر: خليل عبدالرحمن، كتاب (الأفستا) المقدّس في الزرادشتية، روافد للثقافة والفنون – دمشق، ط٢، ٢٠٠٨م، الصفحات من ٢٢ إلى ٢٧. وأنظر أيضًا: نوري إسماعيل، الديانة الزرادشتية، مرجع سابق، ص ص ٥-٦.
[٤]- نوري إسماعيل، الديانة الزرادشتية، مرجع سابق، ص ٥.
[٥]- راجع مثلا: خليل عبدالرحمن، كتاب (الأفستا) المقدّس في الزرادشتية، مرجع سابق، ص ٢٢.

الكثيرون أنه خرج من منطقة "خراسان" أو من مدينة "الري" الشهيرة، التي فتحها القائد المسلم نعيم بن مقرن في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.. كما يتفق كثير من الباحثين على أنه عاش في مناطق منها كردستان وأذربيجان وإيران.

ونجد شيئاً من الخلاف حول تاريخ ميلاده، الذي حدث ما بين (٦٢٨-٥٥١ق.م) حسب التقليد المزدي[١]. أما أكثر الباحثين فيتفقون تقريبًا على أنه وجد حوالي نهاية القرن الثامن قبل المسيح، وشذ عن هذا الإجماع شخصية علمية جليلة، وهي شخصية الأستاذ "كليمين" الفرنسي الذي يرى أنه وجد في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد[٢]. وهناك من يرى أنه لم يكن لزرادشت وجود حقيقي على الإطلاق، وهناك قول آخر ضعيف أنه وجد في زمن مبكر جدًا، في حدود سنة ٦٠٠٠ ق.م [٣].

وهناك الكثير من الأساطير المتعلقة بزرادشت وبولادته، ومن ذلك أنه ولد ضاحكًا رافعاً وجهه ويديه نحو السماء، وأنه حدث ليلة مولده معجزات شتى رآها الخاصة والعامة. ومنها أنه تحدى مشاهير السحرة في عصره، فحاولوا أن يهلكوه، بكل ما أوتوا من علم وقوة، ولكنهم فشلوا في ذلك فشلا ذريعاً. ومن ذلك أنه كان ينسحب من البقاع الآهلة بالسكان، ويأوي إلى الصحراء، ليعتكف فيها مناجيًا ربه بقلبه ولسانه، وأنه كان يوحى إليه بواسطة رؤساء الملائكة، وأنه سحر الملوك ببراهينه، وأنه عُرج به إلى حيث الإله نفسه، فصار أمامه[٤].

ويقال إن الشيطان قال في لحظة ميلاد زرادشت: "لقد ولد يا حسرتاه زرادشت الطاهر في بيت بوراشاساب، كيف السبيل إلى هلاكه وموته، إنه السلاح الذي يضربنا بقوة، إنه مصيبتنا الكبرى، ستزول من الأرض عبادة الشياطين، وسيختفي الكذب والزور بين الناس"[٥].

ومن المصادفة في أسرة زرادشت (تكرر الرقم ثلاثة ثلاث مرات) حيث تواترت المراجع في تكرار معلومة هي أنه تزوج ثلاث نساء، أنجبن له ثلاث بنات وثلاثة أبناء. وهناك ثلاثية أخرى هامة متواترة أيضًا في كل مكان، فالفلسفة الزرادشتية تقوم شعائرها على مثلث أركانه هي: الفكر الصالح، والقول الصالح، والعمل الصالح.

وحسب المصادر الفارسية وغيرها، فقد كان زرادشت في سن الأربعين حين أوحيت له ديانته كما يُعبّر البعض، أو حين ألهم كما يعبّر آخرون، أمّا اعتزاله الناس فقد سبق ذلك بسنوات، فقد اعتزل الناس وآثر أن يعيش في برية جبلية، وأن يكون طعامه الجبن وثمار الأرض كما تتفق كثير من المصادر[٦].

وكان عمره حينها -أي حين انزوى عن الناس واعتزلهم- ثلاثين سنة تقريبًا، كما يقول نيتشه في كتابه الشهير (هكذا تكلم زرادشت). حيث يؤكد أن هذا العمر -أي سن الثلاثين- هو نفس العمر الذي بدأ فيه عيسى رسالته ونشر أفكاره وتعاليم دينه. وكلاهما -عيسى وزرادشت- اقتنع وعمل على التضحية بنفسه في سبيل عقيدته.. كما أنهما يتفقان أيضا -كغيرهم من الأنبياء- في فكرة "الاتجاه

---

[١]- محمد سليمان حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص١٩.

[٢]- محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ١٨٥.

[٣]- أ.و.ف. توملين، فلاسفة الشرق، دار المعارف، ط٢، ١٩٩٤م، ص ١٤٥.

[٤]- محمد غلاب، المرجع السابق، نفس الصفحة.

[٥]- د. الشفيع الماحي أحمد، زرادشت والزرادشتية، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية – جامعة الكويت، الحولية ٢١، ٢٠٠١م، ص ١٨.

[٦]- راجع: وِل ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج ٢، ص ٤٢٤.

للجبل" فعيسى لجأ في القصة الإنجيلية إلى جبل الزيت في ضواحي القدس قبل صلبه، ليصلي لله، وزرادشت أيضا اعتزل في الجبل، ثم نزل منه إلى الناس ليدعوهم إلى منهجه ودينه[١].

بالإضافة إلى ذلك يشابه زرادشت الرسل في أنه كان يرى نفسه صاحب شريعة جديدة، كالأنبياء موسى وعيسى وغيرهما، فقد كان يجلس أمام الألواح القديمة المهشمة، التي تذكرنا بألواح دين موسى، وبالقانون الأخلاقي لأوروبا المسيحية بتطابق وتماثل واضح. إلى آخر تلك النقاط التي يشابه فيها زرادشت الأنبياء، ولذلك عدّه نيتشه مؤسسًا لدين عظيم وإيمان عالمي فلسفي جديد[٢].

بدأ دعوته في مسقط رأسه، وركز فيها على البسطاء وخاصة الرعاة، حتى انتشرت دعوته وذاع صيته تدريجيًا في كلِّ مناطق إيران وما حولها، ويظهر أن أول من ناصره وآمن به هو ابن عمه (مديومه) عن قناعة حقيقية، حيث ارتاحت نفسه لأسرار هذا المسلك الديني، بكل ما فيه من توجيهات لإصلاح أمور الحياة[٣].

وقد استفاد زرادشت كثيرًا من مناصرة ابن عمه له، وإيمانه به وبأفكاره، ومن ذلك أن حوارًا طويلا دار بينهما، وجه فيه مديومه نصائح قيمة لزرادشت، وقد أثر ذلك كثيرًا على مسيرة زرادشت وطريقة تعامله مع الناس[٤].

ولكن زرادشت لم يحقق ما يريد في وطنه وبين قومه، فقد فشل في نشر عقيدته بالشكل المأمول، فهاجر إلى بلاد (ويشتاسب) حاكم "فريان" بعد أن تعرض من بني جلدته إلى كثير من الحروب والمتاعب والإساءات والإهانات المختلفة. ومات زرادشت مقتولا في أحد معابد النار وهو يصلي، على يد الطوراني (براتفاركش) في الحرب التي قام بها الطورانيون ضده، سعيًا للقضاء على ديانته، حين رأوا أنها تتوسع وتنتشر. وكان عمره حين قتل ما يقارب ٧٧ سنة[٥]. وأحاطت بقصة وفاته مسرحية أخرى، أبرز ما فيها أن شعاعًا من نور أحاط به بعد موته، ثم صُعد به إلى السماء[٦].

نأتي الآن إلى أبرز معتقدات وأفكار الفلسفة أو الديانة الزرادشتية، ونبدأ بميتافيزيقا الإله، حيث يعرف عن زرادشت أنه دعا إلى مفهوم (التوحيد)، حيث يتفق الكثيرون على أنه رأى أن الإله واحد، هو (أهورامزدا) ومكانه في السماوات، وهو الإله الخالق الكامل السامي عن كل شيء، وله من الصفات والأسماء الكثير.

وبذلك يتضح لنا أن زرادشت أبطل جميع معتقدات (موغوش)، أي المجوس القدماء، قائلاً: ليس هناك قوى روحية كثيرة للخير، ولا عفاريت كثيرة للشر، إنما هو إله واحد، اسمه (أهورامزدا) الذي ليس كمثله شيء، وهو الواحد، الأحد، القدوس، الصمد، وهو الحق والنور، وهو الحكيم القادر الخالق الذي لا يشاركه في ملكه وربوبيته شيء، وإن القوى الروحية التي زعموها خالقة للخير ليست

---

[١]- أنظر: أ.د. عبدالله محمد أبو هشه، في صحبة الفلاسفة مدخل لأعمالهم الفلسفية الرائدة، دار الحكمة – لندن، ط١، ٢٠١١م، ج١، ص ١٨٩.

[٢]- المرجع السابق، ص ص ١٨٩- ١٩٠.

[٣]- محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص٢١.

[٤]- للاستزادة والاطلاع على الحوار مع مديومه، وما تلاه من نتائج، راجع: سليمان مظهر، قصة الديانات، مرجع سابق، ص ٢٩٠.

[٥]- محمد حسن، المرجع السابق، نفس الصفحة ٢١.

[٦]- أ.و.ف. توملين، فلاسفة الشرق، مرجع سابق، ص ١٤٩.

بخالقة، بل هي نفسها من خلق أهورا مزدا. وكذلك صرح زرادشت بأنه ليس للشر إله، بل الذي يأمر بالشر هو الشيطان (انغرامى ينوش) الذي حُرّف إلى (أهرمن) [١].

وكان هذا شيئا غريبًا فريدًا ومميزاً عن العقائد الفارسية حينها، والتي كانت تدور حول تعدد الآلهة كما أسلفنا، مع ضرورة الانتباه إلى أن هناك آلهة أخرى في الزرادشتية، وردتْ في بعض المصادر؛ ولكنها أقل درجة ومنزلة وذكرًا من الإله الواحد أهورامزدا.

والحقيقة هي أن الكثيرين يصفون الزرادشتية بالثنائية في الإلهية، حيث يوجد فيها إله الخير (أهورامزدا) وإله الشر (أهريمن) وهذا الوصف ليس دقيقًا في نظري، وفيه شيء من الخطأ والتجني، فالزرادشتية قامت على فكرة توحيد الإله المعبود، أما أهريمن، فتتفق المصادر على أنه إله الظلمة وخالق المصائب في العالم السفلي، وهو شبيه للشيطان في الإسلام وغيره من الأديان، التي تجعل من هذا الشيطان شيئا ضخمًا وخطرًا، له أتباع ينقادون لأوامره وينفذونه فيكون سيّدًا عليهم؛ ولكن هذا لا يُفهم منه -في أي دين- أنه شريك للخالق في ألوهيته واستحقاقه للعبادة. بل إن الزرادشتية أكدت على أن الإله أهورامزدا هو خالق أهريمن وغيره من الحاملين لمسميات من قبيل: إله الشر وإله كذا وكذا...

لقد نزه زرادشت الإله كثيرا، حيث "لا يمكن أن تكون لله علاقة بالشر، فروحه المقدسة هي التي تقيم الحياة، وتخلق الرجال والنساء. وتعارضه الروح الشريرة أو القوة المدمرة التي تتسم بالنوايا الشريرة والتكبر والكذب. وعلى البشر أن يختاروا بين هاتين القوتين المتعارضتين أو التوأم من الآلهة، فإن سلكوا طريق الشر، فسوف تمتلئ حياتهم بالأفكار الشريرة والكلمات الشريرة والأعمال الشريرة. وإن سلكوا طريق الحق، فسوف يشاركون في العقل الخير، ويبلغون الكمال والخلود، والورع، وملكوت السماوات، وكلها جوانب من الطبيعة الإلهية[٢].

أما فلسفة الأخلاق، فلاشك أن للأخلاق شأنًا كبيرًا عند زرادشت، فرسالته دعوة كبيرة لإصلاح العالم الفاسد في نظره، عن طريق فعل الخير، وبذلك يتضح أنه لم يقصرها على القول والحد النظري، بل كانت دعوته دائما هي لتطبيق الأخلاق التي يراها فاضلة على أرض الواقع.. وأعظم الفضائل في الزرادشتية هي: "الشرف، والأمانة، وتقوى الإله، والوفاء بالدين، والصدق الذي يعرفونه بأنه السعادة في العقل". كما حرّم زرادشت الربا بين الفرس، وأجازه مع غيرهم، وجعل الوفاء بالدين واجبًا مقدسًا، وجعل رأس الذنوب والرذيلة الكفر، ونختصر وصاياه في قوله: "اعمل كي تكون من زمرة الأشخاص الذين يساهمون في سبيل سعادة ورقي العالم"[٣].

وإذا نظرنا بعمق إلى أحد النصوص البهلوية، المسمى (زاد - سبارام) فسنجد أنه يساعدنا كثيرًا في اختصار أو اختزال المنهج الأخلاقي في الزرادشتية بصورة واضحة تمامًا، فهذا النص يحتوي على نصائح وتحذيرات ومواعظ مركزة، أهمها أن الواجب على الإنسان أن يحرص على (حسن سمعته) ليحقق الاحترام لنفسه ولمجتمعه، وأن يحرص ويهتم أيضًا بتقدير أستاذه الذي يعلمه، فيبتعد عن كلِّ أشكال الإساءة للمعلّم، وأن يحرص أن تكون داره كعبة لكل الأشخاص الصالحين المحبين للأنام،

---

[١]- أنظر: د. كامل سعفان، معتقدات آسيوية، دار الندى – مدينة نصر، ط١، ١٩٩٩م، ص١٠٧.

[٢]- جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مرجع سابق، ص ٩٠.

[٣]- أنظر: وِل ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج٢، ص ٤٣٢.

وأنظر أيضًا: محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ٢٤.

وأن يعترف بالخطايا التي يرتكبها، لأنه بتخليص نفسه من الشرور يبقى عقله صافيًا، وأن يكون ورعًا تقيًا ومهتمًا بالدعوة إلى عقيدته الحق[١].

أما الإنسان، فقد أولاه زرادشت اهتمامًا بالغاً، فنظر إليه نظرة إيجابية دائمًا، وحثه على نصر الخير والاجتهاد في العمل الصالح فهو في صراع يومي بين إله الخير وإله الشر. ومن اهتمام زرادشت بالإنسان أنه أعطاه حرية الإرادة؛ ولكنها إرادة خاضعة للإرادة الإلهية، وهذا الموقف أراه قريبًا وشبيها جدًا بموقف بعض فلاسفة الوجودية المؤمنين، وشبيه أيضا بموقف أهل السنة في الإسلام، الذين يرون أن الإنسان له اختيار، ولكنه تحت قدر الله!

أما تنظيم المجتمع في الزرادشتية فمرتبط بتعاليمها الدينية، بمعنى أن يتم تطبيق تلك التعاليم في كل شؤون الحياة، ولا مانع من ممارسة العادات والتقاليد، بشرط أن لا تخالف العقيدة الزرادشتية، فدينهم وتعاليم زرادشت هي الأساس دائماً وأبدًا في كل شؤونهم الاجتماعية وغيرها.. ومن تعاليم الزرادشتية الدينية للمجتمع أنه لم يكن مسموحًا لأتباع زرادشت أن يكون لهم معابد ولا أصنام[٢].

حيث شددتْ الزرادشتية على عقوبة من يتسبب في نشر الأمراض مثلا، وأباحتْ للرجال تعدّد الزوجات كما في غيرها من الفلسفات الدينية، واهتمتْ بالأسرة كثيرًا، فهي أقدس وأعلى نظام اجتماعي، وله كل العناية بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وللمرأة أيضا تقدير كبير، ولكنها تبقى رغم ذلك في موقعها الطبقي، وهي حرة في إدارة الأملاك والتجارة، ولكن الزرادشتية أوجدتْ فروقاً بين النساء الفقيرات والنساء الغنيات خاصة زوجات النخبة السياسية والاجتماعية، حيث أباحتْ للفقيرات التنقل بحثاً عن العمل، ومنعتْ نساء الأغنياء والحكام من الخروج والاختلاط بالرجال إلا بمرافقة حراس وهوادج خاصة لحمايتهن ورعايتهن. ولم تشدد الزرادشتية كثيرًا في موضوع الزنا والحمل الحرام، فكانتْ تغفر ذلك لمن وقع فيه، رغم تحريم الزنا، ولكنها تشدد جدًا في موضوع قتل الأجنة، فكان القتل هو عقوبة من يثبت عليه الإجهاض. ومن حق الأم في الشريعة الزرادشتية أن تحضن أطفالها حتى سن الخامسة، وللأب الحق في حضانتهم حتى السابعة فقط، وبعد ذلك يدخل الطفل التعليم، الذي كان مقصورًا على أبناء الطبقة العليا، فقد كانوا يعلمون أبناء الأغنياء العلوم المختلفة، أما الفقراء، فلا مكان لأبنائهم إلا في تعليم آخر، وهو التعليم العسكري المتمثل في ركوب الخيل وإتقان الرماية وما شابه، فهم يدربونهم جيدا لتأهيلهم للحروب، فهم المحاربون أوقات الأزمات والمعارك[٣].

وربما يكون التلخيص المناسب الأخير للزرادشتية، هو أن نورد هذه المقولة الدقيقة نصًا بتصرّف يسير: "صوّرتْ العقيدة الزرادشتية العالم في صورة مسرح يتصارع فيه الخير والشر، وأن النفس البشرية ميدان لمثل هذا النزاع، إلا أن لكل إنسان قوة خارقة تحثه على الأخلاق الفاضلة، أي أن الإنسان (حر الإرادة) يختار بين النور والظلمة، وهو مسؤول عن أعماله، كذلك كانت تحض على فعل الخير وتبيّن أن (طبيعة الإنسان الخيرة) تدعوه إلى ذلك، كما حددتْ واجبات الإنسان في ثلاثة أمور: أن يعمل على جعل العدو صديقاً والشرير صالحًا والجاهل عالمًا، كما بيّنتْ أن أعظم الفضائل هي الصلاح والشرف والأمانة في الأقوال والأفعال. كذلك نصّت على التقرّب إلى الإله بالتطهر والتضحية والصلاة، ومع أنها نهتْ عن إقامة الهياكل والأصنام إلا أن معتنقيها أقاموا المعابد على سفوح التلال وفي ساحات القصور وأواسط المدن، وأشعلوا فيها النيران المقدّسة قرباناً للإله

---

[١]- أ.و.ف. تcroملين، فلاسفة الشرق، مرجع سابق، ص ص ١٥٩ – ١٦٠.

[٢]- أنظر: المصدر السابق، ص ١٦١.

[٣]- هذه الفقرة الطويلة نسبيًا، صغتها بأسلوبي بعد استيعاب الأفكار الواردة من عدة مصادر. أنظر مثلا: محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ص ٢٤ – ٢٥.

أهورامزدا، ثم بالغوا في تقديس هذه النيران حتى وصلتْ إلى درجة العبادة، كما قدّسوا الشمس باعتبارها نار السماء الخالدة"[١].

أما كتابهم المقدس، فلا شك أن المتأمل في ديانات الشرق عامة سيلاحظ كثيرًا من التماثل والتشابه، ومن ذلك مثلا أن لكل ديانة -غالبًا- كتابًا مقدسًا، يتميّز ويتصدّر قائمة الكتب المهمة عند أتباعها، ويهمنا هنا الإشارة إلى كتاب (الزند أفستا) فهو الكتاب المقدّس الأول في الديانة الزرادشتية الفلسفية، تماما كما هو حال المسلمين واليهود والمسيحيين مع القرآن الكريم والتوراة والإنجيل، وكما هو حال الصابئة مع كتابهم الشهير (كنزا ربا) الذي يعني باللغة المندائية الكنز العظيم.

والأفستا هو مجموعة كتب جمع فيها أصحاب هذا الحكيم أقواله وأدعيته. وسمّاها المتأخرون منهم الأبستا (الأبستاق)، وهي المعروفة عند الغرب باسم الزند-أبستا، بناء على خطأ وقع فيه أحد العلماء. مع العلم أنه فُقد منه الكثير، وأن الباقي ليس إلا جزءاً صغيراً ممّا أوحاه إلى زرادشت إلهه. وهذا الجزء الباقي خليط من أدعية وأناشيد وقصص وطقوس وقواعد أخلاقية، بلغة جميلة أحيانًا، وكأغنيات تدل على رقي وصلاح، وتثير في النفس النشوة. ونجد في بعض أجزائه تكراراً كثيرًا لما في "الفيدا". وهذا جعل بعض علماء الهنود يعتقدون أن الأبستاق ليستْ وحيًا من عند أهورامزدا، بل مأخوذة من كتب الفيدا المقدسة عندهم[٢].

كما نجد في الأفستا فقرات أصلها بابلي قديم، كوصف خلق الدنيا على مراحل (السماوات، فالماء، فالأرض، فالنبات، فالحيوان، فالإنسان)، وأن الناس جميعاً من أبوين، وإنشاء جنة على الأرض، وغضب الخالق واعتزامه أن يسلط على الناس طوفاناً يهلكهم إلا قلة منهم. ولكن العناصر الإيرانية الخالصة الكثيرة، تكفي لصبغ الكتاب كله بصبغة فارسية عامة. فالفكرة السائدة فيه هي ثنائية العالم، الذي يتصارع فيه الإله أهورا مزدا مع الشيطان أهرمان صراعًا يدوم ١٢ ألف سنة[٣].

ويتجاوز عمر الأفستا ثلاثة آلاف سنة، فهو موسوعة الحضارة، الثقافة، الأخلاق والأنثروبولوجيا للشعوب الآرية. بل إنه يشهد على عظمة روح وثقافة الشعوب الآرية، حيث يمثل أقدم وثيقة تاريخية، ثقافية، دينية، وقانونية مكتوبة تعكس المراسم والطقوس الدينية، الأفكار الفلسفية، الأخلاق، علم الفقه، الشرائع، الطب والفلك في المجتمع البدائي الإيراني[٤].

ونختم بالإشارة إلى أن كلَّ الفلسفات الدينية الفارسية التالية للزرادشتية شديدة القرب منها، بل تابعة لها أو متفرعة عنها، وهي عديدة أبرزها المانوية والمزدكية وغيرها، فمن شدة التصاق هذه التوجهات بالزرادشتية قال الكثيرون أنها مجرد فرق من فرق الزرادشتية لا أكثر.

فيما قال آخرون أن دعوتي ماني ومزدك من أكبر الحركات التحريفية للدين الفارسي؛ إذ أبعداه عن كل مضمون صحيح أو التقاءٍ مع بعض المبادئ المسلّمة في كثير من الأديان، حيث كان لهذين الرجلين آثارٌ واضحة نظرًا لصلتهما بالسلطة ورجال الحكم، الأمر الذي ساعدهما على فرض

---

[١]- محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٢٨٢.
[٢]- أنظر: وِل ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج٢، ص ص ٤٢٦ – ٤٢٧.
[٣]- المرجع السابق، نفس الصفحات، بتصرف شديد واختصار كبير منّي للفقرة والفقرة السابقة لها.
[٤]- خليل عبدالرحمن، كتاب (الأفستا)، مرجع سابق، المقدمة ص ٧.

آرائهما بالقوة والعنف، ويلاحظ أن الرجلين ظهرا بعد ظهور عيسى -عليه السلام- ولذلك كان اختراعهما للدين عبارة عن مزج للفكر البشري في ثنايا فكر ديني صحيح[١].

فأما المانوية فنسبة إلى ماني، الذي عاش في الفترة (٢١٥ - ٢٧٦) م، وعرف عنه أنه أدخل تصوّرات صينية إلى التصوّر الفارسي، ورسم الملائكة والشياطين.. وإليه مرجع اليزيدية أو "الأيزدية"، وكان له اطلاع على تعاليم زرادشت وتعاليم السيد المسيح وهو القائل (إن الأنبياء قسمان: قسم صالح وقسم شرير). كما قال أيضًا: (إن رسالتي هي رسالة زرادشت ويسوع). وزعم ماني بأن آدم هو من خلق الشيطان، وحذر أتباعه من القتل والكذب والزنا ومن ذبح الحيوان، ودعا إلى العزلة والتبتل، وعمل مدرسًا لأفكاره وآرائه في مدينة كتسيفون (المدائن) ودعا إلى تحرير النفوس من قيود المادة. وفي نهاية المطاف حُكم عليه بالموت نتيجة عقيدته هذه من قبل الكهنة المزديين، ولكن أتباعه نشروا تعاليمه في الإمبراطورية الرومانية. ومن أشهر من اعتنق ديانته "المانوية" القديس أوغسطين لمدّة تسع سنوات[٢].

وبذلك يظهر تأثره بزرادشت، فديانته قامتْ على نفس الأساس الذي قامت عليه الزرادشتية، فقد اتخذ "ماني" الثانوية الإيرانية منطلقًا له، وهذه الثانوية تنتمي إلى زرادشت، ومن هنا يتأكد ما ذكرناه من أن المانوية امتداد للزرادشتية وما كان سائدًا قبلها من معتقدات الفرس عامة، رغم وجود بعض الاختلافات بينها وبين الزرادشتية، أبرزها أن المانوية ترفض اعتبار الخير والشر قوتين متكافئتين، كما ترفض اعتبار ممثل الشر إلها يقف على قدم المساواة مع الله، كما يعتقد المتأخرون من الزرادشتيين[٣].

وأما المزدكية، فلا يختلف حالها كثيرًا عن سابقتها، فهي فلسفة دينية منبثقة عن الزرادشتية أيضًا، وتنسب إلى "مزدك" وهو فارسي عاش في الفترة (٤٨٩ - ٥٢٩)م. وهو صاحب بدعة دينية تقول بأن الخير وحده قادر على الشعور والحرية، وأن الشر أعمى وجاهل. وقد آمن مزدك بأن "آهورامزدا" سيد العالم أجمع، وبأن كل إنسان مخيّر بين الخير أو الشر، بانتظار (الحساب الأخير). وبالإضافة إلى الإيمان بآهورامزدا تؤمن المزدكية كذلك بعدد من آلهة الفرس، منهم "ميترا" وكذلك "أناهانا"، وكل هؤلاء في العقيدة المزدكية يدعون إلى الخير العام وإنقاذ الإنسان من مفاسد (أهرمان) إله الشر والظلام[٤].

ومزدك متأخر ظهر قبيل ظهور الإسلام؛ في زمن الملك قباز، والفرق بينه وبين ماني هو أن مزدك كان يقول بالنور والظلمة كأصلين قديمين كما قال ماني، إلا أنه يختلف عنه في أن النور يفعل بالقصد، والظلمة تفعل بالصدفة، والنور عالمٌ حساس، والظلام جاهل أعمى، ويحث مزدك على ترك الكراهية والقتال، كما دعا إلى شيوعية عامة في المال والنساء، حتى لا يُوجد كراهية بين الناس؛ ولذلك اعتبر من أقدم الشيوعيين في العالم[٥]. وزبدة القول التي تهمنا هنا هي أن موقف الزرادشتية والمانوية والمزدكية موقف واحدٌ متماثل من القضايا الأساسية الأخرى غير المشار إليها أعلاه، مع وجود شيء من اختلاف الطقوس والعبادات جزئيًا، واختلاف التفاسير حول بعض القضايا فقط[٦].

---

[١]- مناهج جامعة المدينة العالمية، كتاب الأديان والمذاهب، منشورات جامعة المدينة العالمية، نسخة إلكترونية موافقة للمطبوع، بلا رقم طبعة ولا تاريخ، ص ٣٩٦.

[٢]- حسن نعمة، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، مرجع سابق، ص ص ٦٥ – ٦٦.

[٣]- أنظر: فراس السواح، دين الإنسان، دار علاء الدين – دمشق، ط٤، ٢٠٠٢م، ص ص ١٠٣ – ١٠٤.

[٤]- حسن نعمة، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، مرجع سابق، ص ٦٦.

[٥]- أنظر: مناهج جامعة المدينة العالمية، كتاب الأديان والمذاهب، مرجع سابق، ص ٣٩٨.

[٦]- أنظر: حسين العودات، الموت في الديانات الشرقية، مرجع سابق، ص ٦٧.

المبحث الثاني:

الموت وطقوسه وما يتعلّق به عند قدماء الفرس.

يطالعنا الأبستاق أو "الأفستا" الكتاب المقدّس في الزرادشتية وغيره من المصادر بكثير من النصوص المتعلقة بالموت، ولكننا بحاجة قبل أن نستعرضها إلى إلقاء الضوء على أهم معتقدات قدماء الفرس السابقين لزرادشت حول الموت وما يتعلق به.

ففي (الديانة الفارسية الأولى) كانت أول خطوة يقومون بها عندما يموت إنسان هي دهنه أو تدليك جسده بالشمع أو بنوع معين من الشمع، وهذا الأمر واجب ومتأكد بشدة في عقيدتهم، ثم بعد الدلك بالشمع يسلّم الميت إلى (جمعية رجال الدين)، التي تعرضه بدورها وطريقتها للطيور والكلاب لتمزق جسمه وتأكل منه ما تريد، ثم بعد ذلك يتم (الدفن)، أي أنهم يوارون ما بقي من جسد الميت في التراب. ويعتقدون أيضًا أن الشعْر والأظافر بعد فصلها من الأجسام الحيّة تصبح نجسة، وكذلك النفس البشرية نجسة. كما يعتقدون أن الجثة البشرية النجسة قد تطهر إذا قطّعتْ ومزقت أجزاؤها ثم مرَّ أحد الناس بهيئة خاصة من بين هذه الأجزاء[١].

والحقيقة أن عقيدة التدليك بالشمع وعرض الميت للطيور والكلاب تطورتْ تطورًا يؤكد ما أشرنا إليه في المبحث السابق من أن "الزرادشتية" جاءت كامتداد لما كان سائدًا قبلها، وأنها تبنّتْ وطورتْ الكثير من معتقدات الفرس القدماء السابقين لها، رغم إدانتها وتحريمها ورفضها ومنعها لكثير من السلوكيات والطقوس والممارسات المختلفة السابقة لها.. فقد تطورتْ عقيدة الدهن بالشمع وعرض الجثة للكلاب والطيور، فتحوّلتْ إلى عقيدة عرض الأموات في (برج السكوت)[٢].

فما هي أبراج السكوت هذه، وما هي تسمياتها الأخرى، وما طقوس وعقائد الزرادشتيين المتعلقة بها؟

يجيبنا "الأفستا" نفسه إجابة تفصيلية شاملة، حيث يسميها دائمًا وأبدًا: "الداهما" ويكرر الحديث عنها في عدّة مواضع، فنجد مثلا في (فاركارد ٣) النص التالي: ﴿**أيها الصادق، وخالق العالم المادي! أين هي تلك الأرض الثالثة الأكثر تعاسة؟. أجاب أهورامازدا: هي تلك الأرض التي بُنِيَ فيها أكبرُ عدد من الداهما، حيث وضعتْ عليها جثث البشر**﴾[٣].

والداهما في الأفستا المقدس ورد ذكرها أيضًا ضمن آيات تتحدث عن (طقوس الدفن) بشكل عام، حيث يأمرهم ببناء غرف معينة في منازلهم بطريقة دقيقة، لكي توضع فيها جثث موتاهم الذين يموتون في فصل الشتاء، حتى يحين وقت نقلها إلى الداهما في وقت معين من الصيف. والآيات المقصودة هي الواردة في (فاركارد ٥) وهي: ﴿ **يا خالق العالم الدنيوي، أيها المقدّس! إذا انقضى**

---

[١]- أنظر: محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ١٨٣، بتصرّف.
[٢]- المرجع السابق، نفس الصفحة، بتصرّف أيضًا في الصياغة.
[٣]- خليل عبدالرحمن، كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد - فاركارد٣: الأرض، الآية ٩، ص ٢٥٤.

الصيف وجاء الشتاء، فماذا يجب أن يفعل عباد مازدا؟. أجاب آهورامازدا: عليهم أن يشيّدوا في كل بيتٍ وفي كل قصبة ثلاث غرف للموتى ﴾[١].

والسبب في تحديد الرقم ثلاثة، هو –كما يقول عدد من الباحثين منهم مترجم الأفستا نفسه في الهامش- أن الغرفة الأولى للأموات من الرجال، والثانية للنساء، والثالثة للأطفال.

ثم يُسأل الإله آهورامازدا عن تلك الغرف ومساحاتها وكيف يجب أن تبنى، فيجيب:

﴿ يا خالق العالم الدنيوي، أيها المقدّس! كم هو اتساع غرف الموتى تلك؟. أجاب آهورامازدا: واسعة بشكل كافٍ، بحيث لا ترتطم جمجمة الإنسان بشيء إذا توجب عليه أن يقف منتصبًا، وحين يمدد قدميه أو يديه: هكذا ينبغي أن تكون غرف الموتى حسب القانون ﴾[٢].

ويستمر في آيتين متتاليتين بشرح طريقة التعامل مع الجثث في تلك الغرف وكيفية نقلها إلى "الداهما" ووضعها عليها:

﴿ يضعون الجثة فيها لمدة ليلتين، أو ثلاث ليالٍ، أو مدة شهر بطوله، حتى تبدأ الطيور بالتحليق، النباتات بالنمو، الفيضانات المخيفة بالتدفق، الرياح بتجفيف الأرض ﴾. ﴿ وحالما تبدأ الطيور بالتحليق، النباتات بالنمو، الفيضانات المخيفة بالتدفق، الرياح بتجفيف الأرض حتى يقوم عباد مازدا بعدها بإلقاء الجثة على الداهما، بحيث تكون وجهها متجهة نحو الشمس ﴾[٣].

ثم يُحذر النص المقدس في التهاون أو التأخر في نقل جثث الأموات من غرف الموتى إلى الداهما، موضحًا جزاء الانتهاك أو الإخلال بهذه الطقوس الإلهية، ومؤكدًا على الطقس المشهور عندهم وهو توجيه وجه الميت باتجاه الشمس، فيقول:

﴿ إن لم يستطع عباد مازدا أن يلقوا بالجثة في غضون سنة (على الداهما) بحيث تكون وجهها متجهة نحو الشمس، فيجب أن تحكم على هذا الانتهاك، ويكون جزاؤه كجزاء قاتل المؤمنين، حتى ينهمر المطر على الجثة، حتى ينهمر المطر على الداهما، وحتى تكون الطيور قد التهمت الجثة ﴾[٤].

وكان الزرادشتيون ولا يزالون يدفنون موتاهم بهذا الشكل، حيث يكون وجه الميت متجها نحو الشمس، وهو ما يتّبع عند اليزيديين أيضًا، والسبب هو أن الشمس هي (عين آهورامازدا) في معتقدهم، ولذلك فهي أهم عنصر تبجيل في الزرادشتية[٥].

ويبدو أن التأثيرات المتبادلة بين الديانات المتقاربة في تلك الأزمنة، جعلتْ الأفستا يعلن بوضوح تحريم (حرق الجثث) وهي طريقة متبعة في معتقدات أخرى ليس هذا مقام بسطها، فتعريض الجثة للنار بأي شكل حرام في الزرادشتية، وكذلك (رمي الجثث)، والواجب فقط هو الالتزام بالطريقة

---

[١]- المصدر السابق: النسك الثالث – فينديداد – فاركارد٥: قوانين الطهارة، الآية ١٠، ص ٢٧٠.
[٢]- نفس المصدر: النسك الثالث – فينديداد – فاركارد٥: قوانين الطهارة، الآية ١١، ص ٢٧١.
[٣]- خليل عبدالرحمن، كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد – فاركارد٥: قوانين الطهارة، الآيات ١٢ - ١٣، ص ٢٧١.
[٤]- المصدر السابق: النسك الثالث - فينديداد – فاركارد٥: قوانين الطهارة، الآية ١٤، ص ٢٧١.
[٥]- نفس المصدر: المقدمة: العلم الأفستي، ص ٣٣.

المشروحة سابقا، من خلال (غرف الموتى) الواجب وجودها في البيوت، والأهم هو (نقل الجثة إلى الداهما) لتفترسها الجوارح. وفي هاتين الآيتين –على سبيل المثال- تصريح واضح بتحريم رمي الجثث أو إهمالها أو تعريضها للنار:

﴿ عاشرًا، من بين أفضل البلدان وأماكن السكن أنا آهورامازدا خلقتُ "هارافايتي" الرائعة، عندئذ خلق أنكراماينيو ذَنْبَ (رمي الجثث) المقرف المهلك وغير قابل للكفارة ﴾. ﴿ الثالث عشر، من بين أفضل البلدان وأماكن السكن أنا آهورامازدا خلقتُ "جاهرا" القوية والمتعلقة بآرتا، عندئذ خلق أنكرامانيو ذنبًا مهلكاً مقرفاً وغير قابل للكفارة وهو تقديم الجثث للنار ﴾[١].

وتؤمن الزرادشتية أن الموت يتسبب فور مفارقة الروح الجسم في (نجاسة جسم الميت)، بسبب "دروج ناسو" وهذه الدروج تكررتْ في نصوصهم بشكل لافت للنظر، فكل الجثث عند الزرادشتيين نجسة، سواء كانت لإنسان أو لكلب أو لغيرهما، وهذا ما تؤكده نصوص الأفستا بشكل جلي، حيث نجد على سبيل المثال هذه الآيات، التي يسأل فيها زرادشت إلهه فيجيبه:

﴿ يا خالق العالم الدنيوي، أيها المقدّس! إذا وجد عدد من الناس يستريحون في نفس المكان، على نفس البساط، وعلى نفس الوسائد. وإن وجد رجلان اثنان بالقرب من بعضهما، أو خمسة أو خمسون أو مئة قريبون من بعضهم، وحدث أن مات أحد من أولئك الناس، فكم عدد من تطوقهم (دروج ناسو) بالدمار والإصابات والتلوث؟﴾. ﴿ أجاب آهورامازدا: إن كان كاهناً، تنقض عليه دروج ناسو يا زرادشت سپيتاما! وتذهب مسافة التي يشغلها الحادي عشر منهم وتدنس العشرة الباقين. وإن كان محارباً، تنقض عليه دروج ناسو يا زرادشت سپيتاما! وتذهب مسافة التي يشغلها العاشر وتدنس التسعة الباقين. وإن كان مزارعاً، تنقض عليه دروج ناسو يا زرادشت سپيتاما! و تذهب مسافة التي يشغلها التاسع وتدنس الثمانية الباقين﴾[٢]. وهكذا تتوالى الإجابة في آيات كثيرة متتالية بشكل مقارب.

ولفهم المقصود بدروج ناسو، يجب فصل الكلمتين عن بعضهما، فكلمة "ناسو" تعني الجثة وشيطانة الجثة، وتسمّى بـ الدروج التي تصنع النجاسات والإصابات والشرور في جسد الميت، حسب ما كتبه المترجم في حاشية نفس الصفحة.

وإذا مات إنسان أو وضعتْ امرأة مولودًا ميتًا فإنه يجب على أهل البيت إخراج النار وأشياء أخرى منها نبات (البارسمان المقدّس) من المنزل فورًا، ولا يجوز لهم إرجاعها مرة أخرى إلا بعد مدة معينة تختلف باختلاف الأحوال وفصول السنة، ومن يخالف فيعاقب بالجلد وغيره، ويشرح الأفستا المقدّس كلَّ ذلك، في آيات كثيرة مفصلة بدقة، وأبرزها:

﴿ يا خالق العالم الدنيوي، أيها المقدس! عندما ندخل بيوتنا، بالنار، البارسمان، الفناجين الهاوما، وبالهاون، وحدث أن مات كلب أو إنسان هناك، ما الذي ينبغي على عباد مازدا أن يفعلوا؟﴾. ﴿ أجاب آهورامازدا: ينبغي عليهم يا زرادشت سپيتاما! أن ينقلوا النار، البارسمان الفناجين والهاون

---

[١]- نفس المصدر: النسك الثالث – فينديداد – فاركارد١: القصيدة الجغرافية، الآيتان ١٢ – ١٥، ص ٢٣٨.

[٢]- نفس المصدر: النسك الثالث - فينديداد – فاركارد٥: قوانين الطهارة، الآيتان ٢٧ - ٢٨، ص ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

خارج المنزل، وكذلك الجثة، وأن يضعوها في مكان مناسب، حيث يجب أن توضع الجثث وفقاً للقانون لتُلتهم هناك﴾[١].

﴿يا خالق العالم الدنيوي، أيها المقدس ! متى سيعيدون النار إلى المنزل الذي مات فيه الرجل؟ . أجاب آهورامازدا: عليهم أن ينتظروا تسع ليال في الشتاء، وشهراً كاملاً في الصيف ومن ثم يسمح لهم أن يعيدوا النار إلى المنزل الذي مات فيه الرجل﴾. ﴿ يا خالق العالم الدنيوي، أيها المقدّس! وإذا أعادوا النار إلى المنزل الذي مات فيه الرجل قبل انقضاء تسع ليال أو قبل نهاية الشهر، ما الجزاء الذي يجب عليهم أن يدفعوه؟. أجاب آهورامازدا: إنهم بيشوتانو: وجزاؤهم مئتي جلدة بسوط الحصان ومئتي جلدة بسراوش - چارانا﴾[٢].

﴿يا خالق العالم الدنيوي، أيها المقدس! إذا عاشت في منزل عابد مازدا امرأة حبلى وفي أثناء شهر أو اثنان، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة أو ستة، أو سبعة أو ثمانية، أو تسعة، أو عشرة أشهر أنجبت مولوداً ميتاً، ما الذي يجب أن يفعل عباد مازدا؟. أجاب آهورامازدا: يجب أن تُبعد عن مكان الولادة القطيع، النار، والبارسمان المقدس﴾. ﴿يا خالق العالم الدنيوي، أيها المقدس! كم يُبعد عن النار، كم يبعد عن المياه، كم يبعد عن حزم البارسمان المقدسة، وكم يبعد عن المؤمن؟. أجاب آهورامازدا: ثلاثين خطوة عن النار، ثلاثين خطوة عن المياه، ثلاثين خطوة عن حزم البارسمان المقدسة، وثلاث خطوات عن المؤمن﴾[٣].

ومن باب تحفيز الناس على الاهتمام بأمر الموتى من البشر، وكذلك الكلاب لأن لها قدسية أو أهمية غريبة في الزرادشتية، بدليل ربطها دائمًا بكثير من الأمور في عشرات المواضع من الأفستا.. من هذا الباب، جعلتْ نصوصهم المقدسة (أسعد الناس) هو الذي يهتم بحضور أكبر عدد من دفن الجثث، والذي يهتم بضرورة إراحة الأرض من الداهمات المشيدة عليها، فلهم طقوس وعادات تكررت تؤكد أهمية إزالة الداهما أو (أبراج الصمت) لإراحة الأرض من كثرة الداهمات المشيدة عليها، والتي تثقل كاهل الأرض بنجاساتها وقذاراتها. ومن ذلك مثلا هذا النص:

﴿أيها الصادق، وخالق العالم المادي! من الذي يُسعد أولاً على هذه الأرض سعادة عظيمة؟ .أجاب آهورامازدا: هو ذلك الذي يحضر أكبر عدد من الجثث المدفونة للكلاب والناس الموتى. أيها الصادق، وخالق العالم المادي! من الذي يُسعد ثانياً هذه الأرض العظيمة؟ .أجاب آهورامازدا: عندما يزيل أكبر عدد من الداهمات المشيّدة، التي توضع عليها الأجساد الميتة﴾[٤].

---

[١]- خليل عبدالرحمن، كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث - فينديداد – فاركارد٥: قوانين الطهارة، الآيتان ٣٩ - ٤٠، ص ص ٢٧٥ - ٢٧٦.

[٢]- نفس المصدر: النسك الثالث - فينديداد – فاركارد٥: قوانين الطهارة، الآيات ٤١ – ٤٢ – ٤٣ - ٤٤، ص ٢٧٦.

[٣]- نفس المصدر: النسك الثالث - فينديداد – فاركارد٥: قوانين الطهارة، الآيات ٤٥ – ٤٦ – ٤٧ - ٤٨، ص ٢٧٦.

[٤]- خليل عبدالرحمن، كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد - فاركارد٣: الأرض، الآيتان ١٢ - ١٣، ص ٢٥٥.

وكل ذلك يدل على أن للموت عندهم ارتباطاً بقضية (التقديسات)، فهم مع تقديسهم للنار نجدهم يقدّسون أيضًا غيرها كالماء والأرض، وقد أثر كثيرٌ من تلك التقديسات على طريقة تعاملهم مع جثث موتاهم التي يرون أنها نجسة.

ولهذا فعندما يموت واحد منهم، فإنهم لا يحرقون جثته كما يفعل الهندوكيون، ولا يمسونها أيضاً؛ لأن الجسد في عرفهم لا يعدو أن يكون مادة بغيضة نجسة ملوّثة بعد خروج الروح منه، فلا يصح أن يحرقوا الجثة بالنار فللنار قدسيتها التي يجب أن لا تلوث بأيِّ شيء نجس.. وهم لا يستطيعون أيضًا أن يلقوا بالجثة في ماء البحر حتى لا يدنسوا الماء المقدّس الذي لا يُقرب إلا للشرب وري الأرض، ولا يُستخدم حتى في غسل الأشياء القذرة.. كما أنهم لا يدفنون موتاهم في الأرض، فللأرض قدسيتها ولا يجوز تدنيسها؛ لأنها مصدر أقوات الناس وأرزاقهم، ولا يجوز أن تودع في بطنها تلك الجثث البغيضة الملوثة.. ومن أجل ذلك كله فهم يضعون أجساد موتاهم على قم أبراج عالية بنيت وكأنها المداخن الضخمة، وتسمّى أبراج السكوت أو "أبراج الصمت"[١].

وقد منعتْ الزرادشتية أتباعها من لمس أو حمل جثث الموتى النجسة، إلا عن طريق عدد من الناس الذين يتم تخصيصهم لهذه المهمة، فيقومون بحمل الجثة وفق آلية معينة دقيقة، ومع ذلك فهؤلاء الذين يقومون بهذه المهمة يبقون ملوثين في اعتقادات الزرادشتيين.

والحاصل هو أن هذه الفئة من العمال المختصين، تقوم بإعداد جثة الميت وتجهيزها، ثم تنقلها إلى برج الصمت، ويشترط أن يكون ذلك في النهار فقط لا في الليل، فيحملون الميت على (نعش من حديد)، ويضعون جثته بكيفية معينة على برج الصمت أو السكوت ووجهه للشمس، ويتركونها لتأكلها طيور الهواء. وبعد أن ينتهي هؤلاء من عملهم هذا يجب عليهم أن يتطهروا؛ ولكنهم –ورغم تطهرهم- لا يجوز لهم أن يختلطوا بالناس نهائيا[٢].

ولكننا ملزمين بعد إيراد كل ما سبق، إلى الإشارة إلى (الرأي الآخر) القوي أيضًا، والذي قال به كثير من الباحثين، وهو أن عرض الجثث للطيور في (أبراج السكوت) ليس من الدين الزرادشتي الصحيح في شيء، بل هي ممارسات مجوس مادا وفارس قبل زرادشت وبعده.

وبالتالي فإن تعليلنا السابق للنصوص الواردة أعلاه، حول الحث على إزالة (الداهمات) لإراحة الأرض من كثرة الداهمات المشيدة عليها، والتي تثقل كاهل الأرض بنجاساتها وقذاراتها كما قال الرأي الأول ومنهم مترجم الأفستا الدكتور خليل عبدالرحمن في حواشيه الكثيرة.. إن تعليلنا السابق ليس هو التعليل أو التبرير الصحيح عند أنصار الرأي الآخر.

بل على العكس تمامًا، فهم يرون أن الزرادشتية الصحيحة تنهى عن بناء أبراج السكوت "الداهما"، وتحث على هدمها، وبالتالي فالنصوص التي أوردناها أعلاه تُحْمَلُ في نظر هذا الفريق على أنها أمر بهدم هذه الأبراج، ليس لإراحة الأرض وتطهيرها لتراكم الجثث النجسة مع الوقت كما قال الرأي الأول، بل لمخالفتها تعاليم الدين الزرادشتي الصحيح.

---

[١]- أنظر: سليمان مظهر، قصة الديانات، مرجع سابق، ص ٢٧٧.

[٢]- نفس المرجع السابق، ص ٢٧٨.

ويستدل أنصار هذا الرأي الثاني بالفصل السابع من الفنديداد، حيث ينظر الأبستاق إلى الداهمات بوصفها المقرّ الذي تسعد فيه الشياطين لمخالفتها الصواب، فيقول الإله مخاطبا زرادشت: "فوق هذه الداهمات التي يقيمونها على الأرض ويضعون فيها الأموات تملأ الشياطين وتفرقها مثلكم، فكما تطبخون أنتم طعامكم وتأكلون اللحم مشويًا، هكذا تفعل الشياطين، إن الرائحة التي تشمها الشياطين في الداهمات هي رائحة طعامهم، هناك يا زرادشت الحكيم يكون سرورُ الشياطين وسعادتهم"[١].

كما يستدلون أيضًا بشهادة المؤرخ اليوناني "هيرودوتس" ، الذي يؤكد أن عرض الجثث على الطيور الجارحة ليس من الدين الزرادشتي في شيء، بل هو مما كان يمارسه جهارًا مجوسُ مادا وفارس، قبل وإلى الوقت الذي أرخ فيه هيرودوتس لهم، حيث جرت عادة المجوس على عرض موتاهم للكلاب البرية والطيور الجارحة ولا يدفنونهم أبدا، لنفس اعتقاد الزرادشتيين في مراحل انحطاط دينهم كما يرى هذا المؤرخ، وهو عدم تدنيس الأرض الطاهرة مصدر قوت الأحياء قاطبة، أما قدماء الفرس فيتفق هيرودوتس مع ما ذكرناه من أنهم يطلون أجساد موتاهم بالشمع، ولكنه يختلف مع الرأي السابق، فيؤكد أنهم بعد هذا الطلي يدفنونهم في التراب، حيث يشهد التاريخ والمؤرخون بأن دفن الأموات كان شائعًا بين الزرادشتيين إبّان حكم الأسرة "الأليخانية"، وهي الأسرة التي حكمتْ الفرس بالدين الزرادشتي وبفضلها انتشر هذا الدين شرقاً وغربًا في زمانها، فقد كانوا يدفنون موتاهم في قبور تظهر فوق سطح الأرض، وبعضهم كان يتقرب ببناء المقابر وتزيينها بالأحجار الجميلة[٢].

وبناء على حجج أصحاب هذا الرأي، يأتي تصورهم المختلف عن غيرهم من الباحثين، حيث يؤكدون على أن أول ما يقوم به كثير من الفرس مع المتوفى في العصور السابقة لزرادشت والتالية له، هو غسله وتطهيره ثم تكفينه في (ثياب بيضاء نظيفة)، وفي أثناء ذلك يردد الكثير من الناس مع رجال الدين أدعية معينة يطلبون فيها من الله العفو عن ذنوب الميت. ويمكن للمحتضر إذا كان مالكاً لحواسه ترتيل تلك الأدعية بنفسه، وإذا كان فاقداً لوعيه أو غائبًا عن رشده رددها نيابة عنه ابنه أو أقرب الناس إليه، أو رجل الدين الخاص بالأسرة[٣].

ومع كل ما أورده أصحاب الموقف الثاني من أدلة في عدّة كتب وبحوث، إلا أن عجبي كباحث لا يكاد ينقضي من وجود تناقض ظاهر في موقفهم، فرغم قلة القائلين بالرأي الثاني مقارنة بكثرة مؤيدي الرأي الأول، نجد بعض المراجع التي مالت إليه، أي إلى الرأي الثاني تتناقض مع نفسها بنفسها، فهي تورد في صفحاتها الحجج الدامغة على بطلان موقفهم وصحة موقف مخالفيهم، ومن ذلك مثلا النصوص الكثيرة التي جاء فيها الأمر صريحًا بعرض الجثث للطيور المفترسة في الأبستاق (الأفستا) حيث يوردون مثلا النص التالي وغيره من أمثاله:

(وهناك في قمم الجبال يتركون الجثة للطيور اللاحمة، لأشره الطيور اللاحمة، للنسور التي خلقها الله قائلين إن هذا المؤمن يندم على كل ما جنته يداه من شرور، وما اقترف من ذنوب، وأنت وحدك يا قدوس الذي تقدّر ندامته وتغفر له).

ولا أجدُ طريقة لدرء التعارض بين كلامهم المتصادم مع بعضه، اللهم إلا أن يكون موقفهم قائمًا على التفريق بين (قمم الجبال) وبين (أبراج السكوت) التي تُبنى بطريقة خاصة، فيكون رأيهم -حسب هذه المحاولة للتوفيق- هو أن المحرّم في نظرهم الذي أمرتْ "الزرادشتية" بإزالته هو أبراج الداهما، أما الفكرة العامة، أعني وضع الجثث للطيور في الأماكن المرتفعة كالجبال وغيرها، فلا أعتقد أن أحدًا

---

(١)- أنظر: د. الشفيع الماحي أحمد، زرادشت والزرادشتية، مرجع سابق، ص ٨٢.
(٢)- المرجع السابق، ص ص ٨٢ – ٨٣ .
(٣)- نفس المرجع السابق، ص ٧٩.

يستطيع نفيه عن الديانة الزرادشتية، فالجميع متفقون عليه تمامًا، لكثرة تواتر النصوص البهلوية المختلفة في التأكيد على ذلك، كما نجد في الأفستا في آيات لا حصر لعددها الكبير.

وحتى بهذا التوفيق يبقى رأيهم مرجوحًا في نظري وضعيفًا جدًا، فهناك شبه اتفاق في عدد كبير من البحوث والكتب، على أن الزرادشتيين في مختلف عصورهم يقيمون في الأماكن المرتفعة وعلى قمم الجبال أبراجًا منعزلة عالية الجدران لا سقف لها، يحملون إليها جثث أمواتهم نهارًا على النعوش الحديدية المخصصة، ثم يرمونها كطعام لجوارح الطيور[١].

وبعد أن انتهينا من هذا الجدل نعود إلى كتابهم المقدّس، لنواصل ما بدأناه، فما زال فيه الكثير من النقاط المتعلقة بالموت، ولكن ونظرًا إلى أنها تتكرر بشكل مطوّل جدًا، رأيتُ -قبل أن أنتقل إلى نقاط أخرى في مراجع أخرى من خارج الأفستا- أن أورد أبرزها في النقاط المركزة التالية:

١- تهاجم (شياطين الموت) جسد الميت فور مفارقة الروح له، على هيئة ذبّان الجثث الطائرة القبيحة القادمة من الشمال، حيث يقع جهنم الزرادشتي، وهي تصيب الفراش والملابس الداخلية التي تلامس الجسد، وتنجس المنزل وأقرباء الميت وكل من يحيط به وما يحيط به، من الناس والأدوات والنباتات المختلفة وغيرها[٢]، وأوضح النصوص على هذا الآيات التالية:

أ- ﴿ سأل زرادشتُ آهورامازدا، أيها الروح الخير، القدوس، ويا خالق العالم الدنيوي! عندما يقضي الإنسان نحبه، متى تهجم عليه دروج ناسو؟. أجاب آهورامازدا: بعد الموت مباشرة، بعد مفارقة الروح الجسد يا زرادشت، تهجم دروج ناسو قادمة من المناطق الشمال على هيئة ذبابة هائجة، بركبتين منحنيتين وذيل بارز، دائمة الطنين ومحبة للكائنات القذرة﴾[٣].

ب- ﴿ يا خالق العالم الدنيوي، أيها المقدّس! إذا قُتل إنسان بوساطة كلب، أو ذئب، أو ساحر، أو بمكائد المبغضين، أو بسقوط من جرف، أو وفق الشرائع، أو افتراء، أو بالشنق، ما هي المدة التي تهجم بعدها دروج ناسو عليه؟. أجاب آهورامازدا: في اليوم التالي لموته، تهجم عليه دروج ناسو قادمة من المناطق الشمال على هيئة ذبابة هائجة، بركبتين منحنيتين وذيل بارز، دائمة الطنين ومحبة للكائنات القذرة﴾[٤].

٢- تحذر نصوصهم المقدسة من (الإساءة لجسد الميت) بأي شكل من الأشكال، ومن ذلك الإساءة له بمخالفة القانون الزرادشتي الذي يمنع من تعريض الجثة للنار وما شابه، أو الإساءة له برمي جثته أو أي عظم من عظامه على الأرض، وتوجد نصوص كثيرة جدًا في التشديد على قدسية جثة الميت، وهي متشابهة إلى حدٍ كبير، ومنها مثلا النصوص الثلاثة التالية المختلفة عن بعضها، والتي يمثل كلُّ واحد منها عشرات النصوص المشابهة له:

---

[١]- أنظر: نوري إسماعيل، الديانة الزرادشتية - مزديسنا، مرجع سابق، ص ٥٩.

[٢]- أنظر: خليل عبدالرحمن، كتاب (الأفستا) المقدّس في الزرادشتية، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

[٣]- كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد – فاركارد٧: قوانين الطهارة (٣)، الآيتان ١ - ٢، ص ٢٨٥.

[٤]- كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد – فاركارد٧: قوانين الطهارة (٣)، الآيتان ٤ - ٥، ص ٢٨٥.

أ- ﴿ يا خالق العالم الدنيوي، أيها المقدّس! إذا رمى إنسانٌ على الأرض جثة إنسان وسال منه الدهن أو النخاع فما هو جزاؤه؟. أجاب آهورامازدا: ألف جلدة بسوط الحصان، وألف جلدة بسراوش – جارانا﴾[١]. ب- ﴿يا خالق العالم الدنيوي، أيها المقدّس! هل يمكن أن يصير طاهراً مرة أخرى ذلك الذي يلقي بالجثة في الماء والنار فيدنسهما؟. أجاب آهورامازدا: لا يمكنه يا زرادشت المقدس! هو هالك وقاطع الجثث، إنه عنكبوت وجراد، إنه يقوّي القحط ويدمر الكلأ. هو هالك وقاطع الجثث الذي يقوّي الشتاء، الذي خلقه الأبالسة، الذي يقتل الماشية الذي يقوّي الشتاء ذو الثلج الكثيف. تهاجمه (دروج ناسو) باندفاع، تمسك به بقوة حتى نهاية أظفاره فتجعله نجساً، ويظل نجساً إلى أبد الآبدين﴾[٢]. ج- ﴿يا خالق العالم الدنيوي، أيها المقدس! إذا رمى إنسان على الأرض عظمًا لكلب ميت أو لإنسان ميت، وسال منه الدهن أو النخاع فما هو جزاؤه؟. أجاب آهورامازدا: ثلاثون جلدة بسوط الحصان، وثلاثون جلدة بسراوش – چارانا﴾[٣].

٣- يخبر كتابهم المقدس أن الأرض التي يُدفن فيها ميتٌ تبقى نجسة خمسين سنة، وهذا يفسّر لنا بوضوحٍ سببَ حرصهم على رمي الجثث للطيور في أبراج الصمت:

﴿ يا خالق العالم الدنيوي، أيّها المقدّس! متى تعود طاهرة الأرض التي دُفن فيها ميت؟. أجاب آهورامازدا: بعد خمسين سنة يا زرادشت تصبح الأرض طاهرة﴾[٤].

٤- يحث كتابهم المقدس على (تثبيت جثة الميت) بطريقة خاصة في أعلى القمم حتى لا تنتقل العظام النجسة إلى الأرض الزراعية ومياه الشرب، ويوضح عقوبات كثيرة مفصلة لمن يخالف قوانينه في ذلك، ومنها كمثال:

﴿ يا خالق العالم الدنيوي، أيها المقدّس! إلى أين نحمل أجساد الموتى وأين نضعها يا آهورامازدا؟. أجاب آهورامازدا: على أعلى القمم، حيث يعلمون أن الكلاب والطيور المفترسة تأتي دائماً، أيها المقدس زرادشت. هناك يُثبت عباد مازدا الجثة من رجليها وشعرها بمعدن، أو بحجارة، أو بطين، خشية أن تذهب الكلاب والطيور بالعظام إلى الماء والنباتات. وإذا لم يثبتوا الجثة، فإن الكلاب والطيور المفترسة قد تذهب بالعظام إلى الماء والنباتات فما هو جزاؤهم؟. أجاب

---

[١]- كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد – فاركارد٦: قوانين الطهارة (٢)، الآيتان ٢٤ – ٢٥، ص ٢٨١.

[٢]- كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد – فاركارد٧: قوانين الطهارة (٣)، الآيات ٢٥ – ٢٦ - ٢٧، ص ٢٨٧.

[٣]- كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد – فاركارد٦: قوانين الطهارة (٢)، الآيتان ١٠ – ١١، ص ٢٨٠.

[٤]- كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد – فاركارد٧: قوانين الطهارة (٣)، الآيتان ٤٧ – ٤٨، ص ٢٩٠.

آهورامازدا: إنهم بيشوتانو: يُجلدون مئتي جلدة بسوط الحصان، ومئتي جلدة بسراوش - چارانا﴾[1].

٥- يأمرهم كتابهم المقدس بضرورة البخور و (تعطير البيت) الذي يموت فيه إنسان، بعطور مقدسة خاصة، تظهر أسماؤها في النص التالي:

﴿ إذا مات إنسان أو كلب في بناء من الخشب، أو بناء مسقوف بالأغصان، عندئذ كيف سيتصرف المازداياسنيون؟ أجاب آهورامازدا: فليبحثوا عن داهما، فليجهزوا داهما. وإذا أقرّوا بسهولة إخراج الميت فليخرجوه، ليتركوا البيت في مكانه، وليبخروا هذا البيت بـ "اورفاسنا"، أو "فاوهماكاون"، أو "فاهوكرتين"، أو "هادانيپاتا" أو أي نبات عطري آخر﴾[2].

٦- يغسل الميت ببول الأغنام أو الأبقار، وهذا ما كررتْ التأكيد عليه نصوصهم، وفق تفصيل جاء في آيات كثيرة متشابهة، وطويلة، ولعل هذا النص المختار يختصر الكثير من الكلام في موضوع ضرورة تغسيل الميت بالبول: **﴿فليجلس حمالو الجثث على بعد ثلاث خطوات من الميت، وليعلن الرئيس الصالح للمازداياسنيين: فليجمع المازداياسنيون البول ليغسل حمالو الجثث به شعر الميت وجسده. أيها الصادق، وخالق العالم المادي! هل هو بول الأغنام، أم بول الأبقار، أم بول الرجال، أم بول النساء؟. أجاب آهورامازدا: يُغسل شعر الميت وجسمه ببول الأغنام أو الأبقار، وليس ببول الرجال أو النساء، ماعدا [بول] رجلين أو امرأتين من زواج القربى﴾**[3].

٧- يوجب كتابهم المقدس عليهم (تعرية الميت) فيجب أن يكون عاريًا أثناء وضعه في الأماكن المرتفعة المخصصة، ومن يخالف هذا القانون يعاقب بعقوبات كثيرة تتكرر في مواضع عديدة من نصوصهم المقدسة، بحسب الطريقة التي خالف في هذا النظام، ولعل في المثالين التاليين كفاية لتوضيح ذلك:

أ- ﴿ أيها الصادق، وخالق العالم المادي! الذي يترك الثياب على جسد الميت من النسيج أو من الجلد، [الثياب] الذي يغطي بطن وقدم الميت، أي عقاب ينزل عليه؟. قال آهورامازدا: فليجلدوه أربعمائة جلدة بسوط الخيل، أربعمائة [ضربة سوط] تجعله مُطيعا﴾[4].

ب- ﴿ أيها الصادق، وخالق العالم المادي! الذي يترك الثياب على جسد الميت من القماش أو الجلد، بحيث يغطي حوضي الإنسان، أي عقاب يستحق جرّاء ذلك؟. أجاب آهورامازدا: فليجلدوه ستمائة جلدة بسوط الخيل، ستمائة [ضربة سوط] تجعله مُطيعا﴾[5].

---

[1]- كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد – فاركارد٦: قوانين الطهارة (٢)، الآيات ٤٤ – ٤٥ – ٤٦ – ٤٧ - ٤٨، ص ٢٨٤.

[2]- كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد – فاركارد٨: مراسم الدفن والطهارة، الآيات ١ -٢، ص ٢٩٨.

[3]- كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد – فاركارد٨: مراسم الدفن والطهارة، الآيات ١١ - ١٢ - ١٣ ، ص ٣٠٠ .

[4]- كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد – فاركارد٨: مراسم الدفن والطهارة، الآية ٢٣، ص ٣٠٢.

[5]- كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد – فاركارد٨: مراسم الدفن والطهارة، الآية ٢٤، ص ٣٠٢.

وننتقل إلى (إله الموت) عند الزرادشتيين، وهو يشابه في عمله (ملك الموت) في أديان أخرى كالإسلام مثلا، وإله الموت هذا يُسمّى في الزرادشتية (إستواد) ولا يستطيع أيُّ إنسانٍ الهروب منه؛ لأن إستواد هذا يعثر على كل إنسان مهما كان مقرّه، ويصفونه بأنه مخاتل يأتي إلى الناس متخفيًا، ولا يفرّق بين الناس ولا يعظم أيَّ شخص، ولا يجدي معه الثناء ولا الرشوة، فهو قاسٍ يُهلك البشرَ دون رحمة، فلا يستطيع أحدٌ الإفلات من قبضته[١].

كما تجدر الإشارة إلى وجود شخص يُسمّى عندهم (دهاق) تشابه قصته كثيرًا قصة (جلجامش الرافدي) وقد اجتهد دهاق هذا في النجاة والإفلات من إله الموت، وحاول كجلجامش الوصول إلى الخلود، فطاف في كل الاتجاهات، وفشل في العثور على الخلود. ولذلك أكدتْ الزرادشتية أن الخلود لا يكون إلا في الجنة، وأن الزرادشتي بإمكانه قتل رهبة الموت في داخله، إذا التزم بحياة الطهر والأمانة والتقى والصدق الموصل إلى جنة الخلود[٢].

وبالمجمل فإن الزرادشتيين وغيرهم من الفرس بشكل عام قديماً وحديثاً، يظهرون حزنهم على موتاهم، ويعبرون عن ألم الفراق في صور متعددة، كأن يمشون في الجنازة حفاة حاسري الرؤوس، وكافتراشهم للتراب، وارتدائهم ملابس خاصة للحداد، ولكن من الناحية الشرعية محرّم عليهم تحريمًا قاطعًا البكاء على فقيدهم مهما كانت منزلته، وحرمة البكاء منصوص عليها في الأبستاق، حيث اعتبر البكاء على الميت من عمل الشيطان، وجاء فيه أن الشيطان أوعز للمؤمنين بالبكاء والنواح على موتاهم[٣].

أمّا (مراسم العزاء والحداد) عقب إيداع الميت مثواه الأخير، فيجلس أهل الميت على الأرض حفاة حاسري الرؤوس يستقبلون المعزين لمدة ثلاثة أيام متتالية، أما النساء من أسرة المتوفى فيجلسن على بساط يُفرش على الأرض قرب المكان الذي مات فيه فقيدهن، لتقبل العزاء من المعارف والأهل، وقد تمتد أيام العزاء عندهم من ثلاثة إلى عشرة أيام، وفي أثناء العزاء والحداد يمتنع أهل الميت وأقرباؤه عن كل أفراح الحياة لفترة قد تطول في بعض الأحيان فتصل إلى شهرين[٤].

وقد خصصتْ الزرادشتية دعاءً خاصًا يختمون به بعد انتهاء مراسم الجنازة، وله غايات متعددة منها طلب العون من الإله، وتطهير الشوارع والطرق التي تلوثتْ من جثة الميت ونجاستها وقذارتها، وهذا الدعاء يسمّى (كمنامزدا)، وهذا نصّه: **"مزدا من يستطيع أن يحمي شخصًا ضعيفاً مثلي حينما يستعد الكافرون للاعتداء عليّ؟! أي كائن غيرك، بما لك من عقل وقوة نارية، يقوى نشاطه على تنفيذ مبدأ التقوى والاستقامة؟!، مزدا، اكشف لي عن أسرار هذه المعرفة، كي تساعدني على نشر دينك. من غيرك يستطيع لطم الأعداء، ويمدّني بكلماتك المقدسة، التي هي درعي والمجن الذي يحميني. دلّني يا مزدا على قائد مخلص حكيم متلطف يقودني إليك. ثم اجعل زعيم ملائكتك المزود بالروح الخيرة يدنو ممن تحب، كائنا من كان. تفضل فاحمنا من أعدائك أيها المقدّس. هلاكاً للكذب الشيطاني، وهلاكا لجميع الشياطين، وهلاكا لجميع أتباع الشياطين. الهلاك التام لك أيها الكذب! اخسأ واذهب بعيدًا عنّي إلى الشمال حتى لا تعبث بخلق مزدا المبدأ المقدّس"**[٥].

وهناك أناشيد أخرى مختلفة، منها أيضًا ما يقوله الإنسان أثناء نقل الميت من المنزل وأثناء عملية الطهارة، ومن ذلك مثلا ما جاء في هذه الآية:

---

(١)- أنظر: حسين العودات، الموت في الديانات الشرقية، مرجع سابق، ص ٦٤.
(٢)- المرجع السابق، ٦٥.
(٣)- أنظر: د. الشفيع الماحي أحمد، زرادشت والزرادشتية، مرجع سابق، ص ٨٠.
(٤)- المرجع السابق، ص ٨١.
(٥)- نوري إسماعيل، الديانة الزرادشتية، مرجع سابق، ص ٦٠.

﴿أقودُ الجثة بعيداً، أبعدُ النجاسة المباشرة وغير المباشرة عن هذا المنزل، عن هذه القصبة، عن هذه البلدة وهذه الأرض، عن جسم الرجل الذي دنسه الميت، عن جسم المرأة التي دنسها الميت، عن رب المنزل، مالك القصبة، حاكم البلدة، مالك الأرض، وعن جميع من في عالم الاستقامة﴾[1].

[1]- كتاب (الأفستا) المقدّس - النسك الثالث – فينديداد – فاركارد ١٠: الصيغ الإنشادية، الآية ٦، ص ٣٢٧.

المبحث الثالث:

خلود الروح في عقائد قدماء الفرس.

رأينا في المبحث السابق كيف أن الزرادشتيين يبادرون بسرعة إلى التخلّص من جثث موتاهم النجسة في اعتقادهم، بوضعها في الأماكن البعيدة المرتفعة كطعام للطيور الجارحة، حتى لا تلوّث بقذارتها أرضهم ومياههم وبيوتهم وأجسادهم.

ورأينا أن فترة الحداد كانت تستمر لمدة (ثلاثة أيام) عند كثير من الزرادشتيين، والسبب في ذلك هو ما يهمنا هنا الآن كمدخل لهذا المبحث، وهو أن الاعتقاد السائد عندهم هو أن الروح لا تغادر الدنيا في الأيام الثلاثة التالية على الوفاة، ولذلك تقام لها الصلوات والتراتيل المتصلة خلال هذه الفترة، وفي صباح اليوم الرابع تفارق الروح العالم الدنيوي إلى العالم الأخروي، مما يتطلب إعداد حفلة دينية إما في المنزل أو في أحد دور العبادة مساء اليوم الثالث وقبيل شروق شمس اليوم الرابع، ويحضر الحفلة أهل المتوفى وأقاربه وأصدقاؤه، وفيها توزع الصدقات على المحتاجين، ويخصص اليوم الرابع كله للصوم، وذلك لمساعدة الروح في عبور الصراط[١].

وإذا ربطنا معتقدهم السابق الذي نتج عنه تحديد فترة الحداد بثلاثة أيام غالبًا.. إذا ربطناه بنص بهلوي مقدّس طويل عنوانه **(كتاب عن فيراز الصالح)** فسنجد أن هذا النص الذي يتحدث عن رحلة فيراز إلى العالم الآخر، يكمل ويتمم المعتقد السابق الذي يؤكد أن الروح لا تغادر الدنيا إلا بعد ثلاثة أيام من الوفاة، فنص (فيراز الصالح) يخبرنا بوضوح عن كل المراحل التي تمر بها (روح الميت) بعد مفارقة الجسد، فهو نص مهم ويتخلله الكثير من النقاط حول موضوع مبحثنا **(خلود الروح)**. ولذلك وضعته في بداية هذا المبحث لأهميته؛ ولأنه يختصر الكثير.

النص طويل جدًا، حيث تتجاوز صفحاته ٣٥ صفحة من كتاب الأفستا المقدّس، حسب النسخة التي أشرف على ترجمتها الدكتور خليل، وطبع في كتاب مستقل أيضًا ويعتبر من أكثر كتب الزرادشتية انتشاراً، ليس بين الزرادشتيين المعاصرين فقط، بل بين أنصار الديانات والمذاهب المختلفة، فقد ترجم إلى لغات عديدة: السنسكريتية، الفارسية، الإنجليزية، الفرنسية، الأرمينية، والروسية، والعربية، نظرًا لأنه يُعَد إرثاً إنسانياً يشابه الكثير ممًا جاء بعده، كروايات الإسراء والمعراج الإسلامي، ورسالة الغفران "للمعري" و "الكوميديا الإلهية" لـ دانتي.. وغيرها.

واجتهدتُ في اختصار زبدته في صياغتي التالية، مستخلصًا منه أبرز ما يلامس موضوع بحثي:

زاد غموض الدين الزرادشتي، فانتابت الشكوك الناس. فاجتمع أعضاء المجمع الكهنوتي في (معبد النار) لكي يجددوا إيمانهم بديانة الأجداد ويعيدوا بناء وحدتهم الروحية، وقالوا: يجب إيجاد طريقة لإرسال أحدنا إلى العالم الآخر ليجلب لنا أخبارًا من عالم السماء الروحي، وليعرف الناس ما إذا كانت صلواتنا وطقوسنا تصل إلى الآلهة أم إلى الأبالسة، وهل ستساعد الآلهة أرواحنا أم لا؟[٢].

ثم قرّروا انتخاب كاهن واحد من بينهم بحيث يكون أكثرهم صدقاً وصلاحًا، ليرسلوه إلى العالم الروحي الأخروي، إلى الآلهة السماوية. اختاروا "فيراز" الذي كان له ست أخوات اعترضن وبكين بشدة عندما سمعن عن المهمة الملقاة على عاتقه، وذهبن إلى اجتماع الزرادشتيين قائلات: لا تفعلوا ذلك فهو الأخ الوحيد لنا وبمساعدة الإله يضمن لنا الحياة ويعيلنا.

---

[١]- أنظر: د. الشفيع الماحي أحمد، زرادشت والزرادشتية، مرجع سابق، ص ٨١.

[٢]- أنظر: كتاب (الأفستا) المقدّس - كتاب عن فيراز الصالح: باسم الإله، ص ٨٧٣. بتصرّف

هدأ الكهنة من روعهن وقالوا: سنرجع أخاكم قبل انقضاء سبعة أيام، وبقيامه بهذه المهمة سيكتسب فيراز المجد والنجاح. وبهذه الحجة وافقت الأخوات. فعرّض الزرادشتيون فيراز لاختبارات، منها أنهم غرزوا الرمح في جسده دون أن يصاب بأذى، ومن ثمّ قام بطقوس الطهارة والصلوات المفروضة وشرب الهاوما، وبعدها غط في نوم عميق. وأثناء النوم تفارق روحه جسده، وتذهب برحلة إلى العالم الآخر، فتزور الجنة وجهنم بمرافقة سراوش الملاك. وآدور إله النار[١].

وفي أثناء جولة روح فيراز تقوم أخواته وزوجاته وباقي الكهنة بحراسة جسده بالصلوات والرُقى المقدسة لطرد الأرواح الشريرة عنه. فتعود روحه في اليوم السابع من رحلتها، ومن ثم تدخل الجسد من جديد، فيستيقظ فيراز من نومه ويقف أمام الزرادشتيين واضعاً يديه على صدره.

ثم يبلغهم السلام من الآلهة ويحكي ما رآه، فيصف للكهنة الجنة وجزاء الأرواح الصالحة التي قامت بأفعال خيرة في الدنيا، كما وصف لهم جهنم وعقاب أرواح الآثمين والمجرمين. ومن ضمن ما قال: في الليلة الأولى استقبلني سراوش وآدور، وقالا: أهلا وسهلاً يا فيراز الصالح بالرغم أن موعد قدومك لم يحن بعد. فأجبتُ: أنا رسول، فأخذاني من يدي، وخطوت ثلاث خطوات فوجدتُ نفسي على جسر جينفات العظيم الذي خلقه أورمازد كحارس أمين للصالحين. وهناك وجدتُ (أرواح الموتى) التي تجلس في الأيام الثلاث الأولى عند رأس الجسد وهي تنطق بالتعويذات، حيث يهبط الخير والهدوء عليها- أي على الروح- خلال الأيام الثلاثة الأولى أكثر من كل الخير والهدوء اللذين رأتهما خلال كل حياتها الدنيوية. فتشعر برضى وسعادة لم تشعر بمثلها قط في حياتها الأرضية[٢].

وبعد انقضاء الليالي الثلاث تنطلق روح الصالح للتجول بين النباتات ذوات الروائح العطرة، الروائح التي تعتقد بأنها الأفضل من بين تلك التي عرفتها. تهب هذه النسمة العطرة من الجنوب، من عند الإله. وتتبع هذه النسمة فتاة رائعة، هيفاء، ذات نهدين منتصبين وأصابع طويلة وجسد منير، ذات نظرات هادئة وجذابة، هذه الفتاة تربّت وسط الأعمال الخيرة، وهي تجسد إيمان الإنسان الصالح. وتسأل روح الصالح تلك الفتاة: من أنتِ ولمن أنت؟ لم أر قط فتاة بمثل جمالك وحسنك على الأرض. فتجيب الفتاة: أنا أعمالك أيها الشاب الخلوق، الصادق وصاحب اللسان العذب! فبفضل رغباتك وأفعالك أصبحتُ عظيمة، طيبة، ناصرة، طاهرة وذات رائحة عطرة. هذا لأنك أنشدت الترانيم الدينية، وقدّست المياه الطاهرة، وحميت النار ورحبت بالمؤمنين القادمين، سواءً من الأماكن البعيدة أو القريبة. كنتُ جليلة، جميلة وقيمة، فجعلتني أكثر إجلالاً وجمالاً وقيمة. كنتُ جالسة في مكان مشهور، لكنك أجلستني في مكان أكثر شهرة، وكنت مُكرّمة، لكنك جعلتني أكثر مكرمة بوساطة أفكارك الطيبة، كلماتك الطيبة وأفعالك الطيبة. سيقدّسونك بعد موتك أيها الصالح بسبب عبادتك الكثيرة لأورمازد وحديثك معه؛ لأن الذي يعبدُ أورمازد كثيرًا ويتحدث إليه سيجازى بالسّكينة.

ومن ثم اتسع جسر جينفات بقدر طول تسعة رماح، وبعون الإلهين سراوش وآدور اجتزتُ الجسر بسعادة وبهاء وشجاعة ونصر، أخذاني من يديّ آدور وراشنو وقالا لي: تعال معنا لنريك الجنة والمجد، السّكينة، الوفرة، الخير، السعادة، الرضى، السرور ورائحة الجنة التي تنبعث من أعمال الصالحين.. لنريك الجهنم والظلام، الضيق، الشدّة، الحرمان، الشر، الحزن، الألم، الأمراض، الشجن، الخوف، النتانة، العذاب وجميع أنواع العقاب الذي يتعرض له الأبالسة، السحرة والآثمين، سنريك الجزاء الحقيقي جراء الإيمان بأورمازد، الخير، الجنة، الشر في الجهنم، وسنريك وجود البعث. سنريك العذاب والآلام التي يتعرض لها الآثمون من عَبَدة أهريمان، الأبالسة والمفسدون. وصلتُ إلى مكان، حيث رأيتُ فيه أرواح بعض البشر معاً، فسألتُ النبيل الناصر سراوش والإله آدور: "ما هذه الأرواح ولماذا تقف هنا؟". فأجاب النبيل سراوش و آدور: يُسمى هذا المكان

---

[١]- أنظر: المرجع السابق، ص ٨٧١. بتصرّف.

[٢]- نفس المرجع السابق، ص ٨٧٧. بتصرّف.

(المطهّر)، وستقف هذه الأرواح هنا حتى يوم البعث. هذه أرواح أولئك الناس الذين تتساوى أعمالهم الخيرة والشريرة. أخبر الأحياء على الأرض بألا ينفروا من الأفعال الأخيرة في وقت الجشع والأسى، لأن الإنسان الذي تزيد أفعاله الخيرة على آثامه سيدخل الجنة، والذي تزيد آثامه فسيبقى في المطهر حتى يوم البعث[1].

وبتأملنا ما ورد أعلاه في قصة فيراز نستخلص عددًا من النتائج الأساسية أبرزها أن أرواح الصالحين سوف تحيا حياة ثانية في الجنة، كنتيجة لسلوكيات صاحبها الخيّر في حياته الدنيوية الأولى. والعكس صحيح، إذ سوف تحيا أرواح الآثمين والمجرمين في جهنم، كنتيجة لسلوكيات صاحبها أيضاً في الدنيا.

كما أن النص يؤكد المعتقد الوارد في المبحث السابق، والمرتبط بتحديد فترة العزاء بثلاثة أيام، وهو أن روح الميت تمكث في الأيام الثلاثة الأولى عند رأس الجسد، ولا تغادر الدنيا إلا في اليوم الرابع.

بالإضافة إلى تكرر الحديث في النص عن نقطتين هامتين، الأولى هي: (جسر جينفات) المشابه للصراط في الإسلام وغيره من الأديان ، والثانية هي: (المطهر). ولابد هنا من الاسترسال والاستعانة بمراجع أخرى لأهمية النقطتين.

فجسر جنيفات أو (جينفات) شديد الارتباط بمبحثنا (خلود الروح) حيث اقترن ذكر هذا الجسر بخلود ضمائر وأرواح الأشرار من الأمراء وغيرهم في مقر الشر إلى الأبد في عدة نصوص، أظهرها كمثال هذه الآية:

﴿ الذين يقدمون التضحيات، والأمراء المشعوذون. قد أخضعوا البشر لنير سيادتهم ليدمروا الوجود بوساطة أعمال الشر. سوف يلقون العذاب بأرواحهم وضمائرهم عندما يأتون إلى جسر جينفات، وإلى الأبد سينزلون في مقر الشر﴾[2].

كما ورد الحديث عن مرور الأرواح فوق جسر جينفات وهي تردد هتافات الخلاص، بجانب الحديث عن تقديم الأضاحي طلبًا للخلود المقدّس، وبجانب الكلمات التي يوصي إله زرادشت بقولها للنجاة من جهنم، وكل ذلك في نص واحد عبر هذه الآيات المتتالية، التي يفهم من مجموعها بلا شك إيمان "الزرادشتية" بالحياة الثانية الخالدة بكل ما فيها من نعيم وعذاب:

﴿ ونقدم الأضاحي إلى الخير، والرفاهية التامّة المقدسة والمسيطرة في مسلكها الشعائري، ونقدم الأضاحي للخلود المقدس، وفي نفس الوقت نقدم الأضاحي إلى سؤال المولى وإلى معرفته، وإلى القادة الكبار وإلى ياسنا ذات الفصول السبعة البطولية وإلى المولى المقدس للنظام الشعائري. ولك أقول يا زرادشت اجعل لك رفيقاً مقدساً أسمى من القدسية، وأصدق من الصداقة لأجل ذلك الشيء الأحسن. لأن الشخص الذي يكون الأفضل بالنسبة للشرير يكون شريراً. والشخص الذي يكون الأمثل بالنسبة للمقدس يكون مقدساً مثله. لأن هذه هي الكلمات المثلى التي تفوه بها آهورامازدا مع زرادشت. وأنت يا زرادشت الفظ بهذه الكلمات في النهاية الأخيرة لحياتك. يا زرادشت! إذا نطقت بهذه الكلمات في النهاية الأخيرة لحياتك أنني آهورامازدا سوف احتفظ بروحك بعيداً عن

---

[1]- نفس المرجع السابق، ص ص ٨٧٧ - ٨٧٨. بتصرّف.

[2]- كتاب (الأفستا) المقدّس: صلاة زرادشت بعد منفاه، الآية ١١، ص٨٤.

الجهنم. نعم، سأبقيها بعيداً بعرض وطول الأرض وبقدر ما تكون الأرض واسعة وطويلة. كما ترغب أيها المقدس! وهكذا ستكون لتجعل روحكَ تمرُّ فوق جسر جينفات وستصعد إلى السماء، مرتلة أوشتافايتي كاتا، مرددة هتافات الخلاص﴾[١].

وجسر جينفات هو طريق المؤمنين إلى الجنة أو بيت الخلود، وطريق المجرمين إلى هاوية جهنم الأبدية المظلمة. ويسمّى جسر جينفات أيضاً (جسر الانفصال)، وسبب التسمية هو أن الزرادشتيين يعتقدون أنه عندما يموت الناس فإن أرواحهم لابد أن تمرّ بهذا الجسر من أجل التصفية، فأما الأرواح الطيبة فإنها تمر عليه وهي مطمئنة إلى المصير الذي ينتظرها عندما تصل إلى الجانب الثاني، الذي يسمونه **(بيت الخلود)**، حيث تستقبلها هناك فتاة عذراء حسناء ذات قوة وبهاء وصدر ناهد مليء، وتقودها إليها لتعيش مع "أهورامزدا" في نعيم مقيم أبد الدهر. وأما الأرواح الشريرة، فإنها حين تقف على جسر الانفصال هذا، ترتعد وتخاف وترتجف من الفزع، ولا تستطيع اجتياز الجسر لما تحمله من ذنوب، فتردى في درك من الجحيم يتناسب عمقه مع ما اقترفت كل روح من ذنوب وخطايا، وهذا الجحيم عبارة عن هاوية مظلمة تثير الرعب، وتضرب فيها الأرواح المذنبة الشريرة إلى الأبد.. أما إذا كانت حسنات الإنسان ترجح سيئاته، فإنه يقاسي عذابًا مؤقتاً يطهره من الذنوب، وإذا كان قد ارتكب كثيرًا من الخطايا ولكنه فعل بعض الخير لم يلبث في العذاب إلا اثني عشر ألف عام، ثم يذهب بعدها إلى الجنة[٢].

أما المطهّر فالحديث عنه مرتبط بقوة بإثبات خلود الروح، وقد كثر الحديث عن هذا المطهر بصياغات كثيرة متفاوتة ومختلفة عن بعضها نسبيًا، ومن ذلك الحوار الذي حدث بين زرادشت وأحد الملوك، وقصة الحوار متكررة وهامة جدًا من حيث التأكيد على أمور كثيرة، منها الخلود، ويوم الحساب، وبعث الأموات، والمطهر، وذهاب الأرواح الخيرة إلى الجنة في دوام سرمدي، والشريرة إلى الجحيم والمعدن الملتهب الذي تخلد فيه إلى الأبد.

سنأخذ من الحوار الطويل ما يهمنا، ابتداء من قول زرادشت للملك: عندما يموت الإنسان تذهب روحه إلى الحفيظ على كتاب الحياة، فإن كانت أفكاره وكلماته وأفعاله الخيّرة أعظم من أفكاره وكلماته وأعماله الخبيثة ذهبت إلى الجنة وإلا ذهبت إلى عذاب الجحيم. فسأله الملك: وهل يستمر هذا الأمر طويلا؟ ويقصد الملك -حسب ما فهمت من بداية الحوار- هل يطول انتظار المصير؟. فأجاب زرادشت: كلا يا صاحب الجلالة؛ لأن يوم الحساب قريب، وفي ذلك اليوم ينتصر الإله الواحد على الشر، عندئذ يُبعث الموتى ويقع النجم المذنب على الأرض، فتشتعل وتذوب جميع المعادن، فتنتشر على الأرض كأنها سيل ملتهب، وعلى كل الناس الأحياء والأموات المبعوثين أن يعبروا مجرى السيل الذي يبدو للأرواح الخيرة وكأنه لبن دافئ، فيطهّرهم المرور به ويمضون منه إلى الجنة، وأما الأرواح الشريرة فتظل تحترق إلى الأبد خالدة في المعدن الملتهب. وعندئذ يطرد الإله الخير روح الشر وكل من يتبعه من الأرواح الخبيثة إلى وسط الأرض ويدعها فيها إلى الأبد، وفي ذلك اليوم يبدأ العالم السعيد الخير الذي لا شر فيه ويدوم سرمدياً[٣].

---

[١]- كتاب (الأفستا) المقدّس – هايتي ٧١: الياسنا تختتم، الآيات ١٢ – ١٣ – ١٤ – ١٥ – ١٦، ص ٢٠٧.

[٢]- أنظر: سليمان مظهر، قصة الديانات، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط٤، ١٩٩٥م، ص ص ٣١٢ – ٣١٣.

[٣]- أنظر: سليمان مظهر، قصة الديانات، مرجع سابق، ص ص ٣٠٠ – ٣٠١.

وبالإضافة إلى كل ما ورد في الحوار السابق وفي كتاب فيراز الصالح، نجد أيضاً في نصوص "الأفستا" آيات كثيرة تؤكد موضوع بقاء الروح في العالم الآخر، ومنها هذه الآيات المتتالية التي تحدثنا عن أرواح خالدة، وجنة نورانية، وآلاف من السنين تسبق يوم البعث، ومملكة النور اللانهائية:

﴿ لتكن الجنة من نصيب فيشتاسب ابن لوهراسب، وزارر وباستفار، وكذلك سباندياد، والفراشافارد جاماسب، غراميغ - كارد ابن جاماسب، بادخوسراف المدافع عن الدين، هؤلاء الذين بأنفسهم خلّدوا أسمائهم. لتكن درجات كل الأمراء والأبطال والمحاربين عالية في الجنة النورانية، في (مملكة النور اللانهائية)، تلك هي الأماكن الرفيعة للجبابرة العظماء. ليكن من نصيب الكل ولادة الأولاد، لتصير الأرواح خالدة، لأن دنباناه كتب :دع هذا الشاد يكسب النصر، ودع شهزاد ابن شاد يحافظ عليها .ليكن مباركاً بيت النبيل، وبيت الماغ [الكاهن المجوسي] خلال آلاف السنين حتى يوم البعث!﴾[١].

والعبادة والأعمال الخيّرة الكثيرة هي **(طريق الخلود)** أي أنها السبيل للخلود، وهي الذخر للعالم الآخر ويوم الحساب، كما يظهر في هذا النص الدعائي الذي يطلب فيه من الخالق أن يمنحهم هباته وكرمه:

﴿ بوفرة الأعمال والكلمات والعبادة ستمنحنا يا مازدا الخلود والحق وسيادة الخير. يا آهورا نطمح أن تمنحنا هباتك السخية. بوساطة عقلك الخير يا مازدا، وبأعمال سيينتا آرمايتي يرفع الإنسان المقدس، الذي اتحدت روحه مع الحق وأعماله في ترنيمة التسبيح والتمجيد. هلا جعلت لأعماله ذخراً له في عالمك الآخر يوم الحساب﴾[٢].

ورغم أن الزرادشتية تحث على كثير من الأعمال الصالحة والفضائل، إلا أن بعض الفضائل ارتبطت بموضوع الخلود بشكل أكبر من غيرها، وعلى رأس ذلك فضيلتان هما **(الطهر والأمانة)**، فقد نصّت الزرادشتية على أنهما يؤديان إلى الحياة الخالدة[٣].

كما أن الخلود يتكرر كثيراً في نصوصهم بكلمات وجمل مرادفة، ومنها مثلا **(الإقامة الأبدية)**، والنصوص في هذا عديدة، كهذا النص -مثلا- الذي يربط الإقامة الأبدية بالحكمة، بمعنى أن الحكماء في الدنيا تكون لهم إقامة أبدية في العالم الآخر:

﴿ عسى أن نكون نحن هؤلاء الذين يجددون هذا الوجودَ، فليقوّنا آهورامازدا، فلتقوّنا القداسة. والذي يكون حكيماً هنا، ستكون له إقامة دائمة هناك، حيث تعيش الحكمة. حينئذ يتوقف الشر عن الازدهار. بينما هؤلاء الذين اكتسبوا الصيت الطيب. سيَجْنون المكافأة الموعودة. في المستقر المبارك للعقل الخيّر والرب الحكيم، والحق﴾[٤].

---

[١]- كتاب (الأفستا) المقدّس – نسخ MK و JK، الآية ٦، ص ٨٦٨.
[٢]- كتاب (الأفستا) المقدّس – هايتي ٣٤: مشيئة آهورامازدا، الآيتان ١ – ٢، ص ٧١.
[٣]- وِلْ ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج ٢، ص ٤٢٨.
[٤]- كتاب (الأفستا) المقدّس – هايتي ٣٠: مبدأ الثنوية، الآيتان ٩ – ١٠، ص ٦٤.

ولكن زرادشتُ **(شكَّ في الخلود)** والبقاء الأبدي، وهذه قضية خفية لا يمكننا تجاهلها، حيث إننا بتأمل النصوص نجد بالنظرة العقلية التأملية العامة، أن زرادشت يعتمد في إيمانه بالخلود والحياة الثانية على (وعود آهورامزدا)، فدائمًا تتكرر مع مسألة الخلود كلمات من قبيل: وعدنا، وعود، وعدتنا، الوعد... الخ، كما نجد في هذا النص على سبيل المثال:

﴿هو عارف الروح ويدعى آهورامزدا الذي وعدنا من خلال الحق والفكر الخيّر بأن الخير والخلود سيكون لنا في ملكوته، وأن القوة والأبدية في مقامه﴾[١].

ولكن الوعود ليست صادقة دائمًا كما هو معلوم، فهناك من يفي بوعده أو بوعوده، وهناك من لا يفي بها، فهل كان "زرادشت" واثقاً في أن إلهه سيفي بوعوده ويمنحهم الحياة الأبدية؟

لا يظهر ذلك، بل على العكس، فلغة زرادشت تبدو قلقة، وإيمانه لا يصل إلى درجة اليقين في عدد من النصوص المقدسة، حيث يسأل في هذين النصين مثلا إلهه بصياغة الشاك المتردد الوجل، وكأنه يقول له: هل أنت صادق معنا أم أنك تكذب علينا؟!، هل ستمنحنا الخلود في الجنة فعلا أم أنها مجرد وعود وأحلام وآمال لن تتحقق:

أ- ﴿هذا ما أسألك عنه يا آهورا فاصدقي القول: هل رب السيادة الراسخة الذي هو أنت يا مازدا سَيفي بوعوده بأن يمنح الكمال والجنة لكل إنسان متبصر؟﴾[٢].

ب- ﴿ هذا ما أسألك عنه يا آهورا فأصدقني القول: هل سأبلغ غايتي من خلالك يا مازدا وعساني أن أكون معك. هذا ما أسألك عنه يا أهورا فأصدقني القول: هل سأحصل على مكافأتي بوساطة آشا عشرة أفراس مع حصان وجمل، التي وعدتني بها يا مازدا، بالإضافة إلى هبة الخير والخلود؟﴾[٣].

كما أن تكرار زرادشت الدعاء بالخلود، وإلحاحه في طلبه من إلهه، قد يعضد كلامنا السابق ويقوية، حيث يوحي بشيء من الشك والخوف من العكس، أي من عدم الحصول على الخلود، ومن أبرز تلك الدعوات قوله:

﴿ يا خالق الكائن، النباتات والمياه، امنح الخلود، يا مازدا. يا أيتها الروح السخية امنحي الخير أيضاً﴾[٤].

ولكن نصوص التساؤلات التي توحي بالشك قليلة في الحقيقة، إذا قارنها بالآيات الواثقة الكثيرة في القطع بوجود الاعتقاد الراسخ بخلود حقيقي للروح وحياة ثانية في عالم آخر لاحق.. ومنها هذا النص الذي يؤكد أن خلود الروح مقترن بالسرور أيضًا للإنسان الصالح، وفي المقابل هو خلود أبديّ في العذاب للأشرار:

---

[١]- كتاب (الأفستا) المقدّس – هايتي ٤٥: الوجود، الآية ١٠، ص ٨١.
[٢]- كتاب (الأفستا) المقدّس – هايتي ٤٤: وصايا بصيغة أسئلة، الآية ٩، ص ٧٨.
[٣]- كتاب (الأفستا) المقدّس – هايتي ٤٤: وصايا بصيغة أسئلة، الآية ١٨، ص ٧٩.
[٤]- كتاب (الأفستا) المقدّس – هايتي ١٨، الآية الأولى والوحيدة في هذا النص، ص ١٥٢.

﴿**هو الذي يجازي ويُقدّر ما سيناله البشر الذين يعيشون، أو الذين عاشوا، أو الذين سيعيشون. فستنال روح الإنسان الصالح الخلود والسرور، وستبقى روح الكاذب الشرير في العذاب إلى الأبد**﴾[١].

ومنها أيضًا هذا النص الواثق الذي يصفه بأنه (أفضل شيء يسمعه البشر)، وفيه يضع الخلود ونيل الخلود كنتيجة مبنية على طاعة الإله القدوس: ﴿**أتحدث عن تلك الكلمة التي أخبرني بها القدوس كأفضل شيء يسمعه البشر، حيث تقول: هؤلاء الذين يسمعونني ويؤدون الطاعة له، سينالون الخير والخلود بوساطة أفعال فاهومانو**﴾[٢].

وارتباط الخلود بطاعة الإله أمر ذائع عن الزرادشتيين، بالإضافة إلى أن خلود النفس الأبدي في النعيم خاصة، يكون تعويضًا عن الحرمان في الدنيا، أما الخلود في العقاب الأبدي فهو نتيجة أيضًا للآثام في الدنيا، وهذا ما لخصه الدكتور علي المغربي في معرض حديثه عن المعاد في الزرادشتية، إذ يقول: "ولقد قال زرادشت بالمعاد، فإن خيار الناس ينالون في الحياة الآخرة ما يستحقون من الجزاء، تعويضاً لحرمانهم في الحياة الدنيا، كذلك سينال الآثمون جزاءهم من العقاب على ما اقترفوه في الحياة الدنيا، فقد جاء في كتاب الأبستاق: **سوف تبتهج نفوس الخيرين في الحياة الثانية الخالدة، كما سيتعذب الكاذبون إلى الأبد**".[٣]

وهناك رمز دائري لخلود الروح في الزرادشتية، وهو جزء مهم وواضح في رسومات ومنقوشات (الفروهر – Farohar) المنتشرة عند الزرادشتيين، والفروهر هذا هو الملاك في الديانة الزرادشتية، وهو الروح الموجودة منذ الأزل، وستستمر في الوجود بعد الموت. ويذكر الفروهر الناس بسبب وجودهم في الحياة على الأرض، والعيش بطريقة تجعل الروح تتسامى وتتحد بالإله آهورامزدا، وهذه الحالة تدعى في الأفستا فرشته كرتي، ويمكن ترجمتها إلى السمو أو الاتحاد مع الذات الإلهية كما في المصطلح الصوفي. ووجه الفروهر وجه إنسان، فهو من البشر، ولكل جزء من أجزائه شرح لا يهمنا كثيرًا هنا الإسهاب فيه ولا في غيره من التفاصيل الكثيرة لأجزاء الفروهر، باستثناء جزء واحد فقط هو ما يهمنا، وهو **(الدائرة)** التي تظهر في وسط هذا الملاك، كما نلاحظ:



فهذه الدائرة التي نراها في وسط كلّ الصور السابقة وغيرها من نقوشهم المختلفة، ترمز إلى **(لانهائية الروح)**، فهي دائرة الخلود، وليس لها بداية ولا نهاية[٤].

---

[١]- كتاب (الأفستا) المقدّس – هايتي ٤٥: الوجود، الآية ٧، ص ٨٠.

[٢]- كتاب (الأفستا) المقدّس – هايتي ٤٥: الوجود، الآية ٥، ص ٨٠.

[٣]- د. علي عبدالفتاح المغربي، الفكر الديني الشرقي القديم، مكتبة وهبة – القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص ٤٧ .

[٤]- مصدر الصور والفقرتين السابقة والتالية لها: د. مؤيد عبد الستار، صخرة زرادشت الحكيم، مقال في جريدة "الاتحاد" الوطني الكردستاني، الصفحة الأخيرة، ٥ ديسمبر ٢٠٠٥م. بتصرّف.

ومن كل ما سبق يتضح لنا أن الزرادشتيين يؤمنون بخلود الروح في العالم الآخر، وبنعيم الجنة وعذاب جهنم.. كما أنهم يؤمنون أن جنة ديانة زرادشت تشبه الجنة التي جاء وصفها في الإسلام، ولكنّ اعتقادهم بقدسية النار دفعهم إلى القول بأن مأوى العاصين مكان بارد جدّاً وقذر ومليء بأنواع الدوابّ التي تنزل نقمتها بهم وتؤذيهم"[١].

ولكن هذا لا يكفي للإلمام الكامل وتكوين التصوّر الدقيق الشامل عن مصير الأرواح في الحياة الثانية، ولهذا نحن بحاجة لمزيد من التركيز على النقاط الكبرى الرئيسية باستعراض شمولي لأحداث **(يوم القيامة)** منذ أن تقوم الساعة كما يعبّر الكثيرون وإلى أن تصل الأرواح إلى أماكن الحساب والإقامة الأبدية في السعادة والنعيم، أو في التعاسة والشقاء، مرورًا بإجراءات (محاكمة الميت).

إن الساعة ستقوم -وفق الزرادشتية- نتيجة حادث فلكي ضخم، حين يصطدم بالأرض أحد الكواكب، فتميد الأرض بالناس وتخر الجبال هدّا، وتذوب العناصر ويصهر النحاس ويسيل إلى جهنم، ويفنى "أهريمان" وعناصره من الشياطين، ويُغسل الناس في منصهر النحاس، ولكنه لن يضر الأخيار، الذين سيجدونه بردًا وسلامًا عليهم[٢].

وقد شرح "سفر اليسنا" ذلك بجمل مختلفة ظاهرة، فأخبر أنه سيحل زمن تنتهي فيه وظيفة الإنسان على الأرض، فتتوقف الحياة لارتباطها القوي بالإنسان المكلّف من ناحية؛ ولأنها –من ناحية ثانية- بلغتْ حدَّ الكمال المقدّر لها، فحينها تقوم الساعة، فتميد الأرض بمن بقي من البشر، وتتناثر الجبال، وتخرج المعادن من باطن الأرض، وتندلع النيران في كلِّ الأرجاء وتقضي على جميع الأحياء[٣].

وبذلك يتضح أن زرادشت أيد تمامًا فكرة انتصار الخير في نهاية الصراع الطويل، واندحار الشر وزواله، فقد وضع زرادشت عقيدة شاملة عن الأخرويات (فلسفة الحشر والنشر)، التي يعتبرها الكثيرون النواة العقائدية الأولى التي عرفها الإنسان في مجال الدين، فانعكست بعض آثارها على بعض الرؤى اللاحقة في اليهودية والمسيحية والإسلام وغيرها من الملل. ومن معتقدات زرادشت في هذا الصدد، أنه ستكون قيامة عامة في آخر الزمن. ثم تكابد قوى الخير والشر تجربة نارية محرقة في معدن مذاب. وفي هذه التجربة سيهزم روح الشر وأتباعه، وسيعلن بعد ذلك عصر ذهبي وقيام (ملكوت أهورامازدا)[٤].

ثم يجمع بعد ذلك "أهورامزدا" الخلائق ويمدهم بحياة جديدة ويجازيهم بأعمالهم. وكل ذلك خاص بمن يكونون قيد الحياة وقت قيام الساعة. أما الذين يموتون قبل ذلك فتحاسب أرواحهم عقب موتهم مباشرة، وذلك –وفق ما مرَّ معنا سابقاً- حيث إن الروح تحوم عقب الوفاة فوق الجسد ثلاثة أيام تشقى فيها أو تنعم وفقاً لسيرة صاحبها في الحياة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وفي اليوم الرابع تهب من الجنوب على الروح الصالحة ريح طيبة تتضوع بالمسك وتتلقى روح الميت عند أول الصراط "بل جنوات" أي جسر المفارقة المضروب فوق جهنم، بفتاة بيضاء الذراعين منقطعة النظير في جمالها، فتسألها من أنت؟ فتقول: أيها الشاب الطيب السريرة، الطيب القول، الطيب العمل، أنا

---

[١]- مركز نون للتأليف والترجمة، دروس في الأديان، الناشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، نسخة pdf بلا رقم طبعة ولا تاريخ. ص ٧٣.

[٢]- أنظر: يسر محمد سعيد مبيض، اليوم الآخر في الأديان السماوية والديانات القديمة، دار الثقافة – الدوحة، ط١، ١٩٩٢م، ص ٤٣.

[٣]- أنظر: د. الشفيع الماحي أحمد، زرادشت والزرادشتية، مرجع سابق، ص ٤٧.

[٤]- أنظر: حبيب سعيد، أديان العالم، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية – القاهرة، ١٩٧٧م، ص ١٥٣.

وجدانك وضميرك، كنتُ محبوبة فزدت الناس محبة فيّ، وكنتُ جميلة فزدتني جمالاً، ورفعتَ من شأني بفكرك الصالح وقولك الطيب وعملك المبرور. ثم تمضي الروح بإرشاد هذه الفتاة وهدايتها إلى حضرة (أهورامزدا) فتعبر الصراط إلى الجنة ويستقبلها ملك جالس على كرسي من ذهب، ويرحب بها بكلمات جميلة. وعلى العكس بالنسبة لروح الشقي صاحب الشر، حيث تقابل مخلوقاً بشع الصورة منتن الرائحة أو عجوز مفزعة، وتعجز هذه الروح عن تجاوز الصراط فتهوي في النيران الملتهبة[١].

ونأتي الآن إلى القضاة وميزان الأعمال، في **(إجراءات محاكمة الميت)** فلابد من التعريج عليها، لملامستها موضوع الخلود وأهميتها الكبرى له. ففي هذه المحاكمة يطلب من كل إنسان أن يقدم حسابًا عن كل ما جنته يداه حين كان في الجسد، وعلى ضوء ما يقدمه يتحدد مصيره، فإن كان مطيعًا لأوامر وتعاليم زرادشت وممتثلا لها، فإنه سينجو وينعم في دار النعيم، وإن كان العكس فمصيره العذاب الأبدي في الجحيم.. أمّا الذين تتساوى حسناتهم وسيئاتهم، فإنهم يذهبون إلى مقام وسط، يقع بين الأرض والكواكب، يبقون فيه يعانون في انتظار مصيرهم إلى يوم الدينونة الأخير[٢].

أما القضاة، فعلى باب مكان المحاكمة يوجد ثلاثة قضاة بينهم (ميتهرا) وهناك يُنصب ميزان توضع في إحدى كفتيه حسنات الميت، وفي الأخرى سيئاته، وبناء على صعود إحدى الكفتين أو هبوطها يصدر الحكم على مصير هذا الميت، ثم يؤمر من تمت محاسبته بالمرور فوق المعبر أو الصراط – الذي أشرنا إليه سابقاً- الممتد فوق الجحيم الذي يتسع أمام الأخيار فيعبرونه إلى (دار النور) ويستقبلهم "آهورامازدا" وهناك يستمتعون بالخلود في السعادة الأبدية، ويضيق حتى يكون أدق من الشعرة وأحدّ من الشفرة أمام الأشرار الذي يسقطون منه ويتهاوون في جحيم ملتهب مظلم يتزاحمون فيه[٣].. ولم أجد في الحقيقة أيَّ مرجع خالف في إيمان الزرادشتيين بخلود الروح، حيث اتفقتْ كلُّ المصادر التي اطلعت عليها على أن الأرواح خالدة في العالم الآخر، وفق الشرح الوارد أعلاه، واتفق غالبها أيضًا على أن "أهورامزدا" يتولى بنفسه حساب الناس، حيث تقوم مملكته، ويسقط أهرمن ويهلك هو وجميع قوى الشر هلاكا لا قيام لهم بعده. فتبدأ الأرواح الطيبة في حياة جديدة سعيدة خالية من كل الشرور والآلام والظلام والأحزان[٤].. ولكن الاختلاف جاء عند الحديث عن (خلود الجسد)، كما سنعلم في المبحث القادم.

ومن المناسب أن نختم بتلخيص سريع للمبحثين السابقين قبل الانتقال إلى خلود الجسد. فربما يصح القول إذا قلنا: إن (الزبدة المركزة) للمبحثين السابقين، هي أن إيمان الزرادشتيين الفرس لم يكن مقتصرًا على خلود الروح فقط، بل كانوا يؤمنون أيضًا بمبدأ "التعويض بعد الموت" أي الإدانة والإثابة في الحياة الثانية الأبدية.. أما طقوس الموتى لديهم، فخلاصتها أن الإنسان لابد أن يكون عاريًا لا يكسوه شيء إلا نور السماء، ومن هنا نشأت أبراج الداهما، التي تتعدد تسمياتها، فتسمّى أبراج الصمت، وأبراج السكوت، بالإضافة إلى تسمية رابعة هي "أبراج السكون"، حيث تبدأ رحلة الميت بوضعه عليها ووجهه للشمس، لتنهشه طيور السماء.. أما الروح فتبقى تحوم فوق رأس الميت ثلاثة أيام، حيث تظل طيلة هذه الأيام الثلاثة موضع صراع بين الأرواح الخيرة والأبالسة، بين

---

[١]- أنظر: يسر مبيض، اليوم الآخر في الأديان السماوية والديانات القديمة، مرجع سابق، ص ٤٤.
[٢]- حبيب سعد، أديان العالم، مرجع سابق، ص ١٥٤.
[٣]- أنظر: يسر مبيض، اليوم الآخر في الأديان السماوية والديانات القديمة، مرجع سابق، ص ٤٤.
[٤]- أنظر: سليمان مظهر، قصة الديانات، مرجع سابق، ص ٣١٣.

الفردوس والجحيم، وكل منها يحاول السيطرة عليها. ثم تغادر في اليوم الرابع عبر قنطرة الحساب، التي تسمّى أيضاً (قنطرة شنقات)، وبعد المغادرة، تظهر روح الإنسان الصالح في صورة فتاة جميلة من جنس شريف، أو تظهر –في المقابل- روح الإنسان الشرير الذي لم يتبع الحق في صورة شيطان تقودها الزبانية إلى عالم الخلود الأبدي في مقر الأرواح الشريرة والعذاب السرمدي الأليم[١].

---

[١]- أنظر: عزت زكي، الموت والخلود في الأديان المختلفة، صادر عن الكنيسة الأسقفية، دار الجيل للطباعة، القاهرة، ص ٩٩.

المبحث الرابع:

خلود الجسد في عقائد قدماء الفرس.

هناك إشكال كبير جلي في هذا المبحث يظهر بالشكل التالي:

١- لدينا نصوص مختلفة من نصوص الزرادشتيين المقدسة وغيرها، يُفهم منها بشكل مؤكد أن "الزرادشتية" تؤمن ببعث الأجساد وحياتها في العالم الآخر، بل وخلودها مع الأرواح كما سيظهر من النصوص الكثيرة أدناه.

٢- لدينا نصوص أخرى مختلفة أيضًا يفهم منها أن الزرادشتيين لا يؤمنون بوجود حياة ثانية للجسد، وأن البقاء بعد الموت هو للروح وحدها، أما الجسد فمصيره للفناء، ومن هذه النصوص نصوص زرادشتية مقدّسة، ونصوص أخرى موجودة في عدّة مراجع.

٣- كيف يمكن الجمع بين النصوص الأولى والنصوص الثانية، بشكل نستطيع من خلاله بناء التصوّر الصحيح عن معتقدهم في هذه المسألة؟.

سنستعرض في البداية عددًا من أبرز نصوص المجموعة الأولى، ثم عددًا من أبرز نصوص المجموعة الثانية، ثم ننتقل بعد ذلك إلى موضوع التوفيق ومحاولة درء التعارض بينها.

فمن المجموعة الأولى التي تدل بوضوح على إيمان الزرادشتيين ببعث الأجساد في الآخرة وارتباط ذلك بدخول الجنة والتنعم بخيراتها، أو النار وعذابها ومآسيها، قول فيراز الصالح في هذا النص الواضح في دلالته:

(رأيتُ أرواح الآثمين الذين ابتلعوا ما تغوّطوه، تغوّطوا وابتلعوا من جديد ما تغوّطوه، فسألتُ: لمن تعود هذه الأرواح؟. أجاب النبيل سراوش الإله آدور: هذه أرواح أولئك الآثمين الذين لم يؤمنوا في حياتهم الدنيوية بالعالم الروحي، لم يُبَجّلوا الإيمان بالخالق أورمازد، شككوا بخيرات الجنة، بمآسي الجهنم، بيوم الآخرة وبعث الأجساد الميتة)[1].

كما نجد في كتابهم المقدّس فصلا مستقلا خاصًا بموضوع البعث، وهو الفصل رقم (٣٠) المعنون بـ **(عن جوهر البعث)**، وسنستشهد بعدد من نصوصه، وعلى رأسها نص شديد الأهمية والارتباط ببحثنا، حيث إنه لا يكتفي بإثبات البعث فقط، بل يؤكد أن الروح سترى جسدها، ويؤكد أن هذا البعث ستتلوه حياة خالدة، وليس هذا فقط، بل شاملة لكل البشر، الذين سيخلدون إلى أبد الآبدين إمّا في العذاب وإمّا في النعيم:

(في البداية سترى الروح الجسد، وتسأله هذه الأسئلة وتلقى الجواب. سينطق كل البشر بصوت واحد وتحمد بصوتٍ قوي أورمازد والآماهر اسباندات. وسيكون أورمازد في هذا الوقت قد أنهى عمله، وكذلك المخلوقات والمبعوثين من الموت، بحيث أنهم لن يحتاجوا إلى إنجاز عمل آخر. سيقوم سوشيانس ومساعديه بتقديم القربان من أجل بعث الأموات، ولهذا فإنهم سيقتلون الثور

[1]- كتاب (الأفستا) المقدّس – عن فيراز الصالح، ص ٨٩٣.

هاديوش، ومن شحم هذا الثور والهوم الأبيض سيحضرون "شراب الخلود" وسيعطونه لكل البشر، وكل البشر سيصبحون خالدين إلى أبد الآبدين)[١].

وهو يقول أيضاً: إن الإنسان الذي بلغ سن النضج سينبعث في الأربعين عاماً، والذي كان صغيراً ومات، فسينبعث في سن الخامسة عشر. وسيعطون لكل واحدٍ زوجة وطفل، وإنهم سيتعاشرون تماماً كما لو كانوا على الأرض، ولكن لن ينجبوا الأطفال. بعدها يأمر الخالق أورمازد سوشيانس أن يوزع على البشر العقاب والثواب كل حسب أعماله، وهو يقول: هناك أتقياء يذهبون إلى الجنة والجنة الجبلية لأورمازد، لأنهم استحقوا ذلك وأجسادهم ترتفع لكي تتواجد وتمشي معهم إلى أبد الآبدين)[٢].

وزرادشت نفسه يسأل إلهه بكل مباشرة ووضوح: "كيف ستعيدُ بعث الأجساد التي جرفتها المياه والرياح؟"، فيجيبه الإله إجابة جليّة مفصّلة أيضاً في هذا الحوار المهم جدًا لنا في هذا المبحث، فالسائل هو زرادشت نفسه، والمجيب هو إله الزرادشتيين، والسؤال عن بعث الأجساد في الحياة الثانية:

(زرادشت سأل أورمازد: من أين سيؤتى بالجسد مرة أخرى، الذي أخذته الرياح وجرفته المياه؟ كيف سيحدث بعث الموتى؟. أجاب أورمازد: إذا كنتُ قد خلقتُ السماء من دون أعمدة وعلى أساس غير مرئي، وخلقتُ الضوء المنبسط على امتداد بعيد من مادة المعدن البراق، إذا كنتُ قد خلقتُ الأرض التي تحمل كلَّ العالم المادي، ولا شيء يحمل العالم غيرها، إذا كنتُ قد أرسلتُ إلى الفضاء الأجرام المضيئة: الشمس والقمر والنجوم، إذا كنتُ قد خلقتُ الحبة التي إذا ألقيت بها على الأرض تنمو وتتضاعف، إذا كنتُ قد خلقتُ ألواناً شتى في النباتات، إذا كنتُ قد خلقت النار في النباتات وفي مواد أخرى من دون حرقها، إذا كنتُ قد خلقتُ وشكلت في رحم الأم الابن، وشكلت بشكل منفصل الجلد، الأظفار، الدم، الأرجل، العيون، الأذنين والأقسام الأخرى من الجسم، إذا كنتُ قد خلقتُ أرجلاً للماء بحيث تستطيع أن تركض، وخلقتُ الغيمة التي تحمل الماء من الأرض وتمطر بها هناك حيث تشاء، إذا كنت قد خلقتُ الهواء الذي رفع من الأرض إلى الأعلى وبقوة الريح يتحرك حسب رغبته، وهو يُرى بالعين، لكن الإمساك به غير ممكن، إن كل واحدة مما خلقتُ كان أصعب من تحقيق البعث، لأنه في البعث سيساعدني ذلك، لأن المخلوقات بالأصل موجودة وإذا كانت لم تخلق لكان بعثها خلقا من شيء لم يكن موجوداً. اعرفْ أنني إذا كنتُ قد خلقتُ ذلك الذي لم يكن موجوداً، فلماذا غير ممكن بالنسبة لي إعادة خلق ما قد كان موجوداً طالما في ذلك الوقت سيحتاج البشر من روح الأرض إلى العظام، من الماء إلى الدم، من النباتات إلى الشعر، من النار إلى الأعين التي حصلوا عليها أثناء خلق الأصل. في البداية سترتفع عظام گايومارد، ومن ثم عظام ماشيا وماشيانه، و من ثم سترتفع عظام باقي البشر. خلال سبع وخمسين سنة سيُحضر سوشيانس كل الأموات وسيبعث البشر: الصالحين منهم والمذنبين، كل واحد سيقوم من ذلك المكان، حيث خرجت منه روحه)[٣].

---

[١]- كتاب (الأفستا) المقدّس، الفصل (٣٠) عن جوهر البعث: ص ص ٨٢٩ – ٨٣٠.

[٢]- نفس المرجع السابق، عن جوهر البعث، ص ٨٣٠.

[٣]- كتاب (الأفستا) المقدّس، الفصل (٣٠) عن جوهر البعث، ص ص ٨٢٧ – ٨٢٨.

ويستمر إله زرادشت في شرح ما سيحصل في **(يوم الجمع)** حيث يعرف الإنسان أباه، وأخاه، وأمه، وزوجته، من خلال أجسادهم الماديّة.. ليس هذا فقط، فهناك تصريح قطعي المدلول أن الآثم (سيعاقب جسديًا) في جهنم، وأن المؤمن (سينعم جسديًا) في الجنة:

(عندما تأخذ كل الكائنات المادية جسدها وشكلها، حينها ستعطيهم الآلهة شكلاً واحداً، فيما يخص ضوء الشمس، فإن نصفه سيعطونه لكايومارد، والنصف الآخر لباقي البشر. حينها سيعرف الناس، أي الروح والجسد سيعرفان: هذا أبي، هذه أمي، هذا أخي، هذه زوجتي، وهذا قريب آخر من أقربائي. بعدها سيكون الجمع عند إيسادفا العجوز، وكل البشر الذين على هذه الأرض سيكونون في هذا الجمع. وكل واحد سيرى أعماله الجيدة والسيئة، حينها في هذا الجمع فإن الآثم سيكون مميزاً مثل الغنمة البيضاء في قطيع الغنمات. الصالحين والآثمين، فالصالح سيرسلونه إلى الجنة الجبلية، وأما الآثم فإلى جهنم. ثلاثة أيام بلياليها سيعاقبون الآثم جسدياً في جهنم، أما الصالح في هذه الأيام الثلاثة فسينعم بالسعادة جسدياً في الجنة الجبلية. مثلما هو يقول، في ذلك اليوم، عندما يفصلون بين الصالح والآثم)[1].

وهناك آيات مختصرة جدًا، وواضحة جدًا، في الدلالة القطعية على اعتقاد الزرادشتية بوجود خلود للأجساد، ومن أبرزها هذان النصان، حيث يتحدث النص الأول بوضوح تام عن الحياة الجسدية في الممالك الأبدية، وفيه دعاء للإله الذي يسكن هناك أن يهديهم إلى السبل الموصلة لتلك الممالك.. بينما نجد في النص الثاني دعاء للإله مازدا أيضًا، بأن يجعل أجسامهم تذهب له في السماء، حيث عالم الرفقة الكلية معه في النظام الخالد:

أ- ﴿هكذا، فإن ذلك أفضل من الخير الذي ربما يصل إليه. يا أيها الذي يبين لنا سبل الفائدة المتعلقة بالحياة الجسدية والروحية أيضاً، في الممالك الأبدية حيث يسكن آهورا﴾[2].

ب- ﴿لكي تُنار عقولنا، وأرواحنا بشكل أفضل، دع أجسادنا تمجد أيضاً. ودع يا مازدا أجسامنا المخلصة تذهب لك نحو السماء، كأفضل عالم للصالحين، مصحوبة بآشافاهيشتا الأكثر جمالاً عسانا نراك، وعسانا نقترب منك ونصل إلى الرفقة الكلية معك! نقدّم القرابين من أجل النظام الخالد الخيّر﴾[3].

وأحيانًا ترد آيات عن الأجساد ليس فيها كلمة (أبدية) ولا (خلود)، ولكنها تنص على وجود حياة ثانية في العالم الآخر، وبربطها بغيرها مما في هذا الفصل، يتضح أن هناك حياة ثانية طويلة للأجساد في العالم الآخر الأبدي، ومنها هذا النص مثلا:

﴿ذلك الذي سيقرؤه دعه يذكر اسمي بالخير. في هذا العالم الأرضي إنني في عافية الجسد إنسان نبيل، وعند انتقال الجسد إلى عالم آخر سأحصل على مكان رفيع بين

[1]- كتاب (الأفستا) المقدّس، الفصل (٣٠) عن جوهر البعث، ص ص ٨٢٨ ــ ٨٢٩.

[2]- كتاب (الأفستا) المقدّس ــ هايتي ٦٠: صلوات من أجل مقدمي القرابين، الآية ١، ص ١٨٩.
[3]- كتاب (الأفستا) المقدّس ــ هايتي ٦٠: صلوات من أجل مقدمي القرابين، الآيتان ١١ - ١٢، ص١٩٠.

القديرين. ففي فترة المراهقة كنت واحداً من بين أولاد العقيدة في هذا العالم الأرضي، كنتُ كاتبًا مشهورًا نبيلا﴾[١].

كما أن نصوصهم أخبرت بوضوح أن هناك (حياة جسدية) قيّمة، كثواب ملائم للمحسنين الذين يؤدون الأعمال الطيبة، كالاهتمام -مثلا- بالبقرة المقدسة الحامل:

﴿درب العقل الخيّر، ذاك الذي حدثتني عنه يا آهورا، الذي مهده الحق سيعبره المحسنون لينالوا الثواب الملائم، الذي حددته أنت يا مازدا. ستمنح ذاك الجزاء القيّم يا مازدا بعمل العقل الخير، للحياة الجسدية لأولئك الذين يعيشون في القرية ويهتمون بالبقرة الحامل﴾[٢].

وهناك حجة عقلية ظهرتْ لي، رغم أنها قد لا تكون جلية وقطعية؛ ولكن المؤكد أن إعمال العقل فيها وربطها بما سبق، سيزيد من قوة نصوص هذه المجموعة المثبتة لخلود الجسد في الزرادشتية، والحجة هي أن "الزرادشتية" تؤكد على وجود أطعمة وأشربه أبدية لها مذاقات معينة أو تأثيرات سامّة دائمة وما شابه، وهذا غالبًا يذهب بالأذهان إلى أن الأجساد خالدة فهي التي تتذوق وتتأثر بالسموم مثلا، ومن ذلك أن العقيدة الزرادشتية تقول أنه بعد أن ينضم الصالحون إلى أهورا مزدا في الجنة، سوف يسقط الخبيثون في هوة من الظلمة يُطعمون فيها أبد الدهر سُمَّاً زعافاً[٣].

ونختم الحديث عن نصوص المجموعة الأولى بأن غالبية المراجع الكبرى تؤيدها، إذ تتفق على أن "الزرادشتية" تؤمن بعودة الحياة إلى الجسد، فهم يؤمنون بيوم الحساب، وفيه "يُبعث الموتى وتبعث الحياة إلى الأجسام، وتتردد فيها الأنفاس، ويخلو العالم المادي كله إلى أبد الدهر من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال"[٤].

وبعد استعراض هذه النصوص من المجموعة الأولى، نجد –في المقابل- نصوصًا أخرى قد يفهم منها العكس، أي قد يفهم منها أن الزرادشتية لا تؤمن ببعث الجسد وحياته الثانية.

ومن أقواها مثلا التكرار الرهيب لهذه الجملة وشبيهاتها: **"ما الذنب الذي اقترفه الجسد لتدفع روحه هذا الجزاء المخيف؟"** في قصة معراج فيراز الصالح، فكل ما حكاه هناك كان منصبًا على خلود الروح وتعذيب أرواح العصاة وتنعيم أرواح الأخيار، ونلاحظ في الجملة السابقة التي تكررت أكثر من (٣٠) مرّة على الأقل في "الأفستا". نلاحظ أن الجسد هو الذي فعل ما فعل واقترف الذنوب في الدنيا؛ ولكن الجزاء والعقاب لم يقع عليه، بل وقع على الروح في العالم الآخر، وهذه أمثلة قليلة كنماذج للنصوص التي تكررت فيها تلك الجملة وشبيهاتها ليتضح المراد:

أ- (رأيتُ روح المرأة معلقة في الجحيم من صدرها، والتهَمَ الأنذالُ جسدَها. سألتُ: «ما الذي اقترفه الجسد لتدفع روحه هذا الجزاء المخيف؟». أجاب النبيل سراوش والإله آدور: هذه روح الآثمة، التي تركتْ زوجها في الحياة الدنيوية وأعطت جسدها لرجل آخر، معتقدة أنها عاهرة)[٥].

---

[١]- كتاب (الأفستا) المقدّس – نسخ MK و JK، الآية ٦، ص ٨٦٩.
[٢]- كتاب (الأفستا) المقدّس – هايتي ٣٤: مشيئة آهورامازدا، الآيتان ١٣ - ١٤، ص ٧٣.
[٣]- وِلْ ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج ٢، ص ٤٣٠.
[٤]- نفس المرجع السابق، مج ١، ج ٢، ص ٤٣٥.
[٥]- كتاب (الأفستا) المقدّس - كتاب فيراز الصالح، ص٨٨٦.

ب- (رأيتُ روح الإنسان وهو يزعق من الجوع والعطش: أنا أموت**!**. كان ينتزعُ شعر الرأس واللحية، يشربُ الدم ويضربُ فمه براحة اليد. سألتُ: «ما الذنب الذي اقترفه الجسد لتدفع روحه هذا الجزاء المخيف؟». فأجاب النبيل سراوش والإله آدور: هذه روح الآثم الذي تذوق في حياته الدنيوية ماء ونبات هورداد وأمورداد، ثَرثَر وأكلَ لا وفق التقاليد، لم ينطق بكلمة الإله ولم يُقدّس الخبز أثناء اقترافه الذنوب، وبما أنه أهانَ ماء هورداد ونبات أمورداد فإن روحه يجب أن تتعذب بشدة هنا)[١]**.**

ج- (رأيتُ أرواح بعض الرجال والنساء حيث التهَمَ الأنذالُ أقدامهم، وَجَنَاتِهم وخصورهم، فتحوّلتْ أجسادُهم إلى أجزاء متناثرة. سألتُ: «بمَ أذنب هؤلاء الناس ولمن هذه الأرواح المعذبة؟». أجاب النبيل سراوش والإله آدور: هذه أرواح أولئك الناس الذين مشوا بفردة حذاء، لم يربطوا الحزام المقدس، تبولوا واقفين؛ وقاموا بأفعال أخرى تخدم الأبالسة)[٢].

د- (رأيتُ روح إنسان الذي أجبروه على أكل التراب مع الرماد. سألتُ: «بمَ أذنب الجسد لتتعذب هذه الروح؟». أجاب النبيل سراوش والإله آدور: «هذه روح إنسان كان في حياته الدنيوية يغش في أوزانه، ومزج النبيذ بالماء والحبوب بالتراب وباعهما بسعر غالٍ، وبفعله هذا سرق ونهب الناس الطيبين)[٣].

هـ- (رأيتُ روح إنسان معلّق من اللسان، الذي التهمه الأنذال. فسألتُ: «ما الذنب الذي اقترفه الجسد لتدفع روحه هذا الجزاء المخيف؟». أجاب النبيل سراوش والإله آدور: هذه روح الآثم الذي مارس النميمة وافترى على الناس في حياته الدنيوية، لذا دخلت روحه الجهنم)[٤].

والحقيقة أن النصوص السابقة تنسجم مع نصوص مقدسة أخرى، كالنصوص التي تسمي الحياة الثانية بـ (الحياة العقلية)، وهذا يوحي بأنها حياة روحانية يغيب فيها الجسد المادي، كهذه الآية على سبيل المثال لا الحصر:

﴿ **عسى أن يبلغ ما هو أفضل من الخير، ذلك الذي يعلّمنا الطرق المستقيمة، للقداسة في هذه الحياة الدنيوية وفي تلك الحياة العقلية. الذي يعلمنا الطرق الحقة، التي تؤدي إلى العالم الذي يسكنه آهورامازدا المنقذ والحكيم، المقدس والسامي**﴾[٥]**.**

وبعد أن استعرضنا الكثير من أبرز وأوضح وأصرح عينات المجموعتين السابقتين من نصوص الزرادشتيين المقدسة.. بعد كل ذلك، يعود السؤال الذي أوردناه في بداية هذا المبحث لفرض نفسه وبقوة، وهو:

س/ كيف يمكن الجمع بين النصوص الأولى والنصوص الثانية، بشكل نستطيع من خلاله بناء التصوّر الصحيح عن معتقدهم حول مسألة بعث الجسد وخلوده وبقائه الأبدي في العالم الآخر أو في الحياة الثانية؟.

---

[١]- المرجع السابق، نفس الصفحة.
[٢]- نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.
[٣]- كتاب (الأفستا) المقدّس - كتاب فيراز الصالح، ص٨٨٧.
[٤]- المرجع السابق، نفس الصفحة.
[٥]- كتاب (الأفستا) المقدّس – هايتي ٤٣، الآية ٣، ص ٧٤.

والحقيقة هي أن العقل يقف محتارًا في هذا، حيث لم أعثر على شيء قاطع الدلالة من نصوص "الأفستا" وما معه من النصوص البهلوية القديمة؛ ولكني وجدتُ أطروحات مختلفة في محاولة الجمع والتوفيق بين نصوص المجموعتين المتضادتين المذكورتين سالفًا؛ وأقواها وأرجحها وأقربها للصواب، هو ما ذهب إليه البعض ومنهم الدكتور محمد غلاب حيث يذكر في معرض حديثه عن الإنسان أو (الشخصية البشرية) كلامًا اطمأن عقلي به وسكنت نفسي إليه كباحث، ووجدتُ ما يقاربه بصياغات أخرى في عدد محدود من المراجع؛ ولكن كلام الدكتور غلاب كان أدقها وأكثرها تركيزًا ومباشرة، إذ يقول:

"لم يوجد في القسم القديم من (زند أفيستا) ما ينبئنا برأي "زرادشت" في الشخصية البشرية من: جسم وروح من حيث المبدأ أو المصير، وإنما كل ما لدينا في هذا الشأن قد وُجد في الأجزاء الأخيرة التي كُتبتْ بعد عصر زرادشت بزمن غير يسير، أي بعدما ارتقت المعارف الإنسانية نوعًا ما، وبدأ الخاصة يفكرون في ثنائية الإنسان ويحللونه إلي جسم وروح. يجد الباحث في هذه الآيات الزرادشتية المتأخرة أن الإنسان يتألف من جسم وروح، وأن الجسم يتكون من أربعة أشياء هي: ١- اللحم. ٢- العظم. ٣- القوة الحيوية. ٤- الصورة أو (القالب)، وهذا الأخير هو وحده الذي يعود إلى الحياة في حالة البعث دون الثلاثة الأول التي لا تبقى"[١].

ولا شك أن هذا الموقف الذي قال به الدكتور محمد غلاب وآخرون موقفٌ قوي يعتمد على نصوص وآيات زرادشتية مقدسة وقفوا عليها، فموقفهم هذا ينهي الإشكال، ويجعلنا نخرج بتصور نهائي هو أن الزرادشتية تؤمن بخلود الروح مع **(قالب الجسد)** أي مع صورته التي تمثل الجزء الرابع من أجزاء تكوين الجسد في معتقدهم.

وبالتالي، فإننا إذا سلمنا واقتنعنا بهذا الموقف، فإننا سنحمل كلَّ النصوص التي وردت عن الخلود والبقاء الأبدي في العالم الآخر على هذا المحمل، أي أن الخالدين في جنة آهورامزدا مثلا، سيخلدون بأرواحهم وقوالب أجسادهم أو صورها.

وموضوع القالب هذا يُفسر لنا كثيرًا من الجمل التي وردتْ في الآيات السابقة التي استعرضناها، كالجمل التي تؤكد على أن الإنسان مثلا سيعرف أباه وأخاه وأمه وزوجه في العالم الآخر.. وكالجمل التي تحدثتْ عن أرواحٍ معلّقة تحمل (ملامح جسدية) كروح الإنسان المعلّق من اللسان، وكروح المرأة الخائنة المعلّقة في الجحيم من صدرها، وما شابه ذلك من نصوصهم المقدّسة الكثيرة، التي تصف أحوال أولئك البشر الخالدين والمقيمين في تلك الممالك الأبديّة.

ولكننا لا بد أن نشير إلى أن هناك عددًا من الباحثين مال لموقف آخر، أراه ضعيفاً ومرجوحًا، وهو أن الخلودَ في المعتقد الزرادشتي مقتصرٌ على الروح، وأن الأجساد مصيرها للفناء والاندثار.

فهؤلاء يؤكدون دائمًا فكرتهم بصياغات متعددة، منها هذه الفقرة مثلا: "قامتْ الثيولوجيا الزرادشتية على أمل تغيير العالم من خلال الإنسان، والدليل قول الأفستا: (أنستطيع أن نكون من أولئك الذين يجددون الوجود). فالزمان يسير في خط أفقي وليس عموديًا. وللإنسان بداية ونهاية، حيث يُخلق ويموت. وبذلك ينكر زرادشت التجدد السنوي والانبعاث في الديانات القديمة. وبذلك تلغى

---

[١]- محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ١٨٥.

الإيديولوجية القديمة لدورة كونية مجددة. ويعلن لوجود نهاية. وبالتالي، فالإنسان ليس بخالد على المستوى الفيزيقي، بل هو خالد على المستوى الميتافيزيقي من خلال أفعاله التي ترفعه إلى مصاف الأرواح، الآلهة"[١].

والسبب في هذا الاختلاف -في اعتقادي- هو أن الفريق الأول الذي قال إن الحياة الثانية شاملة للروح وجزء من الجسد الذي هو الصورة أو القالب، نظر إلى النصوص الزرادشتية القديمة والمتأخرة جنبًا إلى جنب، فخرج بهذا التصور الأكثر قربا للمنطقية عندي.. أما الفريق الثاني الذي قال إن الخلود روحي فقط، فقد اكتفى بنصوص القسم القديم من (زند أفيستا) الذي كتب في عصر زرادشت، ولم يستشهد بما ورد في النصوص البهلوية والزرادشتية المتأخرة، التي لا بد من الاستشهاد بها؛ لأننا نعلم أن الكثير من الآيات الزرادشتية القديمة فُقدتْ كما يثبت الكثيرون، بل كما يتفق الجميع تقريبًا.

ولذلك فالطبيعي –في تصوري- هو أن ما كُتب متأخرًا من رجال دين أو كهنة أو غيرهم من الناس الذين لهم مكانة ما في الديانة أو الفلسفة الزرادشتية، ليس إلا من باب الامتداد لعقيدتهم الأصلية، التي ضاع غالب نصوصها المقدسة، والتي يؤمن بها آباؤهم وأجدادهم فورثوها منهم، ومن الصعب أن تتواطأ على الكذب كلُّ تلك الأعداد الكبيرة من النصوص التي تثبت بعث الأجساد، وبقاء الجسد في النعيم أو العذاب الأخروي، لاسيما أن الكثير منها تروي عن زرادشت نفسه.

وبناء على كلِّ ما سبق أصل إلى نتيجة مفادها أن خلاصة الراجح هو أن الخلود في "الزرادشتية" يكون **للروح + قالب الجسد أو صورته**، وأن مصير الإنسان عندهم سيتحدد في الحياة الأبدية الثانية حسب الأعمال التي قدمها في حياته الدنيوية الأولى.

وبعد أن انتهينا من الحديث عن الموت والخلود في الفلسفة الزرادشتية، يحسن بنا أن نختم بنقطة تؤكد ما ذكرناه في البداية من أن الزرادشتية لم تكن أكثر من امتداد طبيعي لكثير مما كان سائدًا قبلها، من الشعائر والممارسات والعبادات والنظم والتصورات الدينية المختلفة في بلاد فارس.

فكما أن عقيدة الدهن أو التدليك بالشمع وعرض الجثة للكلاب والطيور عند قدماء الفرس الأوائل، تطورتْ وتحوّلتْ إلى عقيدة عرض الأموات في برج السكوت أو الصمت في الفلسفة الزرادشتية، نجد أن الأمر يتكرر أيضاً في موضوع **(عقيدة الحياة الثانية بعد الموت)**، حيث نجد معلومة نادرة في الحقيقة وتغفل غالب المراجع والدراسات عنها، وهي أن الناس الذين عاشوا في بعض المدن كمدينة سيالك "قرب قاشان" جنوب طهران، في العصر الحجري الحديث تحديدًا، كانوا يدفنون موتاهم تحت أرضية المنازل في وضع مقرفص، وقد ترجح أن هؤلاء السابقين لزرادشت كانوا يؤمنون بالبعث والحياة الثانية، بدليل وجود بعض الأثاث الجنائزي والتقدمات مع موتاهم[٢].

كما أثبتتْ الدراساتُ أن أهل "سيالك" كانوا يدفنون موتاهم تحت أرضية أكواخهم مثل سكان مرمدة في مصر، ودون أن يضعوا الأواني مع الأثاث الجنائزي، لأنهم على ما يظهر كانوا يشاركون الأحياء في طعامهم وشرابهم إذا احتاجتْ أرواحهم إلى الغذاء فلا يحتاجون الأواني، وكان من مظاهر ثقافتهم أيضاً دهن عظام الموتى بالمغرة الحمراء رمزاً إلى جريان الدم فيها. أما الأطفال

[١]- محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ٢٩.
[٢]- محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية – بيروت، ط٢، ص ٣٩٢.

الصغار فكانوا يوضعون في أوان ويدفنون أيضاً تحت أرضية الأكواخ. وهي عادات من العصر الحجري بقيت في كثير من البلاد حتى العصور التاريخية، بل إنها باقية حتى يومنا هذا في بعض بلاد الشرق وبخاصة في الريف[1].

وأكثر ما يهمنا من كل ذلك هنا هو اعتقادهم بأن الأرواح تأكل وتشرب مع الأحياء إذا احتاجت الغذاء، وأن صبغ عظام الأجساد بالحمرة رمز لجريان الدم فيها، وأنهم يضعون مع الميت بعض الأشياء المختلفة.. وكل هذا قد يصح اعتباره من البذور الأولى القديمة لفكرة البعث والحياة الثانية بعد الموت في بلاد فارس قبل ظهور الزرادشتية بزمن طويل.

---

[1]- د. أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم: مصر والعراق وسوريا واليمن وإيران، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، ط٢، ١٩٦٣م، ص ١٩٢ .

الفصل الثالث:

الخلود في فكر بلاد وادي الرافدين القديمة:

المبحث الأول:

لمحة عامة عن الفكر الفلسفي التأملي في بلاد الرافدين القديمة.

إن كلَّ باحثٍ منصفٍ يتجوّل في ساحات حضارة بلاد ما بين النهرين، من خلال ما كتب عنها، لابد أن يشعر بكثير من الانبهار والإعجاب بهذه الحضارة الشامخة وشعوبها العظيمة، التي سجل تاريخها المشرق أنهم قدموا للبشرية الخدمات الجليلة الأولى، التي انبثق عنها وتفرَّع منها وقام فوق أرضها وتحت مظلتها عددٌ كبير من العلوم والاختراعات والتطورات والمعارف والتقدمات الإنسانية المختلفة على أصعدة لا حصر لها.

كيف لا وقد أثبتتْ كثير من الدراسات العميقة القديمة والحديثة، أن (موطئ قدم الإنسان الأول) كان في بلاد العرب، وتحديدًا في بلاد الرافدين وسوريا القديمة. ولاشك أن وجود الأنهار وخاصة دجلة والفرات، وتميّز المناخ في تلك المناطق العربية القديمة؛ بالإضافة إلى وجود المعادن في أراضيها.. لا شك أن ذلك ساهم بشكل كبير مع عوامل أخرى فرعية، في قيام تلك الحضارات وازدهارها. ولذلك لن نبالغ إذا أكدنا -كما يقول كثير من الباحثين- أن تلك المنطقة العربية، شهدتْ ظهور عدد من أوائل حضارات ومدنيات العالم على الإطلاق؛ التي نشأتْ بجانب الحضارة والمدنية المصرية القديمة في تلك الأزمنة البعيدة[١].

وبناء عليه: من البديهي والطبيعي أن تظهر مع بروز تلك الحضارة العريقة الضخمة أفكارٌ كثيرة، منها ما يهمنا هنا، وهي الأفكار ذات الصبغة التأملية أو الفلسفية، فالإنسان منذ وجد بطبعه ميالٌ إلى التأمل والتفكر، فقد برز الإنسان القديم إلى هذا الوجود فرأى نفسه في عالم بديع عجيب في ظواهره، يواجهه فيه الزمان بتصاريفه المرعبة القاسية، فكان يسأل دائمًا لماذا هذا وإلى أين هذا وكيف حصل هذا، ومن هنا بدأتْ الفلسفة؛ أي من محاولة تأمل العالم بوصفه لغزًا يسعى الإنسان إلى حلّه.. وكان الدافع الأول له لحل هذا اللغز ما يرجوه من المنفعة من وراء ذلك، ولذلك قيل إن القبائل البدوية الكلدانية القديمة في بلاد الرافدين هي أول من نظر في الفلك والنجوم ليهتدوا بها أثناء السير بقطعانهم[٢].

ولابد أن نشير على عجل إلى أن هناك حضارات أقدم سبقتْ ومهّدتْ لهذه الحضارات البارزة موضع البحث، وأعني بها حضارات (عصور ما قبل التاريخ)، ففي العصر الحجري القديم عُثر على آثار ضئيلة جدًّا لحضاراته المتمثلة على الخصوص في هضبة كردستان؛ إذ وجُدتْ آثارُ الحضارتين الشيلية والأشولية، كما وجدت آثار الحضارة الموستيرية التي وُجد فيها هيكل شهير لطفل عثر عليه في كهف شاندر، ومن المرجح أنه من نوع إنسان نياندرتال[٣]. أما آثار أواخر العصر الحجري القديم؛ فقد وجدت في كهوف زرزي وبالي جورا وكريم شهر. ثم جاء العصر الحجري الحديث، وأبرز حضاراته حضارة جرمو وحضارة حسونة وحضارة سامراء. ثم تلت

---

[١]- أنظر: محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ص ٩٣ – ٩٤.

[٢]- أ. س. رابوبرت، مبادئ الفلسفة، دار العالم العربي – القاهرة، ط١، ٢٠١٢م، ص ٢٤.

[٣]- يقصد بإنسان نياندرتال أسلاف البشر الذين عاشوا في عصور بدائية قديمة جدًا، قبل عشرات أو مئات الآلاف من السنين، وهو من (الفصيلة الأناسِيةِّ) في علم التصنيف الحيوي وفي نظرية التطور، حيث تؤكد دراسات على وجود كثير من السمات المشتركة بينه وبين الإنسان الحديث.

العصور الحجرية عصور استخدام المعادن، وأبرز حضاراتها حضارة حلف وحضارة العبيد وحضارة الوركاء[١].

ثم بدأ **(عصر التاريخ)** الذي سنبحث في فلسفات حضاراته، فعندما توافدتْ قبائل مختلفة إلى بلاد الرافدين، أقامت حضارات عديدة فيها، وهي الحضارات التي سينصب عليها الجهد في هذه الدراسة؛ ولذلك يجب أن نتفق ابتداء على أن الحضارات التي قامتْ واشتهرتْ في بلاد الرافدين هي: حضارة القبائل الأكادية العربية، التي استقرت على ضفاف الفرات حوالي ٢٣٤٠ ق.م. وحضارة القبائل البابلية العربية، التي بنت مدينة بابل/بيت الإله، وأعظم قادتهم "حمورابي" المشرّع الكبير.. وحضارة القبائل الآشورية العربية، التي استقرتْ في بلاد الرافدين سنة ١٧٧٥ ق.م. وحضارة القبائل الكلدانية العربية، التي استقرت في سوريا وحوض الفرات حوالي ٦١٢-٢٣٩ ق.م. وحضارة القبائل السومرية غير العربية، آرية العرق، التي قدمتْ إلى بلاد الرافدين حوالي ٣٢٠٠ ق.م، حيث أسسوا عدة مدن، وعرفوا المحراث والعجلة، وأوجدوا كتابة تعتبر من أول الكتابات التي عرفها الإنسان، وهي الكتابة المسمارية[٢].

مع ضرورة الانتباه إلى أن المرجع الذي أشرتُ إليه في الحاشية، هو الذي أخذتُ منه معلومة **(عروبة القبائل الأكادية والبابلية والآشورية والكلدانية)** فقد أكد مؤلفه على أنهم عرب، باستثناء (السومريين) الذين ذكر أنهم من الآريين غير العرب؛ وتتفق مع هذا المرجع مراجع أخرى في هذه المسألة؛ ولكن الجدير بالذكر هو وجود عدد كبير من المراجع الأخرى التي تختلف مع هذا الرأي، فلا تراهم عربًا، وتختلف في تحديد نسبهم، حيث لا تشير كثير من الأبحاث إلى الأصل العربي لهؤلاء الأقوام، بل يؤكد كثير منها أن التسمية ترجع إلى **(أسماء المدن)** التي سكنوها في العراق القديم دون الإشارة إلى أصلهم أو نسبهم. والحديث في هذا يحتاج إلى بحوث مستقلة ليس هذا مكانها.

وقبل أن نتطرق إلى الناحية الفكرية العقائدية والفلسفية التأملية في تلك الحضارات، لابد من التعريج السريع على بعض النواحي الأخرى، فمن الناحية الاقتصادية، ساهم عاملان كبيران في استقرار السكان في تلك المناطق، وبالتالي ازدهار حضاراتها وازدياد قوة الدولة والمجتمع من مختلف النواحي، وعلى رأسها الناحية الاقتصادية، والعاملان الكبيران هما المناخ الجيد غزير المطر من جهة، ووجود الكنوز والثروات المعدنية الثمينة في باطن الأرض، كالحديد والنحاس والبرونز وغيرها من جهة أخرى؛ بالإضافة إلى عوامل أخرى ككثرة الأنهار كما أسلفنا.

وبالإضافة إلى تلك العوامل المشاهدة الواقعية المحسوسة، وُجدتْ عوامل أخرى عقدية دينية، فقد كانت الفكرة السائدة –رغم التعدد الرهيب في الآلهة- هي الإيمان بوجود (الإله الأول) الخالق لكل شيء في هذا العالم، وتفرَّعتْ أو جاءتْ إلى جانب هذه الفكرة معتقدات أخرى، كوجود إله لكل مدينة، يرعاها ويدبر شؤونها.. ومن هنا انتقل مفهوم (المركزية) من الجانب الإلهي إلى الجانب السياسي، حيث كان الملك هو المالك المتصرف المسيطر الوحيد على كل المساحات والأراضي الداخلة في حدود منطقته.. وبناء على كل ذلك: سيطر نظام "الإقطاع" الذي جاء كامتداد للحضارات البدائية الأقدم، حيث يلتزم بموجبه ملاك الأراضي بتقديم نسبة من منتوجات أراضيهم إلى الدولة، فأرضهم في النهاية ملك للإله، والإله هو الذي أعطى الملوك الصلاحيات لإدارتها، فوجب تسليمهم نصيبهم من خراج تلك الأراضي[٣].

---

[١]- راجع: محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية – بيروت، الصفحات من ٢١ إلى ٤١.

[٢]- محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ص ٩٥ – ٩٦.

[٣]- أنظر: محمد حسن، المرجع السابق، ص ٩٧.

ويعتبر السومريون من رواد وضع وتطوير النظم الاقتصادية في تلك العصور، ومن ذلك مثلا أنهم من أوائل من وضع أشكالا معينة لعقود مكتوبة تنظم العلاقات التجارية بين الأفراد.. ومن الحضارة السومرية نشأتْ أيضاً الزراعة والتجارة، والخيل المستأنسة والمركبات، وسكت النقود، وكتبت خطابات الاعتماد، ونشأت الحرف والصناعات، والشرائع والحكومات، وعلوم الرياضة والطب، والحقن الشرجية، وطرق صرف المياه، والهندسة والفلك، والتقويم والساعات، وصورت دائرة البروج، وعرفت الحروف الهجائية، واخترع الورق والحبر، وألفت الكتب وشيدت المكتبات والمدارس، ونشأت الآداب والموسيقى والنحت وهندسة البناء، وصنع الخزف المطلي المصقول والأثاث الدقيق الجميل، ونشأت عقيدة التوحيد ووحدة الزواج، واستخدمت دهان التجميل والحلي، وعرف النرد والداما، وفرضت ضريبة الدخل، واستخدمت المرضعات، وشربت الخمور- فقد عرفت هذه الأشياء كلها عندهم، واستمدتها منهم أوروبا وأمريكا[١].

أما (البابليون)، فقد كانوا روادًا أيضاً في الكثير، وأبرز ذلك ظهور النزعة الذهنية التأملية، حيث انقسم مجتمعهم إلى قسمين رئيسيين، الأول هم الأكثرية منهم -كغيرهم من القبائل- ويشمل هذا القسم الكادحين والحرفيين والمزارعين وغيرهم من أصحاب المهن اليدوية، والقسم الثاني هم الأقلية، ذات الميول الذهنية والصبغة الفكرية التأملية الفلسفية، وغالب أفراد هذا القسم من علية القوم والتجار والملوك والكهان[٢].

وإذا انتقلنا إلى (الحضارة الآشورية) مثلا، فسنجد السمة البارزة بينهم اقتصاديًا، هي تشديد القوانين الاقتصادية الصارمة، التي تحافظ على النظام الاقتصادي، وبالتالي تحمي استقرار المجتمع والدولة، ومن ذلك مثلا أنهم كانوا يقطعون أذن أو أنف العبيد إذا سرقوا، كما أوجبوا على الشرفاء أن يقطعوا آذان زوجاتهم إذا سرقن[٣].

أما الناحية الاجتماعية، فأهم ما ينبغي الحديث عنه هو "الأنظمة الطبقية" التي كانت سائدة في تلك العصور القديمة، والقاسم المشترك بينها أن المجتمع ينقسم –في غالب تلك الحضارات- إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول هم (الأحرار) أصحاب المنزلة العالية الرفيعة، ثم يأتي بعدهم القسم الأوسط المسمى (أنصاف الأحرار) أصحاب المكانة الجيدة، ثم القسم الأخير الذي يرزح في ذيل القائمة، وهم (العبيد) الذين توكل لهم أقسى الأعمال وتفرض عليهم أشد القيود التي لا يستطيعون تجاوزها أو النظر إلى مميزات من هو أعلى منهم.

فعند السومريين هناك ثلاث طبقات، الأولى طبقة الملوك وحاشيتهم والمقربين منهم فقط، والثانية هي طبقة كبار التجار وملاك الأراضي والصناع، والأخيرة هي طبقة العبيد وأهل المنزلة المتدنية من الجنسين. وفي تشريعات حاكم بابل "حمورابي" خاصة، والمجتمع البابلي عامة، كان التقسيم الطبقي مشابهًا لسابقه، فللمجتمع ثلاث طبقات، الأولى طبقة الأشراف الأحرار، وغالب أفراد هذه الطبقة هم من المتحضرين من سكان المدن. والثانية طبقة العوام الذين ليسوا بمستوى الطبقة العليا السابقة، ولكنهم أعلى من الطبقة الثالثة، وهي طبقة العبيد الذين جردوا من كل الصفات والخصائص الإنسانية. ونختم بطبقات المجتمع عند الآشوريين، فقد اختلفوا نسبيًا عن غيرهم، فجاءت طبقاتهم الاجتماعية خماسية، فالطبقة الأولى تسمّى طبقة الأعيان، ويدخل فيها كبار السياسيين والملوك والقادة العسكريين وكهان الدين.. والثانية تسمى طبقة النقابات ويدخل فيها أهل الصناعة المنتمون إلى نقابات.. والثالثة تسمى طبقة المهنيين، وهم أهل الحرف والمهن من العمال، خاصة الأقل مهارة من

---

[١]- أنظر: وِلْ ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج٢، ص ٩.

[٢]- محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ٩٨.

[٣]- محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ٩٨.

الصناع والزراع الأحرار.. والرابعة هي طبقة ملاك الأراضي الزراعية الكبيرة.. والخامسة الأخيرة هي طبقة العبيد، ويدخل فيها أيضا الأسرى بنوعيهم، أي أسرى المعارك وأسرى الديون[١].

أما القضاء والقوانين، فالتشريعات عند قدماء بلاد الرافدين كثيرة، وقد وردتْ في بعض المصادر مرقمة، ويكفي هنا أن نستشهد بقوانين "حمورابي" الذي يُعتقد أنه أول من سن القوانين المكتوبة في التاريخ، ولذلك فقوانينه مهمة عند المنشغلين بـ (فلسفة القانون) الذين يبحثون في أصل القانون وبداياته الأولى، وكيف خلقت القوانين، وما غاياتها؟ وما شابه ذلك.

ومن قوانينه –كمثال- أمره الواضح على التفريق بين طبقة النبلاء وبين غيرهم من طبقات العامة والعبيد في بابل، ومن ذلك مثلا المادة رقم ١٩٦، التي تحكم على من يتلف عين شريف من النبلاء بأن تتلف عينه مثلا بمثل، أما المادة ١٩٨، فتحكم على من يتلف عين أحد العامة بأن يدفع مينًا من الفضة فقط.. مع ضرورة الانتباه إلى وجود كثير من القوانين الممتازة التي شرعها حمورابي، وما زالت تسير عليها مجتمعات كثيرة حتى اليوم، ومن ذلك إلزامه الدولة بتعويض المواطن الذي يسرق ماله وتعجز الدولة من القبض على اللص واسترجاع المسروقات منه. أما الآشوريين فقد كانت أحكامهم أشد قسوة، ويرى الكثيرون وجود تشابه بينها وبين قوانين حمورابي البابلي، ولكن القوانين الأشورية وغيرها، لم تصلنا بالشكل الذي وصلتنا فيه قوانين حمورابي والبابليين.. والمهم أن المحاكمات في العراق القديم كانت تتم في المعابد وما شابه، حيث يجتمع الكهنة والقضاة، ولم يثبت من الوثائق أنهم كانوا يعرفون فكرة (وجود محامي) بل كان الإنسان يترافع بنفسه[٢].

والأسرة عند البابليين والآشوريين خاصة وغيرهم في بلاد الرافدين القديمة، كانت تقوم في الأساس على حق الرجل في الزواج بزوجة واحدة فقط، فالتعدد ممنوع، إلا في ظروف معينة، كمرض الزوجة الأولى، أو إذا ثبت أنها عاقر.. ولا يعد الزواج صحيحًا عند البابليين، إلا إذا ثبت أنه تم بعقد مدون مصدّق عليه بالشهود وكذلك الحال بالنسبة للطلاق. وكانت الخطبة تسبق الزواج وعلى الخاطب أن يقدم هدايا لخطيبته وفي حالة وفاته يحق لأحد أقاربه أن يحل محله في الزواج؛ فإذا رفض والد المخطوبة كان عليه أن يعيد لعائلة المتوفى هداياه، وفي حالة موت المخطوبة كان للخاطب أن يتزوج إحدى أخواتها، أو يسترجع هداياه، ويجب على العريس أن يدفع لعائلة العروس مهرًا يصبح ملكًا خاصًّا للزوجة، ويرثه أبناؤها. وإذا رفضت المرأة زوجها كانت تعاقب عقابًا شديدًا يصل إلى الموت. وكانت الدعارة منتشرة في المعابد، فالمرأة كانت تتعبد إلى الآلهة بتقديم جسدها كتضحية حقيقية.. ولأبناء الإماء والأبناء بالتبني حقوق، ولكنها لا تصل إلى مستوى حقوق الأبناء الشرعيين، فقد كانت تكفل لهم حياة لا بأس بها؛ ولكن القانون كان قاسيًا في عقوبة أبناء التبني الذين يتنكّرون لمن يتبناهم[٣].

ولا نستطيع تجاهل (الحكم والأمثال) الاجتماعية التي وصلتنا من المجتمع الرافدي القديم.. فقد وصف الحكيم السومري الرجل الأعزب الذي يرفض الزواج هربًا من المسؤولية بقوله: "إن الذي ليس له زوجة أو ولد، لا تحتمل أنفه القيد. ورغم أن هذا القول فيه نقد للأعزب، إلا أنه أيضاً يشعر بأن الزواج تقييد وتوثيق مرهق. أما الحكيم الأكادي، فيعتبر الأعزب شخصًا لا يمكن الوثوق به، حيث يقول: "الذي لا يعول زوجة، لا يعول ابنًا، إنه شخص لا يؤتمن". كما نجد في الأمثال الأشورية انتقادًا للمرأة التي لا تقبل الزواج، كقولهم: "المنزل من غير صاحب، كالمرأة من غير

---

[١]- أنظر: المرجع السابق، ص١٠١.

[٢]- راجع: د. أحمد أمين سليم، دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية – بيروت، ط ١٩٩٢، الصفحات من ٢٣٧ إلى ٢٥٤.

[٣]- أنظر: محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت، طبعة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، الصفحات ١٩٦ – ١٩٧ - ١٩٨.

زوج". وتسود بينهم نصائح للرجل في أن يختار زوجته بنفسه، ومن ذلك قول الحكيم السومري: "تزوج امرأتك طبقاً لاختيارك، وأنجب طفلا حسب رغبات قلبك". وقد أكد الحكيم الأشوري على أن الزوج ملزم بنفقات زوجته، بقوله: "إن من تحب سوف تحمل نيره". والحكيم السومري أيضًا يحذر من الزواج من المرأة التي تسرف في إنفاق المال: "بزواجي من امرأة مبذرة، وإنجابي لابن مسرف، يصبح الحزن ذخيرتي". ويتفق البابليون والأشوريون والسومريون والأكاديون على التحذير من الخيانة الزوجية والزنا، في عشرات الأمثال والحكم الكثيرة؛ بالإضافة إلى تأكيدهم على ضرورة الاحترام المتبادل في الأسرة، والمرتبط بأهمية أفرادها لبعضهم، ومن ذلك قولهم في وصف العصر الذهبي القادم المنشود: "يوم لا يتعالى أحد على الآخر، ويبجل الابن والده، ويحترم الصغير أخاه الكبير، ويرشد الكبير أخاه الصغير" وكذلك قول السومريين: "الابنة خلاص الرجل، والابن ملجأ الرجل" وكقول الحكيم الرافدي القديم أيضًا: "ارض بنصيبك، واجعل أمك سعيدة".[١]

أما بالنسبة للناحية السياسية والتشريعية، فقد ظهر بوضوح تأثير العقائد الدينية على السياسة، وهو الحال الذي يتكرر في مختلف العصور، خاصة في مجتمعات الشرق وعلى رأسها المجتمعات العربية، فقد كانت العقائد الدينية مسخرة لخدمة الأنظمة الحاكمة في غالب الحضارات العربية القديمة، ومن ذلك مثلا أن كهان الدين في بعض بلاد الرافدين القديمة عامة، وخاصة الكهان السومريين أوجدوا فكرة (النيابة) أي أن الحكام هم **نواب الآلهة في الأرض،** وبذلك سهلوا على الحكام السيطرة والتمكن والثبات في الحكم. وبناء على ذلك، وطد الكهان وغيرهم من حواشي الملوك فكرة المركزية، التي تعتمد على نقل الوجود (اللامادي) للآلهة، إلى تجسيد مشاهد على أرض الواقع، فكان الملوك في غالب تلك الحضارات يمثلون الآلهة على الأرض، فلهم على الشعوب السمع والطاعة دون مناكفة أو معارضة، مهما قالوا وفعلوا من الأخطاء. ومن هذه المركزيات، تولدت الهيكلية السياسة لتلك الأنظمة الحاكمة بصور متقاربة في أصولها العامة، حتى وإن اختلفت في بعض الجزئيات والصغائر، فالهيكلية السياسية بُنيت على أرض هذه المركزية بصورة هرمية، حيث يأتي الملك على رأس الهرم، ثم يأتي بعدها بشكل هرمي كبار الكهان والقادة العسكريين والوزراء وأمناء الخزائن وكتاب العقود والقضاة والكتاب والتجار... الخ. والجميع ليس في يدهم حل ولا ربط إلا بأوامر الحكام ووفق توجيهاتهم الملزمة للكل[٢].

وفي وجهة نظري أعتقد أن هؤلاء الكهان استطاعوا ابتداع هذا الأسلوب الذي كان ومازال يجدي للأسف، خاصة مع غالب الشعوب العربية في كل الأزمنة، فليس هناك أقوى من حاكم يقنع الناس أنه يستمد شرعيته من إله.. والحقيقة هي أن كهان السومريين نجحوا جدًا، فقد أصبحتْ كلُّ تصرفات وممارسات وسلوكيات الحكام السيئة والسلبية مبررة، فعندما يوغل الحكام في الإساءة إلى الناس، يبرر لهم الكهنة بأن الآلهة هي المسؤولة وليس الحكام؛ لأنهم مجبورون على تنفيذ أوامر الآلهة.

وبالمجمل فقد كانت المدن في غالب حضارات العراق القديم، تدار من معبد إله المدينة، الذي يشرف أيضاً على أملاك المدينة، ومن صور ارتباط الملك (إله المدينة) بالآلهة، أنهم كانوا يعتقدون أن الملك قادر على التكفير عن ذنوب الناس، ومن ذلك أن الملك الأشوري يقوم بالصلاة للآلهة عند (خسوف القمر) كما أن الملوك كانوا أحيانا يقدمون القرابين للآلهة "آنو" و "إنليل" و "ايا" عند حصول الكوارث كالزلازل[٣].

---

[١]- راجع: د. أحمد أمين سليم، دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، الصفحات من ١٨٣ إلى ٢٢١.

[٢]- أنظر: محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ص ١٠٣ – ١٠٤.

[٣]- أنظر: د. أحمد أمين سليم، دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٢٣١.

أما مرادنا الأكبر، أعني النواحي الدينية والفلسفية والفكرية التأملية، التي هي الأهم في هذه اللمحة، فلا شك أن أبرز ملاحظة على هذا الفكر في بلاد الرافدين القديمة هي **(التعدد الكبير في الآلهة)** وهذا التعدد رغم وجوده في كثير من المجتمعات خاصة القديمة، إلا أن شعوب الرافدين كانوا من أكثر الناس في هذا التعدد، فقد كان لسكان بلاد الرافدين آلاف من الآلهة يمثل كثير منها أجزاء من الطبيعة - المياه والأرض والسماء والرياح والشمس والقمر.. الخ. وقد بلغ عدد آلهتهم حدًا يمكن أن يملأ معجمًا كبيرًا، حتى أن البابليين وضعوا بأنفسهم جداول تنظم وتجمع أسماء آلهتهم الكثيرة[١].

ويتضح من تأمل الفكر البابلي أن علاقة البابلي بالآلهة شابها كثير من التوتر، حيث انتشرت القناعة بأن الآلهة تنقض وعودها، فقد ساد بين البابليين بقوة أن الآلهة تغدر وتمكر وتخون، مما أفقد الآلهة كثيرا من قيمتها وقدسيتها ومصداقيتها بينهم من جهة.. ومن جهة ثانية: أدّى هذا التصوّر إلى قلق الإنسان البابلي الواضح في كتاباته عن الآلهة، حيث نرى فيها كثيرًا من البعد عنها والنفور منها.. وأبرز ذلك أنهم يكررون في نصوصهم أفكارًا من قبيل الاعتراض على تصرفات الآلهة، فالإنسان منهم -حتى الكبار والملوك- يقدم أحيانًا كل ما تطلبه الآلهة منه في تشريعاتها وتعاليمها وأوامرها، ويلتزم بكل ما يحثه عليه رجال الدين والكهان؛ ولكنه في النهاية لا يجني أحيانًا إلا المصائب والكوارث والسلبيات المختلفة في حياته. ومن هنا ظهرت قناعتهم بأن الآلهة ليست كلها طيبة عادلة خيرة، فهناك آلهة شريرة ظالمة لا تمد لهم يد العون مهما قدموا لها، بل على العكس تماما[٢].

ولهم معتقدات في (بدء الخلق) خلاصتها أن العالم قبل نشأته يمثل فراغًا تميز بعنصرين أحدهما الماء العذب والآخر الماء المالح، وقد ولدت منهما كلُّ الكائنات، التي بدأت بمعبودين أنجبا معبودين آخرين يمثلان السماء والأرض، ومن هذين الأخيرين جاء ثلاثة آلهة هم الثالوث "أنو- إنليل- إيا" فالإله "أنو" الإله الأعظم من أقدم العصور، وكان يحكم في السماء؛ ولكنه لم يحتفظ بسلطته العليا حينما انتقلت السيادة من سومر إلى بابل؛ إذ أصبح إله هذه الأخيرة "مردوك" على رأس الآلهة فحل محل "أنو"، وأصبح سيد الأرض وأبًا للآلهة، وهو الذي أحدث الطوفان كما كان يعد سيد الكائنات الإنسانية الذي عهد بهم إلى أمراء يحكمونهم. أما الإله الثالث وهو "إيا" فكان يعد سيد الأرض يحكم في مسكن المعرفة أي المياه التي تحمل الأرض وتحيط بها، كما كان إلهًا للحكمة، خلق الإنسان من كتلة من الطمي نفخ فيها نسمة الحياة، وهو الذي أنقذ البشر من الفناء في زمن الطوفان.. ولكن معتقد الأشوريين يختلف عن البابليين والسومريين في موضوع (بدء الخلق) حيث إن إلههم الأكبر "أشور" هو أعظم إله في بلاد النهرين ونسب إليه الخلق[٣].

وأشهر أسطورة بابلية عن (نشأة الوجود) وبدء الخليقة، هي الأسطورة المدونة على سبعة ألواح طينية، وتعرف لدى علماء الأشوريات باسم (ألواح الخليقة السبعة)، وتحتوى على نحو ألف بيت وتشير إلى أنه لم يكن في البدء سوى الماء العذب الإله "أبسو" والماء الملح "الإلهة تيامة" وكانا مختلطين ثم ولدت منهما الآلهة الأخرى متعاقبين، وفى ذلك ما يشير إلى أن المادة "المياه" أزلية في عقائدهم[٤].

هذا ما يخص بدء الخلق العام ونشأة الوجود، أما (خلق الإنسان) وسبب خلق الإنسان، أو: لماذا خلق الإنسان؟، فالإنسان –في فكر السومريين- تكوّن من الطين، وتم تصويره على هيئة الآلهة، والحكمة من خلقه كما تقول الأسطورة السومرية، هي أن يكون عبدًا للآلهة وخادمًا لها يقدّم لها شرابها

[١]- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - تاريخ الفرات القديم، كلية دار المعلمين العالية – بغداد، ط٢، ١٩٥٥م، ص ٢٢٧.

[٢]- أنظر: محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ١١٧.

[٣]- محمد عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ص ٢١٦ – ٢١٧.

[٤]- المرجع السابق، ص ٢١٩.

وطعامها، ويزرع أرضها ويرعى قطعانها، ولكي يحمل عبء العمل الذي أثقل كاهل الآلهة، التي اشتكت إلى الإله أنكي الحكيم، ثم لأمه الإلهة "نمو" أمّ الآلهة التي أنجبت الجيل الأول منهم، وفي هذا تقول الأسطورة السومرية: أي بني، انهض من مضجعك، انهض واصنع أمرًا حكيمًا.. اجعل للآلهة خدمًا، يصنعون لهم معاشهم... إلى أن تقول الأسطورة: فتأمل أنكي مليًا في الأمر، ثم دعا الصناع الإلهيين المهرة، وقال لأمه نمو: إن الكائنات التي ارتأيتُ خلقها ستظهر للوجود، ولسوف نعلّق عليها صورة الآلهة.. امزجي حفنة الطين من فوق مياه الأعماق، وسيقوم الصناع بتكثيف الطين وعجنه، ثم كوّني أنت له أعضاءه.. إلى أن تقول الأسطورة: لذا ومن أجل العناية بطيبات حظائرهما تم خلق الإنسان. أما عند البابليين، فقد خلق الإله "مردوخ" الإنسان من دماء الإله السجين "كنغو" بعد أن قتله وأفرج عن بقية الأسرى المتهمين في نفس القضية المعقدة، التي يطول شرحها وليس لها كبير فائدة في هذه المسألة[١].

وامتدادًا للفقرة السابقة -التي فهمنا منها أن الإنسان خُلق من قبل الآلهة لينوب عنها في الأعمال الصعبة ويخدمها ويكون عبداً لها- نجد أن الإنسان في الفلسفة العميقة للسومريين هو إله؛ ولكنه إله ضعيف أو عاجز، فالإنسان الذي خلقه الاله "أنكي" والإنسان الذي خلقته الآلهة "ننماخ" كانا ناقصين ومريضين. فالإنسان إذن إله ناقص مريض عاجز؛ ولذلك لا يتمتع مثل بقية الآلهة بالخلود. ومن هنا ارتبط الإنسان بالآلهة ارتباطا تامًا، فهو عاجز عن فعل أي شيء دونها في فلسفتهم. فهذا الكون الواسع لا يمكن مواجهته دون آلهة تستطيع إدارته وتعاون الإنسان في التعامل معه. والألوهية المقصودة حين نقول: (الإنسان إله في فلسفتهم الدينية)، تتجلّى في (العقل البشري) الذي يجعل الإنسان يميّز بين الصواب والخطأ، فهذه الألوهية هي القوة الجسدية والروحية معاً. وهناك قصة لأحد الطلبة السومريين عن مفهوم الألوهة في سومر القديمة، تؤكد أنها فعل وعي حي في الإنسان، فقد قال الطالب لمعلمه خلال خطاب يشكره فيه: أنت إله. وحيث إن الإله يصنع الإنسان فأنت إلهي؛ لأنك صنعت فيَّ الإنسان. كما أن الألوهة وصف يتجلى أكثر عند السومريين في كلِّ إنسان ذي قوى خارقة، كجلجامش مثلا الذي كان ثلثاه إلهًا[٢].

وبالإضافة إلى أسماء الآلهة المذكورة أعلاه، نجد في بلاد النهرين إلهة شهيرة تدعى عند الأكديين والأشوريين (عشتار)، وعند السومريين تسمّى (اينانا)، وهي إلهة الحب والحرب، وكانوا يعبدونها كمعبود ذكر في الصباح، وكمعبودة أنثى في المساء، ومن معتقداتهم أنها اقترنت بالإله (تموز) إله الخضرة والنبات، ونتج عن هذا الارتباط ظهور طقوس كثيرة مهمة في العراق القديم، تعرف بطقوس الجنس المقدس أو الزواج المقدس ورافق هذه الطقوس احتفالات ذات طابع غزلي، ينشدون فيها أشعار الحب والغزل[٣]. وأبرز ما يهمنا عن عشتار في بحثنا نزولها إلى **(عالم الأموات السفلي)** وهو النزول الذي سنعرّج عليه في الصفحات القادمة.

كما سادتْ في تلك الحضارات القديمة ممارسات وطقوس دينية فلسفية، كاحتفال السومريين في رأس كل سنة بآلهتهم وبمظاهر وعناصر الطبيعة واتحادها، حيث كانوا يظنون أن رأس السنة هو عيد سنوي لتاريخ بداية الوجود، الذي جاء كنتيجة لمضاجعة الإله تموز للإلهة عشتار.. وبناء عليه

---

[١]- راجع للاستزادة: فراس السواح، مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة – سورية وبلاد الرافدين، دار علاء الدين – دمشق، ط١١، ١٩٩٦م، الصفحات ٤٥ – ٤٦ – ٤٧ – ٥٥.

[٢]- أنظر: خزعل الماجدي، متون سومر – الكتاب الأول: التاريخ والميثولوجيا واللاهوت والطقوس، الأهلية للنشر – عَمّان، ط١، ١٩٩٨م، ص ص ٢٦٥-٢٦٦.

[٣]- أنظر: د. أحمد أمين سليم، دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ص ٢٧٩– ٢٨٠.

وكطريقتهم دائمًا في إنزال الآلهة إلى الأرض كان ملكهم يتزوج من خادمة المعبد باعتبارهما ممثلين للآلهة في المجتمع[١].

ولا بد أن يحضر هنا **"داروين"** صاحب نظرية التطوّر، فقد أغلقتُ أبوابَ الذاكرة منذ زمن على ما خرجتُ به من اطلاعي على كتابه الشهير **(أصل الأنواع)**؛ ولكن ذهني في الحقيقة عاد إليه أثناء هذا البحث، حيث وجدتُ في كلام بعض الكهان البابليين ما يتقاطع أو يتناغم أو يتماهى مع نظرية داروين، أو يذكر بها على أقل تقدير، حيث يرى الكاهن "بيروسوس" وغيره أن هناك كائنات غريبة ظهرت قبل أن يظهر الجنس البشري بشكله وخصائصه المعروفة اليوم، ويؤكد هؤلاء الكهان أن تلك الكائنات تشبه البشر؛ ولكنها خارقة عجيبة في بعض الصفات، حيث ظهر رجالٌ للواحد منهم جناحان، وبعضهم بأربعة أجنحة ووجهين، وبعضهم له جسد واحد ورأسان رأس امرأة ورأس رجل.. ولبعض تلك الكائنات أعضاء جنسية ثنائية، مذكرة ومؤنثة في نفس الجسد.. كما تحدث هذا الكاهن البابلي عن وجود بشر بقرون تشبه قرون الماعز، وبحوافر تشبه حوافر الخيل..الخ[٢].

وهذا ما تؤيده أيضًا أسطورة رافدية عنوانها: "إله الشعير والنعجة"، فقد فصَّل فيها كثير من الباحثين تفصيلات طويلة، أهم ما نريده منها لدعم الفقرة السابقة، هو أن هذه الأسطورة أثبتتْ أن قدماء بلاد النهرين كانوا يعتقدون أن الإنسان القديم جدًا السابق لهم، كان يعيش –في المرحلة السابقة للزراعة وتدجين الحيوان- كما تعيش بعض الحيوانات، حيث تفيد هذه الأسطورة وغيرها من نصوصهم، أن أولئك البشر القدماء جدًا كانوا يمشون على أيديهم وأرجلهم، ويعلفون الحشيش كالأغنام، ويشربون الماء من السواقي[٣].

أما معابدهم في العراق القديم، فقد اختلفت معابد الجنوب عن معابد الشمال، ففي شمال العراق كان هناك معبد رئيسي يُبنى في مركز المدينة، ومن حوله تبنى بقية المعابد والأبنية المقدسة وغيرها. أما في الجنوب فقد أثرتْ العوامل الجغرافية والمناخية على الفكر الديني تدريجيًا، حيث أثرتْ الفيضانات والمياه الجوفية على المباني، ونتيجة لرغبتهم في حماية معابدهم المقدسة من ذلك، أصبحوا يبنون المعابد فوق منصات مرتفعة، ومع تقدم الزمن، صار الاعتقاد الشائع هو أن المعابد مرتفعة لأنها سامية عالية مقدّسة، بالإضافة إلى أن ارتفاعها تحوّل إلى مكان لرصد الهلال الذي كان يرتبط بكثير من النواحي الدينية والحياتية عندهم، ثم كبرت وتطورت الفكرة أكثر وأكثر خاصة عند السومريين، الذين نظروا إلى ارتفاع المعابد بوصفه ارتفاعًا يقرّبهم من مقرات الآلهة السماوية، فأصبحت هذه المعابد المدرجة في نظرهم روابط بين السماء والأرض. كما أن معابدهم عرفت بوجود مذبح في داخل كل معبد، وبأمكنة أخرى محددة، يشابه الواحد منها شكل المحراب، يكون فيه كرسي من خشب أو غيره، ليوضع فوقه تمثال الإله[٤].

وفي هذه المعابد تؤدّى الصلوات، التي تتم بطرق مختلفة، منها -كمثال- تأدية الصلاة على هيئة رسائل توجه بطريقة مناسبة، وتكتب عادة بشيء من التفصيل، حيث يعرض المصلي الشكوى أو الالتماس أو الاحتجاج. ويرسلها مع القيام بإيماءات محددة لتلك الصلاة، بالإضافة إلى الركوع والسجود، فيرفع المصلي يديه معًا إلى الأعلى، أو يضع يدًا واحدة أمام الفم على أن تكون راحتها تجاه الوجه.. ويستطيع الأثرياء الذين لا يرغبون في تأدية الصلاة والنواح بأنفسهم، أن يودعوا في

---

[١]- أنظر: محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ١١٠.
[٢]- أنظر: المرجع السابق، ص ١١٣.
[٣]- أنظر: حضارة العراق، تأليف: نخبة من الباحثين العراقيين، دار الحرية للطباعة – بغداد، ١٩٨٥، ج١، الصفحات ١٦٧ – ١٦٨ - ١٦٩.
[٤]- أنظر: د. أحمد أمين سليم، دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ص ٣٠٠ – ٣٠١

المعبد شيئاً مناسبًا على سبيل الهدية، كالتماثيل والأواني النحاسية، والخواتم التذكارية، والمجوهرات. وتوضع هذه الأشياء على مقربة من تمثال الإله لتذكره بالطلب، أو لتشكره على النعم[١].

وعلى الصعيد الأدبي، لامسَ الأدبُ الرافديُّ الكثيرَ من المواضيع، أبرزها الأخلاق والتساؤلات الإنسانية المقلقة، فأما الأخلاق فقد شمل الأدب الرافدي غالب مجالات الحياة واهتمامات الإنسان، الدينية والتشريعية، والوجودية والكونية بكل ما فيها من تساؤلات محيرة وحوارات وتأملات، والسياسية بشمول لكافة علاقة الفرد بالسلطة وواجباته تجاهها والعكس، والقيم الاجتماعية لإنسان تلك العصور.. وظهر أيضًا ما يُسمّى بأدب الحكمة، الذي كثرتْ فيه النصائح والمواعظ والحكم والدعوات للتوبة من الخطايا؛ بالإضافة إلى التراتيل والتعاويذ المتنوعة الشاملة، التي كانت تعبر عن أفراح الناس وأحزانهم ومشاعرهم المختلفة. ومن أبرز تلك النصوص كمثال، القصيدة التي نظمها "أوبيب" عن الإنسان البابلي، وهي تصوّر حكاية إنسان مطيع للآلهة، ولا يمارس أية سلوكيات محرمة أو تمنعها الآلهة؛ ولكنه في النهاية لا يجد إلا العقاب والعذاب بدلا من النعيم والثواب، فجاءت هذه القصيدة -ومثيلاتها من الكتابات- على لسان الإنسان البابلي الحائر في أمر آلهته، فهو يخاطبها متضرعاً لها وطالبًا منها المغفرة من جهة، ومعترضًا على تعاملها معه من جهة ثانية. ويختصر هذا البيت الوارد فيها كثيرًا من الكلام عنها، حيث يقول: "لا يعرف قلبي أي الخطايا اقترفت.. إن الإنسان يقترف الذنوب دون معرفة حقيقية"[٢].

وأعتقد شخصيًا أن حالة الإنسان البابلي هذه هي الحالة العامة السائدة لكثير من الناس في مختلف العصور، فكل المؤمنين من البشر -مهما كانت أديانهم ومذاهبهم- يطلبون رضا الإله باستمرار، ويسألونه دائمًا تخفيف قسوة الأقدار عليهم.

وإذا اتجهنا للسومريين، فسنجد لديهم نصوصًا مقاربة لهذه النصوص البابلية، وهذا ما يؤكد صحة ما أشرتُ إليه في الفقرة السابقة حول اشتراك البشر في هذه المشاعر، ومن تلك النصوص السومرية مثلا قصيدة (الإنسان والإله) التي تتوافق في أفكارها الرئيسية مع النص البابلي السابق، حيث يطلب الشاعر السومري فيها رضى الإله ويأمل في الفوز برحمته، فهي شكوى عميقة لعذاباته في الحياة.. ومما ورد في هذه القصيدة، ولا أخفي أنه أعجبني كثيرا، قول شاعرها: "لم يوجد إنسان بريء منذ القدم"[٣]. وهنا ألاحظ وأتذكر نصوصًا كثيرة مشابهة في الإسلام والمسيحية وغيرها، أبرزها كمثال وأقربها إلى ذهني الآن، قول السيد المسيح: "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر".

أما على صعيد التساؤلات والقلق الوجودي والرهبة من المصير وما شابه، فيتجلى انشغال واهتمام الأدب الرافدي بهذا الشأن من خلال قصائد وأعمال كثيرة، أبرزها ملحمة جلجامش، التي سنتناولها بالتفصيل في المباحث القادمة، لارتباطها الشديد الأكيد ببحثنا في مسألة الخلود.

ولا أعتقد أننا نستطيع تجاهل الفيلسوف الأشوري القديم العظيم (أخيقار الحكيم) الذي سنكتفي بسرد عدد من حكمه الخالدة، فمن أجملها -حسب اختياري- قوله: "لا تكن كشجرة البندق التي تستعجل في الإزهار؛ ولكن ثمارها تنضج بعد كل الثمار.. ومن الأفضل أن تكون كشجرة التوت فهي تزهر متأخرة وتعطي ثماراً قبل غيرها من الأشجار". وقوله: "الكلب الذي يترك صاحبه ويتبعك ارجمه بالحجر. والغنم التي تشرد بعدة اتجاهات، تصبح صيداً محققاً للذئاب". وقوله: "أعط أوامرك للفارس الذكي، ولا تلح عليه للقيام بها. أما إذا كان الفارس غبياً فانطلق بنفسك بدلا عنه". وقوله: "من غير المحبب الإفراط في زيارة صديقك دائماً كي لا يتجنبك ويبدأ بكرهك". وقوله: "عين الإنسان تشبه

---

[١]- أنظر: جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مرجع سابق، ص ٢٣.

[٢]- أنظر: محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ص ١٢١ - ١٢٢.

[٣]- المرجع السابق، ص ص ١٢٢- ١٢٣.

الغدير، وهذي وذاك لا يمكن إشباعهما ما لم يملأ بالتراب". وقوله: "من يرفض الاستماع بأذنيه سيضطر للاستماع برقبته. الخير يرد بالخير والشر يرد بالشر، ومن يحفر حفرة لغيره سيقع فيها". وقوله: "لا تسمح لأحد أن يدوس قدميك، كي لا يركب فيما بعد على رقبتك"[١].

وتجدر الإشارة أيضًا إلى أن فكر بلاد الرافدين القديم ارتبط بموضوع (الأحلام) وتفسير الأحلام، وزبدة أهم ما في هذه المسألة هي أن الآلهة كانوا يرغبون ويحبون التواصل مع أتقياء البشر، ليخبروهم بما سيحصل من أحداث عن طريق الأحلام وفق آلية معينة، هي بإيجاز أن الملك أو الكاهن حين يشتد بهم أمر معين، يتوجه إلى مكان مقدس وينام فيه، طلبًا وسعيًا لهذه المنحة الإلهية، التي ترشده إلى ما يجب عليه فعله أو أي طريق يجب أن يسلكه. وقد رويت عنهم قصص كثيرة في هذا الشأن.[٢]

ونختم بنقطة شديدة الارتباط بفلسفة بلاد النهرين أيضًا، وتشابه -في اعتقادي- الكثير مما يكتب عادة تحت "فلسفة التاريخ" من جهة، وتحت علوم الفلك والتنجيم من جهة ثانية. وهي نقطة (التنبؤ بالغيب)، فقد كان المفكر البابلي رغم إيمانه بالقضاء والقدر، يرى أن الناس يستطيعون التعرّف على إرادة الإله وأقداره القادمة، ما دام كل ما يجرى في السماء يتكرر حدوثه على الأرض.. فيجب على الناس أن يتأملوا ويلاحظوا ويفحصوا الأدلة لكي يعثروا على الإجابات.. فنتج عن ذلك حصر الظواهر الأرضية وربطها بواقع الكواكب في السماء. فعندما يتكرر الحدث نفسه فإن المعطيات إذا أتقنَ النظرَ فيها وفسرّها الخبيرُ المتمكن، ستخبرهم بالأحداث المتوقع حصولها، كحدوث طوفان، أو قيام ثورة، أو موت ملك، أو ما شابه[٣].

---

(١)- للاستزادة عن "أخيقار" وسيرته وأقواله، راجع: ك. ما تفييف و أ. سازونوف، حضارة ما بين النهرين العريقة، الحرس الفني -موسكو ١٩٨٦، تنفيذ مطبعة دار المجد- دمشق ١٩٩١، الصفحات من ٢٢ إلى ٤١.

(٢)- أنظر: ل. ديلايورت، بلاد ما بين النهرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٧م، ص ١٥٦.

(٣)- أنظر: جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مرجع سابق، ص ٢٩.

المبحث الثاني:

الموت وطقوسه وما يتعلّق به عند قدماء بلاد الرافدين.

مرَّ بنا في المبحث السابق أن السومريين وغيرهم من قدماء بلاد الرافدين كانوا يعتقدون أن الصنّاع الإلهيين المهرة خلقوا الإنسان من الطين، بعد أن قال أنكي الحكيم لأمه الإلهة "نمو": امزجي حفنة الطين من فوق مياه الأعماق، وسيقوم الصناع بتكثيف الطين وعجنه، ثم كوّني أنتِ له أعضاءه.

ونتيجة لمعتقدهم السابق في الخلق، كان قدماء بلاد الرافدين يطلقون على الموت عدّة تسميات، منها مثلا (العودة إلى التراب) وكانوا يسمونه أيضاً (العودة إلى الصلصال) وهذه التسمية الثانية مرتبطة أيضًا بعقيدة السومريين في الخلق، فهناك رواية أخرى تقول إن "أنكي" بعد أن أعدَّ (قالب صنع البشر) طلب من أمه الإلهة نامو أن تصنع (طبيعة) لكتلة الصلصال الموضوعة في القالب.. وحتى معتقد البابليين الذين يرون أن الإله "مردوخ" خلق الإنسان من دماء الإله السجين "كنغو" بعد أن قتله.. حتى هذا المعتقد البابلي مرتبط بالصلصال أيضًا، حيث نجد نصوصًا تشرح تفاصيل ذلك الخلق، وتشير إلى أنه حصل عبر مزج دم الإله المقتول بالصلصال لخلق الإنسان. ومن هذا كله يظهر لنا سبب تسميتهم أو وصفهم للموت بأنه العودة إلى الصلصال أو الرجوع إلى التراب[١].

وهذا الرجوع إلى الصلصال أو التراب أمر يحزنهم كثيرًا؛ ولكنه حتمي لا مفر منه ولا مناص عنه في معتقداتهم، وفق ما نجده في كثير من نصوصهم، فجلجامش مثلا -الذي سنتوسع في ملحمته في المبحث القادم- حين مات صديقه العزيز "أنكيدو" حزن بشدة لرحيله، وحاول الفرار من هذا المصير، فقرر البحث عن طريقة يهرب بها من الموت، فتوصل إلى فكرة هي البحث عن جده "أوتنابيشتم" بطل الطوفان ليسأله عن كيفية تجنب الموت، وبعد سفر طويل صعب محفوف بالمخاطر والأهوال وصل جلجامش إلى بطل الطوفان، وبعد أن علم بسبب مجيئه أخبره أوتنابيشتم بحتمية الموت قائلا: "إن الموت قاس لا يرحم.. متى بنينا بيتاً يدوم إلى الأبد؟ وهل حتمنا عقدًا يدوم إلى الأبد". ثم سأله جلجامش كيف استطاع الحصول على الخلود رغم أنه من البشر، فأجابه إجابة سنعرض لها في المبحث القادم.. وكل ما يهمنا الآن في هذا المبحث من هذه القصة، هو أن الموت، أو (الرجوع إلى التراب) في تسميتهم، أمر حتمي على كل إنسان، وهو محزن جدًا؛ ولكن الهروب منه مستحيل، وهذا ما تؤكده أيضًا "سيدوري" صاحبة الحانة التي التقاها جلجامش في قصته، فسألها قائلا: الآن وقد رأيتُ وجهك يا صاحبة الحانة، دعيني لا أرى الموت الذي أرهبه على الدوام.. فردّتْ عليه قائلة: إن الحياة التي تبغيها سوف لا تجدها: عندما خلق الآلهة البشر فرضوا الموت على البشرية، وأمسكوا الحياة بأيديهم[٢]. فبالإضافة إلى أن الموت (محزن وحتمي)، إلا أنهم يعتقدون أن هذا الأمر مقدّر من الآلهة، كما تفيدنا الملاحم الخاصة بخلق الإنسان، إذ يرد فيها الكثير من الكلام عن الآلهة التي قررتْ من البداية أن يكون مصير كل إنسان هو الموت[٣].

---

[١]- أنظر: قاسم الشواف، ديوان أساطير سومر وأكاد وآشور – الكتاب الرابع، بإشراف أدونيس، دار الساقي – بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص ص ٢٢ – ٢٣.

[٢]- أنظر: بلخير بقة، أثر ديانة وادي الرافدين على الحياة الفكرية سومر وبابل، رسالة ماجستير في التاريخ القديم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الجزائر، ٢٠٠٨م، ص ص ٨٠ – ٨١. وأنظر أيضًا: قاسم الشواف، ديوان الأساطير-الكتاب الرابع، مرجع سابق، ص ٢١.

[٣]- أنظر: حضارة العراق، لنخبة من الباحثين العراقيين، مرجع سابق، ج١، ص ١٧٧.

وتروي أساطير بلاد الرافدين محاولات عجيبة للهروب من الموت، ومن أعجبها قصة الراعي الذي أراد أن يهرب من الموت بالصعود إلى السماء على أجنحة أحد النسور، ولكن هذه المحاولة الواردة في أسطورة "إيتانا" فشلت فشلا ذريعًا كغيرها من محاولاتهم الأخرى كمحاولة جلجامش وغيره، وهذا ما جعلهم يصلون إلى اليأس من هذه الفكرة فاستقرتْ معتقداتهم على حتمية الموت المقدّر من الآلهة كما أسلفنا.. وليس ها فحسب، بل إن بعض الآلهة تموت أيضًا في معتقداتهم، ويكفي هنا أن نستشهد مثلا بالإله (دموزي - Dumuzi) زوج الإلهة إينانا (عشتار)، الذي كان في الأصل ملكاً في الأرض، وتحديدًا على أوروك، فحتى هذا الإله وغيره كان لا بد أن يموتوا. وعندما هبط إلى العالم السفلي راحت حبيبته تبحث عنه بغير جدوى، وبقي دموزي ليحكم تلك الأرض التي لا عودة منها إلى أرض الحياة الدنيا، فدموزي مات ولم يعد إلى الحياة على الأرض مرة أخرى طبقاً لما ترويه أساطيرهم[١].

والآلهة إينانا المذكورة أعلاه، هي أيضًا التي سعتْ إلى (تخليص البشرية من الموت) فأساطير بلاد الرافدين القديمة تروي أن السعي إلى القضاء على الموت هو السبب الذي جعلها تهبط إلى العالم السفلي فقد ذهبت إلى ذلك العالم بقصد السيطرة عليه وبالتالي إيقاف الموت.. ومع هذا فقد كانت "إينانا" أيضاً خائفة من الموت مع أنها إلهة، فقد ذكرتْ الأساطير أنها خشيتْ من فشل رحلتها وبالتالي الموت والانضمام إلى عالم الأموات، الذي تحكمه أختها الإلهة "كيكال" ملكة العالم السفلي.. ونتيجة لخوفها من موتها على يد أختها احتاطتْ للأمر، وأوصت وزيرتها "نشوبر" قائلة لها: إن لم أنجح في الرجوع من العالم السفلي خلال ثلاثة أيام، فعليك أن تطلبي من الإله "إنليل" مساعدتي، فإن رفض فاطلبي من إله القمر "ننار" أو من الإله "أنكي" مساعدتي.. وهذا ما حصل فعلا حين تأخرتْ فتدخل الإله "أنكي" وأنقذها من الموت المؤكد فرجعتْ من عالم الأموات[٢].

ولكن المهم في هذا المبحث الآن هو أن هذه الأساطير –في اعتقادي- يُفهم منها وجود قلق شديد وخوف كبير من الموت عند أولئك القدماء، بدليل كثرة هذه الأساطير التي تدعم هذه الرؤية، فجلجامش أبدى قلقاً كبيرًا من الموت حين شاهد صديقه أنكيدو يموت، وخوفه هذا من الموت هو الذي دفعه لكل ما قام به طلبًا للبقاء الأبدي في هذه الحياة الدنيا.. وهذا ما يتكرر في أساطير ونصوص كثيرة مختلفة، ولا شك أن قصة هذه الإلهة وسعيها لتخليص البشرية من الموت يصب في هذا الاتجاه.

وربما ينجح هذا المقطع المركّب أو المصنوع، الذي يتكوّن من عدد من أقوال جلجامش، التي مزجتها ودمجتها مع بعضها.. ربما ينجح في تصوير حالة القلق من الموت والذعر الرهيب منه والرغبة العارمة في التغلب عليه، حيث يقول جلجامش في كلماته المتمازجة المدموجة: **"إذا ما متّ أفلا يكون مصيري مثل أنكيدو؟. ملكَ الحزن والأسى روحي، وها أنا ذا أهيم في القفار والبراري خائفًا من الموت.. إنه أنكيدو صاحبي وخلّي الذي أحببته حبًا جمّا.. لقد انتهى إلى ما يصير إليه البشر جميعا فبكيته آناء الليل والنهار.. ندبته ستة أيام وسبع ليال معللا نفسي بأن يقوم من كثرة بكائي ونواحي. وامتنعتُ عن تسليمه إلى القبر، فأبقيته ستة أيام وسبع ليال حتى وقع الدود على وجهه؛ فأفزعني الموتُ حتى همت على وجهي في البراري.. إن النازلة التي حلّت بصاحبي تقض**

---

[١]- أنظر: جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مرجع سابق، ص ٢٠.

[٢]- أنظر: حضارة العراق، لنخبة من الباحثين العراقيين، مرجع سابق، ج١، ص ١٥٦.

مضجعي.. آه لقد صار صاحبي الذي أحببتُ ترابا.. وأنا سأضطجع مثله فلا أقوم أبد الآبدين. كيف لا تذبل وجنتاي ويمتقع وجهي، ويغمر الحزن والأسى قلبي، وتتبدل هيئتي؟ وكيف لا يصير وجهي أشعث كمن أنهكه السفر الطويل؟ ويلفح وجهي الحر والقر، وأهيم على وجهي في البراري؟ وخلّي، وأخي الأصغر أنكيدو الذي تغلّب على جميع الصعاب وارتقى أعالي الجبال قد أدركه مصير البشرية.. لقد أفزعني الموت حتى همتُ على وجهي في القفار والبراري، فالنازلة التي حلّت بصديقي قد أوهنتني وأقضت مضجعي، فهمتُ على وجهي في البراري، إذ كيف أهدأ و يقر لي قرار وصديقي الذي أحببت قد صار ترابا.. وأنا أفلا أكون مثله فاضطجع ضجعة لا أقوم من بعدها أبد الدهر؟"[١].

وقد سبق قدماءُ بلاد الرافدين غيرهم في التفريق بين موت المسنين وموت الشاب، فقد كان تأثرهم عميقًا بالنسبة للموت المبكر الذي يسمونه **(الموت العنيف)**، فالحزن رهيب عندما يموت شاب أو شابة يختطفهما الموت وهم في مقتبل العمر قبل الأوان وقبل تذوق متع الحياة.. والعكس صحيح، فتأثرهم وحزنهم يكون أخف عندما يحصل **(الموت الطبيعي)** لإنسان بلغ من العمر عتيًا وشبع من حياته..

ورغم أن هذا التفريق ما زال موجودًا بين البشر حتى اليوم في مختلف المجتمعات، إلا أن ردة فعل أولئك القدماء الرافديين أمام الموت العنيف المبكر، كانت أبعد من ردة فعل غيرهم بكثير، وهذا ناتج عن عقيدتهم الخاصة في هذا، حيث يؤمنون أن الطاقة ومخزون الحياة الذي كان في الصغير الذي مات موتاً مؤلمًا مبكرًا، قد يتسبب في تحوّل شبح هذا الميت الشاب إلى (شيطان مضر) يشكل خطرًا على عائلته.. ومن هنا ظهرت بينهم طقوس مختلفة خاصة، الغاية منها هي تعزية ذلك الراحل وتعويضه عن كل ما حُرم منه بسبب رحيله العنيف.. وحادثة الموت المبكر المفجعة تسمّى **(الإيطلو)** عند الأكاديين، ووردتْ عنها نصوص كثيرة طويلة، خلاصتها أنهم يتلون من التعاويذ ويمارسون من الطقوس الكثير، لإراحة شبح هذا الميت وصرف شروره عن عالم الأحياء[٢].

وإذا مات إنسان فالخطوة الأولى عند السومريين هي اجتماع عائلة الميت وخاصة النساء القريبات منه بعد الوفاة مباشرة، فيقومون ببعض الطقوس من أجل إرضاء آلهة السماء وآلهة العالم الأسفل معًا وتجنب غضبها، وحتى يتم الاعتناء بالميت، فيكلفون بعض الأشخاص والكهنة من أجل (تلاوة التعاويذ) التي تعمل على تحسين حالة روحه في العالم الأسفل.. ومن أهم طقوسهم (الحداد) الذي يهدفون منه إلى تخفيف مصابهم وتوترهم من جهة، وتطمين الميت بأنه معهم وأنهم لم ينسوه من جهة ثانية.. وتستمر تلك الطقوس والشعائر في أوقات محددة ومختلفة تبدأ بوفاة الإنسان وتستمر لفترة طويلة بعدها وخاصة في يوم (٢٩) من كل شهر، فهو يوم يختفي فيه القمر كليًا ويسمونه (محاق) حيث تجتمع فيه أرواح موتاهم فيقوم الأحياء بتقديم القرابين والطقوس لها، ويطلقون على هذا اليوم أسماء أبرزها **(يوم الكآبة)** و**(يوم وليمة الموتى)**. وتنقسم هذه الشعائر الجنائزية إلى ثلاثة أقسام: فالأول هو طقس الكسبا، وهي الطقوس التي تُقدّم فيها مختلف الأطعمة إلى أرواح الموتى حيث تذبح فيه الخراف ويقدم الزيت والعطور والبخور والنبيذ الأبيض والفاكهة، وكانت التقاليد تقضي بفرش مائدة الأطعمة والأشربة هذه وتوضع إليها وترتب مقاعد حول المائدة للجميع، ويترك

---

[١]- راجع: طه باقر، ملحمة كلكامش - أوديسة العراق الخالدة، وزارة الإرشاد العراقية - سلسلة الثقافة الشعبية،١٩٦٢م، الصفحات ٧٨-٧٩-٨٢-٨٣.

[٢]- أنظر: قاسم الشواف، ديوان الأساطير-الكتاب الرابع، مرجع سابق، ص ص ٢٧-٢٨.

مقعد واحد لروح الميت الذي أقيمت الوليمة من أجله، وكان هذا المقعد يسمى بالسومرية "كش كوزاديما" ويسمى بالأكادية "كسو أطيمو"، وكانت القرابين الجنائزية تقدم أمام تماثيل الملوك بصفة خاصة. والثاني هو طقس المي نقو: وهي طقوس سكب الماء لإرواء ظمأ الميت؛ لأنه في اعتقادهم يعطش بعد الموت، فكان الماء يسكب عبر أنبوب فخاري ينزل من سطح الأرض إلى العالم الأسفل. أمّا الثالث فهو طقس الشوماز كارو، وهو طقس **(ذكر الاسم)** والمقصود به تطمين الميت بأن ذكراه لازالت قائمة بين الإحياء وأن نوعًا من البقاء من خلال الاسم يتحقق له[١].

وهناك اتفاق واضح بين الآشوريين والسومريين تحديدًا في موضوع دفن الأموات، حيث لم يهتم السومريون ببناء الأضرحة الفخمة كالفراعنة مثلا وغيرهم، بل كان دفن الأموات يتم في قبور بسيطة جدًا، يقومون بحفرها تحت أرض غرف منازلهم أحيانًا، وفي أحيان أخرى يدفنون موتاهم في (مقابر عامة) في المدينة.. وقد قلّدهم الآشوريون بدفنهم أمواتهم تحت أرض بيوتهم، أو تحت (أرض فناء الدار)[٢].

وبشكل عام نستطيع أن نصل إلى نتيجة مفادها أن **(دفن الجثث)** في بلاد الرافدين قديمًا كان يتم عبر ثلاثة أشكال، أولها الدفن **(تحت أرضيات المساكن)** وهو أقدم ما اتبع في دفن الأموات في تاريخ وادي الرافدين واستمر هذا التقليد في الدفن حتى بدايات الألف الثالث قبل الميلاد، إذ كشفت التنقيبات الأثارية في موقع مدينة نفر (نيبور القديمة) عن ممارسة دفن الأموات تحت أرضيات المساكن ابتداء من عصر فجر السلالات الأول ٢٨٠٠ ق.م، وفي مدن أخرى كانت جثث الموتى تدفن تحت أرضيات المساكن وغرف المنازل، وتلك الغرف نفسها التي يقيم فيها الأحياء أو أنها غرف شيدت لغرض الدفن، وفي منطقة ديالى كشفت التنقيبات أيضًا عن كون القبور العائدة إلى عصر فجر السلالات عبارة عن حفرة بسيطة تحت أرضيات البيوت التي استمر السكن فيها بعد القيام بعملية الدفن، وأثبتتْ تلك التنقيبات أيضًا أن الدفن تحت أرضيات البيوت كان شائعاً في ذلك العصر لعامة الناس وعلى اختلاف مكانتهم الاجتماعية، كما كشفت تنقيبات "ليونارد وولي" في موقع مدينة "أور" القديمة عن وجود غرف مخصصة للدفن في بيوت عصر سلالة أور الثالثة، فقد كان في كل منزل تقريباً باستثناء منازل الفقراء جزء خاص لدفن الموتى بشكل (مصلى عائلي) حسب ما يسميه وولي، ويكون هذا الجزء وراء البيت مباشرة ويشيد بشكل غرفة طويلة ضيقة تختلف عن باقي غرف المنزل إذ لم تكن تلك الغرفة مسقوفة ويُدخل إليها عبر باب موجود في أحد جوانبها، وتوجد تحتها مائدة للنذور ومحرقة للبخور، ثم ما لبث أن توقف بناء مثل هذه الغرفة في العصور اللاحقة لسلالة أور الثالثة وذلك لعدم العثور على مثل تلك المصليات في الفترات. وكان الدافع الرئيسي للدفن تحت أرضيات السكن والبيوت هو الاستمرارية في اعتبار المتوفى عضوًا في العائلة لا ينبغي له الابتعاد عنها حتى بعد وفاته إضافة إلى أن وجود مكان للدفن داخل المنزل يمثل السبيل الأفضل للمحافظة على الجثة من (التخريب والعبث)، وبالتالي إزعاج روح المتوفى في العالم السفلي. كما مارس سكان وادي الرافدين الدفن في مقابر مخصصة لهذا الغرض وبمساحات محددة داخل المدن أو خارجها حيث تم الكشف عن الكثير من المقابر المنفردة والتي تعود إلى فترة الألف الثالث قبل الميلاد ومنها ما اكتشفه "وولي" خارجَ أسوار مدينة أور من مقبرة تعود بتاريخها إلى عصر جمدة نصر وبداية

---

[١]- أنظر: خزعل الماجدي، متون سومر – الكتاب الأول: التاريخ والميثولوجيا واللاهوت والطقوس، مرجع سابق، ص ص ٣٣٠-٣٣١.

[٢]- أنظر: سامي المغلوث، أطلس الأديان، مكتبة العبيكان للنشر – الرياض، ط١، ٢٠٠٧م. ص ص ٥١٧-٥٣٧.

فجر السلالات الأول كما تم الكشف عن مقبرة ثانية خارج الأسوار أيضًا تعود إلى زمن لاحق من عصر فجر السلالات ويبدو أنها بقيت مستعملة إلى ما بعد العصر الأكادي وضمت هذه المقبرة اكثر من (٢٥٠٠ قبر) إضافة إلى مقبرة "نفر" والعائدة بتاريخها إلى العصر الأكادي[١].

فأمّا المقابر الجماعية داخل المدن، فإما أن تكون (قبورًا منفردة) تم دفن الأموات فيها بصورة متفرقة في الأماكن الخالية من الحارات داخل المدينة وبين البيوت وما شابه، وأقدم مثال لهذا النوع يعود إلى دور (حلف) من العصر الحجري المعدني حيث كان دفن الموتى يتم بين البيوت، كم أن هناك احتمالاً باتباع هذه الطريقة نفسها في "نفر" وذلك في الطبقات العائدة للعهد البابلي القديم. وإما أن تكون بصورة (قبور منتظمة) كما هو الحال في "أور" حيث بدأ الدفن لأول مرة في طبقات الأنقاض وبلغ ارتفاعها في المنطقة الكائنة في الجهة الجنوبية الشرقية من سور المعابد حوالي المترين. ومنذ ذلك الحين ولمدة ٤٥٠ سنة استعملت هذه المنطقة للدفن دون انقطاع. كما أن النصوص الآشورية الخاصة بالملك "سنحاريب" تروي لنا وجود (مقبرة جماعية منتظمة) أغرقها وخربها النهر بفيضانه. وأمّا المقابر التي تكون خارج المدن فقد بدأت تقريبًا من العصر الحجري الوسيط، حيث كان سكان قرية "زواي جمي" مثلا يدفنون موتاهم في الكهوف القريبة منهم، ككهف "شانيدار" وبطريقة دقيقة محددة، حيث يكون الدفن في طبقة معينة من هذه الكهوف. ويشابههم سكان "أريدو" في جنوب العراق قديمًا، حيث فرزوا بعض القبور وجعلوها على هيئة مقبرة خارج حارات السكن[٢].

أمّا إذا كان الميت من **(الملوك والمقربين منهم)** فإنه يدفن وفق امتيازات خاصة، حيث يتم دفنهم في القصور الملكية، مع استثناء الملوك غير الشرعيين، الذين استولوا على الحكم بالاغتصاب والقوة، فهؤلاء يتم حرمانهم من هذا الامتياز.. ونستشهد هنا بفقرة من نص بابلي، ورد في إحدى (حوليات ملوك بابل)، حيث يظهر فيه التفريق عند الدفن بين ملكين شرعي وغير شرعي: "رجل من سلالة دامق ذبح بالسيف وحكم لمدة ١٧ سنة، دفن في قصر الملك الشرعي. أما (يامكن-زير) مغتصب العرش ابن خاشمر، فحكم لمدة ثلاثة أشهر، ودفن في غدير بيت "خاشمر". وفي بلاد (آشور) لم يختلف الآشوريون عن البابليين كثيرًا في هذا الطقس، فقد كان ملوكهم يدفنون في القصر الملكي في العاصمة آشور (قلعة الشرقاط حاليًا) وكان ملوك آشور يكرمون بعض قادتهم العسكريين أيضًا، فيدفنونهم معهم في القصور الملكية تقديرًا لمكانتهم[٣].

وبما أن الحديث عن الملوك والموت ومقابر الملوك، فمن المناسب الإشارة إلى أن لبعض ملوك بلاد ما بين النهرين قصصًا عجيبة مع الموت والمقابر وقدسيتها، ومن ذلك قصة الملكة "نيتوكريس" حاكمة بلاد بابل القديمة، فقد أمرتْ هذه الملكة ببناء مدفن لها فوق البوابات في أكثر مناطق المدينة ازدحامًا بالسكان، وحفرتْ عليه الكتابة التالية: إذا رأى أي من الملوك البابليين الذين سيأتون بعدي أنه بحاجة إلى المال فليفتح مدفني هذا وليأخذ من النقود ما يشاء قدر الحاجة. ولكن لا يفتحه عبثاً دون حاجة إلى المال، والأفضل من هذا عدم فتح المدفن إطلاقاً. وفعلا لم يفتح أحد هذا المدفن مدة

---

[١]- أنظر: إيمان لفتة حسين، الطقوس الجنائزية في بلاد وادي الرافدين خلال الألف الثالث قبل الميلاد، مجلة جامعة القادسية - العراق، المجلد (٨) العدد (٤)، ٢٠٠٩م، ص ٢٢٥.

[٢]- أنظر: نائل حنون، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ط٢، ١٩٨٦م، ص ص ٢٣٠-٢٣١.

[٣]- المرجع السابق، الصفحات ٢٢٨-٢٢٩ -٢٣٠.

طويلة، حتى انتقلتْ السلطة الملكية إلى "داريوس" الذي فتح المدفن لكنه لم يجد المال، بل وجد جثة الميت فقط، وبجوارها كتابة تقول: لو لم تكن لهذه الدرجة من البخل لما فتحت مدفن الموتى[١].

وهناك أيضاً **(الدفن في الأماكن المقدسة)** وقد مارسه السومريون مثلا في مدينة (دلمون) المقدسة في عقيدتهم، حيث كانوا يعتبرونها أرضاً للإله إنكي، وهو شفيعهم بعد الموت.. وقد وُجدت في دلمون -البحرين حالياً- مقابر لمئات الألوف من السومريين. وهناك أيضاً **(الدفن في الأضرحة المستقلة)** ليستطيع الناس تقديم طقوس خاصة لهم، وغالبًا تكون خاصة بالعظماء والملوك، كما في أضرحة ملوك سلالة أور الثالثة مثلا، حيث دفنوا تحت مزارات خاصة تحتوي على العديد من الغرف التي كانت تمارس الشعائر الجنائزية فيها، وتقدم النذور للملوك الراقدين في أضرحتهم[٢].

وكان جثمان الملك يشيّع وهو مزيّن بشارات الملك ويلبس أفخم الملابس، والناس مصطفون على الطريق الذي تمرّ فيه جنازته ليودعوه بالنواح والبكاء عليه، وربما كانت القرابين تقدم للآلهة عند موت الملك طلبًا لرعايتها له في حياته الأخرى، ويظهر لنا من ذلك التماثل الكبير بين الملك والإله (تموز الميت)، فالتعابير التي كانت تستعمل في إظهار الأسى والحزن على موت الملك تشبه إلى حد كبير ما كان يستعمل عند موت الإله، ومن المحتمل أن تكون هذه الفكرة هي السبب في ظهور الطقوس الخاصة بالجنازة الملكية.. وإضافة إلى ذلك كان الشعراء يؤلفون القصائد التي تمجد أعمال الملك الراحل وتسرد صفاته الحميدة، وتتضرع بالدعوات إلى الآلهة للحفاظ عليه[٣].

وإذا مات إنسان عند البابليين تحديدًا، فإنهم يغسلونه ويجهزونه بملابس وزينة، وقد ثبتَ عنهم أن غالب أجسام الموتى تدفن في قباب؛ وأحيانًا –وهو نادر- يحرقون الجثة، ثم تحفظ بقاياها في قوارير.. والبابليون لا يحنطون الجثث إطلاقاً، ولكن النادبين المحترفين منهم كانوا يغسلون الجثة، ويلبسونها ثياباً حسنة، ويصبغون خديها، ويسودون جفونها، ويلبسونها خواتم في أصابعها، ويضعون معها غيارات من الملابس الداخلية. ويضيفون لجثة المرأة تجهيزات أخرى، كوضع قوارير العطور معها، وكذلك الأمشاط، وأقلام الأدهان، وكحل العينين[٤]..الخ. وإله الموت عند البابليين له من اسمه نصيب، حيث كانوا يسمونه **"موتو"** ويظهر بوضوح ارتباط هذا الاسم بكلمة (موت) العربية[٥].

وتوضع مع الموتى أشياء كثيرة أخرى غير ما ذكر، وهذا الأمر شبه متفق عليه في العراق القديم عامة، ومن ذلك أيضًا أن السومريين كانوا يضعون مع الميت في قبره (الطعام والأدوات) والاحتياجات المختلفة[٦].

وتجدر الإشارة إلى أن الآراميين -الذين أقام بعضهم في الجزء الشمالي الغربي من بلاد ما بين النهرين قديمًا- كانوا يدفنون موتاهم في قبور مبنية على شكل غرف، كما كانوا يحرقون جثث

---

[١]- ك. ما تفييف و أ. سازونوف، حضارة ما بين النهرين العريقة، مرجع سابق، ص ١٠٢.
[٢]- خزعل الماجدي، متون سومر – الكتاب الأول، مرجع سابق، ص ٣٢٦.
[٣]- أنظر: إيمان لفتة حسين، الطقوس الجنائزية، مرجع سابق، ص ص ٢٢٩- ٢٣٠ .
[٤]- وِلْ ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج٢، ص ٢٢٢.
[٥]- أنظر: طه باقر، ملحمة كلكامش - أوديسة العراق الخالدة، مرجع سابق، ص ٢٣٤.
[٦]- ديورانت، المرجع السابق، مج ١، ج٢، ص ٣٠.

موتاهم، وهذا غريب ومخالف للطريقة المتبعة، ويبدو أنه تقليد لطقوس أناضولية لا تمت بصلة لذهنية الموت العامة في المشرق العربي القديم[١].

كما أن الآراميين ابتكروا التماثيل الجنائزية، حيث عثر عليها في عدة مدافن آرامية. ففي "جوزن" قرب تل حلف -الواقعة في منطقة ينابيع نهر الخابور؛ أكبر روافد نهر الفرات- ، تم اكتشاف تمثالين لامرأتين جالستين، وتمثال لرجل وامرأة يجلسان على مقعد واحد. وقد اتسمت هذه التماثيل بالتعبير الواقعي لحالة الموت، حيث العيون مغمضة والشخوص توحي بالجمود، دلالة على أنهم أموات. كما عُثر في تل حلف أيضًا على تماثيل للموتى توضع كشاهدة قبر؛ وانتشرت الكتابة تحت قوس شاهدة القبر وعلى أسفل ثوب الميت. فمثلاً عثر على شاهدة قبر لكاهن سن المتوفى، حيث نقرأ أسفل الثوب على الشاهدة: "سن—أرز—ابني كاهن سن هو متوفى وهذه صورته وقبره." وينتهي النصُّ بلعن كلِّ من يسيء إليه[٢].

وقد سادت بين الرافديين وخاصة السومريين، مظاهر مختلفة ترافق الحزن والحداد والتأثر على أمواتهم، ومنها أن الكهان يعزفون إما على القيثارات أو على الطبول وهم يندبون ويرددون أناشيد حزينة.. أما أهل الميت فيظهرون التأثر بطرق وممارسات مختلفة، منها ترك الشعر أشعث أو نتفه نتفاً، أو أنهم يصرخون وينوحون بأصوات عالية مع اللطم على الوجه وإلقاء اليدين على الأرض وضربها، بالإضافة إلى تمزيق الثياب وطأطأة الرؤوس وتلطيخها بالطين[٣].

وأثناء هذه الشعائر الجنائزية ومع ممارسة طقوسها: يأخذون الميت إلى قبره للدفن، ولا يمكن أن نتجاهل في هذا المبحث نقطة بالغة الأهمية، وهي أن الكثير من الدراسات تشير إلى أن أول من قام بعملية دفن الأموات في تاريخ البشرية هم أهل بلاد وادي الرافدين في زمن قديم جداً يعود تاريخه إلى (العصر الحجري الوسيط) الذي شهد مرحلة انتقال مهمة للإنسان من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث، وشمل هذا الانتقال عدة أصعدة مختلفة، على رأسها الصعيد الفكري والفلسفي والعقائدي، ومن ذلك تصاعد مستوى المشاعر الإنسانية المتمثلة في **(احترام الأموات)** والاهتمام بطقوس دفنهم وتكريمهم.. وقد ظهر الكثير من تلك البدايات من خلال ما تركه الإنسان الرافدي القديم على جدران كهوفه التي كان يسكن فيها، فضلاً عن بقايا الآثار والأدوات والمواد المختلفة التي كانت تستخدم للدفن[٤].

والحقيقة أن العراق القديم بشكل عام، كانت تسود في كل حضاراته ممارسات متشابهة مرتبطة بـ(عملية الدفن). فبالنسبة لـ**(حفظ الجثث)** فقد سلك العراقيون القدامى طرقًا مختلفة لهذا الغرض، أشهرها مثلا استخدام حصران القصب، فقد كانت تستخدم بصور عديدة، أبرزها ثلاثة هي: **١-** لف الجثة مباشرة بحصران القصب. **٢-** تبطين القبر بالحصران ثم دفن الجثة فيه. **٣-** صنع التوابيت من الحصران عن طريق تثبيتها بدعائم خشبية. والسبب في استخدام حصران القصب في الدفن، هو — حسب بعض الباحثين- اعتقادهم أن للقصب قدرة سحرية لحفظ جثث الموتى، استنادًا على دور كوخ

---

[١]- د. بشار خليف، شعائر الموت ومعتقداته في المشرق العربي القديم، مقالة منشورة بعدة أماكن، منها مجلة "معابر" الثقافية السورية، على هذا الرابط:
http://www.maaber.org/issue_january04/mythology1.htm
[٢]- د. بشار خليف، المرجع السابق.
[٣]- أنظر: خزعل الماجدي، متون سومر — الكتاب الأول، مرجع سابق، ص ص ٣٣١-٣٣٢.
[٤]- أنظر: إيمان لفتة حسين، الطقوس الجنائزية، مرجع سابق، ص ٢١٧.

القصب في قصة الطوفان. ومن طرق الدفن أيضًا في العراق القديم وضع الجثة على أرضية من الآجر المرتفع قليلا ويغطى بطبقتين، الأولى من حصير القصب، وفوقها طبقة ثانية عبارة عن قطعة أو قطعتين من الفخار. كما أنهم استخدموا التوابيت الخشبية في عدة أماكن، منها "اور" و "شروباك" و"فارا". وأحيانا يستخدمون الطين، حيث وُجدتْ توابيت طينية في "خفاجة" كان يوضع فيها الميت ممددًا على جنبه الأيمن. وكان الأطفال في بعض المناطق يدفنون في جرار فخارية كروية، يوضع فيها الطفل بهيئة الجنين في الرحم، وتطوّرت الفكرة فأصبح بعض الكبار يدفنون في جرار الفخار أيضًا. كما ثبت أن أهل بعض المناطق يدفنون أطفالهم في سلال معينة تحت بيوتهم.

ولم يكن سكان الرافدين قديمًا يلتزمون بقاعدة محددة لوضع الأموات في القبور، فكان **(الميت من غير الأطفال)** يوضع في قبره بعدة وضعيات، منها: ١- وضعية القرفصاء، مع توجيه الرأس نحو الجنوب أو الغرب، وهذه الوضعية سادتْ بين أهل "تل الصوان" وغيرهم، فقرب أربيل مثلا كان الوضع مشابها إلا أن الهياكل التي وجدت كانت موجهة نحو الشرق أو الشمال الشرقي. ٢- تمديد الجثة باستقامة على ظهرها، ووضع عظام الأيدي على الحوض، وهذه الوضعية وجدت في "أور" فقط، ولم تظهر في أي مكان آخر من العراق القديم. ٣- وجدت هياكل مدفونة بوضع مطوي، يشكل فيه الرأس زاوية حادة مع الجسد والذراعان مرفوعتان أمام الوجه. وقد وُجدتْ قبورٌ أخرى، تظهر فيها الجثث ممددة على الظهر في قبور جماعية منتظمة مبنية باللبن. ووجدت هياكل أخرى تثبت أن الدفن كان للميت منطويًا بشدة، بحيث تصبح الركب في مستوى الحنك. ومن أغرب ما في هذا الموضوع العثور على مقابر يحتوي كلُّ قبرٍ منها على أجزاء معينة من الجسد بدون بقية الأعضاء، وهذا منتشر مثلا في مقبرة "الأربجية" التي يعود تاريخها إلى دور العبيد، حيث كانت أجزاء معينة مثل الرأس والأطراف تدفن في قبور خاصة، ويعتقد أن هذه الطريقة الغريبة وفدت إلى العراق عن طريق الشرق عبر بلوجستان والهند. كما اختلفت الأشكال الإنشائية للقبور، فبعضها كان بسيطاً يحفر في الأرض بعمق يتراوح ما بين (٢٢-٥٠) سم. وبعضها الآخر يُبنى باللبن والآجر، ومنها ما كان مرتفعًا له أقبية قياس غالبها في حدود ٥ أقدام ارتفاعًا و٣ أو ٤ أقدام عرضًا و٦ أقدام طولا[1].

ومن خلال كل ما سبق نصل إلى نتيجة مفادها أنهم لم يتفقوا على أي شيء عند الدفن، لا في شكل التوابيت، ولا في وضعية الجثة، ولا في الجهة التي يوجه لها الميت، ولا في طريقة حفر أو بناء القبور. فالاختلافات واسعة والفروق شاسعة، وهناك الكثير من النماذج الأخرى غير المذكورة، مما يوحي بعدم وجود أية قواعد قطعية واضحة أو محددة متفق عليها.

وقد ساد بينهم اعتقادٌ شديدٌ أكيدٌ بأهمية دفن الميت؛ لأن روحه لا يمكن أن تستقر بعد الموت إلا إذا دُفنت جثته بشكل جيد كما أن عدم دفنها يجعل روح الميت تظهر بصور مختلفة مفزعة للأحياء؛ ولذلك كانت القوانين العراقية القديمة توقع عقوبات صارمة على المجرمين الذين قاموا بجرائم بشعة، ومن تلك العقوبات **(عدم دفن جثثهم)**، ممّا يؤكد خطورة هذا الأمر في عقيدتهم. وأيضًا كان الملوك ينتقمون من أعدائهم بنبش قبورهم، إمعاناً في تعذيبهم وجعل أرواحهم غير مستقرة[2].

---

[1]- للتوسع راجع: نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، مرجع سابق، الصفحات من ٢٢٧ إلى ٢٥٠، فقد لخصتُ الكثير من محتواها في الفقرتين السابقتين.

[2]- أنظر: إيمان لفتة، الطقوس الجنائزية، مرجع سابق، ص ٢١٦.

وإذا تمّتْ عملية الدفن في المقابر العامة فإنها تكون مكلفة ماديًا، حيث يُعهد بها إلى أشخاص مرتبطين بالمعبد، وكانوا يتقاضون مقابل عملية دفن الميت أجوراً ربما تكون باهظة أحياناً، حيث وردتْ بعضُ الإشارات في القوانين العراقية القديمة إلى تلك الأجور ومحاولة تخفيضها ومنها إصلاحات "أورنميكا" ٢٣٥٥ ق.م، فقد كانت الأجور تؤخذ لسببين، الأول مقابل عملية الدفن نفسها، والثاني مقابل الأرض التي تدفن فيها الجثة. ويسرد لنا العمود السادس من قائمة تلك الإصلاحات تفاصيل تكاليف عملية الدفن، ومحاولة أورنميكا التخفيف منها[١].

والموت بشكل عام في أساطير ومعتقدات الرافديين يأتي جماعيًا أحيانًا، أي (كعقاب جماعي) وهذا ما تصوّره لنا ملحمتا أتراحسيس وجلجامش، فالطوفان فيهما ليس إلا عقابًا جماعيًا أنزلته الآلهة بالجنس البشري، فماتوا جميعًا إلا البطل في كل ملحمة من الملحمتين، فإنه ينجو من الموت وينعم بالخلود في هذه الحياة الدنيا، وسبب نجاة البطلين من الموت هو أنهما استمعا إلى تحذيرات وصلتهما من الإله "أنكي" الذي سرّب إليهما خبر الطوفان الذي قررتْ الآلهة إرساله للناس، بعد أن علم به مبكرًا عند حضوره اجتماعات الآلهة. وبناء على هذه المعلومات قررا الهرب من الموت عن طريق بناء سفينة تهرب عليها عائلات من البشر والحيوانات. وهذا ظاهر في ملحمة جلجامش، حيث يقص "أوتنابشتيم" على جلجامش كيف هرب من الطوفان وكيف استقرت سفينته في النهاية على جبل نصير، فغضب الإله "إنليل" لأن إنسانا استطاع الهرب من الموت الجماعي، ثم أقنعته الآلهة بعد جهد أن يهبه الخلود[٢].

والحديث السابق عن الطوفان يجرنا إلى نقطة **(اختيار الموت)** الواردة في قصة الطوفان، فالإنسان في معتقداتهم اختار الموت بمحض حريته ومِلْءِ إرادته، فقد خلقته آلهته للسعادة، ثم خيّرته بين الموت والخلود، ويتمثل هذا التخيير في أن الآلهة خيرته بين كلِّ أشجار الجنة وبين شجرة واحدة محرمة، يؤدي أكل ثمرها إلى الموت والخروج من عالم النعيم، فاختار الخطيئة والموت.

وهذا واضح في الأسطورة الرافدية التي تقول: إن الآلهة خلقتْ الإنسان منعمًا سعيدًا؛ ولكنه أذنب وارتكب الخطايا بإرادته الحرّة، فأرسل عليه طوفان عظيم عقاباً له على فعله، فأهلك الناس كافة ولم ينج منه إلا رجل واحد هو "تجتوج" الحائك، وأن تجتوج هذا خسر الحياة الخالدة والعافية لأنه أكل فاكهة شجرة محرمة[٣].

وتتفق أساطير ونصوص وقصص بلاد الرافدين مع الأديان السماوية في أن الآلهة وحدها هي التي لا تموت، وأن الإنسان مهما فعل واجتهد فلابد أن يموت، وهذا ما اعترف به جلجامش، وقرر بعده (تخليد اسمه) فقط، حيث يقول لصديقه أنكيدو: "يا صديقي: من الذي يستطيع أن يرقى أسباب السماء؟ والآلهة وحدهم هم الذين يعيشون إلى الأبد مع (شمش) أما أبناء البشر فأيامهم معدودات، وكل ما عملوا هراء عبث.. وإذا ما هلكتُ، فسأخلد لي اسمًا، وسيقولون عنّي فيما بعد: لقد هلك جلجامش في النزال مع (خمبابا) المارد.. سأمد يدي وأقطع أشجار الأرز وأجعل اسمي خالدًا"[٤].

---

[١]- المرجع السابق، ص ٢٢٧.
[٢]- أنظر: جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مرجع سابق، ص ٢٠.
[٣]- أنظر: وِلْ ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج٢، ص ٣١.
[٤]- طه باقر، ملحمة كلكامش - أوديسة العراق الخالدة، مرجع سابق، ص ٥٣.

ولكن الملاحظ هو أنهم مع إقرارهم في نصوص كثيرة أن الموت حتمي ومقدّر من الآلهة، إلا أنهم كانوا يؤمنون بإمكانية (عدم الموت) وأن هناك سرًا يؤدي إلى النجاة من الموت؛ كما حصل مع الإنسان الوحيد الذي نجا من الموت ونال الخلود الأبدي في الحياة الدنيا، وهو "أوتنابشتيم" الوارد معنا أعلاه.. ولكن **(سر البقاء الأبدي)** أخفته الآلهة عمدًا عن بني البشر. وهذا الشعور؛ أي شعورهم بوجود سر وإمكانية عدم الموت، هو الشعور الذي دفعهم -في اعتقادي كباحث- إلى كل محاولاتهم وجهودهم في سبيل (قهر الموت). وتؤكد كثير من أساطيرهم على وجود هذا السر المخفي، ومن ذلك مثلا قول الأسطورة: "علّمت (إيا) إلهة الحكمة آدابا حكيم إريدو جميع العلوم، ولم تخف عنه من أسرارها إلا سراً واحداً- هو سر الحياة الأبدية التي لا تنتهي بالموت[١]".

ونجد في إنجيل بابل حوارية حول الموت، تعتبر من أكثر الحواريات البابلية القديمة إثارة، عنوانها: (تقلبات السيد والعبد)، وما يهمنا منها هنا هو الجزء الرابع، الموسوم بـ (نموت أو لا نموت) ففيه فلسفة عميقة. فبعد أن سأل السيد العبد عن الموت أجابه العبد، فقال له السيد إذن سأقتلك فهرب العبد بذكاء من الموت حين أخبر سيده أنه لا يستطيع الاستغناء عنه. وهذا نص الحوارية: **-** أُعْلُ سيدي فوق الأطلال القديمة تمشَ عليها وانظر في جماجم المتأخرين والماضين فهل ستعرف أيهم الأشرار وأيهم الصالحون؟ **-** اصغ إليَّ يا عبد. **-** نعم سيدي نعم. **-** ما جدوى العيش إذا كان الأمر كذلك؟ الأفضل أن نقتل بعضنا ونترك أجسادنا تتمرغ في النهر ذلك هو الخير. **-**هل ثمة من طالت قامته ثم بلغ السماء بيديه؟ وهل ثمة من اتسعت يده فاحتوى الأرض؟. **-** إذن يا عبد سأقتلك وأرسلك قبلي لتستكشف الأمر. **-** وهل يعتقد سيدي أنه سيتمكن من العيش بدوني ولو لثلاثة أيام فقط؟[٢].

ولم يكن الرثاء غائبًا في بلاد الرافدين قديمًا، فقد وصلتنا نصوص مختلفة من (المراثي)، منها كمثال مرثية "لودنكرا" الذي يرثي فيها أباه المدعو "نانا"، وهي طويلة وردت في "متون سومر"، واخترتُ منها هذه المقتطفات الموجزة، حيث يقول: "يا أبتي، الذي مات في عدوان، يا نانا الذي حُمل إلى العالم الأسفل بالشر المخطط ضده.. زوجتك – واعجبا: كانت من قبل زوجة والآن صارتْ أرملة.. إنها تدور حولك كالزوبعة اندفعت نحوك، نعم: فقد أفقدتها صوابها وأطلقتْ صرخة ألم كما كانت في المخاض.. لقد مزَّقتْ ثيابها وأخذتْ تئن كالبقرة، وأطلقتْ صرخة ألم وذرفت الدمع السخي.. وأبناؤك الذين كانوا يعاملون كأبناء ملك، يأكلون كلما يشربون العسل والزبدة.. ملأوا المائدة بالزيت لكَ، والدموع التي ذرفوها من أجلك تستحق الرثاء، وحدادهم عليك هو حداد القلب الصافي[٣].

وللقوارب مع قبور الموتى حكاية عند كثير من قدماء بلاد الرافدين، فقد عثر على كثير من القوارب في عدد من القبور، والسبب أنهم كانوا يؤمنون بأن هناك نهرًا يسمى "خبرة" يفصل بين الحياة الدنيا وعالم الأشباح الذي يسمونه (الأرض الهائلة)، فعندما يموت الناس فإن أرواحهم لابد أن تعبر هذا النهر بالقوارب، وبعد وصولها تقوم إلهة الكتابة "بعلة صيرى" بتسجيل أسماء الداخلين[٤].

كما أن الموتى يطالبون بدفع (رسوم العبور) حيث يتقاضى منهم المسؤول نقودًا قبل السماح لهم بالعبور إلى العالم الأسفل.. وحكاية **(القوارب والنقود)** يؤكدها الفكر الآشوري في نص واحد، حيث

---

[١]- وِلْ ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج٢، ص ص ٣٠-٣١.
[٢]- خزعل الماجدي، إنجيل بابل، الأهلية للنشر والتوزيع – عمان الأردن، ط١، ١٩٩٨م، ص ١٤٠.
[٣]- خزعل الماجدي، متون سومر – الكتاب الأول، مرجع سابق، ص ص ٣٣٢-٣٣٣.
[٤]- جفري بارندر، المرجع السابق، ص ٢١.

تشير أحد النصوص الآشورية، خلال فترة السيادة الأمورية على المشرق العربي، حوالي ٢٠٠٠ ق.م، إلى أن الأرض تنقسم إلى ثلاث طبقات، الأولى هي الأرض العليا، وتسمّى بالأكادية "أرصيتو إليتو"، والثانية هي الأرض الوسطى، وتسمّى بالأكادية "أرصيتو قبليتو، والثالثة هي الأرض السفلى حيث عالم الأموات، وتسمّى بالأكادية "أرصيتو سبليتو". والقبر هو المدخل للعالم السفلي؛ وهناك مدخل آخر يقع عند نقطة مغيب الشمس. وفوق العالم السفلي -الذي يقع في الطبقة الأخيرة تحت الأرض- كانت تمتد مياه العمق؛ وهناك نهر يسمّى بالأكادية "عبر" يؤدي إلى العالم الأسفل، وهو يحيط بالمدن. ومعتقداتهم حوله هي أنه لا يمكن عبور الموتى لهذا النهر والوصول إلى أسوار مدينة الموتى إلا بعد إقامة الشعائر الجنائزية وتقديم القرابين لآلهة العالم السفلي، عبر نهر عبر. وهذا سبب وجود السفن ونماذجها المختلفة في المرفقات الجنائزية، إضافة إلى (قطع النقود) التي سيدفعها الموتى للمسؤول عن عبورهم إلى العالم السفلي[١].

وكان الآشوريون تحديدًا وغيرهم من الرافديين يشتركون مع غيرهم من سكان المشرق العربي القديم في الاعتقاد بأن شهر شباط هو شهر **(أخذ الأموات)**، حيث يكثر الموت، وهذا الاعتقاد مازال موجودًا عند البعض حتى اليوم؛ ولهذا الشهر عندهم تسميات منها "شهر نهر عبر"، حسب الوثائق الآشورية. وقد ورد في أحد النصوص المشرقية العائدة للألفية الثانية ق.م: "دعهم يعبرون نهر العالم السفلي ولا يعودون"[٢].

ومسك الختام هو أن ما ورد في هذا المبحث وغيره، من الكلام حول الموت في بلاد الرافدين، يعكس لنا صورة قد تكون زبدتها أن خوف الرافديين من الموت وعجزهم عن التغلب عليه، هو ما زاد من تعقيده وغموضه.. وعلى العموم فالديانات والقصائد والفلسفات والأساطير والروايات والنصوص والملاحم الرافدية المختلفة في جملتها لم تتعمق كثيرًا في البحث عن (ماهية الموت وأسبابه)؛ ولكنها اهتمّتْ وتعمّقتْ واجتهدتْ بقوة منقطعة النظير في البحث عن سر الخلود والوسائل الكفيلة بقهر الموت والانتصار عليه[٣]، وسيظهر لنا المزيد في هذا من خلال المبحثين القادمين.

---

[١]- د. بشار خليف، مقالة: شعائر الموت ومعتقداته في المشرق العربي القديم، مرجع سابق.

[٢]- نفس المرجع السابق.

[٣]- أنظر: حسين العودات، الموت في الديانات الشرقية، مرجع سابق، ص ص ٣٣-٣٤.

المبحث الثالث:

خلود الروح في عقائد قدماء بلاد الرافدين.

عرفنا في المبحث السابق أن قدماء بلاد ما بين النهرين اعتقدوا أن الموتَ أمرٌ حتميّ قررته الآلهة على كلِّ إنسان؛ ولكن هذا لا يعني أبدًا أنهم كانوا يرون في الموت النهاية الكلية أو الفناء التام، فالقلق الإنساني من موضوع (الرحيل عن الدنيا) يظهر في أعلى مستوياته عندهم، حيث أخذتْ قضية المصير بعد الموت مساحة كبيرة من فكرهم واهتمامهم.. فلو نظرنا -كمدخل- إلى مسألة (الخوف من كثرة الذنوب) لوجدنا أن جوهر هذا الخوف مرتبط بخشية ما يكون لهذه الذنوب من نتائج قبل الموت وبعده.

ومما يؤكد ذلك وجود بعض الطقوس التي تحوي أناشيد تنص على الاعتراف بكثرة الذنوب، وعلى أن هذه الذنوب ربما كانت غير مقصودة بالنسبة لآلهة قد لا يعرفها من يتلو هذه الأناشيد.. وكان جزاء التقوى الدينية هو المكافأة بالعمر المديد في الدنيا، أما الجزاء في الآخرة فلم يكن واضحًا؛ فبعض نصوصهم الدينية تشير إلى أن المرء يلقى جزاءه من ثواب وعقاب في حياته الدنيا؛ ولكن هذا لا يلغي وجود اعتقادات سائدة منها أن ظل الميت يفترق عن جسده عقب الموت مباشرة ويتحوّل إلى روح شريرة، ما لم تدفن الجثة، ومنها أن **(مصير الموتى)** لم يكن واحدًا، بل ينقسمون إلى فريقين، ولذلك كان أقصى ما يطمعون فيه أن يكونوا من الفريق الأول الذين يستريحون في (العالم السفلي) فوق أَسِرّةٍ ويشربون ماءً نقيًّا، أو أن ينالوا عون آبائهم وأزواجهم إن كانوا ممن سقطوا في المعارك.. أما الفريق الثاني فإن مصيرهم كان محزنًا، حيث تأكلهم الديدان ويملؤهم الغبار وتحصل لهم أمور كثيرة مشابهة قاسية[١].

وبالإضافة إلى موضوع الخوف من كثرة الذنوب، نجد أن غالب حضارات وادي الرافدين القديمة اتفقت –كما ظهر لنا من المبحث السابق- على تزويد الميت بكثير من الأشياء في قبره، ومنها الطعام والأدوات والحاجيات المختلفة كالخواتم والغيارات من الملابس الداخلية، والعطور والأمشاط والكحل.. الخ.

وبالتالي فمن الواضح أنهم يؤمنون بشيء ما بعد الموت، فلا يمكن –في تصوّري- لمن يعتقد أن الموت هو اللحظة الأخيرة، وأن الفناء هو الخاتمة الطبيعية لهذه الحياة، وأنه ليس هناك أي شكل من أشكال الحياة بعد الموت.. لا يمكن لمن يعتقد ذلك أن يخشى من الذنوب وكثرتها بهذه القوة.. وحتى لو سلمنا جدلا بما قد يتبادر إلى الأذهان وقال به الكثير من الباحثين، من أن خوفهم من الذنوب كان مرتبطاً بخشية ما يكون لهذه الذنوب من نتائج في حياتهم الدنيا، أي في الأيام المتبقية للإنسان بعد ارتكاب الذنوب؛ لأن المرء يحاسب ويجازى في حياته الدنيا، إمّا فرديًا كأن تصيبه الآلهة بالأمراض وخسارة المال والإصابة في عياله وأحبابه وما شابه، أو جماعيًا كعقاب بوباء مهلك أو طوفان أو ما شابه[٢].

حتى لو سلمنا بذلك، فكيف سنفسر وضعهم الطعام والشراب والملابس والعطور والأدوات الكثيرة التي أفاض الباحثون في سردها؟. لا شك أن الربط بين **(خوفهم من كثرة الذنوب)** و **(تزويدهم**

---

[١]- محمد عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ص ٢١٨ – ٢١٩.
[٢]- أنظر مثلا: كامل سعفان، معتقدات آسيوية، دار الندى – مدينة نصر، ط١، ١٩٩٩م، ص ٦٣.

الميت في قبره بالطعام وغيره) لا شك أنه سيذهب بالعقل المتأمل بهدوء إلى التأكد واليقين أنهم يؤمنون بشيء ما يحدث للميت بعد الموت.

ولعل الصورة تظهر وتتضح أكثر إذا انتقلنا من المدخل السابق ونقطتيه السالفتين: ١- خوف الذنوب ٢- تزويد الميت بالطعام والحاجات، إلى النقطة الثالثة الأهم والأكبر، وهي **(الروح والعالم الأسفل)** التي ورد بعض الكلام عنها أعلاه، ولا بد من التفصيل الطويل فيها؛ باعتبارها النقطة المحورية الأهم في هذا المبحث، فما هي الروح في اعتقادهم، وما هو هذا العالم الأسفل، وماذا يحصل للروح فيه؟

الإجابة هي أن قدماء الرافديين يؤمنون بوجود الروح، والغالب على تصوّر العراقيين القدماء لأرواح الموتى أنها كانت على هيئة الطيور أو الفراشات ويشاركهم هذا التصوّر بعض الأقوام القديمة مثل المصريين القدماء الذين صوّروا روح الميت على هيئة الفراشة[١].

فالعراقيون القدماء كانوا يتصوّرون روحَ الميت بهيئة مخلوق له جناحان من الريش، ولعل منشأ هذا الاعتقاد هو تفسير مقدرة الأرواح على التنقل السريع والتطواف سواء في هذا العالم أو في عالم الأموات.. كما أن معتقدهم السائد هو أن روح الميت تخرج من جسده مع آخر نفس من أنفاسه[٢].

والروح تُسمّى سومريًا "كيديم" وأكديًا "ايطيمو"، ويؤمنون أيضًا بأمر هام لنا هنا -ويزيد من التأكيد على أن الخوف من كثرة الذنوب كان مرتبطاً بخشية عواقبها في العالم الآخر- وهو أن عقيدتهم تقوم على أن الروح هي التي تحمل **(حسنات وسيئات)** الشخص المتوفى[٣].

فإذا كانت الروح في فكرهم تحمل معها حسنات وسيئات المتوفى بعد الموت وتنتقل بتلك الحسنات والسيئات معها إلى العالم الأسفل، فهذا يزيدنا يقينًا أن إيمانهم لا يتوقف عند وجود عالم أسفل تنتقل له الأرواح بعد الموت فحسب، وإنما يمتد إيمانهم ليشمل الإيمان بأن الحسنات والسيئات سترافق روح الإنسان إلى ذلك العالم الأسفل.

ليس هذا فحسب، بل إنهم يؤمنون -حسب كثير مما نقل وكتب عنهم- بوجود **(آلهة تحاكم أرواح الموتى)** وأن مرتبة المرء في (العالم الآخر) تعتمد وتتوقف على نشاطاته وأعماله إبان حياته.. ومن آلهة المحاكمة عندهم "إله الشمس" الذي يمرّ بالعالم السفلي فيزودهم بالضوء الوحيد الموجود لديهم، ثم يتولّى الحكم على أرواح الموتى، بالإضافة إلى "الإله ننار" الذي يحكم عليهم أيضًا ويقرر نصيبهم[٤].

وكل ذلك يؤكد بلا شك أنهم يؤمنون بوجود عالم آخر تذهب إليه الأرواح بعد الموت، خاصة إذا ربطنا ما ذكرناه في هذا المبحث بأمور مرت في المبحثين السابقين، ولعلنا نجملها باختصار شديد للتذكير والربط والتأكيد، حيث اجتمع لدينا حتى الآن عدد من الإثباتات على إيمانهم بوجود الأرواح

---

[١]- طه باقر، ملحمة كلكامش – أوديسة العراق الخالدة، مرجع سابق، ص ٧٠ ، الحاشية (١١)، وذكر فيها أن التفصيل موجود في بحث حديث مقارن عن عقائد العراقيين القدامى والعبرانيين في المرجع:
A.Heidel , op , cit , 137 ff

[٢]- راجع: نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، مرجع سابق، الصفحات ١٠٩-١١١-١١٢.

[٣]- أنظر: حضارة العراق، لنخبة من الباحثين العراقيين، مرجع سابق، ج١، ص ١٧٨.

[٤]- أنظر: جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مرجع سابق، ص ٢١.

ووجود العالم الذي تنتقل إليه بعد الموت، وأبرز هذه الإثباتات حتى الآن هي: ١- وضع بعضهم الطعام والحاجات المختلفة مع الميت في قبره. ٢- اعتقادهم بعبور الأرواح للنهر الفاصل بين هذه الحياة الدنيا والعالم الآخر. ٣- الخوف من كثرة الذنوب ونتائجها بعد الموت عند الكثيرين منهم. ٤- وجود آلهة تحاكم الأرواح في العالم الأسفل في عدد من عقائدهم. ٥- إيمان بعضهم أن المرء له مكانة معينة في العالم الآخر تعتمد على ما فعله في حياته الدنيا. ٦- إيمان بعضهم بأن الروح تحمل حسنات وسيئات الميت معها إلى عالم الأرواح السفلي.

بالإضافة إلى نقطة سابعة جديدة مهمة جدًا، وهي أن قبور الكثير من ملوكهم وجد فيها (مرافقون) من خدمهم وحشمهم ووزرائهم وموظفيهم، مما يزيد من تأكيد إيمانهم بوجود عالم آخر، إذ إنهم كانوا يعتقدون أن هؤلاء المرافقين سيقومون بخدمة الملوك وأمثالهم من العظماء في حياتهم الثانية، حيث سجّل الباحثون وعلماء الآثار وجود آلاف القبور الملكية في عدد من مناطق العراق القديم، واشترك كثيرٌ منها في أن القبر لا يقتصر على دفن شخص واحد في القبر بل وجد فيه بالإضافة إلى صاحب القبر أو الشخصية الرئيسية التي شيد القبر من أجلها (المقصود الملك غالبًا) وجد معه عدد من البشر المدفونين والحيوانات والعربات وكذلك مجموعات نفيسة من الحلي الذهبية والمجوهرات والأحجار الكريمة وغيرها.. ومن ذلك على سبيل المثال قبر الملكة (شبعاد) أو الملكة (يو– آبي) حيث وُجدت جثتها في حفرة مستطيلة مع جثث حاشية أغلبهم من النساء وبعض الرجال، كما وُجدتْ بقايا عربتين مع حيواناتها إضافة إلى الكنوز الذهبية، ومنها قيثارتان ذهبيتان تنتهي كل واحدة منها برأس ثور من الذهب الخالص.. وهناك عشرات القبور الملكية المماثلة التي لا يمكن الاسترسال في شرح ما وجد فيها من دفائن كثيرة مختلفة.

وللأمانة البحثية والحياد، لا بد أن نشير إلى أن الباحثين انقسموا في تفسير أو تعليل تلك المقابر الملكية وما وُجد فيها مدفوناً مع الملوك إلى عدد من الآراء؛ أبرزها رأي القسم الأول من الباحثين، الذين رأوا أن دفن جثث الجنود والخدم والوزراء والمرافقين مع الملوك، ليس إلا من باب التكريم لهم أو أنهم قاموا بتضحيات استحقوا بها الدفن مع الملك أو الملكة.

أما القسم الثاني من الباحثين، فلهم رأي آخر، وهو ما يهمنا هنا الآن في هذا البحث، وهو أنها طقوس دينية خاصة بالدفن، ترتبط بمعتقدات حياة ما بعد الموت أو احتمال انتقال هؤلاء المدفونين وما معهم من الأشياء المادية من مكان إلى آخر، وأن اعتقاد سكان بلاد الرافدين كان جازمًا بوجود حياة أخرى بعد الموت ومنذ عصور مبكرة، وهذا الرأي الثاني هو الأرجح والأقرب -في نظري كباحث- ولا يتعارض أيضًا مع الرأي الأول فيمكن الجمع بينهما، والدليل على قوة هذا الرأي الثاني هو كثرة ما تعكسه لنا كلُّ الآثار المادية الكثيرة جدًا الموجودة في مدافنهم القديمة، وطرق وأساليب الدفن المتبعة عندهم، والتي تؤمّن للميت كل ما يحتاجه في عالمه الآخر بشكل لافت للنظر. كيف لا وقد أدهشت مقابر "أور الملكية" مثلا العالم الحديث بما اشتملته من تفاصيل هذه الظاهرة نادرة، من حيث دفن الحاشية وأعوان الملك وكل ما يحتاجه من أدوات ولوازم متعددة تمثل الكثير من أثمن ما عرفه القدماء[١].

---

[١]- للتوسع في موضوع القبور الملكية وما وجد مدفونا فيها مع الملوك، أنظر: إيمان لفتة، الطقوس الجنائزية، مرجع سابق، الصفحات من ٢٢٨ إلى ٢٣٣.

فقد أثبتتْ الدراسات أنهم في مدينة "أور" القديمة عندما يموت الملك أو الملكة أو أحد الزعماء فإنهم كانوا لا يكتفون بدفن بعض الأشخاص من حاشيته معه فقط، بل كانوا يدفنون معه جميع أتباعه المقربين ويدفنون أيضًا معه كلَّ العربات التي حملت موكبه مع ثيرانها وسائقيها.. ولم يكن هذا الأمر خاصًا بمدينة أور فقط، بل كان عامًا في سومر، فقد عثرتْ البعثة الألمانية التي تعمل في مدينة الوركاء أو "أوروك" في موسم ١٩٥٥-١٩٥٦م، على نحو مائة جثة لأتباع أحد الحكام مدفونة معه[١].

ولكل ذلك كما يقول ولْ ديورانت: "من حقنا أن نفترض أن السومريين كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة؛ لأن الطعام والأدوات كانت تُدفن مع الموتى في القبور؛ ولكنهم كانوا يصوّرون الدار الآخرة كما صوّرها اليونان من بعدهم، عالماً مظلماً تسكنه الأطياف التعسة ويهوي إليه الموتى أياً كان شأنهم من غير تمييز بينهم. فلم تكن فكرة الجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب المخلّد قد استقرتْ بعد في عقولهم، فلم يكونوا يتقدمون بالصلاة والقربان طمعا في "الحياة الخالدة"، بل كانوا يتقدمون بهما طمعاً في النعم المادية الملموسة في الحياة الدنيا"[٢].

فالعالم الأسفل في تصوّر كثير من قدماء بلاد الرافدين يقع تحت سطح الأرض الظاهر، وقد وصفوه بأنه عالم مخيف بهيئة مدينة مسوّرة بسبعة أسوار يحرسها مردة الشياطين، وسموه بأسماء كثيرة منها **(الأرض التي لا رجعة منها)** وتحكم هذا العالم إلهة شديدة قاسية اسمها "كيجال"، ويساعدها في هذا الحكم مجموعة من الآلهة والشياطين والكتّاب لتسجيل شؤون الموتى.. ورغم ضبابية واضطراب صورة هذا العالم في معتقداتهم، إلا أنهم كانوا يرونه عالمًا مرعبًا يكاد يتساوى فيه الموتى، فلا قيامة ولا جنة ولا نار ولا حساب أخروي بالصورة المعروفة في الأديان السماوية وغيرها؛ ولكنهم يلطفون أحيانًا الأمر، فيقولون في كثير من نصوصهم ومآثرهم –ومنها اللوح ١٢ من ملحمة جلجامش- إن الموتى الذين خلفوا الحسنات والأعمال الصالحة والموتى الذين تركوا أولادًا، والموتى الذين يقدّم أهلهم لهم القرابين، وما شابه.. يقولون: إن هؤلاء الموتى يعيشون براحة في العالم الأسفل ويُمنحون الماء والطعام. كما تؤكد كثير من مآثرهم أنهم يؤمنون بنوع من الحساب إذا دخلتْ الأرواح عالم الأموات[٣].

ومن أجل التعرف أكثر على عالم الأرواح بعد الموت **(العالم الأسفل)** لا بد أن نتوقف أمام اللوح الثاني عشر من ملحمة جلجامش، فقد ورد فيه الكثير عن ذلك العالم؛ ولكننا مطالبون -قبل استعراض ما جاء في اللوح ١٢- بذكر ملخص لقصة جلجامش، وقد اجتهدتُ في قراءة القصة من مصادر عديدة، ثم لخصتها في صفحة واحدة تقريبًا، متجاهلا الكثير مما لا علاقة له بموضوع بحثي، فجاءت كالتالي:

من تعريفات الملحمة بشكل عام، أنها قصيدة طويلة أو شعر يتميز بكثرة أبياته إن كان على إيقاعات معينة أو بحور موزونة، أو بطول مقاطعه إن كان على غير ذلك من فنون وأشكال الأدب الأخرى.. وتعتمد على شخصية بارزة، أو على سيرة بطل أسطوري معين، أو على شخصية خارقة للعادة،

---

[١]- أنظر: د. أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم: مصر والعراق وسوريا واليمن وإيران، مرجع سابق، ص٣٣.

[٢]- وِلْ ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج٢، ص ٣٠، بتصرّف يسير.

[٣]- أَنظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - تاريخ الفرات القديم، مرجع سابق، ص ص ٢٣٣-٢٣٤.

يورد الشاعر بأسلوبه قصتها ويذكر سيرتها، ويتباهى بها بين الناس. وملحمة جلجامش جاءت لتعكس حياة الإنسان في بابل القديمة، مستعرضة العلاقات السياسية التي تربط الناس ببعضهم وبالملك، والنواحي الدينية في موضوع علاقة البابلي بآلهته، والنواحي الأسرية كعلاقات الأشخاص بزوجاتهم وأسرهم؛ ناهيك عن النقطة الأهم عندي هنا، وهي اهتمام هذه الملحمة بموضوع هروب الإنسان من الموت ورغبته في الخلود.

وخلاصة ما يهمنا هي أن "جلجامش" الشخصية الأساسية في الملحمة، كان ملكاً لمدينة "أوروك" وكان جبارا متسلطاً على شعبه بقهرهم؛ لأنه كان متميزاً عنهم بلمحة أسطورية غريبة، وهي كونه ثلثي إله وثلث إنسان. مات صديقه العزيز "أنكيدو" فحزن عليه جدًا ورفض أن يدفنه أحد؛ لأنه لا يريد تصديق حقيقة موته، ولكن وبعد أيام بدأ الدود يخرج من الجثة، فقام جلجامش بدفن أنكيدو بنفسه، ثم انطلق مصدومًا من الموقف تائهًا في الأرض على وجهه، متجردًا من ثيابه الفاخرة التي لبس بدلاً عنها ملابس أخرى يقول البعض إنها من جلود الحيوانات.

ومن خلال حزن جلجامش على موت صديقه، دبّتْ في قرارة نفسه الرهبة من حقيقة أنه لابد أن يموت يومًا كصديقه وغيره من الناس؛ لأنه إنسان وكل إنسان سيفنى، فلا خلود إلا للآلهة فقط. لقد كان هذا الخوف من المصير هو الدافع القوي لجلجامش في رحلته للبحث عن الخلود والحياة الدائمة. وحتى يحصل "جلجامش" على سر الخلود كان متحتمًا عليه أن يجد الإنسان الوحيد الذي وصل إلى تحقيق الخلود الدنيوي -أي الخلود في هذه الحياة بلا موت- كما كان سائدًا، وهذا الإنسان هو "أوتنابشتم"، الذي يتناول بعض الباحثين كثيرًا من نقاط الشبه القوي بينه وبين قصة نبي الله "نوح" الواردة في كلّ الأديان السماوية.

وأثناء بحث جلجامش عن أوتنابشتم نصحه العديدون بعدم جدوى بحثه، واختلفت الروايات في الناصح أهو أوتنابشتم نفسه، أم الإلهة "سيدوري" التي صادفها في طريقه، وبغض النظر عن أسماء الناصحين، فقد اتفقت كثير من الروايات على أن النصيحة كانت تتلخص بأن يستمتع جلجامش بما تبقى له من الحياة بدل أن يقضيها في البحث عن الخلود، ففي الحياة مأكولات وملبوسات ومتع كثيرة يجب عليه عدم الانشغال عنها بالبحث عن وهم "الخلود". ولكن جلجامش رفض تلك النصيحة، وأصرَّ على سعيه في الوصول إلى أوتنابشتم للحصول على سر الخلود، وبمساعدة أحد الآلهة استطاع جلجامش عبور بحر الأموات، ووصل إلى أوتنابشتم الإنسان الوحيد الذي استطاع الخلود. وحين التقيا قصَّ أوتنابشتم على جلجامش قصة الطوفان العظيم الذي حدث بأمر الآلهة، والحقيقة أن قصة الطوفان هذه تشابه -إلى حد التطابق- قصة طوفان نوح المعروفة في الكتب السماوية. حيث نجا من الطوفان "أوتنابشتم" وزوجته فقط، بعد أن أمرتهم الآلهة بصنع مركب يضعون فيه معهما أزواجًا من كلِّ أنواع الطيور والحيوانات، فأعطتهم الآلهة الخلود كجزاء لتنفيذهم أمر المركب. وحين ألحَّ "جلجامش" على "أوتنابشتم" في سعيه نحو الخلود وطلبه له بإصرار، عرض أوتنابشم على جلجامش فرصة ليصبح خالدًا، بشرط أن يبقى جلجامش مستيقظا دون نوم لمدة أسبوع، وبعد الأسبوع سيصل إلى الحياة الأبدية.

لم يستطع جلجامش ذلك، وانهار أمام قوة النوم، وفشل في هذا الاختبار؛ ولكنه استمرَّ في الإلحاح على "أوتنابشتم" وزوجته لكي يحصل على الخلود. فأشفق أوتنابشتم وزوجته على جلجامش، فدلاه أو منحاه -باختلاف الروايات- عشبة سحرية بحرية تجدد الشباب، كبديل له بعد عجزه في تحقيق

الخلود. ولكن الحظ العاثر كان له بالمرصاد هنا أيضًا، فقد قرر جلجامش تجربة شيء من النبتة على رجل مسن، قبل أن يجربها على نفسه؛ ولكنه توقف في الطريق ليستحم في النهر، فجاءت أفعى وأكلت النبتة، فتجدد شبابها في الحال أمام عينيه، تاركة جلجامش يجر ذيول الخيبة والفشل. ولكنه ربح حكمة كبيرة ودرسًا مهمًا من هذه التجربة، وهي أن (الخلود في الحياة الدنيا ليس للإنسان)، فكل إنسان ميت لا محالة؛ ولكن الإنسان يستطيع تخليد اسمه بأعماله العظيمة، لتبقى شاهدة له أبد الآبدين. ومات جلجامش في نهاية هذه الملحمة، التي يقال إنها أول قصة كتبها إنسان[١].

نعود الآن إلى اللوح الثاني عشر ١٢، من ملحمة جلجامش، لنتعرف على عالم الأرواح الأسفل، فبعد أن خابتْ آمالُ جلجامش في تحقيق الخلود في الدنيا، وتيقن من أنه ميّتٌ لا محالة كما فهمنا من الملخص الوارد أعلاه، انتقل تفكيره بعد ذلك -بشكل تلقائي منطقي- إلى مصيره في عالم ما بعد الموت، فجاء وصف ذلك العالم وحال الموتى فيه من خلال استعادة ذكريات قصة نزول صديقه أنكيدو إلى ذلك العالم الآخر.

وسبب نزول "أنكيدو" هو أنه رغب في مساعدة جلجامش الذي فقد الهدية التي أهدتها له الإلهة عشتار (إنانا)، والهدية هي عبارة عن آلتين خشبيتين غريبتين اسم الأولى (بكو) والثانية (مكو) فقد أهدتهما عشتار لجلجامش بعد أن أنقذها وقتل الثعبان في قصة الشجرة الطويلة التي لا فائدة من الاسترسال فيها هنا فليس لها علاقة بالبحث. فكل ما يهمنا هنا أن الآلتين العزيزتين على جلجامش سقطتا في العالم الأسفل، فقرر "أنكيدو" النزول إلى ذلك العالم لمساعدة جلجامش في استعادة الآلتين، فقد حزن جلجامش حزناً عظيمًا حين عجز عن استعادة هدية عشتار من العالم الأسفل. وحين عزم أنكيدو على النزول، بدأ جلجامش يعطيه الوصايا التي لا بد أن يتقيد بها أثناء النزول. حيث يقول جلجامش في وصيته لأنكيدو:

"لا تكتس بالحلة النظيفة (الزاهية) وإلا هبَّ بوجهك الأموات لأنك تبدو غريباً عن عالمهم.. ولا تمسح جسمك بالزيت الفاخر لئلا يتجمعوا حولك بسبب عطره.. ولا ترم رمحاً في العالم الأسفل مخافة أن تصيب بعضهم فيحيطوا بك.. ولا تأخذ بيدك عصا وإلا فإن الأرواح سترتجف منك.. ولا تلبس نعلاً في قدميك.. ولا تحدث صوتاً في العالم الأسفل.. وإذا وجدتَ الزوجة التي تحب فلا تقبلها.. وإذا صادفت الزوجة التي تبغض فلا تضربها.. ولا تقبل الابن الذي تحبه.. ولا تضرب الابن الذي تكرهه.. وإلا فإن صراخ العالم الأسفل سيغلبك"[٢].

ولكن أنكيدو لم يأخذ بوصايا سيده جلجامش، بل سار على عكس نصائحه تمامًا، فلبس حلة فاخرة ومسح جسمه بالزيت المعطر، فتجمّع حوله سكانُ العالم الأسفل، وقذف بالرمح فأحاط به من أصابهم، وأخذ معه عصا فارتجفت الأرواح قدامه، ولبس الخف بقدميه، وأحدث ضجة في العالم الأسفل، وقبّل المرأة التي يحب، وضرب المرأة التي يبغض، وقبّل الابن الذي يحب وضرب الولد الذي يكره فغلبه صراخ العالم الأسفل. ولذلك قررت ملكة العالم الأسفل أن لا يخرج أنكيدو من ذلك

---

[١]- المرجع الأساسي الذي اعتمدتُ عليه في تلخيص ملحمة جلجامش هو: د. إبراهيم يوسف النجار، مدخل إلى الفلسفة، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء، ط٢، ٢٠١٣م. الصفحات من ١٤ إلى ١٨. ومراجع أخرى منها قصة الحضارة، مرجع سابق، الصفحات ٢٣٩-٢٤٣.

[٢]- طه باقر، ملحمة كلكامش - أوديسة العراق الخالدة، مرجع سابق، ص ص ١٠٦-١٠٧.

العالم؛ لأن سننه أن من يدخله لا يرجع منه. ولمّا لم يعد من العالم الأسفل أخذ صاحبه جلجامش يندبه ويبكي حزنًا على فقده[١].

وتستمر القصة في سرد تفاصيل لا تعنينا كثيرًا، حتى تصل إلى ما يهمنا، وهو أن جلجامش نجح في النهاية بمساعدة إله العالم الأسفل "نرجال" في (إحداث ثقب) خرجتْ منه روح أنكيدو كأنها الريح، فتعانقا وقبّل أحدهما الآخر.. ثم طرح جلجامش على شبح أنكيدو السؤال الذي نريد وننتظر، وهو قوله له: "أخبرني يا صديقي عن أحوال العالم الأسفل الذي رأيت؟". فأجاب صديقه أنكيدو: "لن أقص عليك أخبار العالم الأسفل يا صديقي، وإذا كان لابد من إخبارك بها فسيتحتم عليك أن تجلس وتبكي". فقبل جلجامش وقال: "سأجلس وأبكي"[٢].

وفي رواية أخرى أظنها أوضح وأصرح وأفصح:

"يسأل جلجامش عن حال الموتى، فيرد عليه إنجيدو بقوله: "لا أستطيع أن أجيبك لأني لو فتحت الأرض أمامك، ولو أخبرتك بما رأيتُ، لقضيتَ من شدّة الهول، ولغشي عليك". ولكن جلجامش رمز الفلسفة، وهي تلك البلاهة الجريئة، يصر على طلب الحقيقة ويقول: "سيقضي عليَّ الرعبُ، ويغشى عليَّ، ولكن خبرني عنه". فيبدأ إنجيدو بوصف أهوال الجحيم"[٣].

فيعطي أنكيدو سيده جلجامش صورة قاتمة عن حالة أرواح الموتى؛ إذ إن غالبيتها سجينة؛ طعامها التراب والطين، بينما تتمتع القلّة منها وخاصة من مات أصحابها في الحرب ميتة الأبطال ومن تركوا ذرية لهم، بمعاملة خاصة حيث يجدون الماء والقوت[٤]. وهذا كلام أنكيدو لجلجامش في وصف العالم الأسفل كما ورد في الملحمة نصّاً في هذا الحوار بينهما:

- إن جسمي الذي كنتَ تلمسه يوم كان قلبك تغمره الأفراح، تلتهمه الديدان الآن كما لو كان لباسًا خلقاً، وقد امتلأ بالتراب.. - فصرخ جلجامش يا ويلتاه ورمى نفسه في التراب وخاطب شبح أنكيدو: هل رأيتَ الذي لا ولد له؟. - أجل لقد رأيتُه. - هل رأيتَ الذي خلف وراءه ابناً واحداً؟. - أجل لقد رأيتُه وهو ممددٌ أسفل الجدار ويبكي بكاءً مرًا. - والذي خلّف ابنين هل رأيته؟. - أجل لقد رأيته إنه يضطجع في بناء من الآجر ويأكل الخبز. - وهل أبصرتَ الذي خلّف ثلاثة أبناء؟ - أجل رأيته إنه يسقى الماء من زقاق ماء العمق. - والذي له أربعة أولاد هل رأيته؟. - أجل رأيته وهو فرح القلب. - والذي له خمسة أولاد هل رأيته؟. - نعم رأيته وهو كالكاتب الطيب ويده مبسوطة ويُسمح له بدخول القصر. - وهل رأيت الذي له ستة أولاد؟. - نعم رأيته. ثم يسأله عن الذي خلف سبعة وثمانية ولكن ينخرم النص في الجواب فلا سبيل لمعرفة حالهم.. ثم يسأله عن حالات أخرى غير معروفة لانخرام النص أيضاً، ومنها سؤاله عن الذي قُتل في المعركة حيث شاهده بصحبة أبيه وأمه ولكن زوجته تبكي عليه.. وسأله عن الذي لم يدفن بل ظل في العراء فأجابه أن روحه لا قرار لها في العالم الأسفل.. وسأله عن الذي لا يُقرّب له أحد من الأحياء بعد موته القرابين، فأجابه بأنه يأكل الفضلات التي ترمى في المزابل[٥].

---

[١]- المرجع السابق، ص ١٠٧.
[٢]- نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.
[٣]- وِلْ ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج٢، ص ٢٤٣.
[٤]- أنظر: محمد عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٢٢٢.
[٥]- طه باقر، ملحمة كلكامش - أوديسة العراق الخالدة، مرجع سابق، ص ١٠٨.

وكل ما يهمنا من الحوار هو إثبات (وجود عالم الأرواح بعد الموت) وأن في ذلك العالم الأسفل من يعذّب ويعاني ولا تستقر روحه، وفيه -في المقابل- من ينعم بالراحة والسكينة والطعام والشراب.

ومما يزيد التأكيد ولا بد من الإشارة إليه، هو (رؤيا أنكيدو) التي قصّها على جلجامش، وفيها وصف دقيق لعالم الظلمة الأسفل الذي يملأه الغبار ويأكل أهله التراب والطين.. يقول أنكيدو:

"يا خلّي، لقد رأيتُ الليلة الفائتة رؤيا، كانت السماء ترعد فاستجابتْ لها الأرضُ، وكنتُ واقفاً وحدي فظهر أمامي مخلوق مخيف مكفهر الوجه.. لقد عرّاني من لباسي ومسكني بمخالبه وأخذ بخناقي حتى خمدتْ أنفاسي، وقادني إلى (دار الظلمة) إلى مسكن "أركلا" .. إلى الدار التي لا يرجع منها من دخلها.. إلى الطريق الذي لا رجعة لسالكه.. إلى الدار التي حرم ساكنوها من النور.. حيث التراب طعامهم والطين قوتهم.. وهم مكسوون كالطير بأكسية من أجنحة الريش.. ويعيشون في ظلام لا يرون نوراً.. وفي بيت التراب الذي دخلته شاهدتُ الملوك والحكماء، فرأيتُ تيجانهم قد نزعتْ وكدستْ، أجل! رأيتْ أولئك العظام الذي لبسوا التيجان وحكموا الأرض في الأزمان الخوالي وكان النائبون عن "أنو" و"أنليل" هم وحدهم الذين يُقدّم لهم اللحم والشواء.. ويقدّم لهم الخبز.. ويقرّب إليهم الماء البارد.. وفي بيت التراب الذي دخلت، يسكن الكاهن الأعلى وخدّام المعبد ويعيش الراقي المعوذ، والساحر ويسكن الذين يقدمون زيت المسح للآلهة العظام.. ويسكن "إيتانا" و "سموقان" وتحكم "ايرش كيكال" ملكة العالم الأسفل و" بعلة صيري" كاتبة العالم السفلي تسجد أمامها وبيدها رقيم تقرأ لها منه، ولما رفعتْ رأسها أبصرتني فقالت: من الذي أتى بهذا الرجل إلى هنا؟"[١].

وبعد أن استخلصنا وناقشنا وسلطنا الضوء على أبرز ما يهمنا في ملحمة جلجامش، يحسن بنا بل يتوجب علينا أن نقضي بعض الوقت مع أسطورة (نزول عشتار إلى العالم الأسفل)، التي مرَّت معنا إشارة بسيطة عنها في مبحثنا السابق عن الموت وما يتعلق به، وسنقوم في هذا المبحث بتسليط الضوء على أهم ما يلامس موضوعنا في تلك الأسطورة.

ففي البداية تؤكد الأسطورة ما ذكره أنكيدو في حديثه السابق لجلجامش، وهذا مهم جدًا؛ لأن تواتر المعلومات من هذه المصادر القويّة، يبرهن على صحة المعلومات المتواترة التي يعضد بعضها بعضا.. تقول الأسطورة:

"إلى الأرض التي لا عودة منها، إلى أرض إريشكيجال، اتجهت عشتار ابنة سِن بأفكارها. نعم، ابنة سِن اتجهت بأفكارها إلى دار الظلام ومسكن "أركالا". إلى الدار التي لا يرجع منها الداخل. إلى الدرب الذي لا يرجع بسالكه من حيث أتى. إلى المكان الذي لا يرى سكانه نورًا ولا ضياءً، حيث التراب طعامهم والطين معاشهم؛ وفي الظلمة يعمهون.. عليهم أجنحة من ريش تنقلهم كما الطيور.. وعلى المزاليج والبوابات هناك تكدّس الغبار"[٢].

فأما بالنسبة للظلمة واستحالة الرجعة وأن طعامهم الطين وشرابهم الماء العكر، فقد مرَّ معنا مرارًا وذكره "أنكيدو" وغيره؛ وأمّا قول الأسطورة: (عليهم أجنحة من ريش تنقلهم كما الطيور) فهذه هي

---

[١]- طه باقر، ملحمة كلكامش - أوديسة العراق الخالدة، مرجع سابق، ص ص ٧٠-٧١.

[٢]- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة، مرجع سابق، ص ص ٣٣٥-٣٣٦. وأنظر أيضًا لاختلاف بعض الكلمات: فراس السواح، هبوط عشتار إلى العالم الأسفل، مجلة معابر السورية، بتاريخ ٢٠٠٧-٠٩-١٦

الإضافة التي لم نتوقف عندها بشكل جيد في الصفحات الماضية، وقد اتفقتْ على تأكيد ذلك عدّة مصادر، والزبدة أن أرواح الأموات في العالم الأسفل تطير وتتنقل بأجنحة وريش. وهذا يتفق أيضًا ويعزز من صحة قول أنكيدو الذي مرَّ معنا في حواره مع جلجامش، أعني قوله: **"وهم مكسوون كالطير بأكسية من أجنحة الريش"**.

ثم تقول أسطورة عشتار أيضًا:

"وعندما وصلت عشتار إلى بوابة أرض اللاعودة، توجهت بكلامها إلى حارس البوابة....." إلى أن تقول الأسطورة: **"اسمع يا حارس البوابة، افتح بوابتك أمامي. فإذا لم تفتح لي بوابتك لأدخل، فإني سأحطم البوابة وأكسر مزاليجها، سأخلع عوارضها وأرمي بمصراعيها، وأُقيم الموتى وأطلقهم لكي يأكلوا الأحياء، حتى يربو عدد الموتى على عدد الأحياء.** وكان الحارس يكرر ويرد عليها دائمًا بقوله: **"هذه شرائع ربّة العالم الأسفل"**"[١].

وقد حذفتُ بعض الكلام اختصارًا، فكل ما يهمنا من المقتطف السابق، أن العالم الأسفل يسمّى أرض اللاعودة، وأن لهذا العالم السفلي بوابات عليها حارس أو حرّاس، وأن لهذا العالم ربّة تحكمه بشرائع وقوانين خاصة، وأن سبب نزول عشتار إلى العالم الأسفل هو رغبتها في مساعدة الموتى وإعادة أرواحهم إلى الحياة، كما مرَّ معنا سابقاً.

ثم تستمر الأسطورة في سرد القصة التي لا يهمنا كثيرًا في بحثنا ما تبقى منها، باستثناء إشارات يسيرة لا تستوجب التكرار، ومنها مثلا أن حرّاس بوابات العالم الأسفل لا يسمحون لأحد بالدخول إلا إذا تم تجريده من كل شيء يلبسه، الأحذية والمجوهرات والملابس وكل شيء.

وبناء على كل ما سبق ننتقل إلى نقطة أخرى، وهي أن الكثير من الدارسين والباحثين يرون أن الإنسان الرافدي مرَّ بمرحلتين في موضوع الخلود بعد الموت:

١- ففي بداياته آمن بالخلود الإنساني في الحياة الآخرة، ويظهر هذا جليًا عند "السومريين" الذين كان ارتباطهم بالميثولوجيا وانسجامهم معها، أكبر وأقوى من ارتباطهم بالاستقرار معرفيًا واجتماعيًا، مما أدى إلى خوف السومري من الإله ورعبه الشديد منه، ولم يكن هذا الخوف من الإله القيم على الحياة الدنيا فقط، بل على الحياة الآخرة (الموت)، ومن هذا الرعب من الإله، أعدَّ السومريون العدّة لمرحلة ما بعد الموت، أي للخلود الذي يؤمنون به، وأكبر تأكيد على صحة هذا الكلام ما وجد في (المدافن السومرية) من أدوات واستعدادات، بالإضافة إلى ما وجد من **(النقوش على الأختام الأسطوانية)** التي أثبتتْ أن لكل فرد إلهه الخاص، الذي رسمه كتميمة على ختمه الأسطواني، في معاملاته اليومية، يتقرب منه ليحميه في دنياه، ويكون خير عون له في آخرته وحياته الأخرى بعد موته[٢].

ورغم عدم وضوح صورة معتقد السومريين –كغيرهم من أهل العراق القديم- حول الثواب والعقاب في الحياة الثانية، إلا أن إيمان السومريين بوجود تلك الحياة الثانية كان أقوى من غيرهم من أهل الحضارات الأخرى في العراق القديم، فنجدهم (مع الجثة) يلفون حاجيات الميت الشخصية، وفي

---

[١]- المرجعان السابقان.

[٢]- أنظر: محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ١١٠.

(داخل التابوت) نجد الكثيرين منهم أيضًا يضعون حاجيات ومستلزمات خاصة بالميت، وفي (خارج التابوت) نجد القارب السالف الذكر الذي سيعبرُ بالميت النهر لينقله إلى العالم الآخر، ومن اللافت للنظر أن هذا القارب الذي كانوا يضعونه خارج التابوت، يحتوي في داخله على أشكال وألوان من الأواني المختلفة الأحجام، بالإضافة إلى أنواع مختلفة من القرابين.. وكل هذا -بلا شك- ناتج عن اعتقادهم بأن المتوفى سيحتاج في رحلته إلى العالم السفلي إلى استخدام قارب مزود بأنواع المأكولات والمشروبات[١].

٢- ولكن الوضع اختلف نسبيًا عند البابليين؛ لأسباب كثيرة منها الرفاهية والتحوّلات الاجتماعية المختلفة وغيرها، فاختلفت نظرتهم للخلود في الآخرة، الذي آمنوا به كامتداد لعقيدة السومريين السابقة لهم، ومن ذلك الاختلاف:

أ- أن إيمانهم بالخلود كان ذا صبغة طبقية، ظهرت من تمييز بعضهم بين الناس وطبقاتهم في هذه القضية، حيث جعلوا الخلود في الآخرة خاصًا بالفئة الشريفة من المجتمع، أو بعلية القوم بأسلوب أدق. فقد فرق كثير من البابليين تفريقاً غريبًا ونادرًا بين البشر في موضوع الخلود بعد الموت، فالخلود ليس للجميع عند هؤلاء، بل هو محصور ومقصور على الطبقات العليا، طبقة الملوك وكهانهم وغيرهم من علية القوم، أما الطبقات الدنيا كالفقراء والعبيد، فحياتهم تنتهي بالموت، وليس لهم خلود بعده[٢].

ب- مع أننا نجد في الحضارة البابلية الكثير من الإثباتات على إيمان البابليين بالحياة الثانية بعد الموت -تحت تأثير الفكر السومري السابق لهم- كالاستعدادات المختلفة للرحيل لتلك الحياة، إلا أن إيمانهم كان فيه (ضعف ولين)، فلم يكن بنفس القوة والصورة الموجودة عند السومريين.

وهذا الضعف والتذبذب والغموض والتداخل والتفريق بين طبقات الأموات والتحوّل في النظرة.. كل ذلك جعل البابليين يتجهون إلى دنياهم أكثر، فتميزوا بالارتباط النفعي بالقضايا الإلهية والدينية، فلم يكن لموضوعات النعيم الأخروي والحور والجنة والنعيم وما شابه.. لم يكن لها قيمة كبيرة عند البابلي، فلم يطلبها ولم يقتنع بها وبما يقال عن ما ستقدمه الآلهة من النعيم المقيم في الآخرة، بقدر اقتناعه بدنياه وطلبه الرحمة من أسياده وآلهته، بالحصول على المنافع الدنيوية البحتة، كقطع الأراضي وما شابهها[٣].

ويرى البعض أن موقف البابليين يتجلى باختصار في أن الروح تنطلق هائمة على وجه الأرض، بعد مفارقة الجسد الذي سنعرف تصورهم عن مصيره في المبحث القادم. وبالإضافة إلى أنها تنطلق هائمة، تقوم الروح أيضًا بالاقتصاص من الأحياء وتنغيص عيشهم إذا لم يقدموا لها ما تحتاجه ويهدئ من عنفها.. والحقيقة أن هذا المعتقد البابلي جاء مشابها -مع وجود اختلافات يسيرة- للعقائد السومرية[٤].

---

[١]- أنظر: د. هنية مفتاح القماطي، الفكر الديني القديم – دراسة في نشأة المعتقدات، منشورات جامعة قاريونس – بنغازي، ط١، ٢٠٠٣م، ص ٨٨-٨٩.
[٢]- محمد حسن، المرجع السابق، ص ١١٦.
[٣]- أنظر: محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ١١٦.
[٤]- أنظر: المرجع السابق، الحاشية ٩١، ص ١٢٩.

والبابليون لم يكونوا متفائلين في نظرتهم للعالم الآخر من جهة كما ظهر لنا، وفي عقيدتهم أمور تتعارض مع العقل من جهة ثانية. وهذا ما تؤكده الدكتورة هنية مفتاح، التي جمعت بين الناحيتين في قولها الموجز الدقيق في الوصف: "وهكذا كانت عقيدة البابليين عن الدنيا الثانية أو الحياة بعد الموت تبعث على الحزن وعدم الابتهاج، إلا أنها كانت تحوي ما يكفي لحفز السذج على تقديم القرابين من الطعام والشراب إلى الآلهة والكهنة[١].

أمّا في آشور فالمعتقد الديني البابلي السالف الذكر يتفقُ مع المعتقدات الدينية الآشورية، ومن ذلك مثلا أن مفهوم الإله واحد عندهما، إذ إنه يقوم على تصور ثلاثي، أركانه الثلاثة هي: الخلق والحساب والحماية، أي أنهم يتفقون على وجود آلهة خاصة بموضوع خلق العالم بكل ما فيه، ويتفقون أيضا في وجود آلهة أخرى مهمتها حماية هذا العالم، بالإضافة إلى وجود آلهة مهمتها **(حساب البشر)** ثوابًا وعقابًا، وهذا ما يهمنا هنا[٢].

فموضوع حساب البشر بعد الموت لا يمكن نفيه بشكل قاطع، رغم كثرة القائلين بعدم وجود حساب للبشر.. والسبب هو أن هناك فريقاً قويًا من كبار الباحثين أيد وأكد وشدد على وجود الحساب الأخروي في معتقداتهم، ومن أبرز هؤلاء أستاذان، الأول هو الأستاذ "كريمر" الذي استند على إشارة وردتْ في خاتمة المرثية السومرية الشهيرة، التي يرثي فيها الابن (لودنكرا) أباه المدعو (ننا) فقد ورد فيها صراحة ما يدل على نزول الإلهين شمش وأوتو، إلى العالم الأسفل لتقرير مصائر الموتى.. والثاني هو الأستاذ "أ.هايدل" الذي اعتمد على الإشارة الواردة في أسطورة نزول عشتار إلى العالم الأسفل -حسب الرواية السومرية-، عن حكم الموت الذي أصدره (الأنوناكي) على الإلهة (انانا) في حضرة الآلهة (ايرش-كيكال) بأنه إشارة واضحة إلى الحساب في عقائد ما بعد الموت في العراق القديم. كما أن عددًا من الباحثين الآخرين أثبتوا أن (الأنوناكي) يقومون بحساب الأعمال الحسنة والسيئة للميت، بطريقة مقاربة للحساب الموجود في عقائد المصريين القدامى[٣].

ولكنهم ورغم إيمانهم بنوع أو صور معينة من الحساب، ورغم ما ورد عنهم من إثباتات تدل على يقينهم بوجود عالم آخر بعد الموت، إلا أن العقائد الآشورية الخاصة بعالم الموت وما بعده مشابهة للعقائد البابلية أيضًا من حيث أنها لا تعطي الكثير من الفرص لمن عمل صالحًا أن يتمتع بشيء في ذلك العالم الآخر، فقد كان هم الإنسان في الفلسفتين البابلية والآشورية أن يرضي الآلهة، من أجل أن تمنحه السعادة والرخاء في الحياة الدنيا قبل أي شيء آخر، فلم يبذل الآشوري الكثير من الجهد ليقيم لنفسه مأوى يقضي فيه حياته الثانية هانئاً سعيدًا. وعلى ذلك ففكرتهم في تقديم القرابين والصلاة لم تكن تهدف بالدرجة الأولى للحصول على الحياة الخالدة، بل طمعًا في النعيم الماديّ الملموس في الدنيا. وخلاصة عقيدتهم هي أن الإنسان ما دام يعمل صالحًا فقد استحق رضى الإله وعاش ممتعًا بالسعادة، أمّا إذا تعمّد ارتكابَ الذنوب فإن الآلهة تتخلّى عنه فيتردّى في عالم الرذيلة والشر[٤].

والديانات الرافدية لم تفرّق بين الأموات في حتمية النزول إلى العالم السفلي، فالموتى يهوون إلى هذا العالم الفظيع الذي تسكنه الأرواح التعسة، مهما كانت مكانتهم وأيًا كان شأنهم، من غير تمييز بينهم،

---

[١]- د. هنية مفتاح القماطي، الفكر الديني القديم – دراسة في نشأة المعتقدات، مرجع سابق، ص٩٤.
[٢]- محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، المرجع السابق، ص ١١١.
[٣]- أنظر: نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، مرجع سابق، ص ص ١٣٩-١٤٠.
[٤]- هنية مفتاح، الفكر الديني القديم، المرجع السابق، ص ٩٧، (بتصرّف كبير منّي في الصياغة والتعديل والإضافة).

وهذا العالم الأسفل ليس عالمًا مظلمًا فحسب، بل عالمًا رطبًا باردًا تملأه **(الرطوبة والبرد)** بشكل رهيب ، وهذا مما يزيد في الشقاء والمعاناة[١].

كما أنهم يؤمنون بأن أرواح الموتى تسمع الأصوات الصادرة من عالم الأحياء من جهة، وتبقى محتفظة بمشاعرها تجاه من تحبهم ومن تكرههم من جهة ثانية، فأمّا الدليل على سماعها أصوات الأحياء، فهو النص الذي يتحدث عن موت أحد الملوك، حيث ورد فيه أن الملك المدعو (أور-نمو) كان يسمع بوضوح (عويل بلاد سومر) عليه، بعد مرور سبعة أو عشرة أيام على موته ونزوله للعالم السفلي. وأمّا الأدلة على احتفاظها بالمشاعر، فأبرزها دليلان، الأول هو أن أحد ملوك آشور دَفن مع والده الأوسمة الملكية التي يحبها لإيمانهم أن المتوفى لا يفقد إحساسه وشعوره مطلقًا، والدليل الثاني هو أن روح "أنكيدو" حين خرجتْ من العالم الأسفل لمقابلة جلجامش، كانت تحمل له الكثير من مشاعر المودة، كما ظهر من حوارهما[٢].

ولكن؛ وبعد أن عرفنا الكثير عن عقائد قدماء بلاد الرافدين في بقاء الروح بعد الموت وانتقالها لعالم آخر أسفل، يأتي السؤال المهم الذي يفرض نفسه بقوة هنا، وهو: هل هذا البقاء الروحي في العالم الأسفل أبديّ في معتقداتهم؟ أو بصياغة أخرى: هل كانوا يؤمنون بخلود الروح؟ هل كانوا يتصوّرون أن الأرواح ستخلد في العالم الأسفل، أم أنها ستقيم فيه مدة معينة فقط؟.

يجيبنا العالم الكبير طه باقر بكل وضوح قائلا: "لم يتصوّر البابليون أن الموت غاية تنتهي عندها الحياة وتنعدم انعدامًا كليًا، أي أنهم لم يعتقدوا بالفناء المطلق، فبعد انفصال الروح عن الجسد، تنتقل الروح إلى طور جديد من الوجود، إذ تنحدر الروح بعد وضع الجسم في القبر إلى عالم الأرواح وهو العالم الأسفل، وتعيش هناك إلى أبد الآبدين[٣].

وكل ما يهمنا هنا للإجابة عن سؤالنا السابق، هو قوله (وتعيش هناك إلى أبد الآبدين) فقد ظهر جليًا من خلال الكثير مما ورد في المباحث السابقة ما يتفق بقوة مع هذا القول، فالسومريون والبابليون والآشوريون –رغم اختلافهم عن بعضهم في بعض التفاصيل- يتفقون في الجملة على وجود نوع من الحساب وآلهة مختصة بالحساب، ويتفقون أيضًا على وجود العالم الأسفل وعلى وجود الأرواح التي تحمل الحسنات والسيئات، وبإقامة الأرواح في العالم الأسفل إقامة أبديّة خالدة.

ويتفق كثير من الباحثين مع الكلام السابق، مع اختلاف طفيف جدًا من حيث تسمية مكان خلود الروح فقط، حيث يقولون باختصار: إن الإنسان العراقي القديم اعتقد أن روح الميت تحيا الحياة الآخرة في **(عالم الأرواح)** وهو العالم السفلي، حيث تخلد هناك إلى الأبد من غير قيامة ولا رجعة[٤].

كما يؤكد آخرون أيضًا عقيدة **(خلود الروح)** بأساليب وصياغات كثيرة لا يمكن حصرها، ومنها ما يرد في سياق نفي العقاب والثواب في العالم الآخر، مع (ربط الخلود بالمساواة)، ومن ذلك قول الدكتور نائل حنون: "رسخ الاعتقاد في بلاد وادي الرافدين القديمة بأن عالم الأحياء هو دار العقاب

---

(١)- أنظر: حسين العودات، الموت في الديانات الشرقية، مرجع سابق، ص ٣٩.
(٢)- أنظر: نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، مرجع سابق، ص ص ١١٩- ١٢٠.
(٣)- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - تاريخ الفرات القديم، مرجع سابق، ص ٢٣١.
(٤)- أنظر: د. أحمد أمين سليم، دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٣٠٣.

والثواب، وأن العالم الآخر ليس إلا مكانا لـ **(إقامة الموتى الدائمة)** بشكل متساو بين الأخيار والأشرار"[١].

ومن الأدلة على إيمانهم بخلود الروح في العالم الأسفل -غير ما ذكر- الأدلة التالية:

١- أنهم يناجون ويتوجهون بالدعاء إلى أرواح آبائهم وأمهاتهم، بل وأجدادهم الذين ماتوا منذ أزمنة بعيدة، وهذا يعضد الأدلة الأخرى التي استعرضناها سابقاً حول تأكيد إيمانهم بخلود الروح وطول إقامتها الدائمة في عالم الأموات السفلي.. ومن الشواهد على ذلك ما ورد في بعض نصوصهم من أن الإنسان الذي يبتلى بالأرواح الشريرة في حياته الدنيا، يتضرّع إلى أرواح الموتى من أجداده وأهله، ومن ذلك هذه التعويذة: " يا أرواح عائلتي، يا أرواح أبي وأمي وأجدادي، وأخي وأختي وكل أهلي وأقربائي... إلى آخر الدعاء الطويل الذي لا يهمنا محتواه هنا[٢].

٢- أن نصوصهم تشير إلى أن أرواح الموتى إذا انقطعت عنها الأطعمة والسوائل والقرابين التي يقدمها لها الأحياء، فإنها تكون أمام أمرين، فإما أن تبقى معتمدة على أكل الطين وشرب الماء العكر في العالم الأسفل، أو أنها تخرج غاضبة لعالم الأحياء لتأكل من فضلات الشوارع[٣].. ونلاحظ غياب **(احتمال موتها أو هلاكها).** وهذا استنتاج منّي، فلو كانت غير خالدة أو أن لإقامتها نهاية، لماتتْ أو هلكتْ أو ما شابه.

٣- أنهم يُسمّون عالمَ الأرواح السفلي بأسماء تدل على البقاء الدائم فيه، مثل (عالم اللارجعة)، وأوضح شواهد ذلك كلام أنكيدو الذي مرَّ بنا في النصوص الطويلة السابقة، وتحديدًا قوله: "وقادني إلى (دار الظلمة) إلى مسكن "أركلا".. إلى الدار التي لا يرجع منها من دخلها.. إلى الطريق الذي لا رجعة لسالكه".

٤- وهذه حجة عقلية اجتهادية منّي، لم أعثر على أية إشارة إليها في أيِّ مرجعٍ من المراجع التي رجعنا إليها في هذا البحث، وأعتقد أنها حجة كفيلة بزيادة التأكيد على إيمانهم بخلود الروح في العالم الأسفل، وهي –بكل بساطة- أننا لا نجد أيّة إشارة من أي نوع على أن الأرواح ستفنى أو تنتهي أو تزول أو تنعدم في العالم الأسفل.. ولا نجد أية إشارة على أن حالها سيتغير أو أنها ستنتقل إلى مكان آخر يجب علينا أن نتابعها فيه لنعرف هل ستخلد أم لا؟. فكلُّ ما لدينا هو إثباتات وحجج دامغة كثيرة ومتواترة تؤكد على أنهم يؤمنون بوجود مقر للأرواح أسفل الأرض، وتؤكد على أن أرواح الجميع تنصرف إليه بعد الموت، وتصفه أساطيرهم وملاحمهم ونصوصهم المختلفة وصفًا دقيقاً جدًا شاملاً لكل ما فيه. وبالتالي فالعقل والتفكير المنطقي يفرض علينا أن تصوّر قدماء بلاد الرافدين هو أن الأرواح بعد الموت تنتقل إلى مقرّها السفلي وتقيم إقامة دائمة فيه، خالدة مخلّدة إلى أبد الآبدين.

وتجدر الإشارة إلى أن عددًا من الباحثين الذين نظروا في هذه المسائل من زوايا أخرى مرتبطة بمصادر مختلفة، خرجوا بنتائج فيها كثير من الاختلاف عن نتائج المسار العام لغالب الباحثين، ومن هؤلاء المختلفين والمميزين جدًا –على سبيل المثال- باحث الكنيسة الأسقفية الدكتور عزت زكي، الذي يورد قراءات وتصوّرات مختلفة، منها أن (عقيدة الخلود) عند قدماء الرافدين مرت بتطورات

---

[١]- نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، مرجع سابق، ص ١٥٩.

[٢]- للاطلاع على التعويذة كاملة: أنظر: نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، مرجع سابق، ص ١٢٧.

[٣]- أنظر: نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، المرجع السابق، ص ١٢٣.

وتحوّلات مختلفة، انتهتْ بهم إلى ظهور أشكال أخرى من الخلود بعد الموت. وأعتقدُ أننا بحاجة إلى توقف عند إضافاته القيّمة، وقد قسمتها إلى ثلاث نقاط أساسية هي:

١- يذكر الدكتور أن عالم الخلود عند الآشوريين لم يكن مقصورًا كما تصورنا في شكل معين في العالم السفلي، ولم يكن عالم الظلام والكآبة كما اعتقد الإغريق وكما مرَّ معنا، فلديهم اعتقاد بوجود خلود في **(أرض السماء الفضيّة)** حيث اكتشفت لوحة من ألواحهم مؤخرًا، وسُطرتْ عليها الصلاة والدعاء التاليين: "يا بهجة القلب ونبع النقاء ومصدر الاستنارة، وإعلان كل ما هو معلن وخفيَ.. قدّم لمدينتك آشور طول الأيام، ولسيدي الملك ليتسلط على ملوك ورؤساء.. ولمن يتقدمون بهذه الصلاة. لتفض (أرض السماء الفضيّة) بزيت النعمة، وليكن طعامهم خمر البركة، وليكن إشراقهم نور الظهيرة. لتهب لي الصحة.. والفلاح لآلهة أرض آشور"[(١)].

٢- يضيف أيضًا أن العالم السفلي في الأصل لم يكن مكانًا لأرواح الأموات، بل هو مكان لأرواح الطبيعة في بداية الأمر، كروح الأرض، وروح الينابيع، وروح الجبال.. الخ. كما أن للآلهة مكانًا منعزلاً خاصًا بها في الطابق الأعلى من العالم السفلي، فوق مكان سكنى الأشباح، ويؤدي إليه. أمّا القول بأنه مكان حزين كئيب تحت الأرض تتخبط فيه الأرواح في الظلام والكآبة، وطعامها وشرابها الطين، فأول من قال بهذا "الكلدانيون" الذين اعتقدوا أيضًا أن أرواح الموتى يقدّر لها أحيانًا (الفرار من العالم الأسفل) لتبطش بالأحياء وتطفئ نهمها بدمائهم. وفي العالم الأسفل –كما يصفه الدكتور عزت- مكانٌ خاص فيه كراسي للجلوس لا تدخله إلا (أرواح الأبطال) ويستشهد بالمصادر المسيحية، ومنها "سفر أشعياء" حيث تحدث السفر عن (روح ملك بابل) عند نزولها إلى الهاوية أو العالم السفلي، حيث يقول سفر اشعياء: "الهاوية من أسفل مهتزة لك، لاستقبال قدومك، منهضة لك الأخيلة أي الأشباح، جميع عظماء الأرض. أقامت كلَّ ملوك الأمم عن كراسيهم، وكلهم يقولون لك: أنت أيضًا قد ضعفت نظيرنا، وصرت مثلنا.. فتحتك تفرش الرمة، وغطاؤك الدود؟... كيف سقطت من السماء يا زهرة بنت الصبح"[(٢)].

٣- وهذه أهم نقطة، حيث ذكرَ أن تصوّرهم للخلود بعد الموت تطوّر، فأصبح بصور أخرى غير خلود الأرواح في العالم الأسفل، فهناك **(خلود في سماء الآلهة)** يرد بمعنى السكنى في سماء الآلهة، ويبدو أنه يقصد (السماء الفضية) الواردة في الفقرة الأولى، ويستشهد بأن روح المدعو "إيا بانى" تصعد من العالم الأسفل المسمّى بالهاوية، وكأنها سحابة من الغبار، إلى سماء الآلهة فتحيا وتبقى هناك وهي تنظر إلى أعمالها العظيمة التي قامت بها على الأرض، ومنها أنه شهيد في معركة. فهذا المدعو "إيا بانى" صعدتْ روحه إلى سماء الآلهة، وهو فيها يتكئ على أريكة فاخرة، ويشرب المياه العذبة؛ لأنه ذبح في المعركة. ويستدل الدكتور بنص لم يشر إلى مصدره يبدو أنه من الكتب المسيحية المقدسة، وهو حديث عن "إيا بانى" الذي يبدو أنه شهيد، حيث يقول النص: "قد سُمح له بأن يصعد إلى سماء الآلهة، ويحيا ويضطجع على الجبال نظير الآلهة، لا ترهقه متاعب البشر، وقد فتح الطريق لآخرين من الأبطال، وأنصاف الآلهة، ليحيوا حياة الآلهة على (جبل الوجود)، مخترقين (سماء عانو) خلف الحجاب غير المنظور.

[(١)]- أنظر: د. عزت زكي، الموت والخلود في الأديان المختلفة، مرجع سابق، ص ص ١١٢-١١٣. ولم يشر إلى مصدر هذه اللوحة الصلاتية الدعائية.

[(٢)]- المرجع السابق، ص ص ١١٣-١١٤.

وأعتقدُ أن كلامه عن صعود روح (قتيل الحرب) إلى مصاف الآلهة ووصفه لحالها في سمائهم، يحلُّ الإشكال الذي واجه كثيرًا من الباحثين، الذين توقفوا عند غموض موقف قدماء بلاد النهرين من روح من يقتل في الحرب، ومن هؤلاء الدكتور محمد غلاب، الذي يلخص لنا في كلام جميل زبدة ما يمكن ختم مبحثنا به، وفي كلامه إشارة إلى عدم وضوح رأيهم في مصير روح قتيل الحرب أيضًا، حيث يتفق معنا أن شعب بلاد الرافدين القديم لم يكن يرى فناء الروح بمجرد الموت؛ ولكنه كان يعتقد أن مصير الإنسان كان محصورًا في هذه الحياة، وأن جميع الموتى أشقياء في العالم التالي كما رأينا في أساطيرهم، أمّا استثناء الذين قتلوا في الحرب فيصفه بالشيء الغامض الذي لا يتضح منه رأيهم الحقيقي[١].

كما أعتقدُ أن الدكتور زكي يشير في الفقرة السابقة الثالثة إلى أن صعود روح "إيا بانى" من العالم السفلي وخلودها في سماء الآلهة، جاء كنتيجة لأعمالها الصالحة التي قامتْ بها على الأرض، بدليل أنه يضيف بعد أسطر قليلة كلامًا عن **(الخلود والثواب)**، حيث يقول في حديثه عن عقيدة قدماء الرافدين: "ثم شيئا فشيئا تطورتْ عقيدة الخلود، لتشمل خلود الذاتية، وتتجه بعد ذلك إلى مبدأ الثواب والعقاب".

وعلى كل حال، فكل ما ذكره في بحثه القيّم لا يتعارض مع النتيجة التي وصلنا إليها في مبحثنا هذا قبل إيراد كلامه، وهي أن فكر قدماء بلاد الرافدين بشكل عام كان يتصوّر أن الأرواح بعد الموت لا تفنى، بل تنتقل إلى مقرّها السفلي وتقيم إقامة دائمة فيه، خالدة مخلّدة إلى أبد الآبدين. ولا مانع من تعديل هذه النتيجة بعد الاطلاع على كلامه بإضافة ما ذكره إليها، فلا تعارض في ذلك أبدًا في نظري. فالمهم عندنا هنا هو أن الجميع يتفق على **(خلود الأرواح)** وإقامتها الدائمة بعد الموت، ولا يهم بعد ذلك إذا كانت بعض تلك الأرواح ستصعد لتقيم في سماء الآلهة أم لا، ولا يعنينا كثيرًا أيضًا في بحثنا عن الخلود هل الراجح أنهم كانوا يؤمنون بالثواب والعقاب أم لا؟، فالترجيح صعب؛ لوجود نصوص وكتابات كثيرة يُفهم منها عدم إيمانهم بذلك، وأن الحساب والثواب والعقاب يحصل للإنسان في الدنيا فقط.. ولوجود نصوص ومرويات وإشارات مختلفة أخرى أيضًا قد يفهم منها العكس كما مرَّ معنا، أي أنهم يعتقدون بأنواع أو أشكال أخرى للحساب والجزاء في الحياة الثانية؛ ولكن المؤكد أنها –إن ثبتت- فهي تختلف اختلافا جذريًا عن صور الحساب المعروفة في الأديان السماوية المشابهة لما جاء في الزرادشتية، ولما جاء أيضًا في الديانة المصرية القديمة[٢].

وبالإضافة إلى كل ما ذكر عن خلود الروح، فقد كان الرافديون القدامى يهتمون كثيرًا بموضوع **(خلود الاسم)** والذكر الطيب على الأرض بعد الموت، ومن الشواهد على ذلك -وعلى وجود شيء من النعيم في العالم الأسفل أيضًا- كتابة وردتْ على إحدى أحجار (الكدورو) الخاصة بتحديد ملكية الأراضي، ففيها دعاء لأحد الأموات جاء فيه: " في العلى عسى أن يطيب اسمه، وفي العالم الأسفل عسى أن تشرب روحه الماء النقي"[٣]. بالإضافة إلى ما أوردناه في الصفحات القريبة السابقة عن (جلجامش) الذي نقلنا من ملحمته بعض كلامه الدال على رغبته الأكيدة في خلود اسمه في الدنيا بعد موته.

---

[١]- أنظر: محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، ص ٣٢٦.

[٢]- راجع الفصلين الثاني والرابع من بحثنا هذا، للتعرّف على موضوع الحساب بعد الموت في الزرادشتية والديانة المصرية القديمة.

[٣]- أنظر: نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، مرجع سابق، ص ١١٢. بتصرّف.

المبحث الرابع:

خلود الجسد في عقائد قدماء بلاد الرافدين.

يجد الباحث الكثير مما يمكن تناوله عن موضوع خلود الجسد في "الزرادشتية" كما مرَّ معنا في الفصل الثاني السابق، ويجد أيضًا الكثير من ذلك عند قدماء المصريين، كما سيظهر في الفصل الرابع القادم؛ ولكن الحال مختلف عند الحديث عن خلود الجسد في معتقدات الرافديين، حيث جاء الحديث في الجملة –في غالب المراجع- حديثاً عامًا عن الخلود، أو مرتبطاً بالأرواح أكثر، فمن النادر أن نجد ما يساعد على تحديد معتقداتهم وأفكارهم بدقة من موضوع خلود الجسد تحديدًا.

ولكننا رغم ذلك نلاحظ بعض الإشارات لما قد يفهم منه شيء من تلك المعتقدات والأفكار، ولم أجد في كل نصوصهم أوضح ولا أفصح ولا أصرح من قول "أنكيدو" لجلجامش:

"إن جسمي الذي كنتَ تلمسه يوم كان قلبك تغمره الأفراح، تلتهمه الديدان الآن كما لو كان لباساً خلقاً، وقد امتلأ بالتراب"[١].

فالأجساد مصيرها التلف والانحلال إذن، حيث تترك في القبور لتأكلها الديدان.. ومما يزيد التأكيد على ذلك أننا لم نجد أية إشارة إلى أنهم كانوا يحنطون الجثث مثلا لحفظها، كما كان يفعل غيرهم في مصر وغيرها في تلك الأزمنة القديمة[٢].

ويزيد من توضيح وتأكيد القول السابق قول جلجامش أيضًا متحسرًا على صديقه أنكيدو: **"آه ! لقد غدا صاحبي الذي أحببتُ ترابا.. وأنا سأضطجع مثله فلا أقوم أبد الآبدين"[٣]**. ففي النصين –خاصة إذا دمجناهما ببعضهما- تأكيد شديد على عدم وجود إيمان لديهم ببعث الأجساد أو حياتها الثانية، ناهيك عن خلودها وأبديتها.

وبناء على ذلك وغيره تتفق كثير من المراجع إلى أن البابليين كانوا يعتقدون أن الجسد يفنى بعد أن تفارقه الروح، فعقيدتهم أن الجسد يعود إلى حالته الأولى، أي لتركيبه الأول، أي إلى عناصر الطبيعية. وهذا المعتقد البابلي جاء مشابها للعقائد السومرية وغيرها من معتقدات قدامى بلاد الرافدين[٤].

ولكننا ملزمون ببيان حقيقة هامة، وهي أن هذا المعتقد جاء كتطوّر للمعتقد السابق له الذي مرَّ بنا ما يشير إليه في المبحثين السابقين، ففي فترة الألف السادس قبل الميلاد وهي الفترة التي شهدتْ بداية ظهور عبادة القوى الطبيعية تلك العبادة التي نمتْ وترعرعتْ فيما بعد في القسم الجنوبي من العراق، يبدو من المخلفات الأثرية وخاصة تلك التي كانت توضع مع الميت في قبره، أن سكان هذه الفترة كانوا يعتقدون بأن الحياة تعود إلى الإنسان بعد دفنه ولذلك كانوا يضعون معه الحاجات الأساسية التي يحتاجها بعد عودة الحياة له. وقد تأكد لنا ذلك من خلال قبور الأطفال التي اكتشفت في موقع "تل الصوان" القريب من مدينة سامراء، حيث احتوت جميع تلك القبور على دمية للأم وأحيانا للأم والأب؛ لأن الطفل لا يحتاج بعد عودة الحياة إليه سوى أمه بالدرجة الأولى وأبيه بالدرجة الثانية؛ ولكن هذا الاعتقاد قد تعدّل قليلا لأن عودة الميت نفسه مرة ثانية إلى الحياة مسألة لا يمكن

---

[١]- طه باقر، ملحمة كلكامش - أوديسة العراق الخالدة، مرجع سابق، ص ١٠٨.
[٢]- راجع المبحث الرابع من الفصل الرابع في بحثنا هذا.
[٣]- أنظر: نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، مرجع سابق، ص ١٣٢.
[٤]- أنظر: محمد حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مرجع سابق، الحاشية ٩١، ص ١٢٩.

استمرار الاعتقاد بها؛ لأن ذلك من الناحية العملية غير ممكن على الإطلاق، ولذلك تحوّل هذا الاعتقاد واستقرَّ على أن الميّت لا يعود هو نفسه ثانية إلى الحياة، بل الذي يعود منه هي الروح، وأن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الموت في نظر سكان بلاد وادي الرافدين هو عملية انفصال الروح عن الجسد، وأن الذي يعيش الحياة الأخرى هي الروح وليس الجسد؛ ولكن للروح (ملامح) لا تختلف عن **(ملامح المتوفى)** قبل مماته[١].

ولابد أن نتوقف لتأمل هذه النقطة، أعني نقطة **(ملامح روح المتوفى المماثلة لملامحه)**. ألا تذكرنا هذه النقطة بنقطة (قالب الجسد) في الزرادشتية، التي تناولناها في الفصل السابق، وخلصنا من خلالها إلى أن الأقرب هو أن الزرادشتية تؤمن بخلود الروح مع **(قالب الجسد)** أي مع صورته التي تمثل الجزء الرابع من أجزاء تكوين الجسد في معتقدهم.

ونستطيع توضيح موضوع الملامح هذا بشكل أدق إذا قلنا إن أرواح الموتى أو (أشباحهم) تبقى تحمل الملامح الأساسية لشخص صاحبها المتوفى بوضوح، رغم التغيير الذي يحصل لها عند الموت، والمتمثل بتزودها بأجنحة من الريش كما مرَّ معنا.. وأكبر دليل على هذا هو أن "أنكيدو" حين نزل إلى العالم الأسفل في القصة المذكورة في المبحث السابق، استطاع التعرف على من يحبهم ومن يبغضهم بمجرد النظر إلى أشباحهم. بالإضافة –وهذه نقطة في غاية الأهمية- إلى أن هذا الشبه بين (روح الميت) وبين (هيئة الميت) نفسه، لم يكن يتأثر بحالة الجسد في حوادث الموت العنيف، التي مرت أيضًا في مباحثنا السابقة.. ومن الدلائل الواضحة على ذلك أن المدعو "أور" الذي مات في المعركة التي خاضها جيشه ضد الكوتيين، قد (سقط في ميدان المعركة مثل إناء محطم) كما يرد في النص الرافدي الذي يتحدث عن مقتله، فرغم جسامة الأذى الذي لحق به إلا أن روحه نزلت إلى العالم الأسفل، بكامل سلامتها، فقدَّمتْ الهدايا والقرابين إلى آلهة ذلك العالم، ثم ذهبتْ إلى المكان المخصص لإقامتها، والذي يظهر أن جميع الملوك والعظماء يتمتعون بمثله كنوع من التمييز لهم في العالم الآخر. وقد وردتْ قصص أخرى لأشخاص ماتوا موتاً عنيفا ورغم ذلك نزلت أرواحهم إلى العالم الأسفل، وتعرف عليها الكثيرون هناك، مع شدة الأذى الذي حلَّ بأجساد أصحابها[٢].

إنني كباحث أرى أننا إذا تعمّقنا وأفرطنا في التأمل سنجد شيئا من التوافق بين المعتقد الزرادشتي ومعتقد الرافديين المذكور أعلاه حول ملامح المتوفى التي تنتقل فتصبح بعد موته (ملامح روحية)، ويمكن الجمع في اعتقادي بينهما في أن العقيدتين تشتركان في الإيمان بخلود الروح مع ملامح أو صورة الجسد، وأن إيمان كثير من المتأخرين في العراق القديم بهذا، جاء كمرحلة ثانية تالية للعقيدة الأولى السابقة، وهي أن الحياة تعود إلى الإنسان بعد دفنه؛ ولذلك كانوا يضعون معه الحاجات الأساسية التي يحتاجها بعد عودة الحياة له.

وقد لفتتْ نظري حاشية من حواشي الأستاذ طه باقر، المستندة على مرجع أجنبي، حيث ذكر –بما معناه اختصارًا- أنه رغم عدم وجود أدلة قطعية مكتوبة على أن البابليين كانوا يؤمنون بعودة الأرواح إلى الأجساد في القبور، إلا أن هناك براهين على وجود هذا المعتقد، إذ لا يمكن تفسير ما نجده في قبور موتاهم من أثاث ومتاع خاص بالموتى إلا بما يضاهي عقيدة رجوع الروح إلى الجسد، ومما يزيد التأكيد أن عادة وضع احتياجات الميت معه في قبره موغلة في القدم من ناحية

[١]- أنظر: حضارة العراق، لنخبة من الباحثين العراقيين، مرجع سابق، ج١، ص ١٧٨.

[٢]- أنظر: نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، مرجع سابق، ص ١١٥.

أولى، فهي ترجع في أساسها إلى العصور الحجرية القديمة. ومن ناحية ثانية نجد أن هذه العادة منتشرة في كل العراق القديم[١].

وكنا قد أوردنا أيضًا مقتطفًا من كلام للعالم طه باقر في حديثنا عن خلود الروح في المبحث السابق، ولكي تتضح الصورة الكاملة فيما يخص تصورهم لخلود الجسد، لابد أن نورد بقية كلامه المهم هنا حيث يقول: "ولكن البابليين لم يتصوروا أن الموت غاية تنتهى عندها الحياة وتنعدم انعدامًا كليًا، أي أنهم لم يعتقدوا بالفناء المطلق. وإنما الموت عندهم انقسام الكائن الحى إلى جزأين وانفصال أحدهما عن الآخر، وهما الجسد والروح، فبالموت تنفصل الروح عن الجسم وتنتقل إلى طور جديد من الوجود، إذ تنحدر بعد وضع الجسم في القبر إلى عالم الأرواح الأسفل وتعيش هناك إلى أبد الآبدين، (حيث لا قيامة ولا رجعة).. ومع هذا الانفصال بين الجسم والروح فتبقى بعض الصلة بين الاثنين بعد الموت. فمثلا تتوقف راحة الروح في عالم الأرواح على العناية التي يبذلها الأحياء في دفن الجسم وفق الطرق الدينية، وعلى ما يودع في القبر من زاد وأثاث، وعلى ما يقرّب إلى الميت بمناسبات مختلفة. ويمكن تفسير طرق الدفن وما نجده في قبورهم من الأثاث ولوازم الميت منذ أقدم العهود، بأنهم اعتقدوا برجوع الروح إلى الجسم وهو في القبر"[٢].

ومعنى هذا الكلام المقتبس أعلاه، أنه ورد عنهم الإيمان برجوع الروح إلى الجسد في القبر، ولكن تصوّرهم لا يعني إيمانهم بالبعث أو النشور أو يوم القيامة أو ما شابه من معتقدات الأديان، وإنما يعني إيمانهم بعودة الروح إلى الجسد بكيفية وشكل مختلف ما زال غامضًا بل مجهولا عندي حتى الآن.. فالحقيقة أن الصورة في هذا مشوشة ومرتبكة أمامي كباحث، ولا أدري كيف يمكن الجمع بين ما ذكرناه في المبحث السابق عن انتقال الروح إلى عالم الأرواح الأسفل وبقائها فيه إلى أبد الآبدين، وبين عودة الروح إلى الجسد في القبر؟!.

وممّا يزيدنا حيرة وعجزًا عن الجمع بين هذه التناقضات الشائكة، ورود وصف (محيي الموتى) أو (مقيم الموتى) في "أناشيد الحمد" الموجهة إلى الإله "مردوخ"؛ وكذلك وصف الآلهة "كولا" بأنها (الملكة التي تعيد الحياة للموتى) ويحاول بعض الباحثين الخروج من هذه التناقضات الكثيرة، بأن يفسر مثلا قولهم (محيي ومقيم الموتى) بأن مقصدهم هو إقامة المغمى عليه مثلا من غيبوبته، أو مساعدة المريض الذي جعله المرض كالميت، فيطلبون له الشفاء في الدنيا ليقوم للحياة من جديد[٣]. والحقيقة أن هذا الكلام لا يبدو مقنعًا أبدًا في ظني.

وعلى العموم وفي كل الأحوال: حتى لو سلمنا جدلا ببعض ما ذكر في الفقرات القريبة السابقة، فالمهم هو أنه لم يثبت ولم أجد أيّة إشارة في أي مصدر أو مرجع إلى أنهم يؤمنون أو يتصورون إمكانية (خلود الجسد إلى الأبد) لم أعثر على أي إشارة لا من قريب ولا من بعيد تدل على هذا. ولعلَّ الجمع الأدق والأقرب هو أن نقول: إن إيمانهم بخلود الروح في عالم الأموات الأسفل، لا يعني خلودها مجرّدة أو منفردة، بل هو خلودٌ لها مع (ملامح المتوفى) حين كان حيًا في الدنيا قبل الموت، كما ذكرنا سابقاً، وفي هذا شيء من شبه الاتفاق مع المعتقد الزرادشتي.

---

[١]- أنظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - تاريخ الفرات القديم، مرجع سابق، ص ٢٣١.
وللإسهاب: أنظر المرجع: Alexander Heidel, The Gilgamesh Epic
[٢]- أنظر: طه باقر، تاريخ الفرات القديم، المرجع السابق، الصفحات ٢٣١-٢٣٢-٢٣٣.
[٣]- أنظر: د. عزت زكي، الموت والخلود في الأديان المختلفة، مرجع سابق، ص ١١٣.
وأنظر أيضًا: نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، مرجع سابق، ص ١٣٠.

وقد ظهر لنا في المبحث السابق من ملحمة جلجامش وغيرها أن الفلسفات أو الديانات الرافدية عجزت عن الانتصار عن الموت وتحقيق الخلود في الدنيا، واقتنعت في عمومها بأن الخلود للآلهة وحدهم دون البشر.

وعطفًا على ذلك يرى البعض أن الفلسفات الدينية الرافدية لم تحاول التعمق كثيرًا في ظاهرة الموت البيولوجي والموت الإنساني بشكل عام. ويقولون: "إن الثقافة الرافدية لم تبلغ درجة من التطور تؤهلها للتوصل إلى إبداء الرأي في ماهية الروح وتركيبها وعلاقتها بالجسد، وتزاوجها مع الجسد، وانفصالها عن الجسد عند الموت. حيث لم تتعرض لثنائية الروح والجسد بشكل واضح ولا جدّي، بل يبدو أنها لم تقل بوجود روح ملازمة للجسد أصلا، رغم أنها قالت بوجود أرواح تملأ كل مكان، منها الخيّرة ومنها الشريرة، تتصارع فيما بينها كما تتصارع الآلهة، إلا أن هذه الأرواح لا علاقة لها بحياة الإنسان أو موته. فليست كالأرواح التي قالت بها الفلسفات والديانات اللاحقة، بل هي قوى مجهولة مخيفة خارجية. حتى أنهم ظنوا أن لكل إنسان روحًا تدافع عنه أو تؤذيه، فهي قرينة أكثر منها روحاً، وتتبع قوى أخرى لا يدركها الإنسان، ومع ذلك ففي بعض أساطيرهم ونصوصهم اللاحقة ما يوحي بوجود فكرة ما غامضة، تقترب من فكرة الروح المتزاوجة مع البدن، فقد غلب على تصورهم في مرحلة من المراحل أن للموتى أرواحًا على شكل طيور، وهذا التصوّر نفسه هو ما نجده عند العرب قبل الإسلام وعند الفراعنة وغيرهم"[1].

ويجزم كثير من الباحثين إلى أن (النصوص المسمارية) خلتْ تمامًا من أي إثبات على وجود الاعتقاد بقيامتهم وبعثهم بعد الموت، وليس فيها أي إثبات على إمكانية عودة روح الميت إلى جسده بأي شكل من الأشكال، باستثناء وصف (مقيم أو محيي الموتى)[2]. الذي تناولناه قبل قليل.

ولابد من التأكيد على جملة مرّتْ معنا عدة مرات في المبحث السابق عن مسألة خلود الروح؛ لأنها مرتبطة أيضًا بمسألة خلود الجسد، وهي أن روح الميت تذهب إلى العالم السفلي بعد الموت، وتقيم هناك خالدة إلى الأبد **(من غير قيامة ولا رجعة)** وأعتقد أن تكرار هذه الجملة ومثيلاتها من الجمل تجعلنا نصل إلى نتيجة شبه مؤكدة، أن قدماء العراق اعتقدوا خلود الروح دون الجسد، مع ضرورة الانتباه إلى استثناء صورة الجسد التي تتكرر بعبارة (ملامح المتوفى) فهي -في نظري- الجزء الوحيد من الجسد -إن صح وصفها بالجزء- الذي يرافق الروح في عالم خلودها الأسفل.

وأعتقدُ بقوة -ولستُ متيقنًا تمامًا- أن هذه الملامح هي ما يسميه بعض الباحثين أحيانا بـ (خيال الميت) ، وأحيانًا يسمونها (ظل الجسد) وهذا ما يزيد من شعوري بتقارب معتقدهم مع معتقد الزرادشتية، أعني موضوع (قالب الجسد) أو صورة الجسد، التي يرى الزرادشتيون أنها الجزء الرابع من أجزاء الجسد حسب تقسيمهم المشروح سابقًا، والذي يرونه القسم أو الجزء الوحيد من الجسد الذي يرافق الروح فلا يبلى ولا يفنى مع الأجزاء الثلاثة الأخرى من الجسد. ومن الجميل جدًا أني وجدتُ التعبيرين (خيال الميت) و (ظل الميت) في نص واحد حول الفلسفة الرافدية، هو:

"فمعتقدهم أن ظل الميت يفترق عن جسده مباشرة عقب الموت، ويتحوّل إلى روح شريرة تسمّى "أديمو" وتنضم إلى طبقة الـ "أوتوكى" الأشرار وهي لا تستريح طالما لم تدفن الجثة. وإن من تبقى جثته ملقاة في الحقول يظل خياله غير مستقر في الأرض، وإن من لا يُعنى أحد بخياله يقتطع ما يصل إلى يده في مطافه السريع من بقايا الأطعمة الملقاة في الشارع ليأكلها"[3].

[1]- أنظر: حسين العودات، الموت في الديانات الشرقية، مرجع سابق، ص ٣٨.
[2]- أنظر: نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، مرجع سابق، ص ١٣٠.
[3]- أنظر: ل. ديلا يورت، بلاد ما بين النهرين، مرجع سابق، ص ١٧١.

فتكون النتيجة النهائية لهذا المبحث هي أننا أمام ثلاثة احتمالات، فإمّا أن قدماء الرافدين أو بعضهم اعتقدوا في بعض مراحلهم بعودة الروح إلى الجسد، وفق آلية أو كيفية غامضة لم يشر أحدٌ –فيما أعلم- إلى تفاصيلها الدقيقة، ولهذا الرأي أو الموقف ما يعضده كما مرَّ معنا، رغم ضعفه مقارنة بالاحتمالين الآخرين.. وإمّا أنهم جميعًا كانوا يؤمنون بخلود الروح وحدها في العالم السفلي الذي تنتقل إليه، وليس للجسد في هذه الحالة إلا الفناء والاضمحلال والعودة إلى عالم العدم بالتحلل في التراب. وإمّا أنهم تصوروا أو اعتقدوا خلود الروح ومعها جزء من الجسد نستطيع إطلاق عدة تسميات عليه، كقالب الجسد أو ملامح الجسد أو ظلال الجسد أو خيال الجسد أو شبح الجسد أو رسمة الجسد أو شبح شكل الجسد.. وما شابه. وهذا الرأي أو الموقف أو الاحتمال الثالث الأخير هو موقفي الشخصي، الذي لا أدري هل سبقني إليه أحد أم لا، وهو الراجح عندي والأقرب للصواب، بعد الجمع ومحاولة الربط بين التناقضات والعبارات الكثيرة الغامضة المتداخلة المتصادمة الشائكة التي وردتْ في ملاحمهم وأساطيرهم ونصوصهم ومصادرها ومراجعها المختلفة.

وهناك نقطة غامضة قد يصعب شرحها وتفسيرها، وقد يكون فيها إشارة إلى اعتقادهم بوجود نوع من أنواع الحياة للجسد في القبر، وهي ارتباط الروح وهي في عالمها السفلي بجسد صاحبها في قبره، حيث أثبتتْ عشراتٌ من نصوصهم أن هدوء الروح وراحتها في العالم الأسفل مرتبط بعدم تحريك عظام الميت أو العبث بقبره أو إزاحة التراب عن عظامه.. ومن أقوى الشواهد على ذلك أن الملك الآشوري (اشور-بانيبال) نبش أضرحة الملوك العيلاميين الموتى، وأخرج بقايا عظامهم ونقلها معه إلى آشور من أجل الانتقام منهم، حيث ورد في أحد النصوص الخاصة به قوله: "لقد نبشتُ قبور ملوكهم السابقين والمتأخرين الذين لم يخافوا من هيبة أشور وعشتار إلهتي الحامية، والذين أقلقوا أسلافي من الملوك. لقد نبشتها وعرضت هياكلها للشمس، وأخذت عظامهم إلى بلاد آشور.. إنني فرضتُ الإزعاج على أرواحهم فقطعتُ عنهم قرابين الطعام وسكب الماء"[١].

ولا مانع أن نشير في الختام دون تفصيل إلى موقف قد يلامس مبحثنا عن الجسد، وهو موقف جيران سكان العراق القديم، وهم الفينيقيون في سورية القديمة؛ فقد كانوا مؤمنين أيضًا بالخلود بعد الموت، والحقيقة أن إيمانهم غريب مختلف متميز عن إيمانات غيرهم، فإيمانهم يربط الروح بالجسد حتى بعد الموت، فالروح في عقيدتهم لا تنقطع علاقتها بالجسد، فهي بعد الموت تنفصل عنه وتهيم على وجهها تائهة بائسة، ولكنها تبقى مرتبطة بالجسد وفق تصورات معينة، تظهر من خلال ما وجد في آثارهم، فقد كانوا يهتمون اهتماما بالغًا بحفظ الجثث وأجساد الموتى[٢]، بشكل لا نجد له مثيلا عند البابليين والسومريين وغيرهم في العراق القديم.

والحقيقة المهمة جدًا بعد أن انتهينا، هي أننا لو تأملنا كلَّ ما ورد في المباحث الثلاثة السابقة، لوجدنا أن جميع معتقدات الحضارات الرافدية المذكورة حول الموت وطقوسه وما بعده، ليست إلا امتدادات لما كان سائدًا في العراق منذ العصر الحجري المعدني السابق للعصور التاريخية.

ففي عصر (حضارة العبيد) الموغلة في القدم جدًا، والسابقة لحضارة الوركاء وحضارة جمدة نصر، وغيرهما من حضارات عصور ما قبل التدوين والكتابة، نجد أن الناس في نهاية عصر حضارة العبيد، كانوا يؤمنون ويعتنقون غالب الأفكار التي وجدناها عند السومريين والبابليين والآشوريين وغيرهم في المباحث السابقة حول الموت والخلود. فقد عُثر في "تبة جاورا" على الكثير من المقابر، ويُلاحظ أن الموتى كانوا يُدفنون أسفل أرضيات المنازل أو بجوار الأبنية الدينية، كما دفن بعض الكبار في مقبرة خارج حدود القرية، أما الأفراد البارزون في المجتمع فقد دفنوا ضمن قبور مبنية بعناية داخل الأبنية السكنية، ولقد كشف عن أكثر من ثمانين قبرًا من هذه القبور التي شيّدت من

[١]- أنظر: نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، مرجع سابق، ص ١١٦.
[٢]- أنظر: محمد سليمان حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، منشورات دار علاء الدين، ص ١١٢.

الحجارة أو الطين اللبن، وسُقفتْ بألواح خشبية أو صفائح حجرية، واحتوى كلُّ قبرٍ على جسد ميّت واحدٍ مدفون في وضع مثني، وكان الميت يدفن بملابسه الكاملة، وكان يغطّى أحياناً أو يُلف بحصير من القصب، وقد عثر في هذه المقابر على الحلى الشخصية الخاصة بالموتى.. ويستدل من كل ذلك على وجود عقيدة لديهم في الحياة الآخرة، وأنهم قد اعتقدوا في (البعث والخلود)، مما يشير إلى التطور الفكري الذي وصل إليه الإنسان العراقي القديم عند نهاية عصر حضارة العبيد، ممّا مهد للنقلة الحضارية التالية في العراق القديم والتي تعرف باسم عصر حضارة الوركاء[١].

كما وُجدتْ في مقابر (حضارة حلف) السابقة لها، إشارات إلى إيمانهم بالعالم الآخر، بالإضافة إلى تشابهات في طقوس الموت مع غيرهم في العراق القديم، حيث كانوا يدفنون الميت على جنبه الأيمن في وضع مقرفص ويتجه رأسه إلى الغرب، وتوضع مع المتوفى احتياجاته الأساسية من الأواني الفخارية والأواني الحجرية الصغيرة، وحبات العقود من المرمر، ودلايات من الحجر المزينة بصور الطيور والحيوانات.. ونجد أيضًا في (عصر حضارة العبيد) السالفة الذكر منطقة أخرى تسمّى "جبانة أريدو" فيها ألف مقبرة يشترك الكثير منها في أن الدفنات توضع في توابيت من الفخار، كما وجد في كثير من المدافن الجماعية في تلك المنطقة دلائل مختلفة، منها الأواني الخاصة بالميت، حيث كان يدفن معه (فنجان وطبق) مما يرجح أنهما كانا خاصين بأكله وشربه، وهذا قد يعبّر عن إيمانهم بالعالم الآخر[٢].

---

[١]- أنظر: أ.د. أحمد أمين سليم، تاريخ العراق –إيران- آسيا الصغرى، دار المعرفة الجامعية -الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص١٣٧.

[٢]- أنظر: د. أحمد أمين سليم، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم: مصر. العراق. إيران، دار النهضة العربية – بيروت، ١٩٨٩م، الصفحات ٢٣١-٢٣٢-٢٣٨-٢٣٩.

الفصل الرابع:

الخلود في الديانة المصرية القديمة:

المبحث الأول:

لمحة عامة عن الفلسفة الدينية في مصر القديمة.

إن قدم الديانة المصرية يحتم علينا النظر إليها باعتبارها من أهم محطات البدايات الأولى لانطلاق كثير من الأفكار والمعتقدات الإنسانية، وهذا ما جعلها تؤثر على الأديان والعقائد والحضارات والثقافات الكثيرة التالية لها في مختلف أصقاع الأرض.

ومن هنا قالوا بصياغات متعددة إن تواريخ كثير من المجتمعات مرتبطة بتاريخ أم الدنيا مصر، ومن ذلك مثلا: "إن مصر هي -باعتراف طائفة كبيرة من المؤرخين- التي اخترعت الحضارة، فتاريخ مصر هو تاريخ الدنيا، تاريخ الحضارة القديمة التي أخرجت الإنسان من العصر الحجري وجمع الطعام والترحل في الغابات والبراري إلى عصر الزراعة واستنتاج الطعام والإقامة في المنازل وإنشاء الأسر والحكومات، فنحن عندما ندرس تاريخها نعرف كيف نشأ الطب، وما العلاقة بين تحنيط الجثة وبين توبلة الطعام؟ ولماذا أجمعت الأمم على الإكبار من شأن الذهب؟ وكيف نشأت الملوكية وطبقات الأشراف، وما الذى بعث على التجارة بين الأمم؟ ولماذا تسمى الكيمياء الآن باسم مصر القديم؟ ولماذا أخذ الأوربيون التقويم المصري؟ بل لماذا تقدّس البقرة في الهند الآن، فهذه البقرة هي معبودة المصريين القدماء (هاتور) التي يعرف اسمها كل فلاح مصري. ويلاحظ أن بناء السفن هو صناعة مصرية قديمة قد نقحت، ولكن أصولها المصرية لا تزال واضحة. والعالم كله أو معظمه يدفن موتاه ويكفنهم ويبنى لهم القبور على العقائد المصرية القديمة. أما السياسة والاجتماع فإنها جميعا تعود في الأصول والأسس إلى مصر القديمة؛ لأن الحضارة اختراع مصري قديم"[1].

وقبل الأسر الأولى التي عاشتْ في الأزمنة التاريخية. كانت ثقافة ذلك العهد المصري -القديم جدًا- ثقافة وسطاً بين الصيد والزراعة، بدأت منذ قليل باستبدال الأدوات المعدنية بالحجرية. وكان الناس في أيامها يصنعون القوارب، ويطحنون الحب، وينسجون الكتان والبسط، ويتحلون بالحلي، ويتعطرون بالعطور، لهم حلاَّقون وحيوانات مستأنسة، وكانوا يحبون التصوير وبخاصة تصوير ما يصيدون من الحيوان، وكانوا يرسمون على خزفهم الساذج صور النساء الحزانى وصورًا أخرى تمثل الحيوانات والآدميين، وأشكالاً هندسية، وينحتون آلات غاية في الدقة والأناقة يشهد بها سكين جبل الأراك. وكانت لهم كتابة مصورة وأختام أسطوانية شبيهة بأختام السومريين. وقد بدأ سكان وادي النيل من ذلك العهد السحيق أعمال الري وقطعوا الأدغال، وجففوا المستنقعات، وتغلبوا على تماسيح النهر وأفراسه، ووضعوا أسس الحضارة على مهل[2].

وما من أحد يعرف بدقة أصل هؤلاء القوم، ولا من أين جاء المصريون الأولون. ويميل بعض العلماء الباحثين إلى الرأي القائل بأنهم مولودون من النوبيين والأحباش واللوبيين من جهة، ومن المهاجرين من الساميين والأرمن من جهة أخرى، فالأرض حتى في ذلك العهد السحيق لم تكن تسكنها سلالات نقية. ويرجح أن الغزاة أو المهاجرين الذين وفدوا من غرب آسيا قد جاءوا معهم بثقافة أرقى من ثقافة أهل البلاد، وأن تزاوجهم مع هؤلاء الأهلين الأقوياء قد أنجب سلالة هجينة

---

[1]- سلامة موسى، مصر أصل الحضارة، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، نسخة pdf بلا طبعة ولا تاريخ، الصفحات ٩- ١٢ -٢٧. بتصرّف يسير.

[2]- أنظر: وِلْ ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج٢، ص ص ٦٤-٦٥.

كانت مطلع حضارة جديدة كما هو الشأن في جميع الحضارات. وأخذت هذه السلالات تمتزج امتزاجًا بطيئاً حتى تألف من امتزاجها فيما بين عام ٤٠٠٠، و ٣٠٠٠ ق.م شعب واحد هو الشعب الذي أوجد مصر التاريخية[١].

وقبل أن يحل عام ٤٠٠٠ ق. م كان هؤلاء الأقوام الذين يقيمون على ضفاف النيل قد أنشئوا لهم حكومة من نوع ما. فقد انقسم الأهلون المقيمون على شاطئ النهر أقساما ينتسب سكان كل قسم منها إلى أصل واحد. وكان لهم شعار واحد، ويخضعون لرئيس واحد، ويعبدون إلهاً واحد بمراسم وطقوس واحدة[٢].

وقبل أن نتعمق في الديانة أو الفلسفة الدينية المصرية القديمة، يحسن بنا أن نعرّج على عجل على بعض النواحي المتفرقة، فإذا بدأنا بالأسرة والمجتمع، فسنلاحظ أن مجتمعهم كان يشجع على الزواج المبكر ومن ذلك مثلا قول حكيمهم "بتاح" وزير الملك التاسع من الأسرة الخامسة، وهو ينصح ابنه: "إذا أصبحت رشيدًا فأسس لنفسك بيتًا، واتخذ لنفسك زوجة، وأحبب زوجتك في حدود العرف، أو عاملها بما يستحق". وكذلك قول حكيمهم الآخر: "اتخذ لنفسك زوجة حين تبلغ العشرين، حتى يتأتى لك الخلف وأنت في معية الشباب". كما كان مجتمعهم يتحفظ على العلاقة بين الفتى والفتاة قبل الزواج، ولذلك يبكرون جدًا في الزواج، ففي كثير من الأحيان يتزوج الشاب وهو في سن الخامسة عشرة، والفتاة في سن الثانية عشرة. وحددت بعض مصادرهم سن زواج الفتى بعشرين عامًا، وسن الفتاة بالرابعة عشرة. وكانت عقود الزواج تتم مشافهة في البداية بين كبار الأسرتين، ثم تطورتْ إلى نصوص مكتوبة. وفي ليلة الزفاف كانت تنحر الذبائح للولائم وتعزف الموسيقى ويمرحون ويلهون. وألزموا الزوج بواجبات يلخصها قول الحكيم "بتاح" لابنه: "أشبع جوفها واستر ظهرها، وعطر بشرتها بالدهان، واسعد فؤادها طيلة حياتك، فهي حقل مثمر لسيدها". وأما الزوجة فكانت مهامها متعلقة بالمنزل وإدارته، من إعداد الطعام وغسل الملابس وما شابه. وكان تعدد الزواج عندهم معروفاً وموجودًا، خاصة للضرورات، كأن تكون المرأة مريضة أو عاجزة عن الإنجاب وما شابه، بالإضافة إلى حرصهم على التعدد في حالة الحرب، حين يكثر الأرامل من النساء. وقد عبّرت كثير من حكمهم ووصاياهم على أن السعادة مرتبطة بكثرة إنجاب الأطفال[٣].

وبالنسبة للقانون والأخلاق، فقد كانت القوانين المدنية والجنائية غاية في الرقي، كما كانت القوانين الملكية والميراث من أيام الأسرة الخامسة قوانين مفصلة دقيقة. وكان الناس جميعًا متساوين مساواة تامة أمام القانون. وأقدم وثيقة قانونية في العالم كله عريضة دعوى مصرية قديمة، محفوظة الآن في المتحف البريطاني تعرض على المحكمة قضية من قضايا الميراث المعقدة. وكان القضاة يطلبون أن يُترافع في القضايا، وأن يرد على حجج المترافعين، وأن يناقش أصحابها ويحاجون، على ألا يكون ذلك كله خطبًا تلقى بل مذكرات مكتوبة تقدم للقضاة- وهو نظام لا يقل في شأنه عن نظام التقاضي المعقد في هذه الأيام. وكان الحانث في يمينه يعاقب بالإعدام. وكان للمصريين محاكم منظمة مختلفة الدرجات، وكانوا يلجؤون إلى التعذيب في بعض الأحيان لحمل المجرم على الاعتراف بالحق. وكان الضرب بالعصا من أنواع العقاب الشائعة، وكانوا يلجؤون في بعض الأحيان إلى عقاب المذنب بجدع أنفه أو قطع يده أو لسانه، أو نفيه إلى أقاليم المناجم، أو إعدامه بالشنق، أو بقطع رأسه أو بإحراقه مصلوبًا. وكان أشد ضروب العقاب هو تحنيط المعاقب حياً، أو إحاطته بطبقة من النطرون القارض تأكل جسمه أكلاً بطيئاً. وكان المجرمون من علية القوم يجنبون عار الإعدام علناً بأن يسمح لهم بقتل أنفسهم بأيديهم. أمّا الأخلاق، فمنها مثلا أن الملك كان يتزوج أخته، بل كان يحدث أحيانا أن

---

[١]- المرجع السابق، ص ٦٥.

[٢]- نفس المرجع السابق، ص ٦٦.

[٣]- راجع: د. أحمد أمين سليم، دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، الصفحات من ٩ إلى ٣٠. بتصرف منّي في الدمج والتنسيق.

يتزوج ابنته، ليحتفظ بالدم الملكي نقيًا خالصًا من الشوائب. وانتقلتْ عادة الزواج بالأخوات من الملوك إلى عامة الشعب.. كما أن نقوشهم تصوّر النساء يأكلن ويشربن بين الناس، ويقضين ما يحتجنه من المهام في الشوارع من غير رقيب عليهن ولا سلاح بأيديهن، ويمارسن الأعمال الصناعية والتجارية بكامل حريتهن. كما حثت حكمهم على بر الوالدين، فنجد في "بردية بولاق" تحذيرًا للطفل حيث تقول: "ينبغي لك ألا تنسى أمك فقد حملتك طويلا في حنايا صدرها وكنت فيها حملا ثقيلاً؛ وبعد أن أتممتَ شهورك ولدتك. ثم حملتك على كتفها ثلاث سنين طوالا وأرضعتك ثديها في فمك، وغذتك، ولم تشمئز من قذارتك. ولمّا دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف في كل يوم إلى جانب معلمك ومعها الخبز والجعة جاءت بهما من البيت"[١].

وإذا انتقلنا إلى السياسة، فالملك كان صاحب السلطة العليا في البلاد، وهو مصدر السلطات جميعًا، وقصره المحور الذي تدور حوله كل شؤون الدولة، وكان يستعين بمن يتوسم فيهم القدرة والإخلاص من بين المحيطين به، ولا يتأتى له أو لهؤلاء أن يهيمنوا على كل صغيرة وكبيرة في جميع أنحاء البلاد إلا إذا كان لهم أعوان يشرفون على مختلف الشؤون في أقصى البلاد ودانيها. ومن البديهي أن كلَّ بقعة من البلاد كانت تخضع لنفوذ أقوى الرجال فيها، وهؤلاء بدورهم يخضعون لنفوذ أقوى رجال الإقليم الذي يتضمن بقعتهم وهكذا، مما أدى إلى ظهور عدد من الموسرين ذوي النفوذ في مختلف الأنحاء، وانقسمت مصر منذ عصور سحيقة إلى "٤٢" إقليمًا: عشرين منها في الشمال، "٢٢" في الجنوب، ونظرًا لأن الملك كان من الناحية النظرية على الأقل يمتلك البلاد جميعها؛ فإنه كان يمنح إمارة الأقاليم إلى المقربين من رجاله، ولو أن الكثيرين كانوا من المنعة والنفوذ بحيث لا يمكن إحلال غيرهم في مكانهم؛ إلا أن هذا التقليد ظل متبعًا واستمرتْ إدارة الأقاليم تعد منحة من الملك، ولا شك في أن بعض ذوي الحظوة استطاعوا أن يُمنحوا إمارة الأقاليم التي كان يتولاها آباؤهم، وما لبثت هذه أن أصبحت عادة تنتقل في أسرات معينة استقرت في أقاليمها وعملت على زيادة نفوذها حتى أصبح حاكم الإقليم يعتبر نفسه سيدًا مستقلاً في إقليمه، ولكن الجميع في النهاية يرجعون إلى الملك وسلطته الأعلى[٢].

وتجدر الإشارة إلى موضوع (التأثير على الآداب والفنون والثقافات) فالحقيقة هي أن قدماء المصريين أثروا في آداب وفنون وعادات الدنيا بأسرها، فالإلياذة الإغريقية المعروفة أشهر مثال، حيث كتب عنها الأستاذ عبد القادر حمزة بضع مقالات أثبت فيها أن جميع الأساطير التي ذكرها هوميروس في ملحمته ترجع إلى قصص مصرية قديمة نقلها الإغريق عن مصر، وواضح أن الإغريق لم يختصوا بنقل هذه القصص إذ إن أممًا أخرى نقلتها بنصها أو حرَّفتها لكي تلائم البيئة الجديدة، فإذا قلنا إن الإلياذة أساس الأدب الإغريقي جاز لنا أن نقول إن هذا الأدب يقوم على أصل مصري. كما أن الأستاذ "برستد" -الذي كان مهتمًا بدراسة مثل هذه المواضيع- أثبتَ أن الفن الإغريقي القديم إنما نهض على الأسس التي وضعها المصريون القدماء، وحسب الإنسان أن ينظر إلى الصور التي وضعها للمقابلة بين العمود المصري والعمود الإغريقي، وبين التمثال الإغريقي الأول وتماثيل المصريين القدماء لكي يعترف بأن الفن الإغريقي القديم مقترض من مصر. وبدهي أن الإغريق الذين نقلوا قصص مصر وفنونها قد نقلوا أيضًا أشياء أخرى في الدين والأسرة والزواج والزراعة والحكومة[٣].

والمصريون القدماء من أوائل من عرف الكتابة في تاريخ الإنسانية كلّها، واللغة المصرية القديمة كانت تكتب في أول الأمر برموز تمثل كائنات أو أجزاءً من كائنات في صور واقعية، وقد أطلق عليها اليونانيون اسم الهيروغليفية أي: الكتابة المقدسة؛ وذلك لأنها كانت مدونة على جدران المعابد

---

[١]- وِلْ ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج٢، الصفحات ٩٥-٩٦-٩٧.
[٢]- أنظر: محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ص ٥٨-٥٩.
[٣]- سلامة موسى، مصر أصل الحضارة، مرجع سابق، ص ٢٦.

والنصب التذكارية طيلة العصور الفرعونية، مع وجود اختلافات في مدلولاتها أحيانًا، ولم تستعمل هذه الكتابة وحدها؛ بل صاحبتها كتابة أخرى مختصرة عنها عرفها اليونانيون باسم الهيراطيقية أي: الكتابة الكهنوتية نظرًا لأنهم اعتقدوا أن الكهنة وحدهم هم الذين كانوا يعرفونها، وربما كان سبب ذلك أن المدارس في مصر القديمة كانت عادة تلحق بالمعابد. ولما تعددتْ مطالب الحياة وازداد نشاط التعامل بين الأفراد ظهرت كتابة ثالثة أشد اختصارًا هي الكتابة الديموطيقية "أي: الكتابة الشعبية". ويمكننا أن نشبه -مع الفارق- هذه الكتابة بخطوط اللغة العربية فالهيروغليفية تقابل الخط المثلث، وغيره من خطوط الزخرفة، والهيراطيقية تقابل خط النسخ، والديموطيقية تقابل خط الرقعة. والكتابة المصرية في نشأتها تشبه نشأة الكتابة في بلاد النهرين ولا يستبعد وجود علاقة بينهما، حيث تشتركان في بعض مدلولات الصور التي تعبر عن كائنات واحدة في كل من الكتابتين؛ مع وجود فرق بينهما وهو أن الكتابة في بلاد النهرين -نظرًا لاستخدام قلم مدبب- أخذت تبتعد سريعًا عن أن تبين صورًا يمكن التعرف عليها؛ بينما ظلت الكتابة المصرية في هيئة صور لكائنات معروفة[١].

أمّا إذا أردنا التعمق في **(الديانة أو الفلسفة الدينية)** في مصر القديمة، فتجدر الإشارة إلى نقطة لابد من التأكيد عليها وبكل قوة هنا، وهي أن أرضَ ديانة الفراعنة أرضٌ عسيرة مخيفة وعرة غير ممهدة للباحثين، حيث تشابكتْ وتعاركتْ واختلطتْ فوقها الأساطير الشعبية والرؤى الفلسفية والعقائد، ولذلك تعب الباحثون والمهتمون في سبيل تحديد معتقداتهم بوضوح حول كثير من المسائل.. والحقيقة أني قضيتُ عددًا من الأسابيع في التأمل والتمحيص الدقيقين لعشرات المراجع؛ ولكني للأسف لم أصل إلا لما وصل له الكثيرون قبلي، وهو أن في عقائد المصريين القدامى من التناقضات والتداخلات والخلط واللبس الكثير الكثير، فهناك امتزاج رهيب في عقائدهم وتفاوت بيّن يصل إلى درجة التصادم والتنافر حول كثير من المفاهيم.

ويشير بعض الباحثين إلى أسباب كثيرة لهذه الفوضى العقائدية إن صح التعبير، أبرزها طول مدة العصر الفرعوني الذي يختلف كتاب المصادر في تحديد عدد سنواته، فمنهم من يرى أنها أكثر من ٣٠٠٠ سنة ومنهم من يرى أنها أكثر من ٤٠٠٠ سنة، ومنهم من يرى أنها أكثر من ذلك بكثير، وهذا ما ترجح لي[٢].

فهذه الفترة الزمنية الطويلة حصل فيها اختلاط كبير للشعوب، ساهم بقوة في تلك التداخلات العقائدية. وبناء على هذه الفوضى والامتزاج الكبيرين يتفق الكثيرون على صعوبة تكوين صورة دقيقة عامة لديانة متسقة ومنطقية لمصر القديمة كلها، إلا أننا نجد بعض الملامح التي قد يصح وصفها بالأكثر عمومية أو شمولية.

وعلى رأس ذلك يأتي موضوع الآلهة، فالإنسان المصري القديم الذي تحيط به مظاهر الطبيعة، ويتوقف عليها ذاته، قد تصوّر حوله قوى إلهية تقطن العناصر الكونية: الأرض، والسماء، والأثير، وفيضان النيل، والشمس، والقمر، وغيرها.. فهذه القوى التي تجسدتْ في هيئات بشرية بلورتْ العديد من الآلهة الكونية ذات الأهمية العامة للجميع، إلى الحد الذي فقدتْ معه هذه الآلهة ارتباطها في أصولها بأي إقليم محدد أو مدينة معينة، فهي موجودة في كل مكان، ولذلك لم تكن هناك حاجة بشكل منظم لعقيدة لها أو معبد محلي محدد بعينه.. وخلاصة عقيدتهم أن الآلهة خلقت العالم، وبالنسبة لكل إله في مدينته الرئيسية تخيّل البشرُ أساليبَ متنوعة لإنجاز عملية الخلق على خير وجه.. لقد نظمت الآلهة الكون، وكان المصريون مرهفو المشاعر والحس، ومولعون بالصور الأسطورية الجميلة، فأكثروا إذ ذاك من المناظر الخيالية التي تهدف إلى تفسير تشكيل العالم وموقع الأشياء. كما كان

---

[١]- محمد عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ص ٨٦-٨٧.

[٢]- أنظر: الحقبة الفرعونية، الهيئة العامة المصرية للاستعلامات، حيث رجحت الهيئة أن العصر الفرعوني يبدأ من عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد حتى دخول الإسكندر الأكبر مصر عام ٣٢٣ قبل الميلاد.

المصري القديم إنساناً شديد التقوى، فنظم الأناشيد معبراً للآلهة، في صورة شعرية، عن امتنانه وعبادته، وقد ترك هذا الشعر المقدس الغزير أثرًا مؤكدًا على الآداب اللاحقة الكلاسيكية القديمة واليهودية والمسيحية[١].

ومما سبق يتضح **(تعدد المعبودات)** عند المصريين الأوائل، فقد ارجعَ قدماء المصريين كل ظاهرة حسية جزئية تؤثر في حياتهم إلى قدرة علوية أو علة خفية تحرّكها وتتحكم فيها وتستحق التقديس من أجلها، ونتج عن ذلك كثرة العلل والقوى الربانية التي قدّسوها، كالمتكفلة بالرياح والأمطار وظواهر السماء، وبجريان النيل وتعاقب الفيضانات، وتجدد خصوبة الأرض ونمو النبات...الخ، وكالمتسببة أيضاً فيما تميّزوا به من مميزات بيئية أو حضارية، كمزايا التبكير بالكتابة والحساب والحكمة والفنون وما يشبهها من آيات أكبروها فردوا خلقها ورعايتها إلى قدرات سامية فاقت قدرات البشر. ولأن هذه القوى خفية يحس الناس بآثارها وفاعلياتها ولكنهم لا يرون هيئاتها، ربط المتدينون منهم بين تصوراتهم العقائدية الذهنية وعلامات كثيرة من عالم الواقع والمحسوسات، بروابط الأسباب والنتائج. فرمزوا إلى كل قوة عليا وعلة خفية تخيلوها برمز حسّى يُعبّر عن سرٍ من أسرارها ويحمل صفة من صفاتها. والتمسوا أغلب رموزهم تلك فيما عمر بيئتهم من كائنات وأشياء وحيوانات وطيور وأشجار وزواحف لاحظوا أنها مصدر لخيرات أو لشرور، وهو الأمر الذى لم يكن يخلو من إعجاز في نطاق تصوراتهم القديمة المبكرة قليلة التجارب ومحدودة الآفاق. فبوحي هذه التصوّرات رمزوا -مثلا- بحيوية الكبش الطلوق إلى بعض أرباب الإخصاب الطبيعي والنوعي، ورمزوا بقوة الفحل إلى شيء من ذلك وإلى مصدر قوة البأس في مجملها، ورمزوا بنفع البقرة ووداعتها إلى حنان ربة السماء وأمومتها، ورمزوا بقسوة السباع واللبؤات والذئاب إلى أرباب الحرب ورباتها، ورمزوا بفراسة القرد واتزان طائر أبي منجل إلى إله الحكمة.. وهكذا. فقد جسدوا صفات الأرباب في كائنات حسية كانوا يتعاملون معها في دنياهم. كما ارتبطت رغباتهم ورهبتهم وخيالاتهم بذلك. كالرغبة في استمرار النفع والاستزادة من الخير من أجناس معينة من الحيوان والطير والشجر عن طريق تقديس القوى الخفية التي تخيلوها تتولى أمرها وتوجهها لغاياتها. وكرهبة الخوف، ورهبة العجب، ورهبة الاستعظام، التي كانوا يستشعرونها أمام نوعيات معينة أيضًا من الحيوانات والطيور والزواحف، وبالتالي تجاه القوى الخفية التي أوجدتها وزكت فيها قدراتها. وأخيرًا عامل الخيال الديني المتمثل في إيمان عامة الناس بالمعجزات والكرامات وحرفية الأساطير. والحقيقة أنهم لم يقدسوا حيواناً لذاته، ولم يقروا تماماً لأربابهم بالتجسد المادي في هيئة حيوان أو طير، وإنما كان اهتمام المثقفين منهم بما تخيروه من هيئات الحيوان والطير يستهدف رغبتين، وهما: رغبة الرمز إلى صفات إله خفي ببعض المخلوقات الظاهرة التي تحمل صفة من صفاته أو آية من آياته، ثم رغبة التقرب إليه عن طريق الرعاية التي يقدمونها ضمناً لما رمزوا به إليه من مخلوقاته[٢].

ورغم هذا التعدد في المعبودات، إلا أننا نجد أن فكرة **(التوحيد)** وُجدتْ أيضًا في مصر القديمة، حيث ظلت فكرة الوحدانية تراود أذهان كبار المفكرين المصريين من حين إلى حين. فقد بدأت لديهم على صورة الإيمان بوحدة الخالق، ثم انتقلوا بها إلى الاعتقاد بوحدة الربوبية، وأرهصوا بعدها بما يشبه عقائد الحلول والتشبيه. ثم انتهوا أخيراً إلى الإيمان بوحدة المعبود. وإذا اردنا التفصيل فسنجد

---

[١]- د. جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، دار الآفاق العربية – القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ص ٧٦.

[٢]- راجع: د. عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم مصر والعراق، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢٠١٢م، الصفحات ٤٧٥-٤٧٦-٤٧٧.

الاعتراف بوحدة الإله الخالق قائمة في مذهبي عين شمس ومنف القديمين لتفسير نشأة الوجود، حين رد أصحاب كل مذهب منهما الوجود بطبيعته وأربابه وناسه وبقية كائناته، إلى خالق واحد دعوه في عين شمس باسم "توم"، بمعنى الأتم المتناهي، ودعوه في منف باسم "بتاح" ربما بمعنى الصانع أو الفتاح أو الخلاق. وكان في اقترابهم من هذه الفكرة -فكرة وحدة الربوبية- ما جعلهم قريبين من الاعتراف بوحدة الخلق في الوقت نفسه، فقال قائلهم وهو يسبح ربه الخالق القديم: "أتوم" الذي غدا صورة لإله الشمس، فيقول: "أتوم، خلقت البشر جميعًا، ونوّعت هيئاتهم.. ووهبتْ الحياة لهم جميعًا، وفـرَّقتْ بين ألوانهم يا سميعًا لرجاء الأسير، يا لطيفاً بمن دعاه". وهكذا آمن كبار القوم بخفاء جوهر ربهم، وتفرده بقدرته العليا، واطمأنوا إلى وجوده في كلّ الوجود وإلى رعايته لكل من في الوجود. ولكنهم لم يكتفوا له باسم واحد، ولم ينزهوه تمامًا عن التشبيه، ولم ينكروا **(تعدد المعبودات)** إلى جانبه. فوصفوه فردًا وكبيرًا لجماعة الأرباب في آن واحد، ونزهوه عن المادية وتخيلوا له صورًا كثيرة في آن واحد[١].

والجماعات الأولى من المصريين القدامى وجدتْ أن بعض الكائنات لها قدرة خارقة كالقدرة على الخلق أو الثبوت والدوام أو القضاء على غيرها من كائنات فقدّسوها؛ فرأتْ إحدى الجماعات أن الثور مثلًا قادرٌ على الإخصاب وإنتاج الذرية فقدّسوه، كما وجدتْ جماعة أخرى أن نوعًا من الأشجار له صفه الثبوت والاستقرار؛ فقدسوا هذا النوع من الشجر ورأت جماعة ثالثة بأن اللَّبُؤة تمثل البطش والقوة فقدسوها وهكذا. ثم انتقلوا من تمثيل المعبودات المحلية في صورة الحيوان أو بعض الكائنات الأخرى إلى تمثيلها في صورة إنسانية، وهذا تطور كبير لم يصل إليه المصري إلا بعد أن بلغ مرحلة معينة من الحضارة، فبداية تحكم الإنسان وسيطرته على الحيوان والعالم المادي من حوله من جهة وبداية التقليل من شأن القوة الجسمانية من جهة أخرى جعل الإنسان يقدر ما للبشر من مزايا فتخيل آلهته في صورة إنسانية؛ ولكنه للتمييز بينها صار يصوّرها على هيئة الإنسان برأس يمثل رأس المعبود الأصلي أو برأس أضيفت إليه علامة مميزة لذلك المعبود، فمثلًا صوروا الإله أمون في هيئة آدمية برأس كبش، وصوّروا الإلهة حتحور برأس آدمية ولها قرون بقرة وهكذا. وبالطبع كان تمثيل الآلهة في هذه الهيئة الإنسانية ممّا ساعد على التفكير بأن هذه الآلهة لها من المشاعر ما يحاكي مشاعر البشر من حب وبغض، وأن هذه الآلهة تحمي وتعطي وتعاقب وتأخذ وهكذا مما لا يمكن التعبير عنه عند الحيوان أو الجماد. ومن جهة أخرى أعطيت لهذه الآلهة صفات تتعلق بالإنتاج والتناسل وبالخلق والموت ودفن الموتى ... إلخ. وكانت بعض الآلهة من الذكور وبعضها من الإناث؛ وكذلك أعطيت الآلهة بعض المهام والأعمال الخاصة التي ظن المصريُّ أنها تقوم بها؛ فضلًا عن صفاتها الأصلية، فمثلًا كان الإله "خنوم" فضلًا عن اعتباره الإله الذي يصوّر الأجنة في الأرحام أو الإله الخالق، كان يعتبر كذلك إله الماء النقي أو إله منابع النيل، وكان أبو منجل رمز إله القمر تحوت يعد كذلك الإله العالم وكاتب الآلهة. وقد تطورت الديانة من وقت لآخر، وظهرت معتقدات جديدة ولكن لم تختفِ المعبودات القديمة، وكانت النتيجة أن تعقدت الديانة المصرية تعقيدًا شديدًا لاشتراك كثير من الآلهة في صفات واحدة وإن اختلفت مدلولاتها. وكان المصريُّ مسالِمًا بطبعه وقد أثر ذلك في ديانته؛ فلم تتسم آلهته بصفات العنف أو حب سفك الدماء كما هو الحال بين آلهة الممالك الأخرى[٢].

وسنشير بضغط مركز إلى عدد من أشهر المعبودات في مصر القديمة، فالإله "أوزير" كان من أشهر المعبودات في مصر، وقد ربط المصريون بينه وبين كل التطورات التي تحدث على الأرض، خاصة المؤثرة في إنتاجهم الزراعي، فعندما يأتي الفيضان فإن أوزير باعتقادهم هو الماء الجديد الذي يحيي حقولهم، وإذا جف النبات اعتقدوا أن أوزير مات، ولكن موته ليس أبديًا إذ يعود من جديد

---

[١]- د. عبدالعزيز صالح، المرجع السابق، ص ص ٤٨١-٤٨٢.

[٢]- محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ص ٦٥-٦٦. بتصرّف.

في العام التالي، ومن هنا تطورتْ الفكرة فصار أوزير إلهًا للموتى وسيدًا لهم. مع الانتباه إلى أن البعض اعتبر أوزير إلهًا سوريًا لا مصريًا في أصله وأن أتباعه الأصليين جاءوا من سوريا ووحدوا إلههم مع معبودات مصرية. وقد عُبد "أوزير" في كلّ أنحاء مصر القديمة فهو الأشهر، وتمّتْ عبادته في ثالوث يتكون منه أولا، ومن زوجته "إيزه" التي اشتهرت بأنها رمز للإخلاص للزوج ورعاية الابن ثانيًا، وابنه الإله "حور" ثالثاً. وقد بنى المصريون لأوزير معبدًا كبيرًا ولابنه حور عددًا من المعابد. ومن أشهر آلهتهم أيضًا الإله "رع"، ويعني اسمه (الشمس) وقد قامت الشمس بدور كبير في الفكر الديني المصري القديم، خاصة بتأثير سطوعها على الإنتاج الزراعي، ولذلك رمزوا لـ"رع" بقرص الشمس، فصوّروه بصور مختلفة أشهرها القرص على القارب، وكذلك على صورة رجل متوجة رأسه بقرص الشمس التي أحيطت بالحية التي تنفث النيران على أعدائه. وقد أشارت الأدلة الأثرية على أن عبادة الشمس سادت بينهم بلا شك، وخاصة في الأسر الأولى. وقد بنيت في مصر القديمة معابد شمسية كثيرة، تمتاز بوجود المذابح فيها، وبأنها مكشوفة ومختلفة في عمرانها عن بقية معابدهم... ومن آلهتهم الشهيرة أيضًا الإله "ست" الذي اشتهر بأنه (إله الشر) وقد كان مريب الشكل، حيث صوّروه بحيوانات غريبة تقل شبيهاتها بينهم، وأشهرها صورة كلب مرفوع الذيل، وكذلك صورة الثور البري، وصورة حيوان غريب آخر اسمه (الاوكالى) من فصيلة الزرافة ويشبه الغزال. كما عبد الإله "ست" بصور حيوانات أخرى أبرزها الجحش، والتمساح، والوعل، والسمكة، والثعبان، وعجل البحر، والسلحفاة... ومن آلهتهم أيضًا "بتاح" وكان من أوائل الآلهة التي ظهرت في هيئة بشرية وظل كذلك حتى نهاية التاريخ المصري القديم. وقد اشتهر بتاح بأنه الإله الحامي للفنون والصناعات.. ومن آلهتهم "تحوت" الذي نسبوا إليه أصول الحكمة والحساب، واعتبروه (كاتب الآلهة) والقاضي بين الآلهة في منازعاتها كما أنه هو الذي يشيّد المدن ويبنيها.. ومن آلهتهم أيضا الإله "انوبيس" الذي اعتبره المصريون حاميًا للجبانة وربًا للموتى.. ومن آلهتهم "خنوم" الذي اعتقدوا أنه إله خالق منذ البداية، خلق نفسه من نفسه، وخلق الأرض ورفع السماء على أربعة أعمدة، وخلق كلَّ الكائنات الموجودة والتي ستوجد، وهو أيضًا خالق الآلهة، والبشر الذين شكلهم من الصلصال على عجلة الفخار... ومن آلهتهم الإله "حتحور" والإله "آمون" والإله "نخبت" والإله "وادجيت" والإله "سشات" وغيرهم الكثير[1].

أمّا الأخلاق فلا نجد في الفلسفة المصرية القديمة إلا الشيء القليل عنها؛ ذلك أن الكهنة قد صرفوا كلَّ همهم إلى بيع الرقى، وغمغمة العزائم، وأداء المراسيم والطقوس السحرية، فلم يجدوا متسعًا من الوقت لتعليم الناس المبادئ الخلقية. بل إن كتاب قصة الموتى نفسه ليعلم المؤمنين أن الرقى التي باركها الكهنة تتغلب على جميع ما عساه أن يعترض روح الميت من صعاب في طريقها إلى دار السلام [2]؛ كما سنعلم في مباحثنا القادمة.

ومن ذلك القليل حول (فلسفة الأخلاق) يحسن بنا أن نشير -كنموذج- إلى كتاب (بتاح حوتب) فبتاح هذا كان حاكمًا على "منف" وكبير وزراء الملك في أيام الأسرة الخامسة. فلما اعتزل منصبه قرر أن يترك لولده كتابًا يحتوي على الحكمة الخالدة. يقول الوزير في كتابه: "أي مولاي الأمير، إن الحياة تقترب من آخرها، ولقد حلَّ بي الضعف وعدت إلى مرحلة الطفولة الثانية؛ والمسن يلاقي البؤس في كل يوم من أيامه. فعيناه صغيرتان، وأذناه لا تستمعان؛ ونشاطه يقل، وقلبه لا يعرف الراحة ... فمر خادمك إذن أن يخلع سلطاني الواسع على ولدي. واسمح لي أن أحدثه بألفاظ الذين يستمعون إلى رجال الأيام الغابرة، أولئك الذين استمعوا إلى الآلهة في يوم من الأيام. أتوسل إليك أن تسمح بأن يفعل هذا. ويتفضل جلالة الملك فيأذن له ولكنه مع ذلك ينصحه بأن يتحدث دون أن يبعث الملل في نفس سامعيه، وهي نصيحة ليست إلى الآن عديمة النفع للفلاسفة. فلما أذن له أخذ بتاح حوتب ينصح

(1)- راجع: د. أحمد أمين سليم، دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، الصفحات من ١٠٤ إلى ١٣٧. بتصرّف كبير منّي في الاختزال والدمج والصياغة والتنسيق.
(2)- وِلْ ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج٢، ص ١٦٥.

ولده بقوله: "لا تَزِهُ بنفسك لأنك عالم، بل تحدث إلى الجاهل كما تتحدث إلى الحكيم؛ لأن الحذق لا حد له، كما أن الصانع لا يبلغ حد الكمال في حذق صناعته؛ والكلام الجميل أندر من الزمرد الذي تعثر عليه بين الحصى ... فعش إذن في بيت ألطف يقبل عليك الناس طائعين يقدمون إليك الهدايا ... واحذر أن تخلق لنفسك الأعداء بأقوالك.. ولا تتخطى الحق، ولا تكرر ما قاله إنسان غيرك، أميرًا كان أو فلاحًا ليفتح به قلوب الناس، لأن ذلك بغيض إلى النفس.. وإذا أردت أن تكون حكيمًا فليولد لك ولد لتسر بذلك الآلهة، فإذا سار في سبيله مقتديًا بك، وإذا نظم أمورك على أحسن وجه، فقدّم له كلَّ الخير.. أما إذا كان عديم المبالاة، وخالف قواعد السلوك الطيب، وكان عنيفاً؛ وإذا كان كل ما يخرج من فيه هو فحش القول، فاضربه، حتى يكون حديثه صالحاً... وفضيلة الابن من أثمن الأشياء للأب، وحسن الأخلاق شيء لا ينسى قط.. وإذا كنت ذا سلطان فاسع لأن تنال الشرف عن طريق العلم ورقة الطباع.. واحذر أن تقاطع الناس، وأن تجيب عن الأقوال بحرارة، ابعد ذلك عنك، وسيطر على نفسك"[١].

أما الطقوس الدينية اليومية التي كان يمارسها الناس في جميع المعابد، فتبدأ بتطهّر الكاهن في البحيرة المقدسة القائمة بجوار المعبد، وعندما يدخل المعبد نفسه يوقد نارًا ويعد مبخرة مزودة بالفحم والبخور؛ ثم يتجه نحو تمثال الإله في المحراب الداخلي. وبعد السجود والركوع وتقديم القرابين الواجبة يجرد تمثال الإله من ثيابه، ويطهره ويزينه بثياب وشارات مناسبة. ويعقب ذلك إقامة مأدبة مقدسة قبل أن يوضع التمثال مرة أخرى في هيكله. كما توجد طقوس دينية متميزة تقام في أعياد فرعون أو أعياد الآلهة؛ ففي عيد الملك اليوبيلي المسمّى "سد" مثلا، يعاد الاحتفال الطقسي الذي تم فيه توحيد الوجهين في مصر على يد الملك مينا، ويصل الاحتفال إلى ذروته برقصة يؤديها الملك وهو يرتدي تنورة قصيرة يعلق بها من الخلف ذيل حيوان. وقد كانت المسيرة أو الموكب أو (ظهور الإله) مظهرًا ملفتا للنظر في الاحتفال بأعياد الآلهة، إذ يحمل فيه الكاهن تماثيل الآلهة إلى أماكن أخرى مقدسة كيما تزور آلهة أخرى أو تقوم بأداء دور في قصة أسطورية ترتبط بهذه الأماكن. ومن ذلك مثلا أن الإلهة "حتحور" إلهة دندرة، قامتْ بزيارة حافلة بالبهجة للإله "حوريس" إله إدفو في العصر البطلمي، والاحتفال في هذه الزيارة بالزواج المقدس بين الإلهة "حتحور" والإله "حوريس". أما العيد العظيم للإله "مين" إله الخصب، فقد ارتبطت بقوة الإنجاب عند هذا الإله بالحصاد، وبشخصية الملك، ومن المرجح أن عملية الاتحاد الجنسي بين الملك والملكة كانت جزءا من الطقوس الدينية أيضا[٢].

وبما أن الحديث وصل إلى موضوع الاتحاد الجنسي، فمن المناسب أن نشير إلى موضوع (العبادة الجنسية) في مصر القديمة، فقد كان المصريون يقدّسون المعز والعجل تقديسًا خاصًا ويعدونهما رمز القدرة الجنسية الخالقة. ولم يكونا مجرد رمزين لأوزير، بل كانا تجسيداً له. وكثيراً ما كان أوزير يُرسم بأعضاء تناسلية كبيرة بارزة دلالة على قوته العظمى؛ وكان المصريون في المواكب الدينية يحملون له نماذج بهذه الصورة، أو أخرى ذات ثلاثة قضبان. وكان النساء في بعض المناسبات يحملن مثل هذه الصور الذكرية ويحركنها تحريكا آليًا بالخيوط. والعبادة الجنسية لا تظهر فقط في الرسوم الكثيرة التي نراها في نقوش الهياكل ذات قضبان منتصبة، بل إنا فضلا عن هذا نراها كثيرًا في الرموز المصرية على هيئة صليب ذي مقبض كان يُتخذ رمزاً للاتصال الجنسي وللحياة القوية[٣].

---

[١]- وِلْ ديورَانت، قصة الحضارة، المرجع سابق، مج ١، ج٢، ص ص ١٤٩-١٥٠.

[٢]- أنظر: جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مرجع سابق، ص ص ٤٢-٤٣.

[٣]- وِلْ ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج٢، ص ص ١٥٨-١٥٩.

المبحث الثاني:

الموت وطقوسه وما يتعلّق به عند المصريين القدامى.

أول ما لفت نظري كباحث هو شدة اهتمام المصريين الأوائل بهذه المواضيع، أعني الموت وطقوسه وما يتعلق به، فقد اهتموا به إلى حد كبير قلّما نجد له مثيلا في بقية المعتقدات والديانات والحضارات القديمة، بدليل "وجود آلهة خاصة بالموت عندهم، مثل الإله خنى أمنتيو، والإله سكر، والإله أنوبيس"[1].

فلا شك أن موضوع الموت وطقوسه واسع جدًا عندهم، وسنبدأ من المرحلة الأولى، وهي مرحلة **(تجهيز جثة الميت)** والحقيقة أن المؤرخ اليوناني القديم "هيرودوت" قد أجاد في عرض مشاهداته لتجهيز الجثث في مصر القديمة، وقد وجدتُ له كلامًا مهما في عدة مصادر، اخترت منها أكثر ما يهمني هنا، وهو انتشار عادة الولولة الصاخبة يوم الوفاة، حيث كانت النساء "يلطخن الرؤوس بالطين ويجبن المدينة لاطمات خدودهن، مولولات، ويطلق الرجال شعورهم ولحاهم[2].

فكان المصريون قديمًا إذا نزلتْ بساحتهم محنة الموت يطلقون شعر الرأس واللحية، ورغم أن آل فرعون كانت زينتهم في النظافة والحلاقة، إلا أنهم حين يحزنون يصرفهم الحزن عن الزينة؛ فيرسلون شعورهم ويطلقون لحاهم، ومازال ذلك دأب كثير من خلفائهم حتى اليوم خاصة أهل قرى شمال مصر، وفي صعيدها وأقاليمها الوسطى، فالرجال من أهل الميت يهملون زينتهم ويتركون لحاهم ورؤوسهم حتى تنتهي أيام الحداد التي تبلغ (أربعين يومًا) بعد أن كانت قبل ذلك تطول فتبلغ السبعين. أمّا المرأة المصرية في عهد الفراعنة، فكانت تتجرد من زينتها الطبيعية إذا مات زوجها فتحلق شعر رأسها ولا ترسله إلا بعد مرور عام من وفاته. ولذلك لا يُستبعد أن تلك العادة وما إليها من مظاهر الحزن في مصر الحديثة بقية من تراث الماضي القديم. وقد يكون أصل ذلك كله هو الحزن على إمام شهداء السلف "أزوريس". فقد انحدرتْ عادة ذكرى أربعين الميت من أسطورة "أزوريس" إذ ترينا أن أخاه "ست" قد حقد عليه وقتله وفرّق جسده إلى أربعين جزءا، وطرح أشلاءها في أقاليم الوادي، وكان عددها في ذلك الوقت أربعين مقاطعة. وقد أقام المصريون للإله "أزوريس " بعد أن أصبح (إلهاً للموتى والاستشهاد) أربعين قبرًا لكل جزء من جسمه قبر يحج الناس إليه لنوال البركة، وبقيت هذه الأجزاء في التحنيط مدة أربعين يوما. ومنذ ذلك الحين والفراعنة يحنطون جثث موتاهم ويبقونها أربعين يومًا بعد معالجتها بمختلف أنواع العقاقير ثم يشيعونها بعد ذلك إلى مثواها الأخير باحتفال مهيب[3].

وكان قدماء المصريين يبالغون في الحذر من (مياه الفيضانات)، فكان هذا الماء أكثر شيء يخافه المصريون ويعتبرونه عدوًا للقبور بعد اللصوص والنشالين، فكانوا يتحاشون دفن الميت في البقع الرطبة ويختارون المرتفعات في أراضي الصحراء الرملية والصخرية. وكانت القبور عبارة عن حفر مستطيلة توضع الجثة فيها ويهال عليها الرمل، وكان قبر الملك بناءً ضخمًا من اللبن مستطيل الشكل داخله عدة حجرات، وعلى مرِّ الأيام ارتفعتْ هذه القبور حتى أخذتْ شكلاً هرميًا، فضلاً عن الأهرامات والمصاطب التي أخذ يقلدها عدد كبير من الحضارات، ابتدع الفراعنة شكلاً آخر من

---

[1]- د. سيد عويس، الخلود في التراث الثقافي المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع، ١٩٩٩م ، ص ٢٩.

[2]- من تحقيق عنوانه «طقوس الموت» عند الفراعنة: حفل زفاف إلى العالم الآخر، والمنشور بمجلة اليمامة السعودية المعروفة، بتاريخ ٢٦/٠٥/٢٠١٢

[3]- أنظر: د. أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت، ١٩٨٧م، ص ص ١٤٥-١٤٧.

القبور يدعى هيبو جيم (القبر الصخري) أخذت شكل البيت العادي (ساحة مكشوفة) يتلوها ممر منحوت في أصل الجبل يرتكز سقفه على عمد ثم قاعة كبيرة منحوتة أيضًا في أصل الصخر تنتهى بحجرة صغيرة يوضع فيها تمثال المتوفى. وفي عهد الدولة القديمة (عصر بناة الأهرام) أصبحت الجثة توضع على جنبها كأنها نائمة وصار رأسها يوضع على وسادة (كما هو الحال الآن، حيث يتم وضع الميت على جانبه الأيمن)، وكانت الجثة نفسها تحنط بكل عناية، ومنذ الدولة القديمة ازدادت القرابين، والدليل على ذلك الكنز الذى تم اكتشافه في بداية القرن العشرين في قبر أحد الكهنة في مدينة منف، ويرجع تاريخه إلى عام ٢١٠٠ ق.م ومحتوياته محفوظة الآن في متحف جامعة ليبزج"[١].

وقد نشرت مجلة اليمامة في تقريرها الطويل المفصّل السالف الذكر كلاماً مهما يلامس بحثي هذا بدرجة كبيرة، وقد ورد فيه قول المؤرخ اليوناني القديم هيرودت: "إن من يشاهد مقابر الفراعنة العظيمة، وأعظمها على الإطلاق هو الأهرامات أكبر مقبرة في تاريخ البشرية، يكاد يظن أن الحضارة الفرعونية "حضارة أموات"! ولهذا السبب كانت لمواكب توديع الموتى أو ما نسميه حاليًا "الجنازات" طقوس خاصة ومقدّسة لدى الفراعنة، فهم ليسوا أبناء "حضارة موت" كما يلاحظ "هيرودت" بل أن العكس هو الصحيح، فقد كان الموت في العقيدة الفرعونية هو بداية (الحياة الحقيقية)، وكانت الجنازة أقرب إلى حفل زفاف إلى العالم الآخر الجديد"[٢].

كما ورد فيه وصف الباحث أحمد توفيق في كتابه (أغنيات الفراق) تراث الحزن عند بعض المصريين الأوائل في صعيد مصر من الذين تأثروا بعقائد الفراعنة، حيث يتوجهون بجسد الميت بعد تحنيطه في موكب يتجه إلى الشاطئ الشرقي للنيل، حيث ينتظرهم أسطول صغير من القوارب، القارب الرئيسي به غرفة كبيرة مبطنة من الداخل بأقمشة، وفي هذه الغرفة كان يوضع جسد الميت ومعه تماثيل: "إيزيس" و"نفتيس" الإلهتين الحاميتين للميت ويقوم الكاهن بحرق البخور.

وبعد عبور النيل إلى الشاطئ الغربي يستمر الموكب حتى يصل إلى قبر الميت وبعد عمل بعض الطقوس لا يبقى سوى إنزال التابوت والأثاث الجنائزي وترتيبه، فيوضع التابوت المصنوع على هيئة المومياء في تابوت آخر من الحجر يتخذ شكل حوض مستطيل ويوضع حوله عدة أشياء مثل العصي والأسلحة والتمائم، ثم يقفل التابوت الحجري بغطاء ثقيل وتوضع بجانبه الأواني الكانوبية الأربعة (هي الأواني التي توضع فيها أحشاء الميت وتتخذ أشكال أبناء حورس الأربعة) داخل صندوق خاص، ثم توضع المواد الغذائية للمتوفى وهي عبارة عن إطارات من الخشب على شكل أوزوريس محنط وبداخلها كيس من القماش الخشن يملأ بخليط من الشعير والرمل ويسقى لعدة أيام فينبت الشعير وينمو كثيفاً وقويًا وعندما يصل طوله إلى ١٢-١٥سم كان يجفف ثم تلف الأعواد بما فيها من قطع من القماش، وأما الهدف من هذا العمل فهو حث المتوفى على (العودة إلى الحياة) لأن أوزوريس في معتقداتهم قد أعيد إحياؤه من الموت بهذه الطريقة[٣].

كما أن موت الأشخاص المهمين كان أشد وقعًا على المصريين قديمًا، فكانوا إذا مات في بيت من بيوتهم **(رجل ذو قدر)** لطختْ كلُّ نساء هذا البيت الرأس أو الوجه بالطين، ثم يتركن الجثة في الدار ويجلسن في المدينة لاطمات وقد شمرن وكشفن عن صدورهن ومعهن كل قريباتهن. والرجال كذلك

---

[١]- أنظر: التحقيق السابق، المنشور بمجلة اليمامة السعودية.
[٢]- نفس تحقيق اليمامة السابق.
[٣]- من نفس التحقيق السابق، المنشور بمجلة اليمامة.

يلطمون ويشمرون. وعندما ينتهي ذلك يحملون الجثة لتحنيطها. فلطم الخدود وشق الجيوب وتلطيخ الوجوه والثياب بالوحل أو صبغها بالألوان القاتمة كان ولا يزال معروفا كله أو بعضه في الشرق عامة وفي مصر خاصة، والظاهر أن كل تقاليد الندب ومظاهر الحزن في مصر ترجع إلى أصل واحد قديم، نطالع آثاره في تلك الأسطورة الخالدة المعروفة بالشهيد "أزوريس" حيث كانت أختاه "إيزيس" و "نفتيس" في مقدمة المحزونين على مصرعه، ولذلك فقد رمز المصريون إليهما بحدأتين نواحتين، تركع الأولى عند رأسه وتضع يديها عليه، وتركع الأخرى عند قدميه وتضع يديها على صدرها. وتلك صورة مألوفة في مناظر الجنازة التي رسمها القوم في قبور موتاهم، ومن حولها صور لطوائف من النساء باكيات صائحات، وقد حللن شعورهن. وما أكثر العادات الجنائزية في مصر اليوم ذات الجذور المصرية القديمة، فتلطيخ الرؤوس والوجوه بالوحل ولطم الخدود وندب الميت والاهتمام بالقبور وتوزيع القربان في المقابر ونحر الذبائح والاحتفال بتشييع الجنازات وتقديم الباقات والأكاليل وإطلاق شعر الرأس واللحية علامة الحداد والطلعة، كلها عادات أصلها مصري قديم[١].

وقد حُفرت آلاف من قبور سكان وادي النيل في الأزمنة القديمة أزمنة ما قبل التاريخ، وهي القبور الواقعة على طول حافة وادى النيل الخصب والتي يرجع تاريخ أقدمها وجودًا بلا شك إلى الألف الخامسة قل الميلاد وأكثر، فوجد الجسم البشري فيها راقدًا في قاع حفرة لا يزيد عمقها على بضع أقدام وركبتاه مطويتان تجاه ذقنه، ويحيط به متاع ضئيل من أواني الفخار وبعض الآلات والأسلحة الحجرية والأدوات المنزلية الأخرى، فضلا عن بعض الحلي الساذجة[٢].

كما أن **(الاحتفال بدفن الموتى)** كان أمرًا مهمًا وشائعًا عندهم، فقد اعتقدوا أن سعادة الشخص الميت في المستقبل تتوقف على هذا الاحتفال، وعلى المعتقدات المرتبطة بالطقوس كان الميت يدفن دائمًا ولا تحرق جثته أبدًا، كما تؤدّى الطقوس الخاصة بفتح الفم لجسد الميت أو لتمثال المتوفي. وتشمل هذه الطقوس على ممارسات التطهّر والقربان، لكن أهم جوانب هذا الاحتفال بدفن الموتى هو لمس الفم بقدوم صغيرة، فبهذه الطريقة -كما يعتقدون- تتجدد الحياة لجميع قدرات الجسد. كما أنهم كانوا يدفنون موتاهم في المناطق الصحراوية التي تكون فيها التربة شديدة الجفاف[٣].

ويبكي المصريون على موتاهم منذ القدم، فقد ورث المصريون المتأخرون عادة **(البكاء على الميت)** عن الإلهة "إيزيس" عندما بكت زوجها وهو يقوم بإطلاق البخور على مومياء الميت بينما يخاطبه آخر قائلا: أذهب يا "بتاح نفر" فقد تفتحتْ لك السماء وتفتحتْ لك الأرض، وانفسختْ لك طرقُ العالم السفلي كي تخرج، وتدخل مع الإله "رع" فتسير مستمتعًا بحريتك كأيّ سيدٍ من أسياد الأبديّة، بينما النساء يبكين ويندبن على الميت وهو مسجى في التابوت. وكانت **(الباقات والأكاليل)** المصنوعة من أغصان شجرة البؤساء المقدّسة تقدم للموتى في مصر القديمة، ومازال بعض المصريين حتى اليوم يستخدمون مثل هذه الباقات والأكاليل في الجنازات ويضعونها على القبور[٤].

---

[١]- أنظر: د. أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، مرجع سابق، ص ١٤٥.
[٢]- د. سيد عويس، الخلود في التراث المصري، مرجع سابق، ص ٦٢.
[٣]- أنظر: جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مرجع سابق، ص ٤٤.
[٤]- د. أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، مرجع سابق، ص ١٤٦.

والموت على علاقة مع **(الذهب والجواهر)** في عقيدة المصريين القدامى، فالذهب عندهم مهم ليس لأنه يبهر العين بجماله فقط، بل لأنه يمنع الموت ويطيل العمر في تصوّرهم، فهذه هي العقيدة الأولى التي آمن بها المصريون القدماء عن الذهب، وهذا هو السبب في وضعه في (توابيت الملوك)؛ فالملك -باعتقادهم- في تابوته ليس ميتًا وإنما هو في حال أخرى من الحياة يحتاج فيها إلى الذهب لكي تطول، فكان الذهب يُجمع من الأقطار البعيدة ويحمل إلى خزانة فرعون، وهي في ذلك الوقت خزانة الدولة؛ ومن هنا صار الذهب نقدًا للتعامل. ولم يكن الذهب وحيدًا في هذه الخاصية أي (منع الموت وإطالة العمر)؛ فإن الجواهر الأخرى كالمرجان واللؤلؤ كانت كذلك، وإلى وقت قريب كان بعض العامة يأكلون الذهب والجواهر باعتقاد إنهما يمنعان الموت ويطيلان العمر. ولفظة "النوبة" تعني بلاد الذهب، وفي هذا المعنى ما يدل على الباعث الأصلي الذي جعل المصريين القدماء يستعمرونها[١].

وفي مصر القديمة كان هناك **(أعياد للموت)** يذكر الأحياء موتاهم فيها، ويحملون إلى قبورهم كثيرا من ألوان الطعام والشراب، فيأكلون ويشربون ويصيب معهم من ذلك الطعام والشراب كل طارق، ثم يلهون ويمرحون، ويعتقدون أن الموتى إنما يشاركون بأرواحهم في الطعام والشراب وفي اللهو والمرح أيضا[٢].

ومن معتقداتهم حول الموت، أن الميت لا يبقى سجينًا في قبره المظلم، بل يخرج منه أثناء النهار فقط، فيكون حرًا في النهار يغادر ضيق القبر ويتجول كيف شاء على الأرض، إلا أنه كان يجب عليه الاحتراس والحذر من هجوم أعدائه المؤذين من الأفاعي السامة والعقارب والتماسيح، ولذلك كان الواجب عليه أن يتسلّح بالتعاويذ السحرية، التي تقيه شر هؤلاء الأعداء[٣].

وكانت هناك آلهة للموت، تعمل على **(مساعدة الموتى)** فقد أعطى المصريون السيادة باستمرار للآلهة التي اعتقدوا أنها تساعد موتاهم. ومن هذه الآلهة: "أنوبيس" و "سوكاريس" و "خنتمانتيس" و "أوب وات" و "أوزيريس". وهي مجموعة كانت معروفة في الدولة القديمة، وقد اتخذ أنوبيس بين هذه الآلهة شكل (ابن آوى) أو (الكلب)، وارتبط بعملية تحنيط الموتى، وكانت له أهمية دائمة طوال تاريخ الديانة المصرية الطويل.. أما أوزريس فقد ظهر من غموض نسبي إلى مركز بالغ الأهمية في العبادات الجنائزية ولقد مر أوزريس برحلة هامة في ارتفاعه كقوة روحية وهي مرحلة تقمصه لفرعون المتوفى، وهو ما حدث في الأسرة السادسة. لقد كان أوزريس في الأصل (إله الموتى) وكان مركز مدينته الأول فيما يبدو هو مدينة أبيدوس. أما الدافع وراء اتحاد الملك الميت بأوزوريس فقد كان واضحًا، وهو ضمان استمرار سيادة الملك بعد الموت، فعندما يصبح فرعون الميت هو أوزريس، فإن ذلك يعني أنه سوف يحكم مملكة الموتى[٤].

وعطفًا على كل ما سبق، يتضح لنا جدًا أن فكرة الموت ومعلقاتها كانت تسيطر على المصريّ القديم دائمًا وأبدًا. يفكر فيه ويستعد له وينشغل به. ويمكننا الافتراض أيضًا -والحال كذلك- بأن **(القلق والخوف من الموت)** كان مرتفعًا جدًا عند المصريين القدامى. إذ إن الحياة عندهم كانت مشتهاة وقد

---

[١]- أنظر: سلامة موسى، مصر أصل الحضارة، مرجع سابق، ص ص ٢٧-٢٨.
[٢]- أنظر: د. أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، مرجع سابق، ص ١٤٧.
[٣]- أنظر: حسين العودات، الموت في الديانات الشرقية، مرجع سابق، ص ص ٥٥-٥٦.
[٤]- أنظر: جفري بارندر، المرجع السابق، ص ٣٩.

حملوا-إلى درجة التعصب- كراهية ومقتا للموت وخصصوا جزءا غير صغير من أموالهم وأوقاتهم لتدبر الطرق والوسائل لغلبته[١].

ورغم هذا القلق والخوف الشديدين، لم تعمل الديانة المصرية القديمة على حلِّ لغز الحياة أو **(الانتصار على الموت)**، بل استبدلتْ ذلك بأن جعلتْ الحياة الدنيا كلها مقدمات للحياة الأخرى، فجاء موقفها من ظاهرة الموت موقفًا واقعيًا إلى حد كبير، فآمنت بحتميته واستسلمت له، ولم تكترث كثيرًا بالبحث عن أسباب ومبررات قدومه، ولذلك نجد في نصوصهم أقوالا كثيرة من قبيل: " إذا أتاك رسول لك، وأخذ أهبته ليعمل ضدك، فلا تقل إني لا زلت صغيرًا، إنك لا تعرف منيتك، فالموت يأتي ويتحكم في الطفل الذي يرقد بين ذراعي أمه، كما يتحكم في الرجل الذي بلغ من الكبر عتيا"[٢].

والحقيقة هي أني أغفلتُ عمدًا في هذا المبحث القصير نسبيًا عددًا من النقاط ذات العلاقة بالموت، بسبب ارتباطها الشديد الأكيد بعقيدة الخلود التي سنتناولها في المبحثين التاليين بتفصيلٍ مطوّل؛ حيث ستظهر هذه النقاط بالتأكيد من خلال المبحثين التاليين اللذين لا يمكن فصلهما عنها، فمن الصعب جدًا تكرار إيراد هذه النقاط هنا في هذا المبحث، ثم هناك مرة ثانية في المبحثين التاليين.

---

[١]- د. أحمد عبد الخالق، المرجع السابق، ص ١٤٨.

[٢]- حسين العودات، الموت في الديانات الشرقية، مرجع سابق، ص ٥٠.

المبحث الثالث:

خلود الروح في عقائد قدماء المصريين.

لابد من التنبيه على نقطة قبل الاسترسال، وهي أن الكثير من الكلام الخاص بعقيدة المصريين القدماء حول موضوع الخلود يأتي عامًا، أو بصورة يرتبط فيها الحديث عن الروح والجسد معًا، ومن هنا فسيكون هذا المبحث شاملا لكثير من تلك النقاط العمومية والمترابطة، مع الاجتهاد في فرز ما يخص الروح عن غيره.. وكذلك سيكون الجهد منصبًا في المبحث التالي الرابع على الجسد قدر الإمكان، ولكننا مع ذلك قد نجد شيئاً من التداخل فيه؛ وذلك بسبب صعوبة بل استحالة الفصل التام بين المبحثين في كثير من الأحيان.

وأول نقطة سننطلق منها هي وجود ذلك الكم الرهيب من القبور والمقابر وشدة عناية قدماء المصريين واهتمامهم بها؛ لأنها تدل بل تثبت وتبرهن –وبقوة- على إيمانهم بحياة ثانية بعد الموت، فلو أخذنا –على سبيل المثال- مقبرة (توت عنخ أمون)، فسنذهل مما ذكر عنها.

فقد "اعتقد علماء الآثار أن وادي الملوك قد باح لنا بكل أسراره، وكشف العلماء عن٦٢ مقبرة ملكية وكذلك مقابر للمقربين من هؤلاء الملوك، حيث إنه من الممكن أن يدفن بهذا الوادي الملك وطباخه، وبمعنى أدق تلك الطبقة التي تمتعت بمميزات خاصة لدي الملوك. وقد عثر داخل العديد من هذه المقابر علي كنوز أثرية أضفت علي زيارة هذا الوادي سحرًا فريدًا. هذا الوادي الساكن الصامت الذي اختاره الفراعنة لكي ينحتوا في صخره أنفاقاً وسراديب وحجرات تظهر فكر كل فرعون عن (العالم الآخر) الذي يعيش فيه الإله أوزوريس، بالإضافة إلي الكتب التي صوّرتْ علي جدران هذه المقابر لتساعده على اجتياز المخاطر والصعاب التي يواجهها الملك خلال هذه الرحلة. وهي الكتب التي تعكس خوف المصري القديم من الموت ومعرفته بأنه سيحاكم علي ما اقترفه من جرائم وأعمال، الأمر الذي يجعلنا نقف كثيرًا أمام هذا التوافق بين ما جاء في كتب العالم الآخر للمصري القديم، خاصة فكرة الثواب والعقاب والجنة والنار، وما جاءت به الكتب السماوية بعد ذلك بآلاف السنين. ومعظم ما قدمته النصوص المصرية القديمة تظهر حرص المصري القديم علي تأمين مصيره بعد الموت وهكذا"[1].

وبدليل وجود تلك الكتابات العقائدية الكثيرة التي وُجدتْ مسجلة على جدران الأهرامات، وقد ظهر لي جليًا أن من غاياتها هي اعتقادهم أنها ستكون عوناً للأموات في الحياة الأخرى.

وتعرف تلك الكتابات بنصوص الأهرامات، أو (متون الأهرامات) وهي: "نصوص مقدّسة عُثر عليها منقوشة على الجدران الداخلية لأهرامات الأسرة الخامسة والسادسة وملوكها من الدولة القديمة بمنطقة سقارة (حوالى ٢٤٠٠ سنه قبل الميلاد) ومنهم الملك ونيس والملك بيبى والملك مرنرع الأول والملك تتي. ومتون الأهرام هي من أقدم النصوص المقدسة في العالم، وعددها بالمئات، و تعكس الطريقة التي حفظت بها، وهى **الحفر في الصخر**. وبالرغم من أن بعض علماء المصريات قاموا بتصنيف نصوص الأهرام على أنها نصوص جنائزية و تعاويذ سحرية، إلا أن الباحثين من مختلف الجنسيات بدأوا مؤخرًا في الخروج إلى العالم بتفسيرات أكثر علمية وموضوعية تتناسب مع عظمة الحضارة المصرية، ومع قدسية النصوص والطريقة التي حفظت بها. والخلاصة أننا إذا اعتبرنا أن أهرامات الجيزة هي محطة إطلاق للأرواح من العالم المادي إلى العالم الآخر، فإن نصوص الأهرام

---

[1]- د. زاهي حواس، مقالة عنوانها: وادي الملوك كنز لا يفنى، جريدة الأهرام، ٤ مارس ٢٠٠٦م، السنة ١٣٠- العدد ٤٣٥٥٢ .

هي بمثابة (الكتالوج) الذي يشرح طريقة تشغيل هذه المحطة، ويصف الطريق الذى تسلكه الروح في رحلتها إلى العالم الآخر"[١].

والحقيقة هي أن هذه المتون هي "مجموعة ضخمة من النصوص الدينية، التي نقشت على جدران حجرات الدفن والمجازات المؤدية إليها بباطن الأهرام، من عهد "أوناس" حتى نهاية الأسرة السادسة أو ما بعدها بقليل. وهي مزيج مختلط من صور الحياة عند الفراعنة منذ فجرها الأول، فيها ألوان من نظم الحكم والسياسة والعقيدة، ومكان الملك من الرعية، ومن الأرباب المعبودة، ثم ألوان من الكفاح والجهود التي بُذلتْ في سبيل خلق حياة منظمة مستقرّة، وصور من أدعية وأناشيد رددها الناس في مختلف الملاحم التي أنشأتها الأساطير بين مختلف المذاهب الفكرية، ثم محاولات شتى للملاءمة بين تلك المذاهب بغية الوحدة السياسية. كل ذلك جمعه القوم وأثبتوه في غير ترتيب، جاعلين منه زادًا وذخيرة لفرعون، مسبوقة بمرثيات، منها ما يقال يوم موته، ومنها ما يقال يوم دفنه، ومنها ما يقال فيما بين ذلك"[٢].

والحقيقة أني قدّمتُ الإشارة إلى نصوص الأهرام لأهميتها، ولرغبتي في جعلها في هذا المكان، وهذا لا يعني أنها الوحيدة فهناك كتب وكتابات ونصوص ومتون دينية كثيرة عندهم، تثبت منفردة ومجتمعة أنهم من أشدّ الناس على مرِّ التاريخ الإنساني إيمانًا بوجود العالم الآخر والحياة الثانية الأبدية الخالدة –في اعتقادهم- بعد الموت.. وسيأتي التطرق لكثير منها بشيء من التفصيل في ثنايا هذا البحث.

إذن، هم –ومن خلال كل ما سبق- يؤمنون بحياة أخرى، وهذا ما يهمنا هنا، وهو إيمان ظاهر جدًا لي، وسأجتهد في برهنته وشرحه في الصفحات القادمة، ولا أعتقد أن هناك من يشكك في هذا الإيمان أصلا، حتى الذين شككوا في إيمان الفراعنة بوجود الله يتفقون معنا في هذا كما ظهر لي مرارًا وتكرارًا، والسبب هو أنه بجانب تلك الكتابات الموجودة على جدرانهم، نجد أدلة أخرى قوية، لعل من أهمها **(رمز الخلود والأبدية)** مثلا.

وهذا الرمز هو رمز الحياة الأبدية عند قدماء المصريين، فقد "كان يستعمله المصريون الفراعنة كرمز للحياة بعد الموت، وكان يحمله الآلهة وملوك الفراعنة. وهناك آراء مختلفة حول معناه: من أنها رمز المؤنث والمذكر أساس وجود الحياة على الأرض، أو أنه يمثل الاجتماع الروحاني لـ: إيزيس وأوزيريس الذي كان له تأثير على وفرة مياه النيل الذي يعتبر أساس الحياة في مصر، أو أنه يدل على البعث وإعادة الحياة عند المصري القديم"[٣].

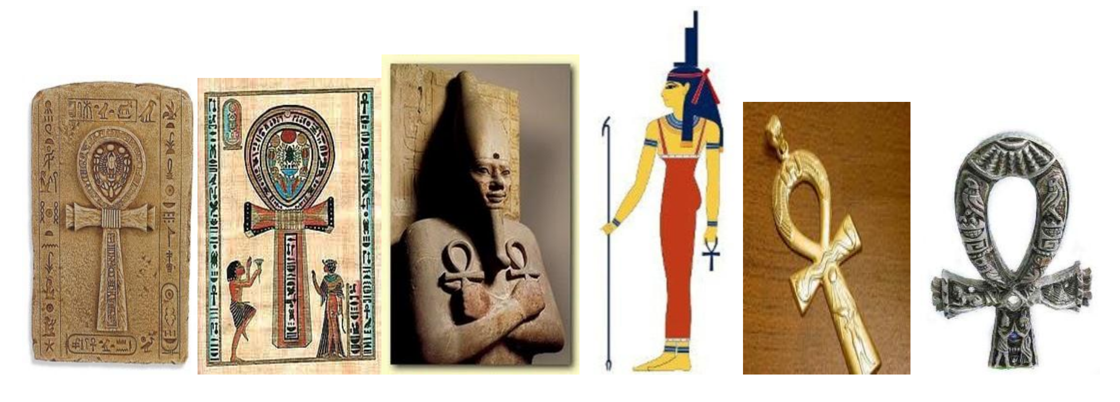
وهذا المعنى الأخير، أعني كونه يدل على البعث وإعادة الحياة عند المصري القديم، هو المعنى الأرجح عندي وبقوة من خلال تأمل كثير من المصادر المعتبرة، التي اتفقت تقريبًا على هذا المعنى، وها لا يمنع من وجود معانٍ أخرى ذات علاقة بالفكرة الأم (فكرة الخلود والحياة الأبدية الأخرى)، فكل معتقدات المصريين القدماء تتقاطع وتتداخل؛ ولكنها في النهاية تدور في فلك عقيدة الخلود.

والمقصد أنه حتى لو سلّمنا بأنه رمز أو مفتاح للحياة، فهناك ارتباط وثيق بين هذا الفهم والفهم الآخر الذي رجحته، وهو تفسيره بأنه رمز للخلود والأبدية، ذلك أن هذا الرمز أطلق على المتوفى في العالم

---

[١]- مجلة حركة مصر المدنية، ٥ مارس ٢٠١٢م، بقلم صفاء محمود، وبتصرّف يسير منّي.
[٢]- الموسوعة العربية المعرفية الشاملة، ١٩٦٥م، موقع الموسوعة على الإنترنت، على الرابط:
http://ency.kacemb.com/%D9%85%D8%AA%D9%88%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%87%D8%B1%D8%A7%D9%85
[٣]- د. عمرو محمد عباس محجوب، مقالة عنوانها: تأملات في الميثولوجيا النوبية، صحيفة سودانايل، ١٩ كانون٢/يناير ٢٠١٥م.

الآخر، مما يعني أنه (حي يمثل الحياة) أو أنه كما يوصف في عصورهم المتأخرة (الذي يحيا ويستقر). وبالجمع بين كل ذلك، نصل إلى أنه رمز يعني الديمومة الكامنة في الحياة من خلال البعث والنشور المنشود[١]. ويظهر رمز الأبدية والخلود هذا، بالأشكال التالية على سبيل المثال، ونلاحظ فيها أنه رمز واحد يُرسم ويُنقش بعدّة صور وطرق مختلفة[٢]:



وهذا الرمز الذي يعرف برمز الأبديّة، يُسمّى أيضًا (مفتاح الحياة) كما يسمّى (عنخ)، ويظهر تعلقهم وإيمانهم به من خلال الرسومات والمنقوشات والمنحوتات والصور الكثيرة التي اجتهد أصحابها في تصوير وإثبات قوة ارتباط هذه العقيدة بالمصريّ القديم وديانته.. ورغم ارتباط هذا الرمز بالخلود والأبدية، وتفسير غالب الباحثين له بهذا التصوّر، إلا أننا نجد تفسيرات أخرى مختلفة، فبعض علماء الآثار المصريين يرون أن مفتاح الحياة يمثل الدور المحوري لنهر النيل في مصر فالرأس البيضاوي، يمثل منطقة دلتا النيل والجزء الرأسي يمثل مسار النهر والجزء الأفقي يمثل شرق البلاد وغربها.. وبعضهم أيضا فسّرها بأنها المؤنث والمذكر أساس وجود الحياة أو الاجتماع الروحاني لإيزيس وأزوريس، الذي كان له تأثير على وفرة مياه النيل أساس الحياة في مصر أو أنه يدل على البعث وإعادة الحياة عند المصري القديم.. أما عالم الآثار البريطاني بتري وآخرون معه، فقد فسروها أنها تمثل حزام يرتديه الصيادون وبعض أبناء الطبقة الدنيا من العمال في نقوش عصر الدولة القديمة؛ حيث يرى أن الحزام الملتف حول الوسط يمثل العروة بينما تمثل الشرائط المتدلية أطراف العلامة واتجه البعض للربط بين علامة الحياة عنخ وبين غطاء العورة للرجال في العصور القديمة.

ومؤخرًا كشف خبير الآثار الدكتور عبد الرحيم ريحان، ارتباط علامة الحياة "عنخ" في مصر القديمة، بالحبل السري للجنين في بطن أمه، ويؤكد ذلك التشابه والترابط بين منظر الولادة وعلامة عنخ الحياة في أحد نقوش آثار كوم أمبو ونقش للملك تحتمس الثالث بمعبد الأقصر، وأشار إلى أن الرمزية لعبت دوراً هاماً في حياة ومعتقد المصري القديم ومدى تأثره بكل الظواهر المحيطة به في عالمه فإذا كانت العلامة التصويرية (عنخ) ترمز للحياة فهي إذا أقرب الشبه بالحبل السري، الذي يمد الإنسان بالحياة وهو في مراحل تكوينه في بطن أمه فهو الرباط المقدس بين الجنين وأمه شريان الحياة. إلا أنه أضاف –وهذا ما يهمنا هنا- **أن المصري القديم اتخذ (عنخ) رمزاً وفلسفة للحياة والخلود في العالم الآخر.**[٣]

---

[١]- أنظر: أ.د عبد الحليم نور الدين، محاضرات جامعية عنوانها: مظاهر البعث والخلود في مصر القديمة، نشرتها مكتبة الإسكندرية في كتيب pdf ضمن فعاليات الموسم الأثري السابع، ص ٤٣.

[٢]- هذه الصور والرسومات وما سيتلوها من صور (رمز الأبدية) متداولة في عدد من الأماكن الموثوقة فيما ظهر لي، منها مثلا موقع المركز الثقافي المصري – إمحوتب، ومجلة حركة مصر المدنية، وموقع علماء الآثار وغيرهما من الكتب والمواقع والمجلات الرسمية.

[٣]- جريدة الدستور المصرية، عدد الأحد ١٦/فبراير/٢٠١٤م .

كما لا يمكننا هنا تجاهل "كتاب الموتى" الذي يحتوي على عدة كتب دينية كتبت على أوراق البردي وكانت توضع مع الميت لحمايته ومساعدته في الآخرة.

وكتاب الموتى هذا "يضم نصوصا كثيرة، حيث كانت توضع بجانب الميت برديات تحتوى على مثل تلك الأوراد، لأن معرفة هذه الأوراد، تجعل الفرد الذي يعرفها ينعم بالبركة، وهذه البرديات أو الأوراد هي التي تسمّى (كتاب الموتى).

وكانت هذه الأوراد أو هذه البرديات أو هذه الكتب الجنائزية في القرون المتعاقبة تعتبر شيئاً مقدسًا؛ لأنها تتضمن عبارات قديمة مقدّسة، وهكذا كانت تتسلل دائماً إلى هذه النصوص عناصر جديدة في العقائد والعادات الجنائزية وظلت تتطور على طريقتها نحو ألف عام. وتمسكت الحضارة المصرية في عهد تدهورها بالتقاليد القديمة في الديانة وحرصت على استبقائها، وقد تم حشد الأنواع المختلفة للأدب الجنائزي وتقديمه للميت على برديات أو توابيت أو على جدران المقابر، والتي عادت بدورها إلى الظهور مرة أخرى على متون الأهرامات، وجمعت نصوص «كتاب الموتى» في كتاب واحد في قرطاس من البردي طوله عشرون متراً، كما سجل كتاب رحلة الشمس على التوابيت الحجرية الكبيرة، ومن هذه الكتب أيضاً: مراثي إيزيس ونفتيس لأخيهما أوزوريس"[١].

ولا شك عندي أن كتاب الموتى بكل ما فيه من هذا العدد الرهيب من النصوص ذات العلاقة بالجنائز والأموات، التي كتبها ونقشها ورسمها أهل مصر القديمة لمنفعة موتاهم. لا شك عندي أن كل ما فيه من ابتهالات وعزائم وتراتيل وسحريات وأسماء كلمات القوة والصلوات وغيرها، التي رسموها على جدران الأهرامات والمعابد والقبور والتوابيت وكتبوها على لفات البردي.. لا شك عندي –بعد تمحيص وبحث وتأمل- أنها تؤكد في مجموعها أمرين هما ما نريده في بحثنا هذا:

١- الأول: اعتقادهم بوجود حياة أخرى بعد الموت. ٢- سعيهم ورغبتهم في الخلود وكراهيتهم الشديدة للموت، بدليل كل ما فعلوه لمواجهته بكل ما لديهم من سبل.

والحقيقة أني قضيتُ أيامًا طويلة مع النسخة المترجمة من (كتاب الموتى الفرعوني) وخرجت من تأمل غالب نصوصه، ومن تأمل عشرات المقالات والكتب التي تحدثت عنه وعن الديانة المصرية القديمة عامة.. خرجت من كل ذلك بخلاصة مركزة لأهم ما يلامس بحثي، وصغت هذه الخلاصة بأسلوبي الخاص فجاءت هكذا:[٢]

وجدتُ في نصوص الكتاب وفي كثير مما كتب عنه وعن الديانة المصرية القديمة عامة اتفاقاً مع ما ذكرته في مقدمة كلامي من أن عقيدة الموت والخلود سيطرتْ على المصري القديم، وأن المصريين الأوائل آمنوا ومالوا إلى فكرة الحياة الأخرى أكثر من غيرهم.

مع ضرورة الانتباه أن هذا ناتج عن ميل المصريين القدماء إلى التأمل العميق بشكل عام خاصة في الطبيعة وما وجدوه في بيئتهم من محفزات على هذا التأمل، ولذلك تناول مهتمون كثر علاقة الشمس بعقيدة ما بعد الموت، حيث رأى المصريون القدامى في شروق الشمس ولادة يومية متجددة، وفي غروبها موتًا تعقبه ولادة جديدة في اليوم التالي، فالشمس تولد صغيرة ضعيفة الضوء والحرارة من جهة الشرق، ثم تتدرج حتى تصل إلى ذروة الإشعاع والحرارة وسط النهار، وبعد ذلك تبدأ مرحلة الضعف من جديد، حتى تنتهي نهائياً إلى جهة الغرب، ثم تعود للظهور من الشرق مرة أخرى في

---

[١]- من تحقيق مجلة اليمامة السابق: «طقوس الموت» عند الفراعنة: حفل زفاف إلى العالم الآخر.

[٢]- النسخة التي اطلعت على نصوصها هي: برت إم هرو، كتاب الموتى الفرعوني عن بردية آني بالمتحف البريطاني، ترجمة د. فيليب عطية، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط١، ١٩٨٨م.

اليوم التالي، وهكذا كل يوم، ميلادٌ، فحياةٌ، ثم موتٌ، ثم بعث، ولا يختلف حالها هذا عن حال القمر أيضًا، ومن هنا ربطوا ذلك بالإنسان، فاعتقدوا أن موته ستعقبه ولادة أو عودة لحياة جديدة.

كما رأوا في الفيضان السنوي إشارة أخرى مثلا، فقد وجدتُ كثيرًا من الباحثين والمهتمين يؤكد على ما فهمته أنا أيضًا من أن الفيضان الذي كان يأتي مرة في كل سنة ثم يزول أو يتوقف بهبوط منسوب مياه النيل، دفع المصريين القدماء إلى التأمل الطويل فيه.

إن هذا الفيضان المنتظم الذي كان ماؤه يغطي الأراضي الزراعية الجافة كل عام فيبث فيها الحياة من جديد لتصبح أرضًا خضراء رطبة تنتج أشكالا وألوانًا من المزروعات، ثم عودة الأرض بعد ذلك إلى الموت والجفاف من جديد، حتى يحصل الفيضان التالي فتعود الحياة.

إن هذا الفيضان كان يعطيهم إشارة طبيعية أنه يشبه الإنسان حيث يقترب من الموت تدريجيا كحال الفيضان كلما انخفض ماؤه، ولكن عودة الفيضان مجددًا في العام التالي وبقوة وعنفوان أعطتهم شعورًا بأن الإنسان أيضا بعد ضعفه ورحيله سيعود مجدداً.

وبجانب تأمل الشمس والفيضان أيضًا تأملوا الحياة الزراعية، فوجدوها تغيرات وتبدلات متتالية، تبدأ بزرع النبات ثم ولادته فحصده وجني ثماره، ثم يموت بعدها، ثم زراعة جديدة ثم موت ثم حياة وهكذا مرة تلو مرة...الخ.

والحقيقة أن هناك أمثلة أخرى غير أمثلة الشمس والفيضان والزراعة، كمثال القمر وغيره، وخلاصتها أن جميع هذه الظواهر الطبيعية الكثيرة التي فيها قدوم ورحيل ونشاط وضعف وبروز واختفاء ... وهكذا.. كلها أوحت إلى المصري القديم أو **بعثت فيه فكرة الحياة الأبدية وعقيدة الخلود**.

وبعد أن تأكدنا من إيمانهم بحياة أخرى، لنا أن نتساءل عن هذه الحياة في نظرهم وعن معتقداتهم حولها، وسأجتهد محاولا توضيح هذه المعتقدات عن الحياة الأخرى:

وربما يحسن بنا أن نشير قبل التعمق إلى أنه رغم كثرة التداخلات والتعقيدات في فهم عقيدة المصريين الأوائل في الخلود وما بعد الموت.. رغم كل ذلك فقد اجتهد كثير من الباحثين في توضيح الصورة، حيث قسموا آراء المصريين إجمالا فيما سيحصل للإنسان في الحياة الأخرى إلى مذهبين رئيسيين:

المذهب الأول: ورغم ملامسة هذا المذهب للمبحث الرابع القادم عن الجسد، إلا أننا لا نستطيع فصله عن المذهب الثاني التالي، لارتباطه به، ولذلك أوردناه هنا في مبحث الروح. وخلاصة هذا المذهب: آمن أتباعه أن ما سيبقى من الإنسان هو الجسم اللطيف المسمّى "كا"، ولذا تطلبوا أن يُفعل لهم في جوف الأرض ما يجلب لهم الفرح والسرور والغناء، حيث قالوا: إن الجسم إذا ترك سيعتريه الهم والجوع والعطش، وتتبعه حيوانات فظيعة تهدده بموت آخر يؤدي لفنائه، ولذلك يجب أن تقام عليه الصلوات والابتهالات بانتظام وإتقان، لينال بواسطتها الغرف والمأكولات والخدم والحرس الذين يحمونه من تلك الحيوانات المهددة له..

وأمَا أهل المذهب الثاني، فيؤمن أتباعه أن الروح تنتقل مباشرة إلى عالم الآخرة بعد الموت، حيث نعيش هناك حياة ثانية تختلف سعادتها وشقاوتها حسب العمل الذي جناه الإنسان في حياته الدنيا، أو أن الروح قبل أن تستقر على حال لابد أن تعرض أولا للحساب[١].

وكان المصريُّ القديم يعتقد أن الميت لا يبقى سجيناً في قبره المظلم، بل يكون حراً أثناء النهار، يغادر قبره ويتجول كيف يشاء على الأرض، وللحفاظ على نفسه من الأفاعي السامة والتماسيح والعقارب كان يتسلح بالتعاويذ السحرية، ويعتقد أن مخلوقاً آخر يؤوي جسم الإنسان ولا يُرى في الحياة الدنيا، وتلك هي **(الروح)** وتسمى عند بعضهم "باي" وتلازم الجسم في الحياة وتفارقه عند الموت"[٢].

والحقيقة أن المصريين القدماء كان لهم بشكل عام طقوس غريبة مع الأرواح، منها مثلا أن لهم طرقا وطقوسا في (طرد الروح) من المنزل عندما يموت أحدهم[٣].

وهذا الكلام السابق يتفق ويتقاطع وينسجم ويتناغم في نظري مع كتابات المؤكدين على أن المصريين القدماء كانوا –كما ظهر لنا من كل ما سبق في بحثنا هذا- من أشد المؤمنين بخلود النفس وأبديّتها، فقد فرقوا بداية بين النفس والجسد، "فالنفس عندهم تسمى (ألكا) والجسد يسمى (ألبا). **والنفس في تقديرهم خالدة**، فقد آمنوا بفكرة الخلود من خلال عودة الروح على الجسد مرة ثانية"[٤].

ومن النماذج التي تلخص عقيدة المصري القديم في الروح قوله: (إن الروح مستقرها السماء بينما الجسد في الأرض). ونفهم من كل ما سبق أن الباء هي عنصر مهم جداً في الإنسان، لأنه لولاها لا يمكن للإنسان أن يحيا حياة ثانية، فهي بمثابة النفس التي تبث الحياة في الجسد مجددًا، ولا يمكن أن يكون لألكا أو القرين دور بغياب الباء.. وقد صوّر المصري الروح (عنصر الباء) في أشكال مختلفة، لعل أهمها تصويرها على هيئة طائر برأس إنسان يشبه رأس صاحبه وبيدان آدميتان، ولاشك أن هذا التصوير هو تعبير عن أن الروح سوف تحلّق في السماء كالطير، وأنها ستعود إلى جسد صاحبها لتبعث فيه الحياة مرة أخرى إذا ما بقي محافظا على شكله، ومن هنا نشأ التحنيط كما سنعلم في المبحث القادم عن خلود الجسد[٥].

ومما سبق نفهم أن أول ما نستخلصه هو أن المصريين القدامى في جملتهم فرّقوا بوضوح بين العناصر الجسمانية والعناصر الروحية، ومن هذه النقطة نقرر الزبدة الأساسية، وهي أن الديانة المصرية القديمة كانت تؤمن بوجود الروح، وتفرق بين الروح الجسد.. وتؤمن بوجود حياة ثانية خالدة أبديّة، فكلمات **(الأبدية – الخلود – العالم الآخر)** موجودة بكثرة في الترجمات العربية لتلك الكتابات الفرعونية الكثيرة.

ومن دلائل إيمانهم بوجودها معتقداتهم في خروجها، أي خروج الروح، ففي مصر القديمة كان صعود روح "الملك" المتوفى إلى السماء عبر سلم علوي عظيم، أو أنه يصعد قابضًا على ذيل البقرة

---

[١]- أنظر: د. أحمد كمال، بغية الطالبين في علوم وعوائد وصنائع وأحوال قدماء المصريين، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط١، ١٩٩٥، ص ٦٦.

[٢]- من نفس تحقيق مجلة اليمامة السابق.

[٣]- قرأتُ هذه المعلومة أثناء بحثي في عدد من المصادر، ودونتها في دفتري ولا أذكر المرجع بدقة.

[٤]- مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

[٥]- أنظر: السلماني، التحنيط في مصر القديمة، مجلة آداب جامعة بغداد، مرجع سابق. بتصرف منّي.

السماوية، أو محلقاً كطائر أو محمولا على دخان البخور المحترقة من الكاهن أو عاصفة رملية.. أما الاعتقاد الذي استقر بعد ذلك، والذي كان لكل البشر بعد أن أصبح حق عبادة الشعب لأي معبود مكفولا هو خروج الروح على شكل (طائر برأس إنسان). فالروح في نظرهم ذات منفصلة عن الجسم تمام الانفصال، إلا أنها تحل فيه حلولا متصلا ومنقطعا، وهي جوهر خالد، يشكل حلقة الوصل بين الإنسان والإله، فالروح تتصل بعالم الآلهة مادام الإنسان على قيد الحياة. أما بعد الوفاة فيمكن للروح أن تتصل بعالم الأحياء، فتتنبئ الأحياء بأسرار المستقبل، وتحذرهم مما عساه أن يكون في طريقهم من أخطار، وتبشرهم أيضًا بما عساه ينالهم من خير[١].

ولم يتوقف إيمان قدماء المصريين على أن الروح مستقلة عن الجسم، بل آمنوا بعودة الحياة بعد الموت، وبالبعث والحساب والثواب والعقاب، والصراط المستقيم والميزان، وأكدوا **(فكرة الخلود)** من خلال البعث بعد الموت، فلم يهتموا بتحقيق الخلود في الدنيا كما فعل غيرهم، بل رأوا أن الخلود يكون في الحياة الأخرى، وأن الموت هو بداية الحياة الخالدة، وأن الدنيا ليست إلا ممرًا للحياة الأبدية التالية، حيث البقاء الأبدي والاطمئنان والسعادة والنعيم أو العذاب المقيم[٢].

والميزان والحساب في الآخرة ورد مرارا عند المصريين القدماء، فها هي نصوص التوابيت مثلا، تؤكد لنا إيمانهم بوجود (ميزان الأعمال).

ومن ضمن مشاهد حساب الآخرة التي ورد فيها الميزان بوضوح –حسب نصوص التوابيت- يقول قائل للمتوفى: **{إن أبواب السماء مفتوحة لجمالك.. إنك تصعد.. وذنبك مغفور، وظلمك قد محي بأيدي أولئك الذين يزنون بالموازين في يوم الحساب}**. وقد كان من الممكن أن يتحلّى المتوفى بالأخلاق الفاضلة الحقة التي تشبه في استقامتها كفتي الميزان اللتين لا تحيدان. ومن ثم نجد (متون التوابيت) تقول أيضًا: **{تأمل أن فلاناً هذا (إشارة إلى المتوفى) هو إلى موازين "رع" التي يوزن بها الصدق والحق}**، وهنا يتضح لنا لمن كانت موازين الصدق هذه؟ ومن هو ذلك القاضي الذي يشرف عليها؟ فنجده كما كان الحال قديمًا "إله الشمس"[٣].

هذا ما يتعلق بالميزان، أما ما يتعلق بالإله "أوزيريس" فلا شك أن انتشار عبادته له علاقة قوية باعتقادهم السائد بأن الأرواح ستحاسب، فكل روح لابد أن تلقى الحساب العسير في الحياة الثانية في عالم الآخرة[٤].

والحقيقة هي أني تعمقت في موضوع هذا الإله "أوزيريس"، لأهميته البالغة وشدة تعلقهم به وكثرة ما كتب عنه، فوجدتُ أن أكثر ما يتكرر عنه هو موضوع **(محاكمة الميت)**، فكانت هناك قاعة محاكمة خاصة بالموتى في العالم الآخر، تسمّى باسم قاعة التحقيق، حيث يوجد فيها هذا الإله مستويًا على العرش وتظهر وراءه شقيقتاه ايزيس ونفيتس وعدد من النواب، وفي وسط القاعة يوجد ميزان كبير.

وأوزير هذا من ضمن مثلث إن صح الوصف، حيث يُعتقد أن الحضارة المصرية القديمة تدور في ثلاث محاور أساسية هي المعبود أوزير كرمز للعالم الآخر، والمعبود رع رمز الخلق والتجدد

---

[١]- أنظر: حسين العودات، الموت في الديانات الشرقية، مرجع سابق، ص ص ٥٠-٥١.

[٢] المرجع السابق، ص ص ٥١-٥٢.

[٣]- د. سيد عويس، الخلود في التراث المصري، مرجع سابق، ص ٦٨.

[٤]- سيد عويس، نفس المصدر السابق ص ٦٩.

الزمني، وإله النيل (حعبى Hapy) كرمز للخير والنماء والاستمرارية الزمنية، وما عدا ذلك مهما اختلفت الرموز فهي ترتبط بصورة أو بأخرى بتلك المحاور السابقة، وقد ارتبطت الرموز بالأساطير في العقيدة المصرية القديمة حيث أن المصري القديم عندما نظر إلى الظواهر الكونية الطبيعية وجدها ثابتة ودائمة بدوام الزمن فحاول أن يحيك الأساطير كوسيلة لتفسير الرموز المعبرة عن تلك الظواهر الكونية[١].

وقد أعتُبرت أسطورة المعبود "أوزير" تمثيلاً للخلق وتجسيدًا لدوره الزمن حيث اعتُبرت بمثابة وجه آخر لدورة الطبيعة ومسيرة الزمن التي لا تنتهي بل تتجدد وتستمر من خلال بعثه، لذا فهو يُجسّد الحياة والموت ويُجسد دورة الزمن التي إذا ما توقفت ولم يتم بعثه توقف نظام الكون وانتهت الحياة على الأرض، وقد كان للأسطورة الأوزيرية صدى كبير في العقيدة المصرية القديمة كما ارتبطتْ بالزمن والأبدية واستمرارية الكون، حيث كان المعبود أوزير حاكم الأبدية ورب الغرب كما كان "خنتى أمنتيو" أي إمام الغربيين.. وقد ارتبط المعبود أوزير ببعض الرموز والشعائر والأعياد التي تشير من قريب أو من بعيد للزمن والأبدية وكان من أهم هذه الأعياد (عيد الطلعة الكبرى) أو عيد أوزير الكبير في أبيدوس "جدو" الذي كان يحتفل به في الشهر الأول للفيضان في بداية العام وكذلك احتفالات شهر "كيهك" التي كانت تقام في العصر المتأخر في معظم مراكز عبادة أوزير..

وكل هذه الاحتفالات ترمز للزمن والأبدية حيث كانت تقام تكريمًا له حتى يجعل حلقات الزمن تتصل وتستمر الحياة في الكون، وكان أوزير واهب الحياة لجميع المخلوقات؛ لأنه القوى الكامنة في الأرض التي تمنحها الحياة فتنتج النباتات والمحاصيل التي يتغذى عليها جميع الكائنات. كما كان مصدرًا لخصوبة أرض مصر السوداء حيث ارتبط بالفيضان وكان بمثابة القوى الدافعة لمجيء المياه من جديد سنويًا.. وقد أشارتْ متونُ الأهرام لهذه الفكرة حيث قالت "إن حور قادم، إنه يعرف أباه فيك، أنت الفتى في اسمك "الماء العذب". وكان قدوم الفيضان بمثابة تجديد للزمن ومولدًا جديدًا للحياة على الأرض، وهناك صدى لنفس الفكرة في متون التوابيت[٢].

وتجدر الإشارة إلى أنه كان يتم صنع تماثيل من الطين صغيرة الحجم على هيئة مومياء "أوزير" تخلط فيها حبوب القمح وتوضع مع المتوفى في "جبانة طيبة" ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة، وكانت ترطب بالماء فتنبت عيدان القمح وترمز لبعث أوزير، وكانت تدفن في التربة الزراعية خلال الفصل الرابع من السنة المصرية القديمة عندما تنحسر مياه الفيضان وتكون الأرض مُعدة للبذر، وبعد مرور بضعة أيام تنبت البذور مما يعني بعث أوزير وبعث الحياة على الأرض، مما يشير إلى تجديد دورة الزمن في الكون، وقد أشارت متون التوابيت لهذه الفكرة حيث قالت على لسان المعبود أوزير ما يلي: "إنني نبات الحياة الذي يخرج من أوزير" وقال أوزير عن نفسه: "إنني أوزير أعيش كالقمح وأنمو كالقمح"، وقد أعتبر المعبود "أوزير" مصدرًا لجميع التطورات على سطح الأرض على مدار العام حيث يعتبر هو مسبب الحياة على الأرض ومسير دورة الزمن والأبدية، وقد شبه أوزير بالقمر نظراً لأنه يأفل ثم يعود مرة أخرى للظهور (يبعث) في الشهر التالي وهذا يدل على دورة الزمن المتواصلة الأبديّة[٣].

ولهذا الإله تنسب الديانة القديمة الشهيرة جدًا (الأوزرية) فقد كان "أوزيريس" في مصر القديمة هو سيد الأبدية، ورب الموتى والعالم الآخر. وكان أحد قطبي الديانة المصرية القديمة، إذ كان أحد قطبي

---

[١]- أ.د عبد الحليم نور الدين، مظاهر البعث في مصر القديمة، مرجع سابق، ص ١٩ .

[٢]- عبد الحليم نور الدين، المصدر السابق، ص ٢٠ .

[٣]- نفسه، نفس الصفحة ٢٠ .

العقيدة المصرية التي تقاسمها كل من المعبود "أوزير" **(العقيدة الأوزيرية)**، والمعبود "رع" **(العقيدة الشمسية)**[١].

وقد كان المعبود "أوزير" أحد أهم المعبودات المصرية على الإطلاق، سواء فيما يتعلق بالديانة الرسمية للدولة، أو الديانة الشعبية، بالرغم من أنه لم يكن ضمن الأرباب الرئيسيين في الكون[٢].

و تبدأ **إجراءات محاكمة الميت** عندما يقوم أنوبيس بإدخال الميت –الذي يرتدي ثوبًا من الكتان- فيلقي التحية على أوزير أو "أوزوريس" وباقي الآلهة، ثم يدافع الميت عن نفسه ٣٦ مرة؛ لأنه يخشى ألا يصدقوه، فيعيد إقراره الدال على براءته متوجهًا نحو ال٤٢ إلها، حيث كانت مصر القديمة مقسمة إلى ٤٢ إقليمًا، فكان كل إله يمثل إقليمًا من أقاليم مصر.

وبعد ذلك يذكر الميت كيف كان خيرًا يعطي الخبز للجائع ويقدم الماء للعطشان ويكسى العاري وغيرها من أعماله الصالحة مثلا. ثم يُوضع قلبه في كفة الميزان وفي الكفة الأخرى تمثال صغير للحقيقة (معات) ولم يذكر تفصيلاً كيف يوزن قلب الميت ولا أحد يعرف هل الآثام كانت تثقل القلب أم تجعله خفيفًا؟. والخلاصة أنه إذا ثبت أن هذا الرجل بريء كان له الحق في الحياة والسعادة في العالم الآخر، أمّا إذا كان مخطئًا فإنه يُدمَّر بواسطة الملتهمة وهي (وحش خرافي مزيج من التمساح وأسد وفرس البحر).

وقد كان الشغل الشاغل للمصري القديم هو ما سيحدث له في هذه المحاكمة، التي تواترتْ على تأكيدها عشرات النصوص والكتابات الفرعونية، وسبب قلق المصري القديم هو أنه كان يعرف أنه ليس كل الناس سوف يحظون بالنعيم في الآخرة، لذا فقد عمد الكهنة إلي عمل بعض التمائم والنصوص السحرية لحماية الميت وتبرئته في المحاكمة، ومن هذه الصيغ السحرية صيغة تجعل إله الشمس (الذي يعتبر أقوى القوى الحقيقية وراء تلك المحاكمة) يسقط من سماواته في النيل إذا لم يخرج ذلك الميت بريئاً من المحاكمة[٣].

والحقيقة أن السيد القمني كفانا كثيرًا من الكلام، حين اختصر زبدة معتقدات الفراعنة في الخلود في "أن الديانة المصرية القديمة، وبخاصة ديانتي مدرستي رع الأونية وفتاح المنفية، قد سبقتا إلى أبرز النظريات الفلسفية في الميتافيزيقيات عامة وجودًا وألوهية، قبل ظهور الفلسفات اليونانية بقرون طويلة، كما كانتا السابقتين إلى أبرز النظريات التي تعتبر أعمدة للديانات التي تلت العصور الفرعونية في حوض المتوسط الشرقي". ليصل القمني أيضًا بناء على ما سبق إلى "أن أهم ما كان

---

[١]- موقع علماء الآثار المصري، مرجع سابق.

[٢]- المرجع نفسه، وقد يلاحظ القارئ أن أسماء آلهة الموت المصرية المذكورة في بحثي قليلة نسبيًا، كأوزير ورع وسكر وإله النيل وغيرهم مما سيأتي، وهذا صحيح لسببين، الأول أنهم الأشهر والأبرز، والثاني أنهم يكفون كأمثلة ترتبط بقوة بموضوع بحثي، أما لمن يريد المزيد، فسيجد عددًا رهيبًا من الآلهة المصرية المرتبطة بموضوعات الموت وغيره، ومنهم المعبود "شو" وزوجته "تفنوت"، اللذان يمثلان عناصر الأبدية والخلود، وفق شرح يطول.. وكذلك المعبود "مين" والمعبودة المرتبطة به "أيزيس" وابنها "حورس"...الخ تلك الآلهة الكثيرة، التي وجدتُ بتأملها ارتباط غالبها بعقائد الخلود والأبدية، مما يؤكد أن هذا المعتقد، أي (الخلود والأبدية) هو لب ومحور ديانة مصر القديمة.

[٣]- إجراءات المحاكمة من كتيب إلكتروني صغير دون مؤلف، عنوانه: أسرار كتاب الموتى، منشور في منتدى كلية الآداب بجامعة عين شمس، ويبدو أنه من عمل أحد الطلاب، وتأكدتُ من صحة ما فيه، من خلال تكراره في عشرات المراجع والمصادر المعروفة الموثوقة، منها ما كتبه فراس السواح، والذي سنورده أدناه.

يميز الديانة المصرية القديمة، هو عقيدتها في الخلود، وأن الخلود كان هو عماد هذه الديانة بكليتها، فبدون هذا الاعتقاد فإن الديانة المصرية لا يكون لها أيُّ معنى"[١].

ويزيد الدكتور القمني فيضيف أن عقيدة الخلود المصرية قد بدأت مرتبطة بالمَلَكية، وأعتبر الملك هو صاحب الحق الأوحد في الخلود دون سائر البشر، لامتلاكه الطبيعة الإلهية التي انحدرت إليه عبر نسله الإلهي.. ثم دخلت **(عقيدة الخلود)** مراحل تطورية، بدأت بتصور ساذج بالخلود في القبر للملك فقط، ثم أخذت خطوة ارتقائية دخل بها الشعب كله **(دار الخلود)** ولكن بصورة مختلفة عن خلود الملوك، فخلود عامة الناس يكون في مهامة مظلمة تحت الأرض، لا فرق فيها بين خيّر وشرير، بينما ترفعت بالملك عن هذه المهامة، وأدخلته السماء بجوار أبيه الأكبر رع، دون أيّة مقاييس خلقية نسبية بين ملك وملك، فكانت السماء جنة الخلود للملوك، أما تحت الأرض فكان مقر بقية البشر الموتى[٢].

وقد تصوّر المصريُّ القديمُ أن الحياةَ في العالم الآخر مثلها مثل الحياة على الأرض؛ حيث توجد سماء مثل سماء الأرض، ونظرًا لأن الزراعة كانت عماد الحياة في مصر أيضًا فستكون كذلك في العالم الآخر، حيث تصوّروا أن العالم الآخر حقول من القمح والشعير يحصدونها ويتمتعون بالخير الوفير والأمان؛ ولكن النبلاء كان من الصعب عليهم أن يعملوا في الحقول فظهرت تماثيل (الأوباتشي) التي تمثل الخدم أثناء عملهم والخبازين والجزارين والنساء وهن ينسخن القماش، وفائدتها أنها تقوم في العالم الآخر بخدمة مولاها وعمل كلِّ الأعمال التي كان يجب أن يعملها بنفسه.[٣]

ومن خلال الكلام السابق، ندخل إلى التقسيم المهم، وهو أن للمصريين عقيدتين شهيرتين تواترتْ على تأكيدهما –دون مبالغة- كلُّ المراجع الكبرى تقريبًا التي اطلعتُ عليها، وهما **"العقيدة الشمسية" و "العقيدة الملكية"**، فكيف نفهم موضوع البعث والخلود من خلال هاتين العقيدتين؟

أعتقد أن خير من يجيبنا عن هذا السؤال بشيء من التركيز العظيم في الحقيقة، هو البروفيسور المصري عبد الحليم نور الدين، أستاذ اللغة المصرية القديمة بكلية الآثار بجامعة القاهرة، حيث يذكر الدكتور أثناء حديثه عن (العقيدة الشمسية)، أن دورة الزمن وفكرة الأبدية في اعتقاد المصري القديم تجسدت في أن المعبودة "نوت" كانت تلد رب الشمس يومياً عند الفجر، فيبقى في السماء حتى يحين وقت الغروب، فتبتلعه ليمر داخلها طوال ساعات الليل ثم تعود فتلده من جديد فجر اليوم التالي..

ويُعتقد أن هذه الأسطورة أقدم من مذهب خلق الكون في أيونو على اعتبار أن رب الشمس هو أول مظهر بزغ للوجود من العدم، وهو خالق الكون، ومن المُلاحظ أن الحول دون تحقيق هذه الولادة لرب الشمس يومياً تعنى انقطاع أو توقف دورة الزمن على الأرض، وهذا يُنبئ بنهاية العالم وتوقف مسيرة الحياة على الأرض، وكانت الشمس هي العامل المؤثر في عملية الخلق بعد الماء حيث بدون الشمس تختفي مظاهر الحياة، واعتبر المصري القديم دوره الشمس يومياً من الشرق للغرب بمثابة دوره للزمن إذا توقفت توقف الزمن ولهذا اهتم المصري القديم بالشمس ودورتها وصورها على

[١]- سيد القمني، رب الثورة أوزيريس، المركز المصري لبحوث الحضارة، ط ٢، ص ١٥٨.
[٢] - المصدر السابق، نفس الصفحة، بتصرف منّي حيث غيرت قليلا في الصياغة بما يتوافق مع فهمي للموضوع من عدة مصادر أخرى.
[٣]- لطيف شاكر، مقالة عنوانها: عقيدة الموت والخلود، الحوار المتمدن، بتاريخ ٢٠١٠ / ٧ / ٢٠.

جانبي جبلين متلاصقين يمثلان الأفق أحدهما الجبل الغربي mAnw (غروب الشمس) والآخر الجبل الشرقي BAxw (شروق الشمس).

وكان يُعتقد أن **مصير المتوفى** مماثل لمصير رب الشمس، وكان يختفي معه في عالم الغرب حيث كان يمر معه داخل جسد "نوت" ربة السماء ثم يُبعث من جديد في الجهة الشرقية من السماء وهذا يمثل دورة الزمن ومسيرته دون انقطاع مثل مصير رب الشمس والمُتوفى، وقد جسّدت المعبودة نوت في هذه الفكرة التابوت كما ورد في متون الأهرام، ذلك لأن المُتوفى داخل التابوت يُعتبر كما لو كان داخل رحم أو جسد نوت التي سوف تُعيد ولادته ليعيش **حياة أبدية مجيدة**، وهذا يرمز لدورة الزمن التي لابد لها من الاستمرارية ليبقى الكون مستمرًا، وتبعًا لمتون الأهرام كان يُعتقد أن الملك المتوفى بعد دفنه في الغرب كان يصعد للسماء ويتحوّل لجسم سماوي أو نجم ويُحتمل أن أقدم اعتقاد بالولادة الثانية كان يتم في السماء حيث يولد المُتوفى على (هيئة نجم) وهذه الهيئة تعبر عن الأبدية والاستمرارية، فالنجم يرمز لخلود الزمن ودوامه، ومن المُعتقد أن سبب قلة النصوص التي أشارت إلى لحظة اختفاء الشمس أو ابتلاعها هو أن هذه اللحظة تجسد الموت وكان الناس يخشون الحديث عن الموت لذا تجنبوا وصف لحظة اختفاء الشمس بالرغم من اعتقادهم أنها كانت بمثابة مرحلة انتقالية، ولهذا تجنبت متون الأهرام وصف هذه اللحظة لأن الموت يُعتبر بمثابة انقطاع لدورة الزمن وهذا يعنى نهاية الحياة ونهاية العالم، إلا أنه في الدولة الحديثة بدأ الحديث عن الغرب حيث اعتبروه رمزاً للحياة الأبدية.

وتجدر الإشارة إلى أن معظم الأفكار اللاهوتية التي وردت في متون الأهرام ومتون التوابيت قد صوّرت ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة من خلال كتب العالم الآخر وسُجلت على جدران المقابر الملكية وكان الموضوع الرئيسي لهذه الكتب هو تجديد ولادة رب الشمس وبعثه فجر كل يوم وكان هذا الحدث بمثابة تجديد لعملية خلق الكون وتواصل لحلقات الزمن دون توقف ضماناً للسرمدية الزمنية والأبدية المكانية[١].

أما **العقيدة الملكية**، فذكر أن الزمن قد أثر على كل شيء في مصر القديمة من مفاهيم وديانة وحياة، حتى أنه أثر على الملك والملكية فقد اتخذ الملوك أسماء تربطهم بالزمن وتجعلهم متحدين مع الزمن لأنه دائم وأبدي؛ وهذا ما يتمناه كل فرد في مصر القديمة، فيوجد على سبيل المثال الملك "منى" يعنى اسمه "الدوام والاستمرارية" وهو ما يتفق مع مفهوم العقيدة الملكية التي تؤكد في جوهرها على توارث الحق الملكي من الأب (أوزير) إلى الابن (حورس) خلال الأسرات الملكية المتعاقبة.

وعلى سبيل المثال، يورد البروفيسور أمثلة منها أن اسم الملك "منى" كتب بشكل أو لغة فرعونية تعني (الدائم والمستمر) مما يجعله يرتبط بدورة الزمن والأبدية، ومنها أن اسم الميلاد للملك أحمس من الأسرة الثامنة عشرة، كتب أيضًا بشكل معناه "القمر مولود أو ميلاد القمر" مما يجعل اسم هذا الملك مرتبط أيضًا بدورة القمر في الكون، وهذا بدوره يرتبط بدورة الزمن في الطبيعة وبالتالي يرتبط بعقيدتهم.. وجاء كذلك اسم الميلاد للملك رمسيس الأول من الأسرة التاسعة عشرة بلغة

[١]- عبد الحليم نور الدين، مظاهر البعث في مصر القديمة، مرجع سابق، ص ٢٦ ،٢٧.

فرعونية تعني "الذي أنجبه إله الشمس رع، أو المولود من رع" وهذا بدوره يربط اسم هذا الملك بدورة الشمس في الكون مما يجعله يتحد بدورة الزمن والأبدية الكونية[١].

ثم يورد الدكتور أمثلة كثيرة مشابهة، لملوك آخرين كثر، نفهم منها جميعًا ومن غيرها مما كتب في مصادر أخرى عن ارتباط أسماء الملوك بكلمات عن دوام الزمن والأبدية الكونية والخلود، وأن هذا الخلود هو ما كان يتمناه الملوك دوماً، وأن عقيدة المصري في الخلود تأثرت بملوكه القدماء.

والحقيقة أنه لو لم يصلنا عن قدماء المصريين إلا: **١- كتبهم الدينية. ٢- طقوسهم وشعائرهم الجنائزية.** لكان كافيًا لإثبات إيمانهم بالحياة الثانية والعالم الآخر والخلود فيه، وسنتعمق قليلا في هذه الكتب والطقوس والشعائر:

أما الكتب الدينية فليس (كتاب الموتى) السالف الذكر الكتاب الديني الوحيد الذي يتناول الموت والحياة الثانية في مصر القديمة، فهناك كتب كثيرة بشكل ملف للنظر جدًا، تتعمق في تفاصيل كثيرة حول الموضوع، ومنها مثلا كتاب **(ما في العالم الآخر)** الذي يسمى أيضا (إمي دوات) ويعرف كذلك بـ "كتاب ما هو كائن في العالم السفلي".

ومعنى مصطلح imy-dwAt هو "ذلك الذي في العالم الآخر أو الكائن في العالم الآخر"، وهو عنوان حديث لنص ملكي قديم يُعرف باسم "كتاب الغرفة السرية" والغرض منه تعريف الميت بعجائب العالم الآخر ويتكون من ١٢ ساعة نهارية تقابلها ١٢ ساعة ليلية، ويعود هذا الكتاب إلى بداية الدولة الحديثة وهو أقدم النصوص التي نُقشت على جدران المقابر الملكية في وادي الملوك[٢].

وقد أجمع عدد من الباحثين إلى أنه من أكثر الكتب تأكيدًا على إيمانهم القطعي بالحياة الثانية الخالدة، فهدف الكتاب كما يظهر من كل نصوصه هو تعريف الميت بأحوال وغرائب العالم الآخر، واختلف الباحثون في تاريخ بداياته وظهور أصوله الأولى، وهذا لا يهمنا هنا، والخلاصة أنه من أقدم النصوص التي نُقشت على جدران المقابر الملكية في وادي الملوك.

وترتبط كل ساعة من ساعات الكتاب ما في العالم السفلي باتجاه جغرافي معين، وهذا وغيره من التفاصيل لا يهمني كثيرًا هنا في بحثي هذا، بقدر ما يهمني أن الكتاب وصف بالصور والرسومات لكائنات العالم السفلي وإحاطة المتوفى بمناطق العالم الآخر، وتعاليم خاصة بالحياة الأخرى، ومشاركة المتوفي في رحلة مركب إله الشمس التي تستغرق ١٢ساعة في العالم السفلي.

وكثر الكلام حول ساعات الكتاب التي تؤكد إيمانهم الكبير جدًا باليوم الآخر وما فيه من نعيم وجحيم وحساب وثواب وعقاب، فالساعة الأولى مرتبطة بالغسق بعد غياب الشمس. وترتبط الساعتان الثانية والثالثة بالإله أوزير باعتباره إمام الموتى. والساعتان الرابعة والخامسة تتحدث عن جحيم الإله سكر. والساعة السادسة فيها يبحر مركب الإله "يوف" نحو مركز عبادة الإله أوزير في الدلتا. والساعة السابعة، هي ساعة "مواجهة الثعبان"، وهي مخبأ الإله أوزير. والساعة الثامنة تعرف باسم "سيدة الظلام" وهي الساعة التي تبدو فيها الآلهة وكأنها مومياوات تصحبها اللفائف والتوابيت. والساعة

---

[١]- نفس المصدر السابق، ص ١٨، بتصرف منّي في الصياغة بشكل يتوافق مع سياق بحثي، والحقيقة أني وجدتُ كثيرًا من هذا الكلام بتفصيلات أوسع، في كتاب لنفس البروفيسور عبد الحليم، عنوانه: اللغة المصرية القديمة.

[٢]- إريك هورنج، وادي الملوك أفق الأبدية، ترجمة محمد العزب، القاهرة ١٩٩٦، ص ٣٦٤ .

التاسعة تسمى "الآلهة التي تحمي سيدها". وفي الساعة العاشرة يبحر الإله العظيم نحو عين شمس (أون). والساعة ١١ تمثل الجحيم والعذاب الشديد وإحراق العصاة والمذنبين. أما الساعة الأخيرة فهي قبل شروق الشمس، وتمثل منطقة في العالم السفلي يولد بها الإله ويخرج من المياه الأزلية "نون"، ويتحد مع الإلهة "نوت" إلهة السماء[١].

ومن كتبهم الدينية أيضًا كتاب **(البوابات)** وهو مرتبط بالعالم السفلي، ويكاد يكون نسخة من كتاب "ما في العالم الآخر" السابق. وقد ظهر في معظم مقابر الدولة الحديثة جنباً إلى جنب مع كتاب (ما في العالم الآخر)، كما ظهر في مقبرة واحدة بالنسبة للأفراد.

ويتميز هذا الكتاب عن كتاب "ما في العالم الآخر" بأنه يتضمن محكمة أوزير. وما يجري في قاعة محكمة أوزير، حيث تجري عملية المحاكمة للمتوفى، فنجد ٤٢ قاضياً، والتاسوع وحورس وجحوتي. وقد تناولنا هذه المحاكمة في الصفحات السابقة من هذا البحث، وربما يضيف عليها هذا الكتاب نقطة مهمة، وهي أنه بعد المحاكمة يتجه الأبرار إلى الخلود في حقول "يارو"، أما المذنبون فإن مصيرهم الفناء، حيث يبتلع الكائن الخرافي **"عمعم"** قلوبهم[٢].

والحقيقة أني أرغب بالعودة إلى موضوع **(محكمة أوزير)** التي رويناها سابقاً، والسبب هو أهميتها الكبرى لبحثي هذا، فهي حجة كبرى وشاملة لكل ما أريد أن أصل إليه كباحث، فهي تثبت الحياة الثانية والخلود، وتثبت الحساب والعقاب والنعيم أو الشقاء الأبدي للإنسان بعد محاكمته.

ونجد أن الفصل ١٢٥ من كتاب الموتى مثلا، اشتمل على كثير من الكلام الذي يقوله المتوفى للآلهة عند الحساب، وسنورد الكثير من تلك الاعترافات والإنكارات والتوسلات بعد قليل، ولكننا قبل ذلك لابد أن نمهد قليلا لفهم شامل أعمق لهذه الديانة (الأوزرية) المرتبطة بالإله أوزير، لشدة ارتباطها بموضوع بحثي هذا عن الخلود.

فهذا الإله (أوزيريس) حكم الأرض بعد الإله جيب، واتّخذ من أخته إيزيس زوجة له. حكم بالعدل وعلّم البشر الزراعة والصناعة وعبادة الآلهة وبناء المعابد. ثمّ ترك الحكم لزوجته إيزيس وسافر لنشر الحضارة في العالم. ولدى عودته إلى مصر وقع ضحية مؤامرة دبّرها أخوه الحسود سيت، الذي قتله وقطع جثّته إلى أربع عشرة قطعة وزّعها في أماكن متفرقة لكي لا يمكن العثور عليها. ولكنّ إيزيس استطاعت العثور عليها وضمّتها إلى بعضها بعضاً، ثم أدّت شعائر التحنيط للمرة الأولى وأعادتْ القتيل إلى الحياة الأبدية، ومن لقائهما الذي تلا البعث ولد لهما حورس.. وبعد أن بُعث أوزيريس وجعله هذا البعث في أمان من الموت، كان باستطاعته استعادة عرشه والبقاء حاكمًا على الأحياء، ولكنّه فضّل هجران هذه الأرض والسكن في أحضان الحقول الفردوسية حيث مقرّ **(الأرواح الصالحة)** ليحكم عالم الموتى، وتحوّل إلى إله للعالم الآخر، حيث يحاسب أرواح الموتى ويقرّر مصيرها إمّا في نعيم وإمّا إلى عذاب يتلوه فناء. وهذا ما جعله أكثر الآلهة شعبية لأنه منح عباده الأمل في حياة أخرى **وخلود في الحقول الفردوسية**[٣].

---

[١]- موقع علماء الآثار المصري، مرجع سابق، بتصرّف.
[٢]- نفس المصدر السابق.
[٣]- أنظر: فراس السواح، مقالة عنوانها: الوصايا العشر في ديانة مصر القديمة، مجلة الأوان، الخميس ١٩ آذار (مارس) ٢٠٠٩م.

إذن "فالأوزيرية عبادة آخروية تركّز أساطيرها على النهايات من دون كبير عناية بالبدايات. فقد كان المصريّ حرّاً لينخرط في أيّ عبادة وطقوس ومعتقد في الأصول والتكوين، ولكنه عند التفكير بالموت والعالم الآخر، فإنّه يلتفت إلى أوزيريس لكي يؤمّن مزدلفاً آمناً إلى الحياة الثانية الخالدة. فلقد كان أوزيريس مُطلعًا على أحوال الناس جميعًا ويعرف عدد سني حياة كلّ فرد منهم وساعة مماته، وكلّ شيء مدوّن لديه في لوح يدعى لوح القدر تُسجّل فيه الآجال، ولديه أيضًا سجلّ يدعى سجلّ المصائر تدوّن فيه جميع أعمال البشر، ويشرف على عملية التدوين فيه إلهان هما تحوث وسيشيا، اللذان يحصيان الأعمال الصالحة والطالحة لكلّ إنسان ويحفظانها إلى يوم الحساب عندما تُفتح السجلّات ويُنصب ميزان العدالة لتوزن به الأعمال[1].

وعندما يفلح الميت في عبور **المفازات المرعبة** التي تفصل عالم الدنيا عن عالم الآخرة، وذلك بفضل الرُقى السحرية المودعة في مدفنه، يلقاه الإله أنوبيس إله المدافن وراعي التحنيط الذي يحمل رأس ابن آوى، فيقوده من يده ويدخله قاعة العدالة، وهي قاعة فسيحة يتصدّرها أوزيريس جالسًا على عرشه ومن ورائه تقف الإلهتان إيزيس ونفتيس، وعلى محيط القاعة يجلس آلهة الأقاليم المصرية الاثنين والأربعين. وأمام أوزيريس ميزان كبير منصوب يقف إلى جانبه الإله تحوث إله الحكمة والكتابة في هيئة قرد، وإلى الجانب الآخر يقف الوحش آكل الموتى متحفّزاً للانقضاض على الميّت والتهامه إذا ثبتت إدانته. وهنا يتوجّه الميت إلى أوزيريس بهذا الخطاب الذي يُفصّله لنا نص إعلان البراءة من الذنوب: "السلام عليك أيها الإله العظيم ربّ العدالة. لقد أتيت إليك لكي أتملّى جمالك. أنا أعرفك، أنا أعرف اسمك وأسماء الآلهة الاثنين والأربعين الذي معك في قاعة العدالة الفسيحة، الذين يشربون ويقتاتون من دم الخطاة العصاة يوم الحساب في حضرة ربّ العدالة. لقد جئت إليك بالحقيقة وبدّدت الكذب أمامك. يلي ذلك تعداد الخطايا التي لم يرتكبها الميت في حياته:

لم أقم بعمل شرير يؤذي أحداً من الناس. لم أُسِئ معاملة الماشية والأنعام. لم أرتكب خطيئة في مكان الصدق (أي المعبد). لم أحاول معرفة ما يجب على الفانين عدم معرفته. لم أُجدِّف على أحد من الآلهة. لم أكن قاسيًا على أحد من الفقراء. لم أقم بعمل يمقته الآلهة. لم أُشنّع على عبد أمام سيده. لم أتسبّب بمرض أحد من الناس. لم أتسبّب بحزن وبكاء أحد من الناس. لم أقتل ولم أُعط أمرًا بالقتل. لم أتسبّب في عذاب أحد. لم أمارس الجنس مع غلام. لم أزد ولم أنُقص في مكيال الحبوب. لم أغشّ في مقياس مساحة الأرض. لم أحرم الأطفال من حليبهم. لم أُمسك الطيور في حرم الآلهة. لم أصطد الأسماك في بحيرات حرم الآلهة. لم أمنع الماء عن الآخرين في مواسم السقاية. لم أضع ردمًا أمام الماء الجاري في السواقي. لم أُطفئ شعلة نار لأحد وقت التهابها. لم أتناس مواعيد تقديم القرابين. لم أسُق الماشية من حرم الآلهة. لم أعرقل مسيرة موكب إله. لم أظلم أحداً. لم أنهب. لم أشته ما بيد غيري. لم أسرق. لم أقتل. لم أخدع. لم أسرق من ممتلكات إله. لم أكذب. لم ألعن أحدًا. لم آخذ رِبا من أحد. لم أنم مع زوجة رجل آخر. لم أغضب بلا سبب. لم أصرف سمعي عن كلمة الحقّ. لم أكن مشاكسًا وخالقاً للمشاكل. لم أمارس الجنس مع غلام. لم أبتلع قلبي (أي إظهار المرء لغير ما يضمر). لم أشتم إلهًا. لم أتغطرس ولم أتكبر. لم أضاعف ممتلكاتي بغير الحلال"[2].

---

[1]- نفس المصدر السابق، فراس السواح، الوصايا العشر.

[2]- المصدر السابق.

ثم يتوجّه الميت بكلام مقارب بل مشابه إلى درجة كبيرة لكلامه السابق.. يتوجه به إلى آلهة الأقاليم الاثنين والأربعين ويعلن براءته من الخطايا أمامهم واحداً واحداً.

وبعد أن ينتهي الميت من اعترافه هذا "يوقف أمام الميزان ويوضع قلبه في إحدى الكفتين وريشة طائر ترمز إلى الإلهة معات إلهة العدالة والحق، فإذا تعادل القلب الذي يحتوي سجلاً كاملاً لكل الأعمال مع ريشة معات كان الميت بريئاً، وإلا فكان مذنباً. وبعد أن يقوم الإله تحوث بفحص النتيجة يبلغها لأوزيريس، وبناءً على ذلك إما أن ينقضّ عليه الوحش عم – ميت ويلتهمه، أو يوقفه الإله حورس أمام أوزيريس قائلاً: جئت إليك بفلان الذي وُجد قلبه صالحًا، فامنحه كعكاً وجعة واسمع له بالدخول إلى عالمك". وهنا يأتي الجواب المنتظر من أوزيريس: دعوا الميت ينصرف سالماً منتصراً، دعوه يمضي حيث يشاء، ويعيش في صحبة الآلهة وبقية الأرواح الصالحة. وعند ذلك يُقاد الميت إلى الجنة الأوزيرية المدعوة بحقول القصب، وهي عبارة عن أرض خصبة تقع وراء الأفق الغربي، تتخللها شبكة من القنوات المائية تجعلها أشبه بالجُزر المتقاربة، وتهبها خصبًا وخضرة دائمة، فيها ينمو الزرع والشجر من كل نوع، **وتعيش فيها أرواح الصالحين خالدة إلى الأبد**"[١].

ونعود للكتب الدينية في مصر القديمة، فمنها أيضًا غير ما ذكر **(كتاب الأرض)**، وهو كتاب يرجع إلى الأسرة العشرين، ويتعلّق برحلة معبود الشمس الليلية عبر العالم الآخر، وهو مكوّن من أربعة أجزاء مليئة برسوم الأشكال المحنطة وأقراص الشمس، وقد تخيل المصري القديم من خلال هذا الكتاب أن صورة العالم الآخر هي الأرض المليئة بالمقابر والكهوف والتوابيت الحجرية التي تحوى العديد من الجثث المقدسة[٢].

ومن كتبهم المقدسة التي تبرهن على إيمانهم بالحياة الثانية أيضًا، كتاب **(الكهوف)**، وقد "أطلق هذه التسمية على هذه النصوص العالم الفرنسي ليفغر، كما أسماه كذلك **(كتاب الجحيم)**. وتنقسم نصوص هذا الكتاب إلى قسمين، يحتوي كل قسم ثلاثة أجزاء، ويضم كلُّ جزءٍ ثلاثة صفوف. وقد حل إله الشمس في هذا الكتاب محل مركب الشمس التي كانت تظهر في آخر الصورة. وقد صوّر الملعونين في الصف السفلي، في حين ظهر المباركون كثيرًا ومعهم قرص الشمس. ويضم هذا الكتاب كثيرًا من الأناشيد الموجهة من إله الشمس لسكان العالم الآخر. ويركز هذا الكتاب على آلهة الأرض (جب، وتاتنن، وأكر). ولعل أكمل تسجيل له ذلك الذي نراه في مقبرة رمسيس السادس"[٣].

ومن كتبهم الدينية كتاب الليل، وكتاب النهار، وكتب السماوات، وإننا "إذا تتبعنا دورة الزمن الأبدية المتمثلة في البعث اليومي لمعبود الشمس من خلال كتابي الليل والنهار من عهد الرعامسة، وسُمّيا كتب السماوات، حيث أن الرحلة الليلية لرب الشمس طبقاً لكتاب الليل كانت تتم في السماء أو في إقليم الليل الذي يوجد في السماء حيث أن العالم الآخر (dwAt) **يوجد في السماء وخاصة في الجزء الشمالي منها**، حيث النجوم الخالدة أو في الجزء الشرقي من السماء بالقرب من الأفق (أرض الصباح)، وأفضل نسخه من هذين الكتابين على سقف حجرة تابوت رمسيس السادس وسقف حجرة تابوت رمسيس التاسع، وتبدأ الرحلة الليلية بالساعة الأولى بعد الغروب مباشرة حيث تبتلع نوت الشمس عند الإقليم الأول من أقاليم السماء، وتستمر الرحلة حتى تبلغ نهاية الإقليم الحادي عشر من

---

[١]- نفس المصدر السابق، فراس السواح.
[٢]- أنظر: إريك هورنج، وادي الملوك، مرجع سابق، ص ٣٦٦ .
[٣]- موقع علماء الآثار المصريين، مرجع سابق.

أقاليم السماء أي الساعة الثانية عشرة، وهى الساعة التي تتم فيها ولادة الشمس الجديدة وتجديد دورة الزمن على الأرض، وكانت تُشرف على كل إقليم من أقاليم السماء معبودة تجسد الزمن وتمثل ساعة وتحمل اسماً يشير للزمن ويثير الرهبة في النفوس"[١].

وهناك عدد آخر من الكتب الدينية المشابهة، وأعتقد أن الكتب التي استعرضتها هي الأشهر والأبرز والأهم، وتكفي كأمثلة كبرى على كتبهم الدينية وارتباطها بعقائد البعث والخلود والحياة الثانية في العالم الآخر.

وبقي أن نشير إلى أن بعض قدماء المصريين آمنوا بعقيدة الخلود عبر **(تناسخ الأرواح)**، حيث اعتقدوا في تاريخ متأخر بعد (١٣٠٠ ق. م) ولأسباب تتصل بتطور الوعي بوجود جوهرين داخل الإنسان الواحد، هما الجسد والروح، و آمنوا **أَنَّ الروح خالدة لا تفنى**، ولكنها تنتقل من جسد لآخر بحسب عملها السابق في الأجساد الأولى[٢].

غير أنه من المهم أن نؤكد أيضًا على أن هناك من يعترض على هذا، حيث يرى البعض أن المصريين لم يؤمنوا بعقيدة التناسخ أبدًا، ومنهم ولسون حيث يرى أنه "نتيجة لسوء فهم العقائد الخاصة بالموت، بشأن مجال المتوفى وما لديه من قوى، يصبح المصري بعد موته آخ -أي شخصية ذات أثر فعال- وكانت له مقدرة على اتخاذ أية هيئة يريدها ليصبح حرًا في الحركة، أو ليزور الأرض، أو من أجل سروره لا غير، وهذه المقدرة جزء من قدراته بعد الموت، فكان يتخذ شكل زهرة اللوتس، أو شكل الصقر، أو هيئة أي كائن حي يريد، ولهذا حوى كتاب الموتى رقى سحرية تمكن الإنسان من اتخاذ تلك الأشكال. ولكن ذلك كان أمرًا موضوعيًا ومؤقتاً، ويتوقف على مشيئة المتوفى، ولم يكن ذاك أبدًا تناسخا للأرواح، ولم تخرج روح الميت مباشرة لتحل في حيوان من الحيوانات، وتظل فيه حتى ينتهي أجل ذلك الحيوان، فالاعتقاد المصري اختياري، ولأجل غرض مؤقت، وكان غريبًا على الإغريق غرابة تامة، فلا عجب إذا رأيناهم يسيئون فهمه"[٣].

كما وردتْ في بعض الوثائق إشاراتٌ ضعيفة حول **(التناسخ والخنازير)** خلاصتها أن هناك من يرى أن بعض المصريين القدماء في أزمنة معينة آمنوا أن الإنسان الشرير يُحكم عليه بأن تتقمص روحه جسم خنزير أو جسد خنزير، ويرجع إلى الدنيا ليذوق العذاب والهوان[٤].

ووردتْ إشاراتٌ أخرى تدل على وجود اشتراك بين بعض عقائد المصريين والزرادشتيين القدماء، حول موضوع **(المطهر)** -الذي مرَّ بنا عند الحديث عن الزرادشتية في الفصل الثاني من بحثنا هذا- فقد ورد في بعض نسخ "كتاب الموتى" المحفوظة في متحف اللوفر بباريس أن النفس التي ارتكب صاحبها بعض الهفوات لابد أن تذوق العذاب، ولكن إلى حين محدد، لتطهيرها قبل أن تدخل الجنة.. حيث نرى في هذه النسخة من كتاب الموتى رسمة لمحكمة "أوزيريس" وبجانبها رسم لحفرة

---

[١]- أ.د عبد الحليم نور الدين، مظاهر البعث، مرجع سابق، ص ٢٧.
[٢]- علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، آفاق عربية للصحافة – بغداد ١٩٨٥، ص ص ١٢١- ١٢٢.
[٣]- جون ويلسون، الحضارة المصرية، ترجمة أحمد فخري، مكتبة النهضة، pdf بلا تاريخ، ص ٤٨٢.
[٤]- أنظر: د. عزت زكي، الموت والخلود في الأديان المختلفة، مرجع سابق، ص ١٢٨.

التطهير، التي تتأجج فيها النيران، تحت حراسة الآلهة الأربعة، لتطهير النفس في هذا المطهر، ومحو كلِّ هفواتها[1].

[1]- عزت زكي، المرجع السابق، نفس الصفحة.

المبحث الرابع:

خلود الجسد في عقائد قدماء المصريين.

اتضح لنا من المبحث السابق أن قدماء المصريين آمنوا بخلود الروح، ولكنهم تأملوا فوجدوا أن الأجساد تبلى، فكيف ستعود **(الروح الخالدة)** إليها، فجاءت فكرة التحنيط للحفاظ على الجسد لتهتدي إليه الروح بعد العودة من عالم الموت ليعيش الإنسان حياة أخرى.

وقد نجحوا في حفظ الأجساد آلاف السنين، كما يذكر الدكتور جمال السلماني، الذي يؤكد أيضا في بحثه القيّم عن التحنيط أن "عملية التحنيط التي توصل إليها المصريون القدماء لم تكن فكرتها هي مجرد الحفاظ على جثث ذويهم وأقربائهم من التلف والتفسخ من منطلق الحب لهم فقط، بل إن فلسفة الخلود وحياة ما بعد الموت، وما يدور حولها من فكر عقائدي هي التي دفعتهم إلى هذا الأمر.. ولذلك فإن التحنيط لم يقتصر على الإنسان فقط، بل تعداه إلى بعض الحيوانات، لاسيما المحبوبة والمقدسة منها"[١].

وتشير عدد من المصادر إلى أنه وبناء على كل ما توفر من أدلة آثارية مادية وكتابية فإن السبب الأساسي الذي دفع المصرين القدماء إلى اختراع التحنيط هو عقيدتهم بوجود حياة ما بعد الموت[٢].

ويشترط لهذه الحياة -في اعتقادهم- أن يبقى الجسد سليمًا بلا تلف أو تحلل في القبر، أي أن سلامة الجسم هي الضمان الوحيد لعودة الروح إليه مرة أخرى في الحياة القادمة؛ ومن هنا اخترعوا التحنيط وطوّروه ونجحوا فيه. والحقيقة أن أقوى مصدرين لفهم شعائر التحنيط، هما برديتان محفوظتان، الأولى توجد في متحف اللوفر، والثانية في المتحف المصري، ولقد بحثتُ كثيرًا عن أوضح ملخص لفهم ما في هاتين البرديتين، ثم اخترتُ من النتائج هذا المختصر لفهم عملية التحنيط بتبسيط:

يبدأ التحنيط غالبًا بعد الوفاة مباشرة، فالمحنطون المختصون يُستدعون لمنزل الميت، ويضعون جسده على منضدة، ويأخذونه إلى معملهم الذي كان عبارة عن خيمة تسمّى (مكان التطهير) أو (المنزل الطيب). ثم تبدأ إجراءات التحنيط بغسل الجسد بمياه النيل، التي كان يعتقد أنها محبوة بطاقة فعالة وبقوة حسيّة، ثم تنزع أجزاء رخوة معينة -وفق طرق دقيقة لا حاجة للتفصيل فيها الآن- والتي هي أكثر الأعضاء قابلية للتآكل.. ثم يغمر الجسد كله في ملح (النترون) ثم ينقع ويغطى بالزيوت والدهون والعطور، وتوضع عليه مختلف أنواع التمائم، ثم يُلف بحرص
في لفائف الكتان ويوضع في التابوت. وكانت إجراءات التحنيط تستمر غالبًا سبعين يومًا، وتعتمد بشكل عام على فكرة تجفيف الجثة بعدة طرق، أبرزها مثلا ملامسة الرمال الدافئة[٣].

والمواد المستخدمة في التحنيط تشمل المُر وزيت الأرز والبخور، والشمع والعسل والكتان لعمل الأربطة واللفائف وزيت الزيتون... إلخ. وكل هذه المواد كان من المعتقد أنها نتاج دموع الآلهة التي تساقطتْ على الأرض عندما بكوا موت أوزيريس، وهي (تحيي جسد الميت المحنط) بقوى هذه الآلهة[٤].

---

[١]- د. جمال ندا السلماني، التحنيط في مصر القديمة (لماذا وكيف)، مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد / العدد ١٠٤.

[٢]- أنظر مثلا: الموسوعة العربية الميسرة، دار الشعب – القاهرة، ١٩٦٥، ص ٤٩٧.

[٣]- راجع: ياروسلاف تشرني، الديانة المصرية القديمة، ترجمة د. أحمد قدري، دار الشروق- القاهرة، نسخة pdf بلا تاريخ، ص ١٤٣.

[٤]- نفس المرجع السابق، ص ١٤٤ .

وقد ذكرنا في المبحث السابق أن قدماء المصريين فرقوا بداية بين النفس والجسد، "فالنفس عندهم تسمى (ألكا) والجسد يسمى (ألبا). **والنفس في تقديرهم خالدة والجسد يفنى إذا لم يحنط**، ومن هنا عملوا على إبقاء الجسد بحفظه بواسطة تقنيتين وهما: **١- التحنيط. ٢- بناء الأهرامات.** وآمنوا بفكرة الخلود من خلال عودة الروح على الجسد مرة ثانية. على أننا لا نعرف بالتدقيق إن كان المصريون القدماء يؤمنون بالخلود لكل الأفراد أم للفراعنة والمقربين منهم فقط. ذلك أن التحنيط و بناء المقابر يدل على أن هنالك فئة معينة فقط تستطيع أن تحافظ على أجسادها، وربما من هنا بدأ يتغيّر موقف كثير من المصريين من فكرة الخلود واستبدلوها بفكرة الاستمتاع بالحياة وهو ما يؤكده نص "عازف القيثار" الذي يشير إلى تغيير موقف المصريين من الخلود، ففيه ورد مثلا: "احتفل باليوم البهيج وتذكر لا يأخذ الإنسان ما يملك معه.. نعم لا يعود ثانية من رحل إلى هناك"[١].
مع ضرورة الانتباه إلى وجود رأي قوي آخر مختلف، يرى أن المصريين القدماء يقسمون الإنسان تقسيمًا ثلاثياً، لا ثنائياً كالوارد أعلاه في الفقرة السابقة، وخلاصة هذا القسيم الثلاثيّ هي أن الإنسان يتألف بصورة رئيسة من ثلاثة عناصر هي: ١- الجسم. ٢- القرين، الذي يسمّى بالمصرية القديمة (الكا). ٣- الروح، التي تسمّى بالمصرية القديمة (الباء)[٢].

وشرح ذلك هو أن المراد بالجسم ظاهر، فهو: العنصر المادي الذي يتأثر بأسباب الفناء والتحلل.. وأما (الكا) أو القرين فهو –في اعتقاد المصريين القدامى- صورة غير مرئية تأتي مع الإنسان مع قدومه للدنيا، وتتبعه أو تستقر مع جسده عند مولده، وهي صورة ملازمة للجسد ولكنها غير مادية؛ وتشبه صاحبها تمامًا، أو بصورة أخرى يمكن القول: إن هذه الصورة عبارة عن النسخة الثانية للشخص تستقر في جسده منذ الولادة[٣].

وهذا القرين (ألكا) يعتبر أيضًا -في كثير من مصادر الديانة المصرية القديمة- قوة حيوية كامنة في الإنسان، ومرتبطة بأمور أهمها أنها تنجب له الأبناء، وأنها ملاك حارس يحمي الإنسان في حياته وبعد موته أيضًا[٤].

ووظائف (ألكا) كثيرة في الحقيقة، وأكثر ما يهمنا في بحثنا هذا بعض وظائفها بعد موت الإنسان.. ومن ذلك أنها تساعده في الإجابة عن أسئلة الآلهة التي سوف تحاسبه بعد مماته، ومن وظائفها أيضًا أنها تمد صاحبها بكل ما يحتاجه من طعام وشراب بعد موته في اعتقادهم، بطرق غريبة اختلفت في وصفها مراجع الدراسات المختصة بالديانة المصرية القديمة.. ومن ذلك أيضًا، أي من وظائف ألكا أنها تحرس صاحبها وتحميه من الأخطار والأضرار وتبعد وتمنع عنه الشرور في قبره، ومن هنا جاءت تسمية القبر عندهم بدار ألكا أو بيت ألكا[٥].

وهذا بلا شك دليل قطعي آخر، على أن المصريين القدماء كانوا من أشد المؤمنين بوجود حياة أخرى بعد الموت، فقد اتفقتْ على تأكيد هذه العقيدة وفق الشرح السابق مراجع كثيرة جدًا، يستحيل في نظري اتفاقها إلا على ما هو صحيح وحقيقي.

---

[١]- مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص ٢٠٥.
[٢]- أنظر: محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٨٤.
[٣]- السلماني، التحنيط في مصر القديمة، مرجع سابق.
[٤]- أنظر: نيقولا جرمان، تاريخ مصر القديمة، دار الفكر للدراسات والنشر – القاهرة، ط ٢، ص ١٣٥. وأنظر: محمد إبراهيم بكر، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديم، مطابع هيئة الآثار - القاهرة، ص ٥٦.
[٥]- محمد بكر، المصدر السابق، نفس الصفحة.

والحقيقة أن "ولْ ديورانت"، في كتابه الشهير (قصة الحضارة)، أشار إلى نقطة غاية في الأهمية هنا، وهي أن عقيدة المصريين القدماء اشترطتْ لبقاء هذه القرينة أو القرين مع الجسم في القبر بعد موت الإنسان.. اشترطت أن يبقى الجسدُ سالمًا من التلف والتفسخ والجوع[١]. ومن هنا –كما هو واضح- ابتكروا فكرة التحنيط وكل ما يرافقها من طقوس ومعتقدات.

ولأن هذا القرين أو القرينة ستبقى مع الإنسان، وستهتم بمساعدته عند حساب الآلهة له، وستعينه على أموره في حياته الثانية.. لكل ذلك خرجتُ بانطباع واضح جلي من كل المراجع المشار إليها في الهوامش السابقة وغيرها، وهو أنهم كانوا يعتقدون بضرورة وضع الطعام والشراب والملابس وما شابه من أجل هذا القرين، ومن هنا نستطيع تفسير سبب اهتمامهم بتقديم كثير من المستلزمات مع الميت الراحل إلى الحياة الثانية.

وقد ورد بقوة وتواتر أيضًا أن المصريين "تصوروا أن (ألكا) يترك الجسم الإنساني في أثناء النوم، أو في حالات الغيبوبة، وفي هذه الحالة يقوم بالتجول بعيدًا، ويزور الناس والأماكن، وتبقى كل تجاربه حية في الذاكرة، وفي ضوء هذا كانت تعتبر الأحلام حوادث واقعية[٢].

أما ثالث العناصر التي يتكون منها الإنسان، فهو ما يُسمّى بلغة مصر القديمة (الباء)، ويقصد بها الروح بكل تبسيط، وهذه الروح وفقاً للمعتقد المصري "تترك الجسد وتخرج لأول مرة من جسد الإنسان بعد موته مباشرة، وتأخذ وجودًا مستقلاً خارج الجسم حيث تصعد إلى السماء ولا ترجع إلى جسد صاحبها المتوفي إلا إذا حافظ هذا الجسد على شكله سالمًا من أذى التحلل والتفسخ في القبر.

ومن النماذج التي تلخص عقيدة المصريّ القديم في علاقة الجسد بالروح قوله: (إن الروح مستقرها السماء بينما الجسد في الأرض)، ونفهم من ذلك أن الباء هي عنصر مهم جدًا في الإنسان؛ لأنه لولاها لا يمكن للإنسان أن يحيا حياة ثانية، فهي بمثابة النفس التي تبث الحياة في الجسد مجدداً، ولا يمكن أن يكون لألكا أو القرين دور بغياب الباء. وقد صوّر المصري عنصر (الباء) في أشكال مختلفة، لعل أهمها تصويرها على هيئة طائر برأس إنسان يشبه رأس صاحبه وبيدان آدميتان، ولاشك أن هذا التصوير هو تعبير عن أن الروح سوف تحلق في السماء كالطير، وأنها ستعود إلى جسد صاحبها **لتبعث فيه الحياة مرة أخرى** إذا ما بقي محافظا على شكله، ومن هنا نشأ التحنيط[٣].

مع أن بعض علماء الديانة المصرية والمهتمين بها برر (التحنيط) بطريقة أخرى، إذ ربطه بعقيدة (تناسخ الأرواح) وتناسخ الأرواح هي نظرية ترتبط عادة ببعض المصريين القدماء، الذين كانوا –وفق هذا الرأي- يمارسون عملية التحنيط لمنع أو تأخير عملية "التجسيد" مرة ثانية، أي ولادة الروح في جسد آخر، وهذه النظرية مرتبطة أيضًا بتعاليم فيثاغورس وبوذا وغيرهما كما شرحنا في مقدمة هذه الأطروحة، وقد تمسكتْ بهذه النظرية أيضًا إحدى طوائف المسيحيين الأوائل من الهراطقة، وهم أتباع (Jeremy collier) جيرمي كولبير[٤].

---

[١]- ولْ ديورانت، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران، ١٩٧٦، المجلد ٢، ص٧٠.

[٢]- د. سيد عويس، الخلود في التراث الثقافي المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٢٧.

[٣]- أنظر: السلماني، التحنيط في مصر القديمة، مجلة آداب جامعة بغداد، مرجع سابق. بتصرف منّي.

[٤]- أنظر: د. سيد عويس، مرجع سابق، ص ٢٤.

ولفهم فن التحنيط بصورة أدق، يمكننا تأمل وصف "هيرودوت" لهذا الفن حيث يقول: "أول ما يفعله المحنطون أن يخرجوا المخ من المنخرين بخطاف من الحديد، فإذا ما انتزعوا جزءاً منه بهذه الطريقة أخرجوا ما بقي منه بإدخال بعض العقاقير فيه، ثم فتحوا فتحة في جنب الميت بحجر حاد وأخرجوا منها جميع أحشائه، فإذا ما غسلوا البطن ونظفوه بنبيذ النخل رشوا عليه العطور المسحوقة، ثم ملئوا البطن بالمر النقي وبعطر العشبة وبغيره من العطور، وأعادوه بالخياطة إلى ما كان عليه من قبل؛ فإذا ما فعلوا هذا كله غمروه في منقوع النطرون، وتركوه فيه سبعين يوماً، وتركه أكثر من هذا الوقت مخالف للقانون. فإذا انقضت هذه الأيام السبعون غسلوا الجثة ولفوها كلها في أحزمة من القماش المشمع، وغطوا هذا القماش بطبقة من الصمغ الذي يستعمله المصريون عادة بدل الغراء. وبعد أن يتم هذا كله يسترد أهل الميت الجثة ويصنعون لها صندوقاً من الخشب على صورة إنسان، فإذا ما أتمّوا صنعه وضعوا الجثة فيه، وأحكموا إغلاقه وأودعوه لحدًا وهو واقف مستند إلى جداره. وبهذه الطريقة يعالجون الأجسام التي يريدون الاحتفاظ بها علاجًا يكلفهم أبهظ النفقات"[١].

وبالإضافة إلى كل ما سبق، أعتقد أن من أقوى البراهين المثبتة لإيمان الفراعنة بمسألة **(خلود الجسد)** في الحياة الأخرى، اهتمامهم البالغ العجيب جدًا بأماكن دفن موتاهم أيضًا كما مرَّ معنا في المبحث الثاني عن الموت وطقوسه،، فقد بالغوا في ذلك إلى حد يستحيل معه –في اعتقادي الجازم- الاعتقاد بالعقيدة المضادة للخلود، أعني عقيدة الفناء والعدم، فما هي الفائدة من العناية الفائقة بجثث الذين انتقلوا إلى حياة الفناء والعدم؟!

ولو لم ترد عنهم إلا هذه المعلومة التالية، لكفتنا في إثبات (بعث الجسد) في معتقداتهم، فقد حُفرت آلاف من قبور سكان وادي النيل في الأزمنة القديمة أزمنة ما قبل التاريخ، وهي القبور الواقعة على طول حافة وادى النيل الخصب والتي يرجع تاريخ أقدمها وجودًا بلا شك إلى الألف الخامسة قل الميلاد وأكثر، فوجد الجسم البشري فيها راقدًا في قاع حفرة لا يزيد عمقها على بضع أقدام وركبتاه مطويتان تجاه ذقنه، ويحيط به متاع ضئيل من أواني الفخار وبعض الآلات والأسلحة الحجرية والأدوات المنزلية الأخرى، فضلا عن بعض الحلي الساذجة.. وكان المفروض من وضع كل هذه الأشياء بجانبه هو بطبيعة الحال إعداد المتوفى لحياة أخرى مقبلة بعد الموت[٢].

كما أن **(بناء الأهرام)** مرتبط بمبحثنا عن الجسد، فحين بنى المصريون القدماء الأهرام كان هدفهم من بنائها الدين لا فن العمارة، فقد كانت الأهرام مقابر نشأت وتدرجت من القبور البدائية. ذلك أن الملك كان يعتقد كما يعتقد السوقة من شعبه أن في كل جسم حي تستقر قرينة - كا- لا تموت حتما إذا لفظ الجسم أنفاسه، وأن هذه القرينة يُضمن بقاؤها بقاءً كاملا إذا ما احتفظ بالجسم آمناً من الجوع والتمزيق والبلى. وكانت وسيلته للبقاء ومقاومة الموت هي الهرم لعلوه وضخامته وشكله. فلمّا كانت القرينة في رأي المصريين الأقدمين صورة مصغرة للجسم نفسه فقد كان لابد من أن يقدم لها الطعام والكساء وما يلزمها من الخدمات بعد موت الجسد. ومن أجل هذا كانت تعد في بعض المقابر الملكية دورات مياه لتنتفع بها الروح بعد فراق الجسد، وتحتوي بعض النصوص الجنائزية فقرات تعبر عن قلق كاتبيها وخوفهم من أن تضطر القرينة إذا أعوزها الطعام إلى أن تطعم من فضلاتها. على أنهم لم

---

[١]- أنظر: وِل ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج ٢، ص ٧٢.
[٢]- د. سيد عويس، الخلود في التراث المصري، مرجع سابق، ص ٦٢.

يكتفوا بهذا بل رأوا أن يضمنوا للقرينة طول الأجل بدفن الجثة في تابوت من أقسى الحجارة، وبتحنيطها تحنيطاً كلفهم بلا شك أعظم الجهد والمشقة[١].

وللكهان في مصر القديمة أيضًا علاقة بعقيدة **بعث أجساد الموتى** بلا شك، فقد وردت عنهم الكثير من النصوص الجنائزية، منها مثلا ما نقله عنهم عالم الآثار والمؤرخ الأمريكي جيمس برستد، المتخصص والمهتم بالآثار المصرية، ومن ذلك "أن الكاهن الجنائزي كان يقف مع أقارب المتوفى وأصدقائه عند قبره مجتمعين عند جسمه الهامد، ويخاطب المتوفى الراحل هكذا: **إن عظامك لن تفنى، ولحمك لن يمرض، وأعضاءك ليست بعيدة عنك"**[٢].

كما أورد عنهم أيضًا "أن الكاهن كان يخاطب المتوفى مؤكدًا له أن آلهة السماء ستبعثه مرة أخرى قائلاً له: **إنها ستعيد لك رأسك ثانية، وتجمع لك عظامك، وتضم لك أعضاءك، وتحضر قلبك لجسمك"**[٣].

ومن خلال موضوع الكهان هذا، يتأكد لي كباحث ما فهمناه سابقًا من التحنيط وبناء الأهرام وغيرهما، وهو أن في العقائد المصرية القديمة -رغم كل تداخلاتها وتنافراتها الشائكة المعقدة- ما يفهم منه -وبقوة- وجود توجه قوي للإيمان ليس بالخلود أو (البقاء الميتافيزيقي) الروحي فقط، بل بالخلود و (البقاء الفيزيقي) الجسدي أيضًا.

وترتبط عقيدة المصري القديم في البعث بمسألة **(التمتع في العالم الآخر بحياة مماثلة للحياة الدنيا)**، وهذا واضح من النقوش التي تركها المصريون في مقابرهم وعلى نصبهم وآثارهم المختلفة، حرصًا منهم على تسجيل أعمالهم الجيدة ومظاهر نشاطهم في حياتهم العادية أملًا في أن يقوموا في آخرتهم بنفس الأدوار التي قاموا بها في حياتهم الدنيا[٤].

مع ضرورة الانتباه إلى وجود بعض الدلائل على وجود **(تيار إلحادي)** قديم في مصر، ولكنه كان ضعيفًا حسب اطلاعي، خاصة إذا قارناه ببقية المعتقدات المصرية القديمة الأكثر قوة وانتشارًا، وخلاصة عقيدة هؤلاء أن الإنسان إذا مات انتهى كلُّ شيء، فليس له ولجسده بكل ما فيه إلا **(الفناء والعدم)** فمن العجيب مثلا أن نجد ملكًا من ملوك الأسرة الحادية عشرة، أي حوالي سنة ٢١٠٠ ق.م، يميل إلى عقيدة الشك هذه، فيأمر بنقش هذه الأنشودة فوق جدار مزار قبره، ليقف المغني على مكان مرتفع يشرف منه على جبانة أهرام الدولة القديمة، وينشد نصها التالي:

منذ عهد الذين كانوا من قبلنا .. والآلهة الذين وجدوا في غابر الزمان

والذين يرقدون في أهرامهم .. وكذلك الأشراف والمبجلون قد رحلوا

ودفنوا في أهرامهم .. وأولئك الذين بنوا مزارات لقبورهم..

فإن أماكنهم أصبحت كأن لم تكن!

---

[١]- أنظر: وِل ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج ٢، ص ٧٠.
[٢]- جيمس هنري بريستيد، فجر الضمير، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة، نسخة إلكترونية بلا تاريخ، ص ٦٧.
[٣]- المصدر السابق، نفس الصفحة.
[٤]- محمد عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ص ٨٧-٨٨.

تأمل ماذا جرى فيها؟ تأمل مساكنهم هنالك..

فإن جدرانها قد هدمت .. وأماكنها قد أصبحت لا وجود لها

كأنها لم تكن قد وجدت قط ..

ولم يأتِ أحد من هنالك .. ليحدثنا كيف حالهم؟!

وليخبرنا عن حظوظهم .. لتطمئن قلوبنا..

إلى أن نرحل نحن أيضًا .. إلى المكان الذي رحلوا إليه

شجع فؤادك على أن ينسى ذلك .. ولتسر باتباع رغبتك

وأنت على قيد الحياة .. وضع العطور على رأسك

وارتدِ ملابس من الكتان الرقيق .. وضمخها بالعطور العجيبة

وزد كثيرًا من مسراتك .. ولا تجعلن قلبك يبتئس

واتبع ما تشتهي وما يطيب لك .. وهيئ شؤونك على الأرض

حسبما يمليه عليك قلبك .. إلى أن يأتي يوم مغيبك

حينما لا يسمع صاحب القلب الساكن نعيهم

ولا الذي في القبر يُصغِي للعويل

اغتنم التمتع السعيد .. ولا تجهدن نفسك فيه

أصغِ! لم يأخذ إنسان متاعه معه

ولم يعد إنسان ثانية ممن رحلوا إلى هنالك؛

فلا يوجد إنسان يعود ثانية [١].

ومسك الختام **–بعد أن انتهينا من جميع مباحث هذا الفصل-** هي أنه يجب أن نؤكد على أن خوف المصري القديم من الموت هو السبب -فيما ظهر لي- في كل عقائده المتضاربة في موضوع الموت وما بعده، فقد حاول المصريون القدماء الهروب من الموت وقلقه عبر رسم صورة شاملة للحياة الثانية الخالدة للإنسان بعد موته.

ولكنهم للأسف لم يوفقوا –في وجهة نظري كباحث- إلى رسم صورة واضحة، فجاءت عقائدهم متضاربة مزدحمة بأعداد رهيبة من الطقوس والنصوص والعقائد التي لا يمكن من خلالها تكوين صورة قطعية دقيقة لعقيدتهم في العالم الآخر، الذي تتفق جلُّ كتاباتهم على وجوده وعلى أنه عالم أبدي خالد.

---

[١]- فجر الضمير، المصدر السابق، ص ص ١٦٢ – ١٦٣.

إننا مهما بحثنا ولو كتبنا ونشرنا آلاف الصفحات في هذا الموضوع، فإننا لن نصل -في ظني- إلا إلى أن المصريين القدماء تناقضوا واختلفوا كثيرًا في عالم الخلود، وحياة ما بعد الموت، فقد "تخيله بعضهم في جوف الأرض حيث يدفن الناس فعلا.. وتوهمه آخرون في جهة الغرب على وجه الإطلاق، والقسم الثالث رجوه في السماء حيث الرفيق الأعلى.. كما يمكن للميت أن يصبح "رع" المتهادي في مركبه متجولا عبر السماوات. وفي الوقت ذاته يمكن أن يصبح المرء الراحل "أوزيريس" أو واحدًا من رعاياه، وقد يكون ممكنا كذلك أن يلتحق الميت بمجرة ملكية فيصير كنجمة في السماء. ولكن كان من الممكن جداً أيضًا بعد كل هذا، أن يستمر الإنسان في العيش داخل قبره، متمتعاً بأطايب هذه الدنيا التي زود بها هناك، وأن يخرج من قبره بشكل أو بآخر من الأشكال، ليستنشق الهواء ويمتع النظر بأرض مصر الجميلة، وكان معظم المصريين يميلون إلى الأخذ بهذه النظرية الأخيرة؛ نظرية الوجود المستمر داخل الأضرحة"[١].

وإننا بتأمل حضارة وادي النيل وجدنا ما أورده علي الجابري حين قال: "إن الإنسان المصري قد واجه الموت بفكرة وجود حياة ثانية تعود فيها الروح إلى الجسد وهي مستقر الإنسان، وآمن بوجود نفس ثانية لديه على هيئة طير ترتقي إلى عالم السماء، وبذلك أصبح الموت عند المصريين **بداية حياة جديدة خالدة**"[٢].

<u>وربما يصح أن تكون خلاصة القول في كل المباحث السابقة من هذا الفصل هي:</u>

١- كان المصريون يعتقدون أن الجسم تسكنه صورة أخرى مصغرة منه تُسمّى القرينة- الكا- كما تسكنه أيضا روح تقيم فيه إقامة الطائر الذي يرفرف بين الأشجار. وهذه الثلاثة مجتمعة – **(الجسم والقرينة والروح)** – تبقى بعد ظاهرة الموت، وكان في استطاعتها أن تنجو منه وقتاً يطول أو يقصر بقدر ما يحتفظون بالجسم سليمًا من البلى؛ ولكنهم إذا جاءوا إلى "أوزير" مبرئين من جميع الذنوب **سمح لهم أن يعيشوا مخلّدين في "حقل الفيضان السعيد"**- أي في الحدائق السماوية حيث توجد الوفرة والأمن على الدوام. إلا أن هذه الحقول الفردوسية لا يمكن الوصول إليها إلا باستخدام قارب (صاحب المِعْبر)؛ وهو شيخ طاعن في السن لا يقبل في قاربه إلا الرجال والنساء الذين لم يرتكبوا في حياتهم ذنباً ما، وكان أوزير يحاسب الموتى ويزن قلب كل من يريد الركوب في كفة ميزان تقابله في الكفة الأخرى ريشة ليتأكد بذلك من صدق قوله. والذين لا ينجحون في هذا الاختبار في النهاية يحكم عليهم بأن يبقوا أبد الدهر في قبورهم يجوعون ويظمئون، ويطعمون من التماسيح البشعة، ولا يخرجون منها أبدًا ليروا الشمس. وكان الكهنة يقولون إن ثمة طرقاً ماهرة لاجتياز هذه الاختبارات، وكانوا على استعداد لتعريف الناس بهذه الطرق نظير ثمن يؤدونه لهم. ومن هذه الطرق أن يهيأ القبر بما يحتاجه الميت لغذائه من الطعام والشراب، وبمن يستطيع الاستعانة بهم من الخدم. ومن تلك الطرق أيضًا أن يُملأ القبر بالطلاسم التي تحبّها الآلهة: من أسماك، ونسور، وأفاعي، وبما هو خير من هذه كلها وهو الجعران- والجعارين ضرب من الخنافس كانت في رأيهم رمزاً لبعث الروح لأنها تتوالد كما كان يبدو لهم بعملية التلقيح. فإذا ما بارك الكاهن هذه الأشياء حسب الطقوس الصحيحة أخافت كل معتد على الميت وقضت على كل شر. وكان خيرًا من هذه وتلك أن يشتري كتاب الموتى،

---

[١]- سيد القمني، رب الثورة أوزيريس، مصدر سابق، ص ١٢٤.
[٢]- علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان ،مرجع سابق، ص١٢١.

وهو قراطيس ملفوفة أودع فيها الكهنة أدعية وصلوات وصيغاً وتعاويذ من شأنها أن تهدئ من غضب أوزير، بل أن تخدعه[١].

٢- أن المصريين في عصورهم التاريخية المختلفة آمنوا دائماً بالخلود، رغم أنه لا توجد كلمة تعبّر عن معنى الخلود في لغتهم القديمة، فكلمة الحياة نفسها تستخدم لكل من الحياة على الأرض والحياة بعد الموت؛ ولكن الخلود ليس مطلقا بل له شروط معينة يتحتم أن تتحقق للوصول إليه، كما أوضحتُ في سبب وغاية (التحنيط) مثلا، عندما تطرقتُ له في الصفحات السابقة.

فلا شك أن المبالغة في (**حفظ أجساد الموتى**) والحرص عليها عند المصريين القدماء، عن طريق: **١- بناء الأهرام ٢- التحنيط ٣- دفن الأموات في الأراضي الصحراوية الجافة. ٤- أمور كثيرة أخرى.** لا شك أن كل ذلك يجعلنا نتوقف كثيرًا للتأمل، فقد شغلهم هذا الموضوع إلى حد لا يمكن وصفه، فقد كانت سلامة الهيكل العظمي للإنسان هي الضمان لرجوع الروح إليه، فنزعوا إلى تخليصه من جميع المواد الرخوة من جلد وغشاء، ثم تحنيطه للاحتفاظ به سليمًا ووضعه في تلك الأهرامات والأماكن الصحراوية شديدة الجفاف، وكل هذا يثبت قطعًا إيمانهم في كثير من مراحلهم بعقيدة عودة الأرواح إلى الأجساد وخلود الأجساد مع الأرواح في عالم الخلد في الحياة الأبدية الثانية الدائمة.

فالدافع لكل أفعالهم المذكورة هو أن الموت في عقيدتهم لم يكن فناء أبدًا، وإنما هو رحلة يَعْبُرُ فيها الإنسان برزخًا تعود الروح فيه يومًا إلى جسده، إذا كان سليمًا، ليستأنف حياة ثانية جديدة خالدة، قريبة جدًا -في تصورهم- من حياته الدنيا، إن لم تكن مماثلة لها.

إني أنظر -كباحث- إلى الحرص على "التحنيط" وما معه من طقوس وتطورها طيلة عصور قدماء المصريين المختلفة، على أنه حرص ناتج عن تأثرهم بأساطيرهم وعقائدهم الكثيرة، ومنها أسطورتهم الشهيرة الخالدة (أسطورة أزوريس)، فالدعاء للميت بعد إتمام العملية أو في أثناء إجرائها -الذي يقابل عملية الغسل والتكفين عند المسلمين- فيه أثر واضح من الندب على أزوريس في أسطورته، حين يقال للميت: **"إنك سوف تحيا، وسوف ترد إلى الصبا إلى أبد الأبدين"**[٢].

وعلى العموم -وبعد أن انتهينا من كل مباحثنا- يجب أن نشير إلى أنه من المستحيل أن نتعرف على مدى العمق الزمنى لعقائد الحياة بعد الموت في مصر القديمة بدقة كاملة. فالدليل على وجود مثل هذه العقائد في العصور التاريخية المبكرة عامة، هو مجرد العثور على كتابات وطقوس دينية كثيرة، وأدلة أثرية متعددة، حيث احتوتْ مقابر هذه العصور على الطعام والأدوات الأخرى التي لا يمكن تفسير وجودها إلا على ضوء افتراض أن هناك تصورًا بأن الحياة تمتد بعد الموت تحت ظروف شبيهة للغاية بتلك التي سبقتها عل الأرض[٣].

إلا أن هذا الامتداد ليس واضحًا في معتقداتهم، فصحيح أنهم آمنوا بالخلود وأن الإنسان يبقى حيًا بعد الموت؛ ولكن دون تحديد واضح للطريقة أو (**المكان الذي يحيا فيه**) مثلا، فقد تصوّر المصريون القدامى –في كثير من الأحيان- أن هذه الحياة الثانية مشابهة للحياة الدنيا، مع اختلاف المكان فقط،

---

[١]- وِل ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج ٢، الصفحات ١٦٢-١٦٣-١٦٤.
[٢]- راجع: الموسوعة العربية الميسرة، ١٩٦٥ ، مصدر سابق. الموقع الإلكتروني للموسوعة.
[٣]- راجع: ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، مرجع سابق، ص ١٠٦، بتصرّف يسير منّي.

دوت تغيير جدي. فيبقى الرجل والمرأة والشيخ والطفل خالدين مخلدين في الحياة الأخرى، كما كانوا في الحياة الأولى، فهناك في الحياة الأبدية الثانية يسيطر الرجل على زوجته وأولاده، ويخدمه خدم من الذكور والإناث، ويتاح له في حياته الأخرى كل ما كان يجلب له الفرح والسرور في دنياه[١].

وأبرز تصورين للمكان الذي يحيا فيه الإنسان حياته الثانية بعد الموت هما:

١- تصورٌ أرضي، ربما يكون فيه شيء من التشابه مع تصوّر بعض قدماء بلاد الرافدين كما ظهر لنا من الفصل السابق، وهو أن بعض قدماء المصريين تصوّروا الحياة الثانية في وادي يقع في باطن أرض مظلمة كئيبة ماؤها عكر آسن، وهناك عدّة دلائل أهمها القصة التي وصلتنا من عصر "بطليموس" أول ملوك الفراعنة البطالمة، وهي قصة لزوجة رئيس الكهنة في ذلك العصر ويدعى "بشير انفتاح"، حيث تخاطب -من العالم الآخر بعد موتها- زوجها الكاهن قائلة له: "أخي وزوجي وصديقي: لا تنقطع عن الطعام والشراب وارتشاف كؤوس المسرات ومحبة النساء، واتبع شهوة قلبك نهارًا وليلاً، ولا تدع للهم مكانًا. إن "آمنتى" أرض الموتى، هي أرض ظلمة وكآبة، والجبابرة يرقدون في مومياتهم الجامدة لا يتحركون لرؤية إخوتهم، ولا يهتمون بزوجاتهم وأطفالهم، أما ينابيع الأرض الحلوة فهي مياه آسنة عندهم.. إنني لا أعلم أين أنا؟! حين وصلتُ إلى هذا الوادي وأنا أبكي خائفة حزينة والمياه تتدفق أمامي. إن الموتى يأتون بقلوب واجفة إلى هنا، فالموت الشامل لا قيمة للتوسلات عنده، والهدايا لا يلتفت إليها"[٢].

٢- تصوّرٌ آخر مختلف عن الخلود، يتجه إلى السماء لا إلى الأرض، بجوار الآلهة وفي جنتهم، وهذا هو الغالب الأشهر، حيث تشير إليه كتاباتهم بوضوح في عدة نصوص، من أظهرها النصين التاليين على سبيل المثال:

أ- كتابة محفوظة في متحف اللوفر، يقول فيها أحدهم ويدعى "ناخت من" إنه يتمنى أن يدخل قبره ويخرج منه فيشرب كل يوم من ماء بحيرة كانت له، وأن يطير فوق الأشجار التي غرسها وأن يستنشق النسيم العليل تحتها، وأن يصعد إلى السماء، وأن يحرث نصيبه في حقل "عارو" وأن يأكل الطعام على مائدة الإله العظيم.

ب- فقرات طويلة من كتاب الموتى، تدل عل إيمانهم بوجود حياة أبدية علوية في **(جنة مملكة آلهة السماء)**، وأكثر ما يهمنا منها قول قائلهم: "ليتني أنعم بجنتك أيها الإله حتبْ.. دعني أتمتع بأمجادك هناك، وآكل هناك وأشرب.. وأحرثُ وأحصدُ وأطحنُ، وأمتلئ بالحُبّ.. هناك أزدادُ نجاحًا.. وأستريح في المملكة الإلهية.. إنني أعرف أسماء كل منطقة هناك في المملكة الإلهية.. كما أعرفُ أسماء الأنهار التي تجري في جنة حتبْ.. إنني أبحر في مجراها وأمرح في جنبات جنة "حتبْ"، و"رع" يتألق في السماء، وحتبْ يرتب القرابين.. إنني أسرع إلى هناك، ليكون لي الفرح، وأمتلك الثراء والمجد، الذي قسمه الإله حتبْ لي". وقد حددوا مكانًا دقيقا لهذا الجنة، حيث تقع في **الجانب الشرقي من السماء**، حيث لاحظ قدماء المصريين أن النجوم تظل ثابتة هناك، وهكذا تصوروا هذه المنطقة مكانًا للنعيم الأبدي..

---

[١]- أنظر: حسين العودات، الموت في الديانات الشرقية، مرجع سابق، ص ٥٣.
[٢]- أنظر: د. عزت زكي، الموت والخلود في الأديان المختلفة، مرجع سابق، ص ص ١٣١-١٣٢.

جـ- وقد أشارتْ أيضًا نصوص الأهرام بوضوح إلى نفس عقيدة **(الخلود في سماء الآلهة)** إذ إنها تؤكد على أن الإنسان الصالح البار، يصعد إلى السماء، بعد رحلة جمة المخاطر، للإقامة مع الآلهة في السماء، وللدوران مع الإله "رع" في سفينته.. ثم فصّلت نصوص الأهرام أيضًا في وصف (جنة السماء) حيث ذكرتْ أن الصالحين والفائزين الممجدين، سيكون لهم الخلود في السماء، وسيقيمون في جزء محدد منها، فيه حقل يدعى (حقل الطعام) الذي يتناولون فيه أطعمة شهية مختلفة تتجدد ولا تفنى أبدًا، وهناك حقل آخر اسمه (حقل عارو) فيه شجرة جميزة عالية، تسمّى شجرة الحياة، وفي ظلها يجلس الآلهة، والمطوبون السعداء، يتناولون من ثمارها. وليس هذا فحسب، بل إن الثعبان الذي يحمي الشمس، يُرضعُ الإنسانَ السعيدَ الذي يقيم في الجنة **(لبن الخلود)** فيعود هذا الإنسان صبيًا فتيّا[١].

وبقي أن نشير في مسك الختام إلى أن (عقيدة الخلود المصرية) أثرتْ في الأديان التالية لها تأثيرًا عقليًا، كالمسيحية مثلا، فأهم ما يميز الديانة المصرية القديمة توكيدها فكرة الخلود بمنظور ديني فلسفي. فالمصريون يعتقدون أنه إذا أمكن أن يحيا أوزير النيل، ويحيا النبات كله، بعد موتهما، فإن في مقدور الإنسان أيضًا أن يعود إلى الحياة بعد موته، وكان إيمانهم ببقاء أجسام الموتى سليمة بصورة تسترعي النظر في أرض مصر الجافة مما ساعد على إثبات هذه العقيدة، التي ظلت مسيطرة على الديانة المصرية آلاف السنين، والتي انتقلتْ منهم إلى الدين المسيحي[٢].

[١]- عزت زكي، نفس المرجع السابق، الصفحات ١٢٩-١٣٠-١٣١.
[٢]- وِل ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، مج ١، ج ٢، ص ١٦٢.

خاتمة بنتائج البحث

من خلال استعراض الباحث للكثير ممّا وصلنا عن الموت وطقوسه والخلود وما يتعلق به، في فلسفات قدماء الفرس وقدماء بلاد الرافدين وقدماء المصريين، وبعد تحليله ومناقشته وتأمله وربط تفاصيله ببعضها، توصّل الباحث إلى جملة من النتائج المتعلقة بمسألة الخلود في فلسفات الشرق الأدنى القديم المذكورة، وأبرزها النتائج الأساسية الكبرى التالية:

أولاً: أظهر البحث اتفاق جميع فلسفات الشرق الأدنى القديمة الرئيسية الواردة في هذا البحث (الزرادشتية، والرافدية، والمصرية) على أن الروح –بشكل عام- لا تفنى بموت الإنسان، بل تنتقل إلى مكان آخر؛ ولكن الاختلاف بين هذه الفلسفات القديمة في هذه المسألة يظهر من خلال ما يلي:

ا- تحديد المكان الذي تنتقل إليه الروح بعد الموت: فهو: **أ-** في الزرادشتية: جنة نورانية للصالحين المؤمنين توصف أيضًا بأنها (دار النعيم والسرور) الأبديين للأخيار، وفي المقابل هناك دار العذاب والشقاء الأبديين للأشرار، حيث تؤمن "الزرادشتية" بالحياة الأخرى الخالدة للأرواح، بكل ما فيها من نعيم وعذاب، فأرواح الصالحين سوف تحيا حياتها الثانية في الجنة أو (دار النور) كما يسمونها، كنتيجة لسلوكيات صاحبها الخيّر في حياته الدنيوية الأولى. والعكس صحيح، إذ سوف تحيا أرواح الآثمين والمجرمين في "الجهنم"، كنتيجة لسلوكيات صاحبها أيضاً في الدنيا؛ ولكن قبل هذه الحياة ستنتظر الأرواح مدة تصل إلى آلاف من السنين التي تسبق يوم البعث والحساب. مع ضرورة التأكيد على ورود إشارات إلى حصول شيء من الشكوك والقلق الذي انتاب الزرادشتيين في أزمنة معينة، وعلى رأسهم زرادشت نفسه، الذي تساءل وخاف كثيرًا؛ ولكن المعلومات الأكثر والأرجح، تؤكد قطعيًا على يقينهم في النهاية وإيمانهم الكبير بخلود الروح المقترن بالسرور للإنسان الصالح، وفي المقابل هو خلود أبدي في العذاب للأشرار، فالحقيقة أن نصوص التساؤلات التي توحي بالشك قليلة إذا قارنها بالآيات الواثقة الكثيرة في القطع بوجود الاعتقاد الراسخ بخلود حقيقي للروح وحياة ثانية في عالم آخر لاحق.. وباختصار فمكان الإقامة في الحياة الثانية للصالحين هو الجنة، ويؤمن الزرادشتيون أن جنة ديانة زرادشت تشبه الجنة التي جاء وصفها في الإسلام، ولكنّ اعتقادهم بقدسية النار دفعهم إلى القول بأن مأوى خلود العاصين هو مكان بارد جدّاً وقذر ومليء بأنواع الدوابّ التي تنزل نقمتها بهم وتؤذيهم.

ب- عند قدماء بلاد الرافدين: هناك غموض وتداخل في المعلومات الواردة عنهم في هذا الشأن، وبالجملة فإن السائد العام الأشهر عنهم هو أنهم كانوا يصوّرون الدار الآخرة -كما صورها اليونان من بعدهم- عالمًا مظلمًا تسكنه الأطياف التعسة ويهوى إليه الموتى أياً كان شأنهم من غير تمييز بينهم. فلم تكن فكرة الجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب المخلّد قد استقرتْ بعد في عقولهم، فلم يكونوا يتقدّمون بالصلاة والقربان طمعًا في "الحياة الخالدة"، بل كانوا يتقدمون بهما طمعًا في النعم المادية الملموسة في الحياة الدنيا؛ ولكنهم مع ذلك يؤمنون إيماناً سطحيًا غامضاً بوجود عالم أسفل وحياة ثانية للروح فيه، بدليل الخوف من كثرة الذنوب المنتشر في نصوصهم الأدبية وغيرها، وبدليل تزويدهم الميت بكثير من الأشياء في قبره، ومنها الطعام والأدوات والحاجيات المختلفة كالخواتم والغيارات من الملابس الداخلية، والعطور والأمشاط والكحل.. بالإضافة إلى نقطة مهمة جدًا، وهي أن قبور ملوكهم وجد فيها (مرافقون) من خدمهم وحشمهم ووزرائهم وموظفيهم، مما يزيد من تأكيد إيمانهم بوجود عالم آخر، إذ إنهم كانوا يعتقدون أن هؤلاء المرافقين سيقومون بخدمة الملوك وأمثالهم

من العظماء في حياتهم الثانية، حيث سجّل الباحثون وعلماء الآثار وجود آلاف القبور الملكية في عدد من مناطق العراق القديم، واشترك كثير منها في أن القبر لا يقتصر على دفن شخص واحد في القبر بل وجد فيه بالإضافة إلى صاحب القبر أو الشخصية الرئيسية التي شيد القبر من أجلها (المقصود الملك غالبًا) وجد معه عدد من البشر المدفونين والحيوانات والعربات وكذلك مجموعات نفيسة من الحلي الذهبية والمجوهرات والأحجار الكريمة وغيرها.. **والخلاصة هي أن مكان حياة الروح الثانية هو (العالم الأسفل)** في تصوّر كثير من قدماء بلاد الرافدين، ويقع هذا العالم تحت سطح الأرض الظاهر، وقد وصفوه بأنه عالم مخيف بهيئة مدينة مسوّرة بسبعة أسوار يحرسها مردة الشياطين، وسموه بأسماء كثيرة منها (الأرض التي لا رجعة منها) وتحكم هذا العالم إلهة شديدة قاسية اسمها "كيجال"، ويساعدها في هذا الحكم مجموعة من الآلهة والشياطين والكتّاب لتسجيل شؤون الموتى.. ورغم ضبابية واضطراب صورة هذا العالم في معتقداتهم، إلا أنهم كانوا يرونه عالمًا مرعبًا يكاد يتساوى فيه الموتى، فلا قيامة ولا جنة ولا نار ولا حساب أخروي بالصورة المعروفة في الأديان السماوية وغيرها.

ولكن هذا لا يلغي وجود اعتقادات سائدة منها أن (مصير الموتى) في ذلك العالم الأسفل لم يكن واحدًا، وسنوضح تفاصيل ذلك في الأسطر القادمة من هذه الخاتمة. والخلاصة هنا الآن أنهم لم ينظروا إلى الموت كغاية تنتهي عندها الحياة وتنعدم انعدامًا كليًا، أي أنهم لم يعتقدوا بالفناء المطلق، فبعد انفصال الروح عن الجسد، **تنتقل الروح إلى طور جديد من الوجود، إذ تنحدر الروح بعد وضع الجسم في القبر إلى (عالم الأرواح) وهو العالم الأسفل، وتعيش هناك إلى أبد الآبدين.**

ج- عند قدماء المصريين: عقائدهم متضاربة مزدحمة بأعداد رهيبة من الطقوس والنصوص والأفكار التي لا يمكن من خلالها تكوين صورة قطعية دقيقة لعقيدتهم في العالم الآخر، الذي تتفق جلُّ كتاباتهم على وجوده وعلى أنه عالم أبدي خالد. فهناك في هذه النقطة تصوّرات عديدة متداخلة مختلفة عن بعضها في العقائد المصرية القديمة، أهمها أن بعضهم تصوّر أن خلود عامة الناس يكون في مهامة مظلمة تحت الأرض، لا فرق فيها بين خيّر وشرير، بينما يخلد الملوك في السماء، فكانت السماء جنة الخلود للملوك، أما تحت الأرض فكان مقر بقية البشر الموتى. وهو تصوّر قليل الورود في المصادر مقارنة بالتصورات الأخرى، وأهمها أن الكثير من قدماء المصريين تصوّروا أن الحياة في العالم الآخر مثلها مثل الحياة على الأرض، حيث يوجد سماء مثل سماء الأرض، ونظراً لأن الزراعة كانت عماد الحياة في مصر أيضاً فستكون كذلك في العالم الآخر، حيث تصوروا أن العالم الأخر حقول من القمح والشعير يحصدونها ويتمتعون بالخير الوفير والأمان فيها، فكانت هذه الحياة الثانية مشابهة للحياة الدنيا تمامًا، مع اختلاف المكان فقط، دون تغيير جدي. فيبقى الرجل والمرأة والشيخ والطفل خالدين مخلدين في الحياة الأخرى، كما كانوا في الحياة الأولى، فهناك في الحياة الأبدية الثانية يسيطر الرجل على زوجته وأولاده، ويتاح له في حياته الأخرى كل ما كان يجلب له الفرح والسرور في دنياه، كما أن عمل الخدم يستمر هناك، فالخبازين والجزارين والنساء الخادمات وغيرهم، يقومون في العالم الآخر بخدمة أسيادهم وغيرهم من الناس الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا.

وهناك تصوّر شهير سائد ذائع عنهم، اتفقت على تأكيده الأكثرية، وهو أن الذين يصلون إلى "أوزير" مبرئين من جميع الذنوب يسمح لهم أن يعيشوا مخلدين في "حقل الفيضان السعيد"- أي في الحدائق السماوية حيث توجد الوفرة والأمن على الدوام. وخلاصة هذه النقطة هي أن أبرز تصورين للمكان الذي يحيا فيه الإنسان حياته الثانية بعد الموت **هما التصور الأرضي، والتصوّر العلوي**، فالأرضي

ربما يكون فيه شيء من التشابه مع تصوّر بعض قدماء بلاد الرافدين، وهو أن بعض قدماء المصريين تصوّروا الحياة الثانية في وادي يقع في باطن أرض مظلمة كئيبة ماؤها عكر آسن، وأوردنا على ذلك وغيره مما سبق دلائل وشواهد كثيرة. أما التصوّر العلوي، فيتجه إلى السماء لا إلى الأرض، بجوار الآلهة وفي جنتهم، وهذا هو الغالب الأشهر، حيث تشير كتاباتهم إلى إيمانهم بخلود الأبرار والصالحين في (جنة مملكة آلهة السماء)، حيث توجد هناك أمور كثيرة سارة مبهجة، أهمها مثلا حقل "عارو" أو (الحقول الفردوسية) التي يحرثونها ويأكل ويشرب هناك الأخيار أيضًا على مائدة الإله العظيم. وقد حددوا مكانًا دقيقا لهذا الجنة الإلهية السماوية، حيث تقع في الجانب الشرقي من السماء، حيث لاحظ قدماء المصريين أن النجوم تظل ثابتة هناك، وهكذا تصوروا هذه المنطقة مكانًا للنعيم.. وقد ظهر من البحث أن نصوص الأهرام فصّلت أيضًا في وصف (جنة السماء) حيث ذكرتْ أن الصالحين والفائزين الممجدين، سيكون لهم الخلود في السماء، وسيقيمون في جزء محدد منها، فيه حقل يدعى (حقل الطعام) الذي يتناولون فيه أطعمة شهية مختلفة تتجدد ولا تفنى أبدًا، وهناك شجرة جميزة عالية في حقل عارو، تسمّى شجرة الحياة، وفي ظلها يجلس الآلهة، والمطوبون السعداء، يتناولون من ثمارها. وليس هذا فحسب، بل إن الثعبان الذي يحمي الشمس، يُرضعُ الإنسانَ السعيدَ الذي يقيم في الجنة (لبن الخلود) فيعود هذا الإنسان صبيًا فتيّا في عقيدتهم.

٢- كيفية انتقال الروح إلى مكانها الجديد بعد الموت: حيث يظهر الاختلاف بينهم وفق التالي: **أ-** بالاطلاع على كتاب "الزرادشتية" المقدّس (الأفستا) وبغيره من المصادر والمراجع، اتضح لنا أن الزرادشتيين بعد قيامهم بتجهيز جثث موتاهم وفق الكيفية التي فصلنا فيها، يسارعون إلى التخلّص من تلك الجثث النجسة في اعتقادهم، بوضعها في الأماكن البعيدة المرتفعة، التي تسمّى أبراج السكوت أو "الداهما"، كطعام للطيور الجارحة، حتى لا تلوّث أرضهم ومياههم وبيوتهم وأجسادهم.. ثم تستمر فترة الحداد (ثلاثة أيام) والسبب في ذلك هو ما يهمنا هنا، وهو أن الاعتقاد السائد عندهم هو أن الروح لا تغادر الدنيا في الأيام الثلاثة التالية على الوفاة، ولذلك تقام لها الصلوات والتراتيل المتصلة خلال هذه الفترة، وفي صباح اليوم الرابع تفارق الروح العالم الدنيوي إلى العالم الأخروي، مما يتطلب إعداد حفلة دينية وطقوس كثيرة شرحناها بالتفصيل، تهدف إلى مساعدة الروح أثناء سيرها في مراحل العالم الآخر، وأهمها (جسر جينفات) المشابه للصراط في الإسلام وغيره من الأديان، وكذلك (المطهر) الذي يمرون به وفق ما شرحه البحث، قبل أن تنتهي الأرواح الخيرة إلى الجنة في دوام سرمدي، والشريرة إلى الجحيم والمعدن الملتهب الذي تخلد فيه إلى الأبد. ولكن الأرواح قبل أن تصل إلى أماكن الحساب والإقامة الأبدية في السعادة والنعيم، أو في التعاسة والشقاء، لا بد من مرور كل إنسان قبل ذلك بمرحلة (محاكمة الميت) وإجراءاتها التي شرحناها بالتفصيل، وزبدة هذا الشرح أن الساعة ستقوم -وفق الزرادشتية- نتيجة حادث فلكي ضخم، حين يصطدم بالأرض أحد الكواكب، فتميد الأرض بالناس وتخر الجبال هدّا، وتذوب العناصر ويصهر النحاس ويسيل إلى جهنم، ويفنى "أهريمان" وعناصره من الشياطين، ويُغسل الناس في منصهر النحاس، ولكنه لن يضر الأخيار، الذين سيجدونه بردًا وسلامًا عليهم، ثم في محاكمة الميت يُطلب من كل إنسان أن يقدم حسابًا عن كل ما جنته يداه حين كان في الجسد، وعلى ضوء ما يقدّمه يتحدد مصيره، فإن كان مطيعًا لأوامر وتعاليم زرادشت وممتثلا لها، فإنه سينجو وتنعم روحه في دار النعيم، وإن كان العكس فمصيره العذاب الأبدي في الجحيم.. أمّا الذين تتساوى حسناتهم وسيئاتهم، فإنهم يذهبون إلى مقام وسط، يقع بين الأرض والكواكب، يبقون فيه يعانون في انتظار مصيرهم إلى يوم الدينونة الأخير. أما القضاة، فعلى باب مكان المحاكمة يوجد ثلاثة قضاة بينهم (ميتهرا) وهناك

يُنصب ميزان توضع في إحدى كفتيه حسنات الميت، وفي الأخرى سيئاته، وبناء على صعود إحدى الكفتين أو هبوطها يصدر الحكم على مصير هذا الميت، ثم يؤمر من تمت محاسبته بالمرور فوق المعبر أو الصراط الممتد فوق الجحيم الذي يتسع أمام الأخيار فيعبرونه إلى (دار النور) ويستقبلهم "آهورامازدا" وهناك يستمتعون بالخلود في السعادة الأبدية، ويضيق حتى يكون أدق من الشعرة وأحدّ من الشفرة أمام الأشرار الذي يسقطون منه ويتهاوون في جحيم ملتهب مظلم يتزاحمون فيه.

ب- أما الرافديون قديمًا، فقد ظهر لنا من البحث أن لهم طقوس كثيرة مع الموت الذي يسمونه (العودة إلى الصلصال) أو الرجوع إلى التراب، ورغم أن سكان بلاد الرافدين القديمة لم يتفقوا على أي شيء عند الدفن، لا في شكل التوابيت، ولا في تجهيز الجثة ولا في وضعيتها في القبر، ولا في الجهة التي يوجه لها الميت، ولا في طريقة حفر أو بناء القبور، إلا أننا نجد أن الهدف من بعض هذه الطقوس أو العادات أو الممارسات **مرتبط بروح الميت وانتقالها**، ومن أبرز ذلك مثلا اعتقادهم القوي بأهمية دفن الميت؛ لأن روحه لا يمكن أن تستقر بعد الموت إلا إذا دُفنت جثته بشكل جيد، أما عدم دفنها فيجعل روح الميت تظهر بصور مختلفة مفزعة للأحياء؛ ولذلك كانت القوانين العراقية القديمة توقع عقوبات صارمة على المجرمين الذين قاموا بجرائم بشعة، ومن تلك العقوبات (عدم دفن جثثهم). وأيضًا كان الملوك ينتقمون من أعدائهم بنبش قبورهم، إمعاناً في تعذيبهم وجعل أرواحهم غير مستقرة، كما وجدنا أن الهدف من بعض تلك الطقوس هو إرضاء آلهة السماء وآلهة العالم الأسفل معًا وتجنب غضبها، حتى يتم الاعتناء بالميت، فيكلفون بعض الأشخاص والكهنة من أجل (تلاوة التعاويذ) مثلا بعد موته مباشرة، بحجة أنها تعمل على **تحسين حالة روحه في العالم الأسفل**، وهو العالم الذي تنتقل إليه روح الميت بآلية عجيبة عن طريق **(القوارب)**، ولذلك وجدنا أنه عثر على كثير من القوارب في عدد من كبير من قبورهم، والسبب أنهم كانوا يؤمنون بأن هناك نهرًا يسمى "خبرة" يفصل بين الحياة الدنيا وعالم الأشباح الذي يسمونه (الأرض الهائلة)، فعندما يموت الناس فإن أرواحهم لابد أن تعبر هذا النهر بالقوارب، وبعد وصولها تقوم إلهة الكتابة "بعلة صيرى" بتسجيل أسماء الداخلين، كما أن الموتى يطالبون بدفع (رسوم العبور) حيث يتقاضى منهم المسؤول نقودًا قبل السماح لهم بالعبور إلى العالم الأسفل.. وحكاية (القوارب والنقود) ناتجة عن معتقدات كثيرة متشابكة عندهم، من أبرزها مثلا اعتقادهم بأن الأرض تنقسم إلى ثلاث طبقات، الأولى هي الأرض العليا، والثانية هي الأرض الوسطى، **والثالثة هي الأرض السفلى حيث عالم أرواح الأموات**. والقبر هو المدخل لعالم أرواح الأموات السفلي؛ وهناك مدخل آخر يقع عند نقطة مغيب الشمس. وفوق العالم السفلي -الذي يقع في الطبقة الأخيرة تحت الأرض- كانت تمتد مياه العمق؛ وهناك يوجد نهر "خبرة" السالف الذكر، الذي يسمونه أيضًا نهر "عبر"، وهو المؤدي إلى العالم الأسفل، ومعتقداتهم حوله هي أنه لا يمكن عبور الموتى لهذا النهر والوصول إلى أسوار مدينة الموتى إلا بعد إقامة الشعائر الجنائزية وتقديم القرابين لآلهة العالم السفلي، عبر نهر عبر. وهذا سبب وجود السفن ونماذجها المختلفة في المرفقات الجنائزية، إضافة إلى **(قطع النقود)** التي سيدفعها الموتى للمسؤول عن عبورهم إلى العالم السفلي.

ج- أما قدماء المصريين، فقد كان الموت في عقيدتهم الفرعونية هو بداية (الحياة الحقيقية)، وكانت الجنازة أقرب إلى حفل زفاف إلى العالم الآخر الجديد، كما أن **(الاحتفال بدفن الموتى)** كان أمرًا مهمًا وشائعًا عندهم، فقد اعتقدوا أن سعادة الشخص الميت في المستقبل تتوقف على هذا الاحتفال، وعلى المعتقدات المرتبطة بالطقوس، حيث كان الميت يدفن دائمًا ولا تحرق جثته أبدًا، وقد ظهر لنا

من خلال (أعياد الموت) وغيرها، أن الأحياء يحملون إلى قبور موتاهم ألوان الطعام والشراب، فيأكلون ويشربون ويصيب معهم من ذلك الطعام والشراب كل طارق، ثم يلهون ويمرحون، ويعتقدون أن الموتى إنما يشاركون بأرواحهم في الطعام والشراب وفي اللهو والمرح أيضا، كما أن الميت لا يبقى سجينًا في قبره المظلم، بل يخرج منه -أو تخرج قرينته منه- أثناء النهار فقط، فيكون حرًا في النهار يغادر ضيق القبر ويتجول كيف شاء على الأرض، وللحفاظ على نفسه من الأفاعي السامة والتماسيح والعقارب كان يتسلح بالتعاويذ السحرية، ويعتقد أن مخلوقاً آخر يؤوي جسم الإنسان ولا يُرى في الحياة الدنيا، وتلك هي (الروح).

كما ظهر لنا أنه بوجود الكتابات العقائدية الكثيرة المسجلة على جدران الأهرامات وغيرها، أن من غاياتها هي اعتقادهم أنها ستكون عوناً للأموات في الحياة الأخرى، كما عكست خوف المصري القديم من الموت ومعرفته بأنه سيحاكم علي ما اقترفه من جرائم وأعمال، والخلاصة أننا إذا اعتبرنا أن أهرامات الجيزة هي محطة إطلاق للأرواح من العالم المادي إلى العالم الآخر، فإن نصوص الأهرام هي بمثابة (الكتالوج) الذي يشرح طريقة تشغيل هذه المحطة، ويصف الطريق الذى تسلكه الروح في رحلتها إلى العالم الآخر، وكل ذلك كان تأثرًا بتأمل فيضان النيل المنتظم، الذي كان ماؤه يغطي الأراضي الزراعية الجافة كل عام فيبث فيها الحياة من جديد لتصبح أرضًا خضراء رطبة تنتج أشكالا وألوانًا من المزروعات، ثم تعود الأرض بعد ذلك إلى الموت والجفاف من جديد، حتى يحصل الفيضان التالي فتعود الحياة، فهذا الفيضان كان يعطيهم إشارة طبيعية أنه يشبه الإنسان حيث يقترب من الموت تدريجيًا كحال الفيضان كلما انخفض ماؤه، ولكن عودة الفيضان مجددا في العام التالي وبقوة وعنفوان أعطتهم شعورا بأن الإنسان أيضا بعد ضعفه ورحيله سيعود مجدداً، فجميع الظواهر الطبيعية الكثيرة كشروق الشمس وغروبها وكذلك القمر، التي فيها قدوم ورحيل ونشاط وضعف وبروز واختفاء.. كلها أوحت إلى المصري القديم أو بعثت فيه **فكرة الحياة الأبدية وعقيدة الخلود.** فآمن أن الروح تنتقل مباشرة إلى عالم الآخرة بعد الموت، حيث تعيش هناك حياة ثانية تختلف سعادتها وشقاوتها حسب العمل الذي جناه الإنسان في حياته الدنيا، أو أن الروح قبل أن تستقر على حال لابد أن تعرض أولا للحساب.. ويلخص عقيدة بعض المصريين القدماء في الروح قولهم: (إن الروح مستقرها السماء بينما الجسد في الأرض).

وقد صوّر المصريُّ الروح (عنصر الباء) في أشكال مختلفة، لعل أهمها تصويرها على **هيئة طائر برأس إنسان يشبه رأس صاحبه وبيدان آدميتان،** ولاشك أن هذا التصوير هو تعبير عن أن الروح سوف تحلق في السماء كالطير بعد الموت، فكانوا يعتقدون بحدوث ذلك فور الموت، ولكن الروح ستعود إلى جسد صاحبها لتبعث فيه الحياة مرة أخرى، إذا ما بقي محافظا على شكله، ومن هنا نشأ التحنيط. فبعد خروج الروح **ثبت لنا أن الكثيرين منهم يعتقدون بصعود روح المتوفى إلى السماء عبر سلم علوي عظيم،** خاصة إذا كان ملكاً، أو أن الملك يصعد قابضًا على ذيل البقرة السماوية، أو محلقاً كطائر أو محمولا على دخان البخور المحترق من الكاهن أو على ظهر عاصفة رملية.

ثم استقر الاعتقاد عندهم بعد ذلك، هو خروج روح كل إنسان يموت على شكل **(طائر برأس إنسان).** فالروح في نظرهم ذات منفصلة عن الجسم تمام الانفصال، إلا أنها تحل فيه حلولا متصلا ومنقطعا، وهي جوهر خالد، يشكل حلقة الوصل بين الإنسان والإله، فالروح تتصل بعالم الآلهة مادام الإنسان على قيد الحياة. أما بعد الوفاة فيمكن للروح أن تتصل بعالم الأحياء، فتنبئ الأحياء بأسرار المستقبل، وتحذرهم مما عساه أن يكون في طريقهم من أخطار، وتبشرهم أيضا بما عساه ينالهم من خير.

وفهمنا من متون الأهرام أنهم يعتقدون أن الملك المتوفى بعد دفنه في الغرب كان يصعد للسماء ويتحول لجسم سماوي أو نجم، ويُحتمل أن أقدم اعتقاد بالولادة الثانية كان يتم في السماء حيث يولد المُتوفى على (هيئة نجم) وهذه الهيئة تعبر عن الأبدية والاستمرارية، إلا أن أمام روح الميت **مفازات مرعبة** تفصل عالم الدنيا عن عالم الآخرة، وعندما ينجح الميت في تجاوزها بفضل الرُقى السحرية المودعة في مدفنه، يلقاه الإله أنوبيس، فيقوده من يده ويدخله قاعة العدالة للمحاكمة والحساب.

كما وردتْ إشاراتٌ تدل على وجود اشتراك بين بعض عقائد المصريين والزرادشتيين القدماء، حول موضوع **(المطهر)** فقد ورد في بعض نسخ "كتاب الموتى" المحفوظة في متحف اللوفر بباريس أن النفس التي ارتكب صاحبها بعض الهفوات لابد أن تذوق العذاب في طريقها، ولكن إلى حين محدد، لتطهيرها قبل أن تدخل الجنة. وكل هذا الكلام السابق يشمل غالبية قدماء المصريين، **باستثناء الملحدين منهم**، الذين أوردنا بعض معتقداتهم النافية لكل هذه العقائد السائدة في مصر القديمة، وباستثناء بعض قدماء المصريين أيضًا، الذين آمنوا بعقيدة الخلود عبر **(تناسخ الأرواح)**، حيث اعتقدوا في تاريخ متأخر بعد (١٣٠٠ ق. م) ولأسباب تتصل بتطور الوعي بوجود جوهرين داخل الإنسان الواحد هما الجسد والروح، وآمنوا أَنَّ الروح خالدة لا تفنى، ولكنها تنتقل من جسد لآخر بحسب عملها السابق في الأجساد الأولى. غير أنه من المهم أن نؤكد أيضًا إلى أن هناك من يعترض على هذا، حيث يرى البعض أن المصريين لم يؤمنوا بعقيدة التناسخ إطلاقًا.

٣- حال الروح في مكانها الجديدة وتوصيف حياتها الثانية: أظهر البحث اختلاف فلسفات الشرق الأدنى القديم في ذلك، على النحو التالي:

أ- في الزرادشتية، أثبتنا من عدد من نصوص كتابهم الأفستا المقدّس وغيره، أن نفوس الخيرين **سوف تبتهج في الحياة الثانية الخالدة في الجنة النورانية**، التي ستعيش فيها الأرواح الطيبة في حياة جديدة سعيدة خالية من كلِّ الشرور والآلام والظلام والأحزان؛ وهذا في الحقيقة امتدادٌ لما حدث لهذه الروح الصالحة بعد الموت مباشرة، فهم يؤمنون أن روح الإنسان الخير المؤمن يهبط عليها الخير والهدوء مباشرة **خلال الأيام الثلاثة الأولى** التالية لموته، وهو أكثر من كل الخير والهدوء اللذين رأتهما هذه الروح طيلة كل حياتها الدنيوية. فتشعر برضى وسعادة لم تشعر بمثلها قط في حياتها الأرضية، وبعد انقضاء الليالي الثلاث تنطلق روح الصالح للتجول بين النباتات ذوات الروائح العطرة، ويستمر بها الحال في نعيم وسهولة في تجاوز الصراط، ثم السرور الكبير الدائم المرتبط دائمًا بموضوع خلود أرواح الصالحين الأخيار في جنة ديانة زرادشت النورانية.

كما سيتعذب الكاذبون إلى الأبد في الجحيم الذي يسمونه (الجهنم) أو المعدن الملتهب المظلم الذي يتزاحمون فيه، ويعانون فيه من البرودة الشديدة جدّاً، والقذارة وأنواع الدوابّ المؤذية. أما إذا كانت حسنات الإنسان ترجح سيئاته، فإنه يقاسي عذابًا مؤقتاً يطهره من الذنوب، وإذا كان قد ارتكب كثيرًا من الخطايا ولكنه فعل بعض الخير لم يلبث في العذاب إلا اثني عشر ألف عام، ثم ينتقل بعدها إلى عالم **الخلود في دار النور** أو الجنة النورانية.

ب- أمّا قدماء بلاد ما بين النهرين، فقد ظهر لنا شيء من ذلك في عدد من الأسطر السابقة من هذه الخاتمة المتعلقة بتحديد المكان الذي تنتقل إليه الروح بعد الموت، وبالإضافة إلى ذلك فقد اعتقدوا أن مصير الموتى في العالم الأسفل ليس واحدًا، بل ينقسمون إلى فريقين، ولذلك كان أقصى ما يطمعون فيه أن يكونوا من **الفريق الأول** الذين يستريحون في (العالم السفلي) فوق أَسِرّةٍ ويشربون ماءً نقيًّا، أو

أن ينالوا عون آبائهم وأزواجهم إن كانوا ممن سقطوا في المعارك.. أما **الفريق الثاني** فإن مصيرهم كان محزنًا، حيث تأكلهم الديدان ويملؤهم الغبار وتحصل لهم أمور كثيرة مشابهة قاسية.

بالإضافة إلى أننا لا نستطيع تجاهل ورود إشارات –رغم قلتها- إلى أن الروح في فكرهم **تحمل معها حسنات وسيئات المتوفى** بعد الموت وتنتقل بتلك الحسنات والسيئات معها إلى العالم الأسفل، فهذا يزيدنا يقينًا أن إيمانهم لا يتوقف عند وجود عالم أسفل تنتقل له الأرواح بعد الموت فحسب، وإنما يمتد إيمان الكثيرين منهم ليشمل الإيمان بأن الحسنات والسيئات سترافق روح الإنسان إلى ذلك العالم الأسفل كما ظهر من بعض المعلومات القليلة الواردة في الأطروحة. وليس هذا فحسب، بل إنهم يؤمنون -حسب كثير مما نقل وكتب عنهم- بوجود (آلهة تحاكم أرواح الموتى) وأن مرتبة المرء في (العالم الآخر) تعتمد وتتوقف على نشاطاته وأعماله إبان حياته.. ومن آلهة المحاكمة عندهم "إله الشمس" الذي يمرّ بالعالم السفلي فيزودهم بالضوء الوحيد الموجود لديهم، ثم يتولّى الحكم على أرواح الموتى، بالإضافة إلى "الإله ننار" الذي يحكم عليهم أيضًا ويقرر نصيبهم.

كما يتصف العالم الأسفل في تصوّرهم بأنه **مكان يملأه الغبار ويأكل أهله الطين والتراب، وعليهم أجنحة من ريش تنقلهم كما الطيور، وهم يقيمون هناك حفاة عراة لا يلبسون الأحذية ولا أي ملابس باستثناء الريش الذي يكسوهم؛** والسبب هو أن حرّاس بوابات العالم الأسفل لا يسمحون لأحد بالدخول إليه إلا إذا تم تجريده من كل شيء يلبسه، الأحذية والمجوهرات والملابس وكل شيء. كما أن قدماء بلاد النهرين كانوا يؤمنون بأن أرواح الموتى تسمع الأصوات الصادرة من عالم الأحياء من جهة، وتبقى محتفظة بمشاعرها تجاه من تحبهم ومن تكرههم من جهة ثانية.

ومع اتفاق كثير من الباحثين على أنهم لم يعتقدوا بوضوح بعقيدة الجنة والنار وما شابهها من عقائد النعيم والعذاب، إلا أن الرافديين كانوا يلطفون أحيانًا الأمر، فيقولون في كثير من نصوصهم ومآثرهم –ومنها اللوح ١٢ من ملحمة جلجامش- أن الموتى الذين خلفوا الحسنات والأعمال الصالحة والموتى الذين تركوا أولادا، والموتى الذين يقدم أهلهم لهم القرابين، وما شابه.. يقولون: إن هؤلاء الموتى **ينعمون بشيء من الراحة في العالم الأسفل** ويمنحون الماء والطعام. كما تؤكد بعض مآثرهم أنهم يؤمنون بنوع من الحساب إذا دخلتْ الأرواح عالم الأموات، فبحسب اللوح المذكور وغيره: هناك في ذلك العالم الأسفل **من يُعذّب ويعاني ولا تستقر روحه،** وفيه -في المقابل- من ينعم بشيء من الراحة والسكينة والطعام كما أسلفنا. أما موضوع (حساب البشر) بعد الموت، فلا يمكن نفيه بشكل قاطع، رغم كثرة القائلين بعدم وجود حساب للبشر في العقائد الرافدية.. والسبب هو أن هناك فريقاً قويا من كبار الباحثين أيد وأكد وشدد على **وجود الحساب الأخروي** في معتقداتهم، وقد تطرقنا لأولئك الباحثين وكلامهم في ثنايا الفصل الثالث من البحث.

ج- أمّا في الديانة المصرية القديمة، فقد أشرنا في الأسطر السابقة من هذه الخاتمة إلى شيء من هذا؛ ولكننا لم نفصل في بعض النقاط المهمة التي خرج بها البحث عن حال الروح في العالم الآخر، وأهم ما يجب أن نشير إليه هنا هو موضوع **(محاكمة أوزير)** حيث تبدأ إجراءات محاكمة الميت عندما يقوم أنوبيس بإدخال الميت –الذي يرتدي ثوبًا من الكتان- فيلقي التحية على أوزير أو "أوزوريس" وباقي الآلهة، ثم يدافع الميت عن نفسه ٣٦ مرة؛ لأنه يخشى ألا يصدقوه، فيعيد إقراره الدال على براءته متوجهًا نحو ال٤٢ إلها، حيث كانت مصر القديمة مقسمة إلى ٤٢ إقليمًا، فكان كل إله يمثل إقليماً من أقاليم مصر.

وبعد ذلك يذكر الميت –في معرض دفاعه عن نفسه- كيف كان خيّرًا يعطي الخبز للجائع ويقدم الماء للعطشان و يكسى العاري وغيرها من أعماله الصالحة مثلا. ثم يوضع قلبه في كفة الميزان وفي الكفة الأخرى تمثال صغير للحقيقة (معات) ولم يذكر تفصيلاً كيف يوزن قلب الميت ولا أحد يعرف هل الآثام كانت تثقل القلب أم تجعله خفيفًا؟. والخلاصة أنه إذا ثبت أن هذا الرجل بريء كان له الحق في الحياة الخالدة والسعادة الأبدية في العالم الآخر، أمّا إذا كان مخطئًا فإنه يُدمَّر بواسطة الملتهمة وهي (وحش خرافي مزيج من التمساح وأسد وفرس البحر).

والخلاصة أن الأخيار أو الأبرار بعد المحاكمة يتجهون إلى حقول "يارو" أو **حقول الخلود الفردوسية**، أو الجنة الأوزيرية المسماة (حقول القصب)، وهي عبارة عن أرض خصبة تقع وراء الأفق الغربي، تتخللها شبكة من القنوات المائية تجعلها أشبه بالجُزر المتقاربة، وتهبها خصباً وخضرة دائمة، فيها ينمو الزرع والشجر من كل نوع، وتعيش فيها أرواح الصالحين في صحبة الآلهة وبقية الأرواح الصالحة خالدة إلى الأبد، ويأكلون الكعك والجعة وغيرها من الأطعمة.. إلى غير ذلك من أسماء أماكن النعيم وصوره، التي عرّجنا عليها باقتضاب في الأسطر السابقة من هذه الخاتمة، بعد أن تناولناها بشرح مفصّل في الفصل الرابع من الأطروحة..

أما المذنبون فإن مصيرهم **إمّا أن يكون الفناء** كما ورد في عدد من المراجع والروايات، حيث يبتلع الكائن الخرافي المسمّى **"عمعم"** قلوبهم.. أو أن مصيرهم هو **العذاب الأبدي والخلود في أماكن العذاب الدائم**، التي ترد بأسماء كثيرة عندهم، كجحيم الإله سكر مثلا وغيره. وبالجمع بين الروايتين، أظهر لنا البحث وجود موقف ثالث قوي أيضًا، وهو أن تصوّر كثير من المصريين القدامى لحال الأشرار والفجار هو أنهم **سيعيشون في عذاب طويل يتلوه الفناء** في النهاية.

مع ضرورة الانتباه إلى أن غالب الكلام الذي ورد عن خلود الروح في هذا البحث، يستلزم بالضرورة عند الكثيرين شمول الجسد أيضًا، كما سيظهر لنا من الأسطر القادمة الخاصة بمسألة خلود الجسد.

ثانيًا- أظهر البحث اختلاف فلسفات الشرق الأدنى القديم الواردة في البحث عن بعضها، في مسألة **(خلود الجسد)**، وفق الموجز التالي:

أ- في الفلسفة الزرادشتية: وردتْ في البحث نصوصٌ مختلفة من نصوص الزرادشتيين المقدسة وغيرها، يُفهم منها بشكل مؤكد أن "الزرادشتية" تؤمن ببعث الأجساد وحياتها في العالم الآخر، بل وخلودها مع الأرواح فيه؛ ووردتْ -في المقابل- نصوص أخرى مختلفة أيضًا يفهم منها أن الزرادشتيين لا يؤمنون بوجود حياة ثانية للجسد، وأن البقاء بعد الموت هو للروح وحدها، أما الجسد فمصيره للفناء.

وقد بذل الباحث ما تيسر من الجهد في البحث عن أقوى المحاولات للتوفيق بين نصوص المجموعتين المتضاربتين، وانتهى وخلص من كل ذلك إلى أن أقوى المحاولات وأرجحها وأقربها للصواب، هو ما ذهب إليه عدد من الدارسين، وهو أن القسم القديم من (زند أفيستا) لا يوجد فيه ما ينبئنا برأي "زرادشت" في الشخصية البشرية من: جسم وروح من حيث المبدأ أو المصير، وإنما كل ما لدينا في هذا الشأن قد وُجد في الأجزاء الأخيرة التي كُتبتْ بعد عصر زرادشت بزمن غير يسير، أي بعدما ارتقتْ المعارف الإنسانية نوعًا ما، وبدأ الخاصة يفكرون في ثنائية الإنسان ويحللونه

إلي جسم وروح، حيث في هذه الآيات الزرادشتية المتأخرة أن الإنسان يتألف من جسم وروح، وأن الجسم يتكون من أربعة أشياء هي: ١- اللحم. ٢- العظم. ٣- القوة الحيوية. ٤- الصورة أو (القالب)، وهذا الأخير الرابع هو وحده الذي يعود إلى الحياة في حالة البعث دون الثلاثة الأول التي لا تبقى.

وبذلك تكون النتيجة النهائية هي أن خلاصة الراجح هو أن الخلود في "الزرادشتية" يكون للروح + قالب الجسد أو صورته، وأن مصير الإنسان عند بعضهم سيتحدد في الحياة الأبدية الثانية حسب الأعمال التي قدمها في حياته الدنيوية الأولى؛ وهذا ما يجعلنا –بعد تسليمنا برجحان هذه المحاولة في التوفيق- نحمل كلَّ النصوص التي وردتْ عن الخلود والبقاء الأبدي في العالم الآخر على هذا المحمل، أي أن الخالدين في جنة آهورامزدا مثلا، سيخلدون بأرواحهم وقوالب أجسادهم أو صورها.

ولكن خروجنا بهذا الموقف النهائي الذي يرجح أن الزرادشتية تؤمن بخلود الروح مع (قالب الجسد) أي مع صورته التي تمثل الجزء الرابع من أجزاء تكوين الجسد في معتقدهم، لا يعني عدم وجود آراء أخرى، فقد أظهر البحثُ أن هناك عددًا من الباحثين يميلون لموقف آخر، يراه الباحث ضعيفاً ومرجوحًا، وهو أن **الخلودَ في المعتقد الزرادشتي مقتصرٌ على الروح، وأن الأجساد مصيرها للفناء والاندثار.** فأصحاب هذا الرأي الثاني يؤكدون -وفق فهمهم لكثير من نصوص الأفستا وغيره- أن الإنسان ليس بخالد على المستوى الفيزيقي الجسدي، بل هو خالد على المستوى الميتافيزيقي الروحي فقط.

ب- في فكر قدماء بلاد الرافدين: يرى البعض أن الفلسفات الدينية الرافدية لم تحاول التعمق كثيرًا في ظاهرة الموت البيولوجي والموت الإنساني بشكل عام، فالثقافة الرافدية -في نظر هؤلاء- لم تبلغ درجة من التطور تؤهلها للتوصل إلى إبداء الرأي في ماهية الروح وتركيبها وعلاقتها بالجسد، وتزاوجها مع الجسد، وانفصالها عن الجسد عند الموت. حيث لم تتعرض لثنائية الروح والجسد بشكل واضح ولا جدّي، بل يبدو أنها لم تقل بوجود روح ملازمة للجسد أصلا..

ويتفق الباحث مع هؤلاء، فقد جاء الحديث في الجملة –في غالب المراجع- حديثاً عامًا عن الخلود، أو مرتبطاً بالأرواح أكثر، فمن النادر أن نجد ما يساعد على تحديد معتقداتهم وأفكارهم بدقة من موضوع خلود الجسد تحديدًا؛ ولكن البحث رغم ذلك، أظهر بعض الإشارات لما قد يفهم منه شيء من تلك المعتقدات والأفكار، وأهمها الإشارات الصريحة التي وردت في ملحمة جلجامش، وفصلنا فيها وفي غيرها، وتوصّلنا إلى أننا إذا جمعناها جنبًا إلى جنب مع بعضها، فسنجد تأكيدًا شديدًا على **عدم وجود إيمان لديهم ببعث الأجساد أو حياتها الثانية،** ناهيك عن خلودها وأبديتها. وبناء على ذلك وغيره تتفق كثير من المراجع إلى أن البابليين كانوا يعتقدون أن الجسد يفنى بعد أن تفارقه الروح، فعقيدتهم أن الجسد يعود إلى حالته الأولى، أي لتركيبه الأول، أي إلى عناصر الطبيعية. وهذا المعتقد البابلي جاء مشابها للعقائد السومرية وغيرها من معتقدات قدامى بلاد الرافدين.

كما أظهر البحث الرأي الثاني، الذي يميل إلى أن سكان بلاد ما بين النهرين قديمًا كانوا يعتقدون – في بعض حضاراتهم وأزمنتهم على أقل تقدير- بأن **الحياة تعود إلى الإنسان بعد دفنه،** والحجة هي القبور الكثيرة جدًا التي ثبت للباحثين أنهم كانوا يضعون فيها مع موتاهم الحاجات الأساسية التي يحتاجونها بعد عودة الحياة لهم. وقد عرضنا لنماذج مؤكدة مختلفة من قبور الأطفال والكبار والملوك.. الخ.

وهذا ما أكده باحثون كبار أورد البحث كلامهم، وخلاصته أننا رغم عدم وجود أدلة قطعية مكتوبة على أن البابليين كانوا يؤمنون بعودة الأرواح إلى الأجساد في القبور، إلا أن هناك براهين على وجود هذا المعتقد، إذ لا يمكن تفسير ما نجده في قبور موتاهم من أثاث ومتاع خاص بالموتى إلا بما يضاهي عقيدة رجوع الروح إلى الجسد، ومما يزيد التأكيد أن عادة وضع احتياجات الميت معه في قبره موغلة في القدم من ناحية أولى، فهي ترجع في أساسها إلى العصور الحجرية القديمة. ومن ناحية ثانية نجد أن هذه العادة منتشرة في كل العراق القديم.

وأظهر البحث اعتقادًا ثالثًا أيضًا، وهو اعتقاد متطور عن الاعتقاد الثاني السابق، الذي تعدّل قليلا فتحوّل إلى هذا الاعتقاد الجديد؛ لأن عودة الميت نفسه مرة ثانية إلى الحياة مسألة لا يمكن استمرار الاعتقاد بها؛ لأن ذلك من الناحية العملية غير ممكن على الإطلاق، ولذلك تحوّل هذا الاعتقاد واستقر على أن الميت لا يعود هو نفسه ثانية إلى الحياة، بل الذي يعود منه هي الروح، وأن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الموت في نظر سكان بلاد وادي الرافدين هو عملية انفصال الروح عن الجسد، وأن الذي يعيش الحياة الأخرى هي الروح وليس الجسد؛ ولكن للروح (ملامح) لا تختلف عن **(ملامح المتوفى)** قبل مماته. وتوقفنا طويلا لتأمل هذه النقطة، أعني نقطة (ملامح روح المتوفى المماثلة لملامحه)، حيث تذكرنا هذه النقطة بنقطة (قالب الجسد) في الزرادشتية، وبنقطة (القرينة) في الديانة المصرية القديمة.

وحاول البحث توضيح موضوع الملامح هذا بشكل أدق، والزبدة هي أن أرواح الموتى أو (أشباحهم) في كثير من عقائد الرافديين تبقى تحمل الملامح الأساسية لشخص صاحبها المتوفى بوضوح، رغم التغيير الذي يحصل لها عند الموت، والمتمثل بتزودها بأجنحة من الريش كما مرَّ معنا.. وعرض الباحث لكثير من الأدلة والبراهين المؤكدة لهذا المعتقد.

كما ورد عن بعض قدماء بلاد ما بين النهرين الإيمان برجوع الروح إلى الجسد في القبر، ولكن تصوّرهم لا يعني إيمانهم بالبعث أو النشور أو يوم القيامة أو ما شابه من معتقدات الأديان، وإنما يعني إيمانهم بعودة الروح إلى الجسد بكيفية وشكل مختلف غامض مجهول للباحث، الذي عجز عن الوصول إليه بدقة.

وممّا زاد الباحث حيرة وعجزًا عن الجمع بين هذه التناقضات الشائكة، ورود وصف (محيي الموتى) أو (مقيم الموتى) في "أناشيد الحمد" الموجهة إلى الإله "مردوخ"؛ وكذلك وصف الآلهة "كولا" بأنها (الملكة التي تعيد الحياة للموتى) ويحاول بعض الباحثين الخروج من هذه التناقضات الكثيرة، بأن يفسر مثلا قولهم (محيي ومقيم الموتى) بأن مقصدهم هو إقامة المغمى عليه مثلا من غيبوبته، أو مساعدة المريض الذي جعله المرض كالميت، فيطلبون له الشفاء في الدنيا ليقوم للحياة من جديد . والحقيقة أن هذا الكلام لا يبدو مقنعًا أبدًا في ظن الباحث.

والنتيجة في الختام هي أن الباحث لم يجد أيّة إشارة في أي مصدر أو مرجع إلى أنهم يؤمنون أو يتصورون إمكانية **(خلود الجسد إلى الأبد)**. ولعلَّ الجمع الأدق والأقرب هو أن نقول: **إن إيمانهم بخلود الروح في عالم الأموات الأسفل، لا يعني خلودها مجرّدة أو منفردة، بل هو خلودٌ لها مع (ملامح المتوفى)** حين كان حيًا في الدنيا قبل الموت، كما ذكرنا سابقاً، وفي هذا شيء من شبه الاتفاق مع المعتقد الزرادشتي.

ولابد من التأكيد على جملة تكررتْ في البحث عن مسألة خلود الروح في بلاد الرافدين القديمة؛ ومرتبطة أيضًا بمسألة خلود الجسد، وهي أن روح الميت تذهب إلى العالم السفلي بعد الموت، وتقيم هناك خالدة إلى الأبد (من غير قيامة ولا رجعة) فتكرار هذه الجملة ومثيلاتها من الجمل تجعلنا نصل إلى نتيجة شبه مؤكدة، أن الكثيرين من قدماء العراقيين اعتقدوا خلود الروح دون الجسد، مع ضرورة الانتباه -مرة ثانية- إلى استثناء صورة الجسد التي تتكرر بعبارة **(ملامح المتوفى)** فهي الجزء الوحيد من الجسد –إن صح وصفها بالجزء- الذي يرافق الروح في عالم خلودها الأسفل.

فتكون النتيجة النهائية هي أننا أمام ثلاثة احتمالات، فإمّا أن قدماء الرافدين أو بعضهم اعتقدوا في بعض مراحلهم بعودة الروح إلى الجسد، وفق آلية أو كيفية غامضة لم يشر أحد –فيما أعلم- إلى تفاصيلها الدقيقة، ولهذا الرأي أو الموقف ما يعضده ويقويه، كما مر معنا، رغم ضعفه مقارنة بالاحتمالين الآخرين..

وإمّا أنهم جميعًا كانوا يؤمنون بخلود الروح وحدها في العالم السفلي الذي تنتقل إليه بعد الموت، وليس للجسد في هذه الحالة إلا الفناء الأكيد والاضمحلال والعودة إلى عالم العدم بالتحلل في التراب.

وإمّا أنهم تصوروا أو اعتقدوا خلود الروح ومعها جزء من الجسد نستطيع إطلاق عدة تسميات عليه، كقالب الجسد أو ملامح الجسد أو ظلال الجسد أو خيال الجسد أو شبح الجسد أو رسمة الجسد أو شبح شكل الجسد.. وما شابه. وهذا الرأي أو الموقف أو الاحتمال الثالث الأخير بهذه الصياغة، هو موقف الباحث الشخصي وخلاصة رؤيته، ولا يدري الباحث هل سبقه إليه أحد أم لا، فهو الراجح عنده والأقرب للصواب، بعد الجمع ومحاولة الربط بين التناقضات والعبارات الكثيرة الغامضة المتداخلة المتصادمة الشائكة التي وردت في ملاحمهم وأساطيرهم ونصوصهم ومصادرها ومراجعها المختلفة.

ج- في الديانة المصرية القديمة: لم يتوقف إيمان قدماء المصريين على أن الروح مستقلة عن الجسم وأنها تبقى في عالم الخلود بعد موت الإنسان، بل آمنوا بعودة الحياة بعد الموت إلى الجسد، وبالبعث والحساب والثواب والعقاب، والصراط المستقيم والميزان، وأكدوا (فكرة الخلود) من خلال البعث بعد الموت، فلم يهتموا بتحقيق الخلود في الدنيا كما فعل غيرهم، بل رأوا أن الخلود يكون في الحياة الأخرى، وأن الموت هو بداية الحياة الخالدة، وأن الدنيا ليست إلا ممرًا للحياة الدائمة التالية، حيث البقاء الأبدي والاطمئنان والسعادة والنعيم أو العذاب المقيم.

والخلاصة هي أن قدماء المصريين كانوا يؤمنون إيمانًا قاطعًا بإمكانية عودة الروح إلى الجسد في حياة ثانية؛ ولكنهم وضعوا لذلك شرطاً هو أن يبقى الجسد سليمًا بلا تلف أو تحلل في القبر، أي أن سلامة الجسم هو الضمان الوحيد لعودة الروح إليه مرة أخرى في الحياة القادمة، فهم بعد أن آمنوا بخلود الروح تأملوا فوجدوا أن الأجساد تبلى، فكيف ستعود (الروح الخالدة) إليها؟.

ونتيجة لهذا السؤال قاموا بكثير من الأمور سعيًا للمحافظة على الأجساد والاحتفاظ بها سليمة من التحلل والتلف، ومن هنا نشأت عملية التحنيط التي توصل إليها المصريون القدماء ليس للحفاظ على جثث ذويهم وأقربائهم من التلف والتفسخ من منطلق الحب لهم فقط، بل إن فلسفة الخلود وحياة ما بعد الموت وما يدور حولها من فكر عقائدي هي التي دفعتهم إلى هذا الأمر.. ولذلك فإن التحنيط لم يقتصر على الإنسان فقط، بل تعداه إلى بعض الحيوانات، لاسيما المحبوبة والمقدسة منها. وكذلك (بناء الأهرامات) فالدافع له هو نفس الدافع للتحنيط، وقد ذكرنا في البحث أن قدماء المصريين فرقوا بداية بين النفس والجسد فالنفس عندهم تسمى (ألكا) والجسد يسمى (ألبا). والنفس في تقديرهم خالدة

والجسد يفنى إذا لم يحنط، ومن هنا عملوا على إبقاء الجسد بحفظه بواسطة تقنيتين وهما: **١- التحنيط. ٢- بناء الأهرامات.** على أننا لا نعرف بالتدقيق إن كان المصريون القدماء يؤمنون بالخلود لكل الأفراد أم للفراعنة والمقربين منهم فقط. ذلك أن التحنيط و بناء المقابر يدل على أن هنالك فئة معينة فقط تستطيع أن تحافظ على أجسادها، وربما من هنا بدأ يتغير موقف كثير من المصريين من فكرة الخلود واستبدلوها بفكرة الاستمتاع بالحياة وهو ما تؤكده بعض النصوص الإلحادية التي رويت عن بعضهم وتناولها البحث.

مع ضرورة الانتباه إلى وجود رأي قوي آخر مختلف، يرى أن المصريين القدماء يقسمون الإنسان تقسيمًا ثلاثياً لا ثنائيا، وخلاصة هذا التقسيم الثلاثي هي أن الإنسان يتألف بصورة رئيسة من ثلاثة عناصر هي: ١- الجسم. ٢- القرين، الذي يسمّى بالمصرية القديمة (الكا). ٣- الروح، التي تسمّى بالمصرية القديمة (الباء).

وشرح ذلك هو أن المراد بالجسم ظاهر، فهو: العنصر المادي الذي يتأثر بأسباب الفناء والتحلل.. وأما (الكا) أو القرين فهو –في اعتقاد المصريين القدامى- صورة غير مرئية تأتي مع الإنسان مع قدومه للدنيا، وتتبعه أو تستقر مع جسده عند مولده، وهي صورة ملازمة للجسد ولكنها غير مادية؛ وتشبه صاحبها تمامًا، أو بصورة أخرى يمكن القول: إن هذه الصورة عبارة عن النسخة الثانية للشخص تستقر في جسده منذ الولادة. وهذا القرين (ألكا) يعتبر أيضًا -في كثير من مصادر الديانة المصرية القديمة- قوة حيوية كامنة في الإنسان، ومرتبطة بأمور أهمها أنها تنجب له الأبناء، وأنها ملاك حارس يحمي الإنسان في حياته وبعد موته أيضًا. ووظائف (ألكا) كثيرة في الحقيقة، وأكثر ما تطرقنا إليه هو بعض وظائفها بعد موت الإنسان.. ومن ذلك أنها تساعده في الإجابة عن أسئلة الآلهة التي سوف تحاسبه بعد مماته، ومن وظائفها أيضًا أنها تمد صاحبها بكل ما يحتاجه من طعام وشراب في اعتقادهم، بطرق غريبة اختلفت في وصفها الدراسات.

ولأن هذا القرين أو القرينة ستبقى مع الإنسان، وستهتم بمساعدته في حساب الآلهة له، وستعينه على أموره في حياته الثانية.. لكل ذلك خرجت بانطباع واضح جلي من كل المراجع المشار إليها في الهوامش السابقة وغيرها، وهو أنهم كانوا يعتقدون بضرورة وضع الطعام والشراب والملابس وما شابه من أجل هذا القرين، ومن هنا نستطيع تفسير سبب اهتمامهم بتقديم كثير من المستلزمات مع الميت الراحل إلى الحياة الثانية. أما ثالث العناصر التي يتكون منها الإنسان، فهو ما يسمى بلغة مصر القديمة (الباء)، ويقصد بها الروح بكل تبسيط، وهذه الروح وفقا للمعتقد المصري "تترك الجسد وتخرج لأول مرة من جسد الإنسان بعد موته مباشرة، وتأخذ وجود مستقلاً خارج الجسم حيث تصعد إلى السماء ولا ترجع إلى جسد صاحبها المتوفي إلا إذا حافظ هذا الجسد على شكله سالماً من أذى التحلل والتفسخ في القبر.

فالروح أو عنصر (الباء) صوروها في أشكال مختلفة، لعل أهمها تصويرها على هيئة طائر برأس إنسان يشبه رأس صاحبه وبيدان آدميتان، ولاشك أن هذا التصوير هو تعبير عن أن الروح سوف تحلق في السماء كالطير، **وأنها ستعود إلى جسد صاحبها لتبعث فيه الحياة مرة أخرى إذا ما بقي محافظا على شكله، ومن هنا نشأ التحنيط وبناء الأهرامات،** التي كان هدفهم من بنائها الدين لا فن العمارة، فالقرينة لا يضمن بقاءها إلا حفظ الجسم آمناً من الجوع والتمزيق والبلى. وكانت وسيلة هذا الحفظ هي الهرم لعلوه وضخامته وشكله.

وبالإضافة إلى التحنيط وفن العمارة، وجد الباحث أدلة أخرى تثبت اهتمامهم بحفظ الجسد لاعتقادهم بعودة الروح إليه، ومن أهم هذه الأدلة اهتمامهم أيضًا **بأماكن دفن موتاهم،** فهو من أقوى البراهين المثبتة لإيمان الفراعنة بإمكانية **(خلود الجسد)** في الحياة الأخرى، حيث اهتموا اهتمامًا بالغاً وعجيبًا جدًا بأماكن دفن موتاهم، فقد بالغوا في ذلك إلى حد يستحيل معه الاعتقاد بالعقيدة المضادة للخلود، أي عقيدة الفناء والعدم، فما هي الفائدة من العناية الفائقة بجثث الذين انتقلوا إلى حياة الفناء والعدم؟!.

وقد حُفرت آلاف من قبور سكان وادي النيل في الأزمنة القديمة أزمنة ما قبل التاريخ، فوجد الجسم البشري فيها راقدًا في قاع حفرة لا يزيد عمقها على بضع أقدام وركبتاه مطويتان تجاه ذقنه، ويحيط به متاع ضئيل من أواني الفخار وبعض الآلات والأسلحة الحجرية والأدوات المنزلية الأخرى، فضلا عن بعض الحلي الساذجة.. وكان المفروض من وضع كل هذه الأشياء بجانبه هو بطبيعة الحال إعداد المتوفى لحياة أخرى مقبلة بعد الموت.

مع أن بعض علماء الديانة المصرية والمهتمين بها برر (التحنيط) بطريقة أخرى، إذ ربطه بعقيدة **(تناسخ الأرواح)** وتناسخ الأرواح هي نظرية ترتبط عادة بالمصريين القدماء، الذين كانوا –وفق هذا الرأي- يمارسون عملية التحنيط لمنع أو تأخير عملية **"التجسيد"** مرة ثانية، أي ولادة الروح في جسد آخر، وهذه النظرية مرتبطة أيضًا بتعاليم فيثاغورس وبوذا وغيرهما، كما ذكرنا في مقدمة هذه الرسالة.

وأضاف الباحث أدلة أخرى تثبت إيمانهم ببعث الأجساد في الحياة الأخرى، ومنها أن الكاهن كان يخاطب المتوفى مؤكدًا له أن آلهة السماء ستبعثه مرة أخرى قائلاً له: إنها ستعيد لك رأسك ثانية، وتجمع لك عظامك، وتضم لك أعضاءك، وتحضر قلبك لجسمك. وورد في نصوصهم المقدسة أنه يقال للميت: **"إنك سوف تحيا، وسوف ترد إلى الصبا إلى أبد الأبدين".**

فلا شك أن المبالغة في (حفظ أجساد الموتى) والحرص عليها عند المصريين القدماء، عن طريق: **١- بناء الأهرام ٢- التحنيط ٣- دفن الأموات في الأراضي الصحراوية الجافة. ٤- أمور كثيرة أخرى أهمها ما نقلناه من كلام كهانهم..** لا شك أن كل ذلك يجعلنا نتوقف كثيرًا للتأمل، فقد شغلهم هذا الموضوع إلى حد لا يمكن وصفه، فقد كانت سلامة الهيكل العظمي للإنسان هي الضمان لرجوع الروح إليه، فنزعوا إلى تخليصه من جميع المواد الرخوة من جلد وغشاء، ثم تحنيطه –وفق الشرح الطويل لطريقة التحنيط الذي فصّل فيها البحث- للاحتفاظ به سليمًا ووضعه في تلك الأهرامات والأماكن الصحراوية شديدة الجفاف.

وكل هذا يثبت قطعًا إيمانهم -في كثير من مراحلهم- بعقيدة عودة الأرواح إلى الأجساد وخلود الأجساد مع الأرواح في عالم الخلد في الحياة الأبدية الثانية الدائمة، القريبة جدًا -في تصورهم- من حياته الدنيا، إن لم تكن مماثلة لها.

وها أنا أصل إلى الفقرة الأخيرة من أطروحتي، وكلّي رجاء وأمل أني وفقتُ في تقديم عمل بحثي مفيد، وأني نجحتُ في الوصول بسفينة بحثي المتواضع إلى بر الأمان، وأن يكون بحثي هذا إسهامًا حسنًا في ساحة المعرفة.

والله ولي التوفيق

الملحق رقم (١)

بعد أن انتهينا في الفصل الأول من استعراض أبرز ما ذكرته المعاجم والموسوعات الفلسفية عن الخلود، يحسن بنا أن نكمل ما بدأناه في المبحث الثاني من ذلك الفصل التمهيدي، حيث سنواصل في هذا الملحق الضروري استعراض بعض آراء كبار الفلاسفة في الخلود، قبل أن نختمه بالتعريج على نظرة الأديان؛ بالإضافة إلى بعض الأسطر الموجزة عن الخلود من الناحية النفسية.

والحقيقة أن آراء الفلاسفة تعددتْ من فكرة الخلود، ومن شبه المستحيل المرور عليها أو على غالبها في هذه الإطلالة، ولكني اجتهدتُ في تسليط الضوء على بعض النماذج منها بطريقة انتقائية أيضًا ربما لا تخلو من العشوائية، وفق ما توفر لدي من مصادر ووفق ما رأته ذائقتي مهمًا على النحو التالي:

نبدأ بسقراط حكيم الإغريق القديم، القائل:" الموت قد يكون خيرًا من الحياة"، فقد كان سقراط مؤمنًا بخلود الروح بطريقة معينة، وهي أنه يعتقد أن هذا الخلود جميل سعيد وهو جزاء عادل لحياة النفس الفاضلة في هذه الدنيا "وأن هذه النفس حينما تغادر الجسد سرعان ما تغمرها السعادة الدائمة لأنها ستحيا إلى جوار الآلهة في العالم العقلي"[١].

إذن، فقد فرق سقراط بين حال النفس الفاضلة وغير الفاضلة، فعقيدته تقوم على أن سعادة الروح في العالم الآخر، مشروطة بأن تكون فاضلة في الدنيا. ويؤكد محمد أبو ريان هذا بقوله: "السعادة عند سقراط تغمر الروح فور مفارقة الجسد، لأنها ستحيا إلى جوار الآلهة، وهذا بالنسبة للنفس الفاضلة. فكأن السعادة عند سقراط ليست في هذه الدنيا، ولكنها في عالم الآخرة، الذي لا يمكن التسليم بوجوده إلا إذا سلمنا بوجود الروح[٢]. وسيتضح من ثنايا البحث وجود شيء من التشابه في نظري، بين موقف سقراط السالف وموقف الفلسفة الزرادشتية[٣].

ولكن بعض الباحثين يرى أن موقف سقراط لم يكن واضحًا، فقد وردتْ عنه أقوال أخرى توحي بأنه لم يكن جازمًا في معتقده، وأنه كان يعتقد بأن الشرَّ بعيدٌ عن الأخيار بعد الموت، ولذلك يجب أن لا يهابوا الموت خاصة كبار السن. ومنها قوله: "ذلك أني أومن بأن هناك آلهة وإيماني بالآلهة أسمى في معناه من إيمان أي من أولئك الذين يتهمونني، وحيث أن هناك آلهة فما من شر يمكن أن يحيق بالرجل الخير سواء في الحياة أم بعد الموت". وقوله: "إن الإنسان إذا ما وصل إلى مثل سني فإن عليه ألا يجزع من اقتراب الموت"[٤].

ويربط سقراط بين محبة الحكمة وعدم الخوف من الموت، فالحكيم هو الذي يعرف مصير النفس وما وُعِدت به من سعادة ، لذا فهو لا يخشى هذا الموت. وقد آمن سقراط بأنَّ الموت هو تحرر النفس من سجن الجسد وعودتها إلى **(عالم الحقائق والخلود)**، ولذلك عندما حكم عليه بالإعدام لم يجزع لأنَّه في نظره الخلاص إلى عالم السعادة الأبدية. وروي عن سقراط أنه قال بأن أرواح الأشرار

---

[١]- توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، دار النهضة العربية – القاهرة، ط٢، ١٩٦٧م، ص ٣٢.

[٢]- محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي من طاليس إلى أفلاطون، دار المعرفة الجامعية، ط/٥. ١٩٧٣، ص ١٤٢.

[٣]- أنظر إلى موقف الفلسفة الزرادشتية، في الفصل الثاني من بحثي هذا.

[٤]- جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت، ١٩٨٤م، ص ٥٠.

تُسجن في أبدان أخرى لتنال عقابها وتبقى تتحول من جسد إلى آخر ما لم تتطهر من ذنوبها، وتكفّر عن خطاياها[1].

أمّا أفلاطون الذي كان يرى أن الموت هو انعتاق النفس من الجسم، فكان مؤمنا بخلود النفس أيضا على خطى أستاذه سقراط، ومن المهم هنا أن نورد حجج أفلاطون في إثبات هذا الخلود وتأكيده في محاورة "فيدون"، وهي:

أ- أن النفس توجد قبل الميلاد، وهذا الوجود السابق للنفس يقوم على أساس الاعتقاد بان المعرفة هي التذكر، غير أن ذلك يؤدي فحسب إلى الاعتراف بوجود النفس قبل الميلاد، فهل توجد بعد الموت؟ **ب-** هناك "صور" أو "مثل" خالدة وثابتة، وحيث أن النفس كفيلة بإدراكها فإنه من المتعين أن تكون هي ذاتها خالدة وإلهية، فلا شيء فانٍ يعرف ما هو خالد. **ج-** النفس تتحكم في الجسد وتسيطر عليه، ومن هنا فهي تشبه الآلهة الخالدة. **د-** النفس بسيطة، فهي ليست مركبة وبالتالي لا يمكن أن تنحل، فما هو بسيط لا يمكن أن يتغير أو يبدأ أو ينتهي. إن جوهر الأشياء بسيط، لا يتجزأ ولا ينقسم.. إنه خالد. **هـ-** النفس التي جوهرها الحياة وبالتالي فهي نقيض الموت ذاته، لا يمكن النظر إليها باعتبارها محتضرة أكثر من النظر إلى النار باعتبارها تتحوّل إلى البرودة. وهناك دليل إضافي يقدم في محاورة "فايدروس" فالنفس باعتبارها متحركة بذاتها بوصفها مصدر الحياة والحركة لا يمكن إطلاقا أن تكف عن الحياة وعن الحركة.. ولكن أفلاطون نفسه كان يدرك نقص حججه حول خلود النفس، فما تم البرهنة عليه هو أن الموت عملية لا تؤثر إلا في الجهاز العضوي الجسمي وأن النفس لا تموت. لكن ذلك لا يثبت أن النفس تواصل الحياة بعد أن يموت الجسد. حقا أن صفة "ميت" لا يمكن أن تحمل على النفس، ولكنه من الممكن إفناؤها، أو استردادها، غير أنه لم تتم البرهنة على إمكان استردادها، وإنما هو يستند فقط إلى الإيمان، وهكذا فان ما يقدمه لنا أفلاطون هو الأمل في الخلود وليس اليقين به، لكنه أمل معقول ومستحب[2].

ونتيجة لاتفاق أفلاطون مع أستاذه سقراط في خلود الروح، نراه يبرهن في كتابه (الجمهورية) – على لسان سقراط – أَنَّ النفس خالدة لأَنَّ لكل شيء آفة خاصة أو داءً يحلّ به فيفنيه، كالعفن يفسد القمح، والعمى يفسد البصر، أما داء النفس فهو التعدي والفجور والجُبْن ...الخ، لكن كل هذه الأدواء لا تستطيع أَنْ تفني النفس، فقد تكون سبباً في إعدام القاتل لكن الإعدام هو غير فناء النفس، فإذا لم يقتل الشر النفس فلا شيء آخر يستطيع قتلها، ولذا فالنفس خالدة.. ويسوقُ لنا أفلاطون أسطورة "آر" الذي أُعيدت له روحه بعد مفارقتها لجسده، و أُمر أَنْ يخبر الناس بهذه القصة ليتّعظوا، فرأى أَنَّ النفوس تبقى خالدة وتبعث للحساب والجزاء، فالنفوس الخيّرة تذهب إلى عالم مليء بالسرور والهناء، وكانوا يصفون لآر المسرات ومناظر الجمال المدهش، أما حياة الأشرار فهي مليئة بالآلام والعذاب وحكاياتهم تبعثهم على تذكر الحوادث المرعبة التي رأوها وعانوها في سفرهم في السرداب السفلي (الجحيم). كما أن أفلاطون يروج لمفهوم الشهادة في سبيل الوطن وشدّ عزم الأبطال في عدم الخوف من الموت. فالحديث عن الشهادة وتخليد ذكرى الأبطال وسُمُوِّهِم على الآخرين ووعودهم بما

[1]- أنظر: د. إبراهيم رجب عبدالله، الموت والخوف منه عند فلاسفة اليونان والإسلام، بحث منشور بمجلة جامعة الأنبار للعلوم، عدد ٤، مج ١، ٢٠٠٩م، ص ص ٥٢٥-٥٢٦.

[2]- جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، مرجع سابق، الصفحات ٥٤-٥٥-٥٦.

سينالونه من حبّ واحترام وتقدير بين الأحياء، وما ينالوه من ثواب وسعادة في الحياة الآخرة كلها تهوّن مسألة الموت في نظره[١].

والحقيقة أننا إذا تأملنا (تعريف الموت) عند أفلاطون، فسنفهم منه –ببساطة- فهمًا موجزاً واضح الدلالة يؤكد ما ذكرناه أعلاه عن عقيدته في الخلود، حيث يعرف أفلاطون الموت بأنه موت الجسم وانطلاق الروح[٢].

ونختم بعدد من أقوال أفلاطون في هذا الشأن، وهي على قسمين: **أ-** أقوال يفهم منها إيمانه بوجود عالم آخر: حيث يقول مثلا: "إن في الجحيم أو الهاوية قضاة يحكمون بالعدل، هم مينوس، ورادامانت، وجميع أنصاف الآلهة". ويقول أيضًا: "إذا جاء الأموات أمام قاضيهم، دعاهم رادامانت للقرب منه، ثم فحصَ روحَ كلِّ واحدٍ منهم، من غير أن يعرف لمن هي، فإذا وجدها مملوءة فسادًا وخبثاً وكانت بعيدة عن الحق، بعث بها إلى السجن، لتلقى العقاب الذي تستحقه في قاع الجحيم، بعد أن يسمهم بميسم تبعا لقابليتهم للتطهير.. أما روح الذي عاش في الطهر، فيرسله إلى الجزائر السعيدة". **ب-** أقوال يفهم منها تشككه وضعف إيمانه وتردده في الجزم، ومن أبرزها مثلا قوله: "إني لا أقصد أن ما قدمته من أوصاف، عن الروح ومنازلها، أمر حقيقي، فالذي لديه أقل ذرة من المنطق، لابد وأن يرفض هذا.. ولكنني أستطيع أن أقول إنه ما دام هناك أكثر من تأكيد على خلود النفس، فيمكننا أن نفترض أن شيئا مثل هذا قد يكون حقيقيًا، ومثل هذا الافتراض أمر مجيد حقاً"[٣].

ويقال إن أفلاطون تقدّم أو تحوّل إلى عقيدة أخرى استقاها من مصدر شرقي، هي عقيدة تناسخ الأرواح، التي كان يقرنها بالخلود[٤]. وسنعرّج بإيجاز على عقيدة التناسخ في ملحق الرسالة. ومن المهم في هذا قول البعض: إن أفلاطون توصّل إلى الاعتقاد بتعطيل نمو المعرفة في الأجيال البشرية وطاقة استيعابها للحقائق، وإلى الاعتقاد بتعاقب الأرواح في عدة حيوات لتتدرج الروح في معارج الأجيال، وتُطوّر المواهب والوعي ونمو الطاقة العقلية. ومما قاله أفلاطون: "إذا كانت النفس التي تولد في هذه الدنيا آتية من عالم آخر كانت قد ذهبت إليه بعد موت سابق، وأن الأحياء يبعثون من الأموات، فذلك يعني أن النفس لا تموت بموت الجسم. وإذا نظرنا في التغيير بالإجمال، وهو قانون العالم المحسوس، وجدنا تبادلاً دائراً بين الأضواء، فيتولد الأكبر من الأصغر، والأحسن من الأسوأ، وبالعكس. وبهذا تصح العقيدة بأن الحياة تنبعث من الموت، ولولا ذلك لانتهتْ الأشياءُ إلى سكونٍ مطلق، لذا فإن النفس خالدة بوجودها ما قبل الولادة وبقائها بعد الموت. ويعتقد أفلاطون أيضاً بأن النفس أهبطت من عالم العقل المجرد إلى عالم المادة، لتبلى وتُمَحّص، ثم تعود بعد الموت إلى العالم العقلي لتسعد أو تشقى بما فيها من تذكار ما كان لها في الحياة من إحسان أو إساءة[٥].

---

[١]- د. إبراهيم رجب عبدالله، الموت والخوف منه عند فلاسفة اليونان والإسلام، مرجع سابق، ص ص ٥٢٦-٥٢٧.

[٢]- أ.د. بثينة منصور الحلو، قلق الموت لدى كل من الشيوخ والشباب، بحث منشور في مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد، العدد ٩٥، ص ٥٢٦.

[٣]- أنظر: د. عزت زكي، الموت والخلود في الأديان المختلفة، صادر عن الكنيسة الأسقفية، دار الجيل للطباعة، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ١٤١.

[٤]- عزت زكي، المرجع السابق، ص ١٤٢.

[٥]- أ.د. حنان قرقوتي، حياة الروح بعد الموت عند المسلمين وغيرهم، دار الألوكة للنشر، ٢٠١٣م، ص ١٧.

وننتقل إلى أرسطو، ويجب أن نؤكد في البداية على أن أرسطو يؤمن بقوة بوجود النفس، على خلاف الفلاسفة الذين ينكرون وجودها أصلا، فنظرية أرسطو عن النفس "تبدأ بتحديد ممتع، وهو أن النفس المبدأ الحيوي التام لأي جسم حي، ومجموع قواه وتفاعله، فالنفس في النباتات -عنده- ليست سوى قوة مغذية مولدة. وفي الحيوانات أيضا تكون قوة حساسة محركة، وفي الإنسان أيضًا قوة العقل والتفكير"[١].

وموقف أرسطو المعروف هو أن النفس تفنى مع فناء البدن؛ لأن النفس صورة البدن، والصورة توجد مع هيولاها، وهذا ما كرره مرارًا بشكل صريح، وهو رأي شائع ذائع عنه، ونقله عنه كثير من الذين قرأتُ كلامهم في هذا من الباحثين والمختصين والشراح، ومنهم الدكتور حامد إبراهيم في بحث قيم[٢]، ومنهم أيضًا عبدالرحمن بدوي، الذي أضاف لفتة هامة حول جزئية العقل الفعال، يقول: "أما أرسطو فإن صريح مذهبه يقضي بفناء النفس مع فناء البدن، لأن النفس صورة البدن، والصورة توجد مع هيولاها: وتفنى بفناء هيولاها. بيد أن أرسطو مع ذلك أشار إشارة غامضة إلى جزء خالد في النفس، هو **العقل الفعال**، وذلك حين قال عن هذا العقل: (ولست أقول أنه مرة يفعل، ومرة لا يفعل، بل هو بعد ما فارقه على حال ما كان، وبذلك صار روحانياً). وهذه الإشارة الغامضة تلقفها بعض شراحه وأنصاره في العصر الهيليني والعصر الوسيط (الإسلامي والمسيحي على سواء) فاستنتجوا منها أن أرسطو يقول بخلود جزء من النفس هو العقل الفعال. وقد غالى الإسكندر الأفروديسي في وصف هذا العقل الفعال فقال إنه بمثابة النور الذي يضيء لنا المعقولات وأنه هو الله"[٣].

والحقيقة هي أني أميل إلى الرأي الذي يقول أن أرسطو كان يخفي رأيه في (فناء النفس) خوفًا من البطش به، خاصة بعد أن تأثر هو وغيره من فلاسفة عصره بما جرى لسقراط في السجن من القتل بالسم، فالنفس عند أرسطو كمجموعة قوى الجسد الأخرى لا تعيش بدونه، أي أنها تفنى بفنائه، وهذا هو الذائع المشهور عنه، إلا أنه -كما قال كثير من الباحثين- ربما خشي أن يحكم عليه الفريق المعادي للمقدونيين في أثينا بالإعدام إن هو جاهر صراحة بعقيدته في فناء النفس مع الجسد، فدفعه هذا الخوف منهم إلى رأيه الغريب المدهش الذي يتلخص في زعمه بأن النفس تفنى مع الجسد؛ ولكنها لا تفنى كلها، حيث يفنى منها الجزء المرتبط بالذاكرة؛ ويموت بموت الجسد الذي يحمل الذاكرة.. أما الجزء الآخر فيبقى، وهذا الجزء من النفس يسميه أرسطو **(العقل الفعّال)** وهو قوة الفكر المحضة، وهو مستقل عن الذاكرة فلا يصيبه الفناء. وتلخيص كل ما سبق باختصار، هو أن أرسطو يدمر النفس ويحكم عليها بالفناء مع الجسد؛ ولكنه يجعل للعقل أبدية وخلودا[٤].

ويلخص البعض موقف أرسطو بقولهم: كان أرسطو يرى أَنَّ الإنسان مكون من جسم ونفس وهما جزآن لجوهر واحد ويكونان متحدين كأنهما المادة والصورة. فالنفس عنده ليست جوهراً مستقلاً كما

---

[١]- أنظر: ولْ ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله المشعشع، منشورات مكتبة المعارف - بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص٧٧.

[٢]- أنظر: الدكتور حامد إبراهيم، نظرية النفس بين أرسطو وابن سينا، مجلة جامعة دمشق، المجلد ١٩- (١+٢) ٢٠٠٣م

[٣]- عبدالرحمن بدوي، فلسفة خلود النفس، مؤسسة الصدرين للدراسات الاستراتيجية، على الرابط: http://alsadrain.com/maowsoaa/mostalahat/144.htm

[٤]- كتبتُ الفقرة السابقة بعد استيعابي لموقفه من خلال تصفح عدة مراجع. أنظر مثلا: ولْ ديورانت، قصة الفلسفة، مرجع سابق، ص٧٧.

كانت عند أفلاطون. وهو بآرائه هذه يقرّ أَنْ لا وجود للنفس بعد مفارقتها للبدن، فلا خلود لها، فالروح تحدث مع البدن وتنحلّ معه عند الموت، ولا يمكن أَنْ توجد بالفعل مستقلة عنه. ولكن هناك آراء لأرسطو تبيّن إيمانه بخلود النفوس الجزئية منها اعتقاده بإحساس الموتى وتأثرهم بما يصيب معارفهم من أقارب وأصدقاء في الحياة من خير وشر. ولذلك صنّف ابن سبعين أرسطو في ضمن القائلين بخلود النفس. إلاّ أَنَّ المشهور عنه هو عدم إقراره بالخلود بهذا المعنى الجزئي. وإذا أردنا أَنْ نبحث عن معنى للخلود عند أرسطو، فنجده يقرّهُ للجواهر الأزلية وحدها المبرأة من الهيولى أو المادة، أما الإنسان والحيوان وجميع الكائنات القابلة للفساد فيكون الخلود لأنواعها فقط لا بأشخاصها بالذات. وما يؤكد هذا أن أرسطو حين تحدث عن الشجاعة، قال كلاما كثيرًا خلاصته إن من الشجاعة عدم الخوف من الموت لأجل الأمور العظيمة كالموت في الحرب فهذه أعظم تضحية، لأن من النبل أن يضحي الإنسان بنفسه في سبيل شيء عظيم، فالشجاع يؤثر على هذه الحياة ونعمها الشرف الذي يكسبه عند موته في الحرب.. وكلامه هذا يؤكد مذهبه بفناء النفس بعد انفصالها من الجسد، فهو لا يعد الشهداء بوجود حياة أخرى وما شابه[١].

إلا أننا لا نستطيع الجزم بأنه يقصد بفناء النفس فناء كل النفس، بل إننا نستطيع الجزم بالعكس، حيث نجد في تعريف أرسطو للموت ما يوضح اعتقاده بكل تبسيط، فتعريف الموت عنده –بحسب عدد من الباحثين- هو موت الجسم ومعظم أجزاء الروح (الانفعالات والميول)، ويبقى فقط التفكير لأنه أسمى من طبيعة البشر التي نحياها[٢].

وإذا اتجهنا إلى "مونتاني"، فنجده يقف ضد الإيمان بالخلود تحت ضغط الرهبة، ويعترض على كل الذين دفعهم الخوف إلى الإيمان بالخلود، ويصر على أن الإيمان الحق ينبغي أن يكون مستقلا عن الوعد بالحياة الخالدة، حيث يقول: "أي إيمان ذلك الذي يغرسه فينا الجبن وخور القلب؟ إنه إيمان مبهج لا يؤمن بما يؤمن به إلا لافتقاره لشجاعة عدم الإيمان". وهذا مقارب لموقف "شكسبير" الذي يعبر عن احتقاره لأولئك الذين يدفعهم إلى الإيمان بالخلود خوفهم من الموت، والذين لا يريدون شيئا من الرب غير الخلود[٣].

أما ديكارت فقبل أن نعرف موقفه من الخلود وخاصة خلود النفس، لابد أن نشير إلى أن له رأيًا غريبًا جدًا، حول المكان الرئيسي لوجود هذه النفس في داخل الجسد، وهو الرأي الذي أثار سخرية كثير من المفكرين في عصره، حيث يقول ديكارت:

"من الواجب أيضًا أن نعلم أنه بالرغم من أن النفس متصلة بالجسد كله، إلا أن فيه جزءا تمارس فيه وظيفتها أكثر مما تفعل مع بقية الأجزاء. والاعتقاد السائد هو أن هذا الجزء هو الدماغ أو ربما القلب، ويقال الدماغ لأن له تنسب أعضاء الحواس، ويقال القلب لأننا نحس بالانفعالات كما لو كانت تجري فيه. ولكني حين تفحصتُ الأمر بعناية بدا لي أني عرفت بأن الجزء من الجسم الذي تمارس فيه النفس وظائفها مباشرة ليس القلب على الإطلاق ولا الدماغ بأكمله، ولكن القسم الداخلي تماما من

---

[١]- أنظر: د. إبراهيم رجب، الموت والخوف منه، المرجع السابق، ص ص ٥٢٧-٥٢٨.
[٢]- أنظر: أ.د. بثينة منصور الحلو، قلق الموت، مرجع سابق، ص ٥٢٦.
[٣]- أنظر: جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، مرجع سابق، ص ١١١.

الدماغ، وهي غدة معينة صغيرة جدًا، تقع في وسط مادة هذا الدماغ، ومعلقة فوق المجرى الذي عبره تتصل الأرواح الحيوانية الخاصة بالتجاويف الأمامية، بمثيلتها في التجاويف الخلفية"[١].

وبناء على رؤيته هذه لمكان ممارسة النفس لوظائفها، يتضح لنا أنه كان مؤمنا بوجود النفس، وأنه يفصل بدقة متناهية بين النفس والجسد، فالجسد مكان وجود النفس، التي تتركز في غدة معينة في الدماغ، ومنها تشع -كما يعبر بنفسه- إلى بقية أجزاء الجسد.

كما أنه كان مؤمنا أن (أنفسنا تبقى بعد أجسامنا) بحسب تعبيره في خطاب كتبه ديكارت في عام ١٦٤٢م، إلى صديقه كونستانتين أيوجين، حيث نجد أن العلاج الذي يصفه للشفاء من خشية الموت يتمثل في اقتناعه الجازم بأن أنفسنا تبقى بعد أجسامنا، وأن هذا الاعتقاد قائم لا على تعاليم الدين وإنما على أسباب طبيعية بالغة الوضوح، وهذا نص رسالته: "أعلم جيدا... أن لك ذهناً متقداً وأنك تعرف جميع ضروب العلاج التي تهدئ حزنك، لكن لا أستطيع الامتناع عن أخبارك بعلاج وجدته بالغ الأثر، لا في مساعدتي على أن احتمل صابرًا موت أولئك الذين أحبهم فحسب، وإنما كذلك في القضاء عل خوفي من موتي، وذلك عل الرغم من أنني أنتمي إلى أولئك الذين يعشقون الحياة عشقا جمّا، ويتمثل هذا الضرب من العلاج في النظرة إلى طبيعة أنفسنا، تلك الأنفس التي أعتقدُ أنني أعرف بوضوح بالغ أنها تبقى بعد الجسم وأنها قد وُلدتْ من أجل ضروب للفرح والغبطة أعظم كثيرًا من تلك التي نتمتع بها في هذا العالم، وأنني لا أستطيع التفكير في أولئك الذين ماتوا إلا باعتبارهم ينتقلون إلى حياة أكثر سلامًا وعذوبة من حياتنا، وإننا سننضم إليهم يومًا ما، حاملين معنا ذكريات الماضي. ذلك لأنني أتبين فينا ذاكرة عقلية من المؤكد أنها مستقلة عن الجسم"[٢].

أما "اسبينوزا" فقد كان موقفه غامضًا إلى حد كبير، ويتجلى هذا الغموض -مثلا- في تأمل قوليه التاليين: الأول قوله: "إن أعظم الخير هو معرفة الاتحاد بين العقل والطبيعة كلّها، والحقيقة أن انفصالنا الفردي مجرد وهم. إننا أجزاء من مجرى القانون والسبب العظيم. أجزاء من الله، إننا أشكال من وجود أعظم من أنفسنا. وهو باق لا ينتهي بينما نحن فانون"[٣]. والثاني قوله: "إن أجسامنا خلايا في جسم الجنس، وجنسنا طارئ عرضي في رواية الحياة، وعقولنا أضواء متقطعة من ضوء أبديّ. ولأن الإنسان جزء من الكل، فهو خالد، لأن العقل الإنساني لا يفنى كله مع الجسم الإنساني، إذ إن جزءا من العقل الإنساني سيبقى، وهذا الجزء الخالد هو الذي سيدرك الأشياء، وكلما أدركنا الأشياء أكثر، كلما كانت أفكارنا أبدية أكثر"[٤].

والحقيقة أنني بتأمل قوليه السابقين، وجدته يدندن على نفس الأوتار التي يدندن حولها فلاسفة كثيرون بصياغات مختلفة لها قاسم مشترك واحد، وهو أن هناك أمل واحتمال وتوقع لحياة ثانية بعد الموت، فنجد لاسبينوزا نفسه مثلا مقولة أخرى ثالثة هي: "العقل البشري لا يمكن تدميره بصورة مطلقة". وهذا يتماهى ويتناغم مع جميع الأقوال التالية في اعتقادي كباحث، وهي: مقولة بسكال: "أفضل ما في هذه الحياة هو الأمل في حياة أخرى". وكذلك مقولة بسكال الأخرى: "إن كل ما أعرفه هو أنه لا بد لي أن أموت عما قريب، ولكنى لا أجهل شيئاً قدر ما أجهل هذا الموت الذي ليس لي عليه يدان!".

---

[١]- رينيه ديكارت، انفعالات النفس، ترجمة جورج زيناتي، دار المنتخب العربي، بلا تاريخ، ص ٣٠.
[٢]- جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، مرجع سابق، ص ١٣٠.
[٣]- ولْ ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة الدكتور فتح الله المشعشع، منشورات مكتبة المعارف، ص١٤٥.
[٤]- المرجع السابق، نفس الصفحة.

وكذلك مقولة ليبنتز: "ما من كائن حي يفنى تمامًا هناك تحولات فحسب". وكذلك مقولة شلر: "البقاء بعد الموت معقول ومحتمل"[١].

وخلود النفس عند "كانط" من (مصادرات العقل العملي) أو (من مسلمات العقل العملي)، وهو يعني إمكان تحقيق شخصيتنا في سلسلة غير متناهية من الحيوات المحسوسة تقربها من القداسة إلى غير حد[٢].

ولكن ورغم أن "كانط" يسلّم بأن الروح باقية، إلا أنه يقترح أنها قد تنتهي إذا فقدتْ قدرتها، وأن الخلود لا يمكن البرهنة عليه عن طريق العقل فقط؛ ولكن يمكن أن يُعتقد كقضية أخلاقية[٣].

ومن العجيب أن فلسفة "نيتشة" تؤمن بالخلود أو بالبقاء بطريقة معينة أو وفق شرح معين، حيث نجده يؤمن بنظرية (العود الأبدي) التي تسمّى أيضًا عند البعض (مذهب الرجعة الكونية) وهي النظرية أو المذهب الذي قال به هيراقليطس والرواقيون كما سيتضح أدناه. ومعناه المبسط في فهمي الخاص له هو أنه مذهب يقول بأن هذا العالم يتكرر مرات متتالية في مراحل تاريخية طويلة جدًا، بمعنى أن العالم يفنى، ثم يعود للتكوّن مرة أخرى من جديد، وهكذا مرات متعاقبة.

وخلاصة رأي نيتشه أن الوجود ليس في صيرورة مستمرة لانهائية وإنما تأتي مرحلة زمنية تعرف باسم "السنة الكبرى" للصيرورة، وعندها تنتهي دورة الصيرورة لتبدأ دورة جديدة، وهذه الدورة الجديدة تأتي عليها سنتها الكبرى فتنتهي لتبدأ من جديد، وهكذا زمان الوجود مقسم إلى دورات وكل دورة من هذه الدورات تكرار تام للدورة السابقة عليها، فالوجود كله صورة واحدة تتكرر بلا نهاية، فكل شيء يموت وكل شيء يحيا من جديد، وهكذا إلى الأبد تسير سنة الوجود[٤].

وهذا ما يؤكده أيضًا "جاك شورون" الذي يرى أنه من الخطأ الافتراض بأن نيتشه كان يعتبر نفسه مكتشف العود الأبدي، فهو يلاحظ أن هيراقليطس ربما كان قد أدرج هذا المبدأ في تعاليمه وأن الرواقيين يفصحون عما يشي به، غير أن ما لم يدركه هو أن آخرين قد طرحوه كثيرًا، وأنه على امتداد القرن التاسع عشر كانت هناك إشارات عديدة إلى هذا المبدأ وتأملات حوله، فالمرء يجده عند هايني، وهولدرلين، وليويس بلانكي، وجويو، وكذلك -رغم الإشارة الغامضة إليه- عند سبنسر وبايرون، ورغم ذلك فإن نيتشه كان أول من بحث هذه الفكرة لا باعتبارها أمرًا ممكناً بل أمرًا مؤكدًا وبوصفها قانوناً للكون، بل إنه حاول إثباتها علميًا ودرس الرياضة والفلك والطبيعة والأحياء لهذا الغرض. وقد خذله البرهان العلمي، وعلى الرغم من ذلك فإن نظرية العود الأبدي أصبحتْ الفكرة التي سيطرتْ عليه، وتملكت ناصيته تمامًا وغدتْ حجر الزاوية في فلسفته، فهو القائل: "كل شيء يمضي، كل شيء يعود، وتدور إلى الأبد عجلة الوجود، كل شيء يموت، كل شيء يتفتح من جديد، وخالدًا يمضي زمن الوجود، الأشياء كلّها تعود في خلود، ونحن أنفسنا كنا بالفعل مرات لا حصر لها ومعنا كل الأشياء..". وليس هناك تناقض بين مبدأ العود الأبدي ومبدأ إرادة القوة الذي عرف به نيتشه، حيث كتب نيتشه في الفقرة الأخيرة من (إرادة القوة) يقول: "أتراك تعلم ما هو العالم بالنسبة لي؟ قوة هائلة بلا بداية أو نهاية... لا تنضب وإنما تتحوّل فحسب... الخ كلامه الطويل. ونظرية

---

[١]- راجع: جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، الصفحات ٩-١٣٥-١٤١-١٥١-٢٤١.

[٢]- أنظر: د. مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص ١٨٩.

[٣]- د. سيد عويس، الخلود في التراث الثقافي المصري، مرجع سابق، ص ٥٣.

[٤]- أنظر: د. إبراهيم رجب، الموت والخوف منه، مرجع سابق، ص ص ٥٤٩-٥٥٠.

العود الأبدي كانت عند نيتشه دفاعًا في مواجهة الموت والفناء، حيث نجده يقول أيضًا: "ما من وقت ينقضي بين لحظة وعيك الأخيرة وأول شعاع لفجر حياتك الجديدة، ومثلما لمعة البرق سينداح المكان، وذلك على الرغم من أن المخلوقات الحية تظن أنه انقضى مليارات السنين ولا تستطيع حتى أن تعدها، فاللازمان وإعادة الميلاد المباشرة يناغمان حينما يُنحّى العقل جانبا"[١].

ويرى الكثيرون –وأتفقُ معهم- أننا لا يمكن أن نأخذ مذهب نيتشة في العود الأبدي على محمل الجد، فمن شبه المستحيل أن يتبنى فيلسوف في العصر الحديث أفكارًا أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، فنيتشه في نظرهم يروي لنا هذه النظرية من باب الأدب والشعر المبني على الخيال، فهو هنا أقرب إلى الأدب منه إلى الفلسفة[٢].

أما فلاسفة العرب والمسلمين، فقد تكلّم ابن سينا كثيرًا عن النفس، والأرجح من آرائه أَنَّها حادثة مع الجسد، إلاَّ أَنَّه يُقرّ بأنها جوهر روحاني خالد عند مفارقتها للبدن، وأنَّ اتصالها بالبدن هو اتصال عرضي. ويسوق لنا ابن سينا أدلّته على خلود النفس بعد الموت أو فساد الجسد من خلال مباينتها له، فهما من طبيعتين مختلفتين، ولذلك لا تفسد الروح بفساد الجسد، ومن خلال إثباته بأَن الجسد ليس هو علة من العلل الأربع (المادية والفاعلة والصورية والغائية) للروح، لذا فإن علاقة النفس بالبدن ليست بعلاقة معلول بعلّة ذاتية في نظره، ولهذا فإن الموت وفناء البدن لا يؤدي إلى فناء النفس. كما يثبت ابن سينا خلود النفس من طريق فكرة البساطة والتركيب، فالنفس جوهر بسيط، لذا لا يمكن أَنْ تحوي على أمرين متناقضين وهما الوجود والفناء؛ لأَن الوجود صفة ذاتية في النفس، فلو كان الفناء أيضًا صفة ذاتية أخرى لأصبح البسيط مركبًا من صفتين متناقضتين، كما أنه من المستحيل أن يكون الفساد لاحقاً للنفس؛ وذلك أَنّ كلَّ شيء من شأنه أن يفسد لسبب ما ففيه قوة أن يفسد، وقبل الفساد فيه فعل أَنْ يبقى ، ومحال أَنْ يكون من جهة واحدة في شيء قوة أَنْ يفسد وفعل أَنْ يبقى. فإنْ كانت فيه قوة أَنْ يعدم فمحال أَنْ يكون فيه فعل أَنْ يبقى، وإذا كان فيه فعل أَنْ يبقى وأَنْ يوجد فليس فيه قوة أَنْ يعدم، إذن فجوهر النفس ليس فيه قوة الفساد، أما الكائنات الفاسدة فهي المركبة وليست البسيطة. ويرى ابن سينا -شأنه شأن الفارابي وغيرهما- بأَنَّ النفس صورة روحانية فاضت على الجسم من عالم العقول المفارقة الخالدة، وكل ما يصدر عن العقول المفارقة الخالدة يكون مشابهاً لها خالدًا مثلها، فالنفس باقية بعد الموت؛ لأَنَّها صادرة من العقل الفعال وهو جوهر أزلي وأبدي. أما قول ابن سينا بحدوث النفس عند استعداد الجسد وقبوله لها كان حلاً لمشكلة فلسفية قائمة آنذاك، إذ كيف تكون النفوس قديمة مفارقة للجسد ومختلفة فيما بينها في آنٍ واحد وهي بسيطة وغير مركبة، أما عند الموت ومفارقتها للبدن فتكون النفوس مختلفة بما اكتسبته وهي في أجسامها تلك. ونجد أَنَّ هذا هو الذي دفع بابن سينا للقول بحدوثها، وليس بدافع ديني إسلامي، إذ موقف المسلمين مختلف أيضاً في حدوثها مع البدن أو بأسبقيتها عليه، وهو الحل التوفيقي الذي اختاره ابن سينا لحلّ اختلاف النفوس بعضها مع بعض من جهة ولضمان خلودها بعد الموت ومحاسبتها لعقابها أو ثوابها على ما فعلته عندما اقترنتْ بالجسد[٣].

---

[١]- أنظر: جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، مرجع سابق، الصفحات: ٢٣٠-٢٣١-٢٣٢.

[٢]- تكرر هذا الكلام بصياغات مختلفة عند عدد من الباحثين. أنظر مثلا: د. إبراهيم رجب، المرجع السابق، ص ٥٥٠.

[٣]- أنظر: د. إبراهيم رجب، الموت والخوف منه، مرجع سابق، ص ٥٣٩.

والخلاصة الأقصر لموقف ابن سينا هي أنه يرى أن النفس لا تقبل الفساد أصلا، ولا تموت بموت البدن؛ لأن تعلقها به ليس تعلق معلول بعلة ذاتية، إذ من المحال أن تفيد الأعراض أو الصور القائمة بالمواد وجود ذات قائمة بنفسها لا في مادة ووجود جوهر مطلق.. وأما كون النفس لا تقبل الفساد أصلا؛ فلأن الأشياء المركبة والأشياء البسيطة التي هي قائمة في المركبة يجوز أن يجتمع فيها فعل أن يبقى وقوة أن يفسد، أمّا في الأشياء البسيطة المفارقة الذات فلا يجوز أن يجتمع هذان الأمران؛ فإن كانت النفس بسيطة مطلقة لم تنقسم إلى مادة وصورة، فلم تقبل الفساد[1].

وبذلك يظهر أن الأثر الأفلاطوني في نظرية ابن سينا في النفس، أكثر من ظهوره في مسألة خلود النفس، فالنفس كما ذهب أفلاطون لا تفنى بفناء الجسد، وإنما بقاؤها في البدن هو نوع من العقوبة لها، وعندما تترك البدن تعود إلى عالم المثل الذي أتت منه حيث النعيم والسعادة الأبدية، وقد نحا ابن سينا في الاتجاه نفسه عندما أكد أن النفس لا تفنى بفناء الجسد؛ لأن جوهرها أقوى من جوهر البدن، وهي غير محتاجة في وجودها إلى وجود البدن، وعندما يموت البدن تتخلص النفس منه، فإذا كان جوهر النفس كاملاً بالعلم والحكمة والعمل الصالح فإنها تذهب إلى العالم العقلي، حيث تنعم بالسعادة والملذات[2].

أما مذهب الفارابي في خلود النفس، فهو محل خلاف بين أهل الفلسفة منذ القدم، فالبعض قالوا إن الفارابي يؤمن بخلود النفس، والبعض الآخر قالوا بإنكاره لخلود النفس. فابن طفيل مثلا يتهم الفارابي بالتردد بقوله: "وأما ما وصل إلينا من كتب أبي نصر في الفلسفة فهي كثيرة الشكوك، فقد أثبت في كتاب (الملة) بقاء النفوس الشريرة بعد الموت في آلام لا نهاية لها بقاءً لا نهاية له، ثم صرّح في السياسة المدنية بأنها منحلة وصائرة إلى العدم وأنه لا بقاء إلا للنفوس الكاملة". ويتضح رأي الفارابي من خلال أقواله، حيث صرّح بخلود النفس في (الدعاوى القلبية) وأنها -أي النفس- مفارقة باقية بعد موت البدن، ليس فيها قوة قبول الفساد، وأن بها بعد المفارقة أحوالاً، إما أحوال سعادة، وإما أحوال شقاوة.. وقال في كتاب التعليقات: الجسم شرط في وجود النفس لا محالة، فأما في بقائها فلا حاجة لها إليه. أي أن بقاء النفس لا يتوقف على بقاء الجسم؛ لأنه سيفنى والنفس تظل خالدة. وقال في كتاب (عيون المسائل): إن القوى التي تدرك المعقولات جوهر بسيط، وهو مفارق للمادة يبقى بعد موت البدن، وليس فيه قوة قبول الفساد[3].

وزبدة القول هي أن الفارابي تحدث عن مصير النفس ومآلها، معتبراً الثواب والعقاب حالتين نفسيتين روحانيتين، كما اعتبر أن النفوس التي ارتسمت منها العقول والنفوس الفلكية تصبح بذاتها عالمًا معقولاً، وتحيا بعد الموت حياة سعيدة، وذلك لأنها استوفتْ مقتضيات الخلود السعيد بما أتت من أعمال الفضيلة وأدركت من المعرفة الكلّية، وهذا ما يكسبها شعورًا بالسعادة مستمرًا وتزداد سعادتها بازدياد عدد النفوس الخيرة السعيدة؛ لأن رؤية النفوس تضفي عليها سعادة جديدة في عالم جميل خير.. أما النفوس الشريرة التي انغمستْ في الكبائر والمحرمات، فتتولد فيها ملكاتٌ رديئة، ويداخل القوى الناطقة من جراء ذلك ألم عظيم، وعندما تنفصل النفس عن الجسد بالموت وترى قبحها، يؤلمها منظر هذا القبح، ويكون بذلك جحيمها وعذابها الأبدي لأنها تنفر من ذاتها، وكلما تجمعت

---

(1)- د. مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص ١٨٨.

(2)- د. حامد إبراهيم، نظرية النفس بين أرسطو وابن سينا، مرجع سابق، ص ٢٢٠.

(3)- راجع: محمد عبد الخالق كاظم، الخلود في جهنم، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، ١٤٢٦هـ، الصفحات ١٨٣-١٨٧-١٨٨.

النفوس الشريرة ازداد ألمها وشقاؤها بازدياد عدد النفوس القبيحة المعذبة. ويتضح من هذا الكلام تأثر الفارابي بأرسطو من جهة، حين جعل الخلود في السعادة وفقاً على القوة العقلية التي استكملتْ المعارف، كما يتضح تأثره بالدين -من جهة ثانية- في قوله بمبدأ الثواب والعقاب في النعيم والجحيم[١].

وننتقل إلى جماعة فلسفية شهيرة، تسمّى (إخوان الصفا) عُرفتْ باجتهادها في التوفيق بين الدين والفلسفة، وزبدة موقفهم الإيمان الثابت بانتقال الروح في الأجساد المختلفة لتتحقق عدالة الله في خلقه، ولكي يتاح أمام الإنسان سبيل يمكنه بواسطته أن يطهّر نفسه ويخلّصها من الآثام ويحررها من ربقة الجسد، فتعود إلى عالمها وتتحد بالجواهر النورانية. ويرى "إخوان الصفا" أن منزلة الإنسان بين عالمين، عالم الأفلاك والسماء، وعالم الكون والفساد، قد أعطته فرصة إما بالارتقاء إلى أعلى وإما بالتدني إلى أسفل ومجاراة الحيوان والمادة في تقلباتهما وسوء معيشتهما. كما يرون أن صورة الإنسانية منزلة أخرى، وأنها الصراط المحدود بين الجنة والنار، عن يمينه الجنة وعالم الأفلاك والسماوات، والنار عن شماله محل الأجسام ودار الآلام، ومجاورة النبات والحيوان الصامت عن الكلام، المعذب بأنواع العذاب والآلام[٢].

وأمّا موقف ابن رشد من موضوع الخلود فهو موقف عقلي بحت، يظهر لي منه شيء من التعارض مع كثير من نصوص الإسلام، حيث إن الخلود عند ابن رشد كلّي لا فردي.. ومعنى ذلك أنه لا بقاء بعد الموت إلا للجوهر العاقل، وهو واحد وكلّي عام مشترك، أما النفس الفردية، فإنها إذا فارقتْ البدن، انضمت إلى هذا الجوهر الكلي واتحدت به، وهذا قريب من مذهب القائلين بأن البقاء للإنسانية لا للأفراد، وقريب أيضًا -في فهمي- للقائلين بانتهاء التناسخ في مرحلة (الاتحاد مع المتعالي)، وهي ما يعرف بـ"النرفانا"، التي تشكل كسرًا لدائرة التناسخ وسلامًا مطلقاً كما سنعلمُ أدناه.

والمهم هنا هو أن ابن رشد يرى أن الحكم بالخلود، إنما موضوعه العقل العام الذي هو عقل الإنسانية، وهذا هو المراد بالخلود النوعي عنده، كما أن الحكم بالفناء إنما هو على العقول الجزئية المنفعلة التي توجد مع الإنسان وتفنى بفنائه، أي إن العقل العام الذي هو مشترك بين جميع أفراد البشر هو وحده الأزلي الخالد الذي لا يعتريه تغيير ولا يطرأ عليه فساد، أما العقل المنفعل الذي يفسره ابن رشد بالاستعداد الشخصي، فكما أنه حادث يولد مع الإنسان، هو كذلك، فان "بفناء الإنسان ليس هناك بعد مفارقة النفس للبدن نفوس جزئية متمايز بعضها عن بعض، ومستقل عنه بذاته وجوهره، وإنما هناك عقل واحد كلّي هو عقل الإنسانية جمعاء"[٣].

وعلى هذا الأساس يكون كل ما قرر الخلود من نصوص ابن رشد محمولاً على الخلود الكلّي، وكل ما نفاه محمولاً على الخلود الفردي، فكل من طرفي الإثبات والنفي صحيح ما دام الموضوع في أحدهما مختلفاً عنه في الآخر، فالوجود الأخروي في حقيقته روحاني لا جسماني، إذ الأجسام تفنى

---

[١]- أ.د. حنان قرقوتي، حياة الروح بعد الموت عند المسلمين وغيرهم، مرجع سابق، ص ٢٣.
[٢]- أ.د. حنان قرقوتي، المرجع السابق، ص ٣٧.
[٣]- الموسوعة العربية السورية، دار الفكر - دمشق، مج ٨، موقع الموسوعة الإلكتروني، الفلسفة والعقائد، ص ٨٨٧.

بما معها من استعدادات وعقول خاصة، ويبقى العقل العام وحده مجرداً من علائق الأبدان التي كانت في هذه الحياة الدنيا[١].

وبما أن الحديث وصل للنرفانا قبل أسطر، فمن المناسب أن أشير بإيجاز إلى خلاصة موقف فلاسفة الهند وفلسفاتها من الخلود، وهو موقف مرتبط بموضوع (تناسخ الأرواح) الذي يؤمن به غالب الهنود باستثناء التيار المادي الإلحادي، وعقيدة التناسخ أو التقمص في الأرواح هي من التعاليم العقائدية الرئيسية للديانة الهندوسية خاصة وغيرها من ديانات الهند الأخرى عامة. وخلاصة فكرة التناسخ عند الهندوس هي أن التناسخ حالة تجديدية من الولادات العديدة التي تمرّ بها الروح بانتقالها من جسد إلى جسد آخر، وترتبط في كثير من الأحيان بالعقاب عبر (التناسخ الرديء)، فعندما يموت الإنسان تخرج منه الروح، فإذا كان الإنسان سيئا في حياته فتنتقل روحه إلى طفل مولود، ولد لتوه في طائفة أدنى، وإذا لم يُحسن سلوكه فإن روحه تنتقل إلى جسم حيوان وفي تناسخات أخرى في عالم الحيوان قد تنتهي بها إلى جسّد حشرة (كالبرغوث أو البعوضة) في رحلة العقاب هذه؛ وقد تنتهي بالانتقال أيضًا إلى جماد، كأقصى عقوبة لشخص شرير.. فالإصرار على الشرّ في هذه الحياة يعني أن تتعذب الروح بالتنقل من تناسخ رديء إلى تناسخ آخر، إلى أن تهدأ الروح وتجد طريق الخير والصلاح.. فإذا أثبتَ الإنسانُ صلاحه، فتنتقل روحه إلى طفلٍ مولودٍ في طائفة أعلى مكافأة على حسن سلوكه، وفي تجسّدات أعلى مرتبة تصل إلى طبقة الكهنة المُقدسيّن (البراهمة)، ومن ثم ترتقي لتصل إلى البراهما وتتحد به، وهذه هي الغاية النهائية لكل روح خيّرة صالحة. حيث تتنعم الروح **بالسعادة الأبدية** (التجسّد الجيّد) إذ تنتهي بالوحدة مع الله (براهمان) في رحلة السعادة للروح الصالحة ثوابًا لها على الخير والصلاح في هذه الدنيا. فالهندوسية تربط التناسخ بالخير والشر. فإذا كنتَ صالحًا في هذه الحياة فستجازى عن صلاحك في الحياة الأخرى بتناسخ جيّد؛ وإن كنتَ رديئاً فستجازى بتناسخ رديء. ولا تؤمن الهندوسية بالجنة أو بالجحيم، وإنما تنتقل الأنفس من بدن إلى آخر، حتى تتطهّر كاملة وتتحد بالروح الكلية محققة **السعادة الأبدية**. ويكون طريق الخلاص بقتل الشهوات الجسدية وبالرياضات الروحية القاسية للسيطرة على الجسد وللاتحاد الأبدي بالروح الكلية (البراهما)[٢].

وبالإضافة للكلام السابق الذي أورده الأب صبري وغيره بصياغات كثيرة، أعتقد أنني كباحث أستطيع أن أضيف بتلخيص شديد ناتج عن اطلاعي على كثير ممّا كتب، فأقول: رغم أن تصوري الإجمالي لغالب فلسفات الهند، هو أنها فلسفات لها قاسم مشترك بيّن، هو أن جلَّ اهتمامها ينصبُّ على (الإنسان في دنياه)، وبذلك فهي بعيدة -فيما ظهر لي- عن النظر إلى الآخرة بالصورة السائدة في الأديان السماوية وغيرها. إلا أن المؤكد هو أنهم لامسوا مصير الإنسان بعد الموت بطريقتهم الخاصة، فمصير الإنسان في غالب الفلسفات الدينية الهندية مرتبط بسلوكياته في حياته. ويظهر هذا بوضوح من خلال هذه العقيدة (تناسخ الأرواح) التي يؤمن بها كثير من الهنود البوذيين والهندوس والجينيين وغيرهم، مع وجود فروقات بينهم ليس هذا مقام التفصيل فيها.. ويكفينا الآن أن نعلم أن خلاصة هذه العقيدة هي أن الروح تلقى جزاءها حسب أعمال صاحبها من خير أو شر أثناء انتقالها من جسم إلى آخر، فالإنسان الخيّر تتنعم روحه في أجسام حسنة، والعكس صحيح بالنسبة للإنسان

---

[١]- الموسوعة العربية السورية، المرجع السابق، نفس الصفحة.

[٢]- أنظر: الأب صبري المقدسي، الموجز في المذاهب والأديان، ج١، منشورات سركيس اغاجان، ط١، ٢٠٠٧م، ص ص ٤٤-٤٥.

الشرير حيث تنتقل روحه بالتناسخ إلى أجسام شقية سيئة بعد موته.. كما أن الإنسان -عند بعضهم- يجب عليه أن يبذل الكثير من الأعمال والجهود ليصل إلى مرحلة **(الاتحاد مع المتعالي)** أي الخالق لكل شيء، وإلا فإن هذا الإنسان أو روح هذا الإنسان ستستمر في التنقل بين صور وجودية كثيرة مختلفة، حتى ينجح -بأفعاله- في تحقيق ذلك الاتحاد الذي يخرجه من الدائرة التناسخية.

والحقيقة أن الحديث السابق عن التناسخ، يقودنا أيضًا إلى موقف "الفيثاغوريين" من مسألة (خلود النفس)، فقد ذهبوا إلى القول: إن النفس تتركب من جزيئات لطيفة غير مرئية هبطتْ من الشمس، ودخلتْ في الأجسام فكانت سبب الحياة والحركة فيها، إذ إن من أخص صفات النفس عند الفيثاغوريين هي الحركة، فكل شيء يتحرّك بالنفس؛ ولكن النفس تتحرك بذاتها، وتنتقل هذه النفس من بدن لآخر، إذ تمر بمراحل متعددة يتم فيها تطهير النفس من كلِّ ما لحق بها من آثام وخطايا، وعندما تصبح طاهرة بصورة تامة تعود إلى عالمها القدسي لتخلد في النعيم الأبدي[١].

ومن أعجب وأهم ما نجده عند "فيثاغورس" حول التناسخ، اعتقاده بالنطق، فقد أجاز فيثاغورس أن تتذكر النفس ما حدث لها في الأقمصة السابقة، ولكنه لم يجعل ذلك مستطاعاً لكل الناس، وإنما حصره في أشخاص قلائل دون أن يبين سبب هذا النطق وغايته[٢].

والحقيقة أن هذا يدفعنا إلى الاستطراد في هذه النقطة المهمة لمبحثنا هذا، حيث يعتقد الكثيرون من معتقدي التقمص والتناسخ بأن الروح حين تنتقل من جسد إلى جسد تحمل معها معلومات عن دورها في الجسد السابق، وفي هذه الحالة تتحدث أو تنطق بما تتذكره من وقائع عن حياتها السابقة. ويروي معتقدو التقمص روايات كثيرة عن شخصيات عالمية تاريخية ومعاصرة، أنها تتذكر بعضاً من حياتها السابقة على الأرض. ومن ذلك ما ذكره العالم الروحاني "آلان كرديك" من أنه "من أفلاطون إلى بونابرت، ومن بلوتارك إلى هنري فورد، وُجد في الغرب أشخاص مميزون تخلفت عندهم ذكريات عن حياة سابقة مروا بها في زمن ما على الأرض، منهم فرنكلين، و كوفن دريل، وغوته، وفكتور هوغو، وبلزاك، وفولتير..."[٣].

وقد دفعني الفضول -كباحث- إلى التعمق في هذه المسألة قليلا، فوجدتُ نتائج كثيرة، ليس هذا مقام الإسهاب في تفصيلها؛ وتكفي الإشارة إلى أنني وجدتُ عددًا من أساتذة الجامعات وغيرهم من كبار الباحثين في علم النفس والفلسفة وغيرهما، يبذلون جهودًا كبيرة في عصرنا هذا، في سبيل الوصول إلى نتائج حول هذا الموضوع، وهناك عشرات القصص التي تجعل الذهول يتملك الإنسان وهو يقرأ فيها روايات أشخاص مهمين وبارزين يستحيل -في اعتقادي- تواطؤهم على الكذب، حيث يؤكدون بقوة أنهم يتذكرون بعض ما حصل لهم أو مرَّ بهم في حياتهم السابقة.

وتجدر الإشارة إلى أن كلَّ ما أوردناه عن التناسخ ليس خاصًا بقدماء الهنود والفيثاغوريين ومن بعدهم فقط، فقد قال بعض فلاسفة اليونان القدماء قبل سقراط بمثل هذا عن التناسخ، حيث ذهب "انبادوقليس" مثلا -بتأثير من الديانة الأورفية- إلى القول: "إنّ النفس الواحدة تنتقل بين عدد من

(١)- د. حامد إبراهيم، نظرية النفس بين أرسطو وابن سينا، مرجع سابق، ص ص ٢٠٢-٢٠٣.
(٢)- أ.د. حنان قرقوتي، حياة الروح بعد الموت، مرجع سابق، ص ١٨.
(٣)- حنان قرقوتي، المرجع السابق، ص ٥١.

الأجسام، وإنها آثمة تُجبر على تغيير الجسد الذي تحل فيه مرات عديدة، وتستمر في هذا التناسخ حتى تكفر عن ذنوبها وأخطائها"[١].

وبالإضافة إلى كل ما سبق عن الخلود وكخاتمة له، نستطيع أن نوجز بتركيز شديد آراء فلسفية أخرى لم تذكر أعلاه، حيث يعتبر "الرواقيون" في الأغلب أن الكون العاقل ككل سيبقى، وأن أفراد الناس -كما يقول كبيرهم "ماركوس أوريليوس"- قد قسّمت لهم فترات معينة على مسرح دراما الحياة. أما بالنسبة للأبيقوريين، فقد كانت نظرتهم مادية، وكانوا يعتقدون أنه لن يوجد وعي بعد الموت، ومن ثم فلا داعي للخشية منه.. واعتبر "أوجستين" أن ماهية أرواح الناس أبدية لا تفنى. أما فيلسوف الرومان وخطيبهم "شيشرون" فقد قبل أخيرًا فكرة الخلود الشخصي. وقد رأى الفيلسوف الفرنسيسكاني "جون دنزسكوتس" أن الخلود الشخصي لا يمكن البرهنة عليه أو عدم البرهنة عليه عن طريق العقل. أمّا الفيلسوف "ليبنز" فكان يعتقد أن الحقيقة تتكون من جواهر فردية روحية، وأن الناس قد خلقهم الله كجواهر فردية غير قادرة على الإبداع عن طريق التأليف والتركيب، ويستطيع الله أن يبيدهم، ولما كان الله قد غرس في نفوس الناس الدافع إلى الكمال الروحي، فإنه يوجد ثمة إيمان بأن الله سيؤكد -عن طريق تيسير تحقيق هذا الهدف- استمرار حياتهم.. أمّا "جوزيف بتلر" فبينما يصرّ على أن الأرجحية هي دليل الحياة، فإنه يرى في ضوء أسس أخلاقية تماثل التي قدمها "كانط" أن الخلود يجب أن يُقبل على أنه مرجح ويحتمل.. أما "هيجل" فقد أول بعض تابعيه فلسفته على أنها تشير إلى زوال الذاتيات المتناهية في المطلق؛ بينما يرى بعض التابعين الآخرين ثباتها كأجزاء المطلق أو جواهره.. وأمّا "شوبنهاور" فيرى أن الخلاص النهائي من بؤس الحياة هو عبارة عن المرور من الشخصية الواعية إلى الإرادة العامة غير الواعية[٢].

أمّا فلاسفة الوجودية، فقد تناولوا الموت كواقعة، ورأوا أَنه يجب تجاهل هذا الحدث في نهاية حياة الإنسان وعدم الانشغال به، وهم ينقسمون إلى قسمين كما هو معلوم، الأول هو القسم ذو الصبغة الملحدة، وأهمهم سارتر، وخلاصة موقفه من الموت والخلود هو أن الموت توقف كل العمليات العقلية والجسدية، وأن الموت هو الحرية في اختيار البدائل المختلفة للعيش. كما يرى سارتر وجوب مواجهة الموت بوصفه حقيقة واقعة، وبذلك سنتناول الأشياء في نهاية المطاف وتصبح لا أهمية لها، ولكن هذا برأي سارتر لا يدعو إلى اليأس، وعلى هذا فليس للموت عند سارتر أية أهمية خاصة، إذ إِنّه العبث الأخير، فهو يراه لا يقلّ عبثاً عن الحياة نفسها. ومن الطبيعي أن يرى -بوصفه وجوديا ملحدًا- أن الموت لا قيمة له طالما أن الحياة ذاتها ليست بذات قيمة، فهي عبث لا طائل منه في نظره. بينما نجد القسم الآخر من فلاسفة الوجودية المؤمنة كجبريل مارسيل مثلاً كانت نظرته متفائلة، إذ يرى أن الموت لا يكون مؤلماً إلاً عندما نفقد الأحباب. فالموت لا يقلقنا ويقض مضاجعنا حينما نكون نحن إزاء واقعة الفناء بصفة عامة، ولكن عندما نفقد شخصًا نحبه فهنا يكون موته تحديًا لنا وتحطيمًا للوحدة القائمة بيننا، ويرى أن الوفاء يتحدى كلَّ غياب؛ لأنه يشعرنا بأن المحبوب لا يمكن أن يموت وأن الحب أقوى من الموت، فالميت المحبوب يبدو لنا في بعض الأحيان وكأنه حاضر أمامنا ويدور بيننا وبينه حوار كالذي يدور بين الأحياء، ولذلك أكّدَ على نقطة مهمة، هي أنه بالإمكان قيام ضرب من التراسل الروحي بين الأحياء والموتى[٣].

---

[١]- أنظر: د. حامد إبراهيم، نظرية النفس بين أرسطو وابن سينا، مرجع سابق، ص ٢٠٢.
[٢]- أنظر: د. سيد عويس، الخلود في التراث الثقافي المصري، مرجع سابق، ص ص ٥٢-٥٣.
[٣]- أنظر: د. إبراهيم رجب، الموت والخوف منه، مرجع سابق، الصفحات: ٥٥٠-٥٥١-٥٥٢.

أما فلاسفة الشرق الأقصى، فقد قال "موتوري" (Motoori)، أحد فلاسفة اليابان في القرن الثامن عشر: "إن الهاوية مكان تحت الأرض، وعندما يموت الناس وحيثما يموتون، فإنهم يذهبون إليها، النبلاء منهم والسفلة، والفضلاء منهم والأشرار، دون أي تمييز بينهم"[1]. ولكن هذا القول يبدو خاصًا بهذا المفكر أو بقلة معه، إذ لا نجد في الغالب العام أية إشارات من هذا القبيل في عقائد اليابانيين.

وبما أن الحديث وصل إلى اليابان، فمن المناسب أن نؤكد على نقطة واحدة هي الأهم في موضوع خلود الأرواح في الفلسفة "الشنتوية" اليابانية، وهي أن الناس (يوقرون أرواح الأجداد والأسلاف) من الزعماء والأبطال والملوك وغيرهم، وتطورتْ فكرة احترام الأجداد إلى عبادتهم"[2]. وقد لاحظتُ -من خلال بحثي في عدة مصادر- تكرار كلمة "عبادة" كثيرًا في غالب الصفحات من الكتب التي تتحدث عن هذه الفلسفة الدينية، وخاصة (عبادة أرواح الأسلاف)[3] . فقد استمر التقديس والتبجيل والعبادة للأسلاف، حتى وصل تقديسهم لأرواح هؤلاء الأسلاف إلى درجة ربطها بأرواح الآلهة، ومن ذلك إيمانهم مثلا "أن أرواح الأسلاف المقدسة تحوم فوق بيوتهم وبيوت أبنائهم وذرياتهم، جنبًا إلى جنب مع أرواح الآلهة، بل ويعتقدون أن أرواح أسلافهم لا تحوم فقط، بل ترقص مع ضوء مصابيحهم ووهجها إذا تحركت"[4]. ويرى عالم الأعراق الياباني، الدكتور "ماسو أكاد" أن احتفالاتهم هذه وطقوسها تقوم على اعتقادهم بوجود مركب "تاما"، وهو جوهر روحي موجود عند الإنسان الحي وفي أرواح الموتى أيضًا. وهذا المركب يهتز عند الانتقال من فصل الشتاء إلى الربيع، محاولا مفارقة الجسد، وهو أيضًا الذي يدفع الأموات باتجاه منازل الأحياء لزيارتها، ومن هنا نشأ مفهوم عبادة الزائر عندهم[5]. كما ورد أن احتفالات بعضهم تنتهي بأن تضع العائلة فانوسًا عند الغروب من ورق معين، وبداخله شمعة صغيرة ليعوم فوق الماء كتحية لأرواح الموتى[6].

إذن فالشنتو يؤمنون ببقاء الأرواح بعد الموت، إذ لا أعتقدُ أننا نستطيع أن نقرأ كل ما سبق، ثم نشكك في هذا، فتقديس أرواح الأسلاف والأجداد، والإيمان بالزيارات التي تقوم بها أرواحهم وغيرهم من الأموات إلى بيوت أقاربهم الأحياء، والإيمان بحركة تلك الأرواح الزائرة وتراقصها...الخ. كل ذلك يستلزم بالضرورة الإيمان بأمرين هما: ١- الإيمان بوجود الروح. ٢- الإيمان ببقاء الروح بعد موت الإنسان.

كما نجد إشارات قليلة قد يُفهم منها إيمان بعض الأوائل من شعب اليابان القديم بوجود حياة ثانية. ومنها أنه عندما يموت منهم سيد، كانوا يدفنون عبيده معه، لحمايته والوقوف بجانبه في الحياة الثانية. والنقطة الثانية، هي أنهم كانوا يضعون مع موتاهم بعض الأشياء والمقتنيات والحاجات المهمة والثمينة. ومن أفضل ما يمكن أن يقال لتوضيح هذين الطقسين الغريبين في الدفن هو ما ذكره الدكتور محمد العريبي بقوله المختصر الذي دمج فيه النقطتين مع بعضهما حيث يقول: "كانوا يخافون الموتى، ويعبدونهم في آن واحد، ولذلك كانوا يكرمون موتاهم بوضع الحلي والأشياء الثمينة في قبورهم، كوضع سيف إذا كان الميت رجلا أو مرآة إذا كان الميت امرأة". ثم يردف بعدها

---

[1]- د. سيد عويس، الخلود في التراث الثقافي المصري، مرجع سابق، ص ٥١.

[2]- راجع: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، النسخة الإلكترونية، ص ٧٥٩.

[3]- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، المرجع السابق، ص ٧٦٠.

[4]- محمد سليمان حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، مصدر سابق، ص ١٩١.

[5]- المصدر السابق بتصرّف، ص ١٩١. وأيضًا: مرسيا إيلياد، أسطورة العودة الأبدية، ص ١١١.

[6]- مسعد بري، تطور الفكر الطوطمي (دراسة في الجغرافية الاجتماعية)، جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية / قسم الجغرافيا، العام الدراسي ٢٠١٠ م، ص ٧٢.

مباشرة: "كما وأنهم كانوا يقومون بالصلوات أمام صور أسلافهم كل يوم. وإذا كان الميت من السادة (الإقطاعيين) كانوا يدفنون عبيده معه، ليدافعوا عنه في الحياة الثانية"[١].

والنتيجة النهائية عندي كباحث، أنه لم يظهر لي بوضوح أن الشنتويين يؤمنون بأية حياة أخرى من أي شكل بعد الحياة الدنيا على الصعيد (الفيزيقي) الجسدي، فلا بعث ولا حساب ولا نشور ولا قيام للأجساد ولا عودة ولا أي شيء من هذا، فالموت عندهم هو النهاية التي يذهب بعدها جسد المتوفى إلى مناطق ملوّثة كما يقول بعضهم، أو إلى التحلل الطبيعي فقط، كما يقول بعضهم الآخر[٢]. أما على الصعيد (الميتافيزيقي) الروحي؛ فالروح -في معتقدهم- يطلق سراحها من قيودها المادية بعد موت الإنسان، فتعود مجددًا لدائرة قوى تكوين الطبيعة، وتصبح جزءا منه[٣].

أمّا الفلسفة الصينية، فلم تكترثْ كثيرًا بالنواحي الميتافيزيقية والإلهيات، فارتباطها ضعيف بالعالم الآخر ومصير الإنسان بعد الموت وما شابه، وإنما اتجهتْ إلى الحياة المادية ونواميسها وكل ما فيها، وإلى الأخلاق وعمارة الأرض وفلاحتها وما شابه.

إلا أننا مع ذلك لا نستطيع القول أن الصينيين أهملوا بالكلية ما وراء الحجاب، فقد ثبت أن فيلسوفهم الكبير "كونفوشيوس" كان يقدم الذبائح للأرواح كأنها حاضرة أمامه، رغم عدم اقتناعه التام ولا ارتياحه لكثير من طقوس تكريم الموتى التي كان يشارك فيها بكل حرص. والحقيقة أن هذا يعيدنا إلى ما ورد أعلاه عن فلسفات اليابان، فالحال مقارب في الصين، حيث نجد لديهم (إكرام أرواح الموتى وعبادتها) وهذا ناتج عن عقائدهم القديمة التي تؤمن بأن للإنسان روحًا متميزة عن جسده، وأن الروح خالدة بعد أن يتحلل الجسد في التراب، فعقيدة عبادة أرواح الآباء التي تتخذ شكل ولائم وحفلات عائلية، تؤكد لنا إيمانهم بالروح وخلودها بعد فناء الجسد[٤].

أمّا الفلسفة الطاوية في الصين القديم، فقد استسلمت للأساطير بشكل أكبر، فالروح بعد الموت تهيم في الغابات أو تتردد على المقبرة، أو تتشرد في العراء وهي ترتعد في الزمهرير القارس أو تتعذب في الميزان المطهر، مع وجود كلام كثير آخر لا يخرج منه الباحث إلا بالضبابية والغموض والحيرة من هذه الفلسفات المتضاربة.. ومن الأهمية بمكان أن نؤكد على سيطرة النزعة المادية -المقاربة لأفكار الفلاسفة الطبيعيين أو الماديين- على عقول كثير من مفكري الصين خاصة المتأخرين، حيث نجد الفيلسوف الصيني المعاصر "لن يوتانج" يقول مثلا: "لا عالم آخر سوى هذا العالم.. هنا جنتي وهنا أيضًا سمائي، وبانتهاء الحياة الدنيا ينتهي كلُّ شيء". وكذلك الكاتب الصيني "وانج شيه" الذي يقول: "إن حياتنا تتغير وتتبدل وتنتهي إلى لا شيء". ويقول حكيم صيني آخر: "إننا حينما نتيقن

---

[١]- د. محمد العريبي، الديانات الوضعية في الشرقين الأدنى والأقصى، دار الفكر اللبناني، بيروت، نسخة pdf بلا تاريخ، ص ص ٢٧٥-٢٧٦.

[٢]- د. أمين الوزان، مقالة عنوانها: الديانة الشنتوية، نشرها الدكتور أحمد القاضي أستاذ المذاهب المعاصرة بجامعة القصيم، في موقع (العقيدة والحياة) الذي يشرف عليه. وأنظر أيضًا: الشنتوية ديانة اجتماعية، جريدة "شمس" الورقية السعودية، العدد ١٥٨٤ / ٢٠١٠-٠٥-١٤.

[٣]- د. صبري محمد خليل، فلسفة الأديان الشرقية القديمة: مدخل نقدي مقارن، بحث منشور من جامعة الخرطوم.

[٤]- أنظر: د. عزت زكي، الموت والخلود في الأديان المختلفة، مرجع سابق، الصفحات ١٥٣-١٦٢-١٦٣. بتصرّف منّي في الصياغة والدمج.

تمامًا أن حياتنا الأرضية هي سماؤنا الوحيدة؛ فإننا نبذل قصارى الجهد أن نجعل من أرضنا سماء سعيدة"[١].

وبهذا تم استكمال حديثنا عن (النظرة الفلسفية للخلود)، أمّا **النظرة الدينية**، فقد ركّزتْ كلُّ الأديان السماوية وجلُّ الأديان الأخرى على حب البقاء ونزعة الإنسان نحو الخلود، وذلك بترغيبه في النعيم في العالم الآخر، إذا حَسُنتْ سلوكياته في الدنيا، وبتحذيره وترهيبه من الخلود في عذاب الآخرة، إنْ كانت سلوكياته الدنيوية تستوجب ذلك الخلود، وفق التفاصيل والتعاليم والتصورات التي تختلف من دين إلى آخر.

والحقيقة أن ارتباط الأديان عامة بمسألة الخلود كبير ووثيق، حيث يرى العالم الكبير برونسلاف مالونفسكي "أن الإنسان بطبيعته يخشى الموت ولا يريد أن يصدّق أن موته يعني نهايته إلى الأبد، وهنا تأتي الأديان لتمنح الإنسان الضمانات النفسية بأن حياته سوف تستمر إلى ما لا نهاية في العالم الثاني. وبالتالي تصبح **(مسألة الخلود)** هي جوهر الأديان".[٢]

فأمّا الصابئة فلا يوجد لديهم خلود في الجحيم، بل عندما يموت الإنسان فهو إما أن ينتقل إلى الجنة، وإما أن ينتقل إلى "المطهر"، حيث يعذب بدرجات متفاوتة حتى يطهر من الخطايا، فتنتقل روحه بعد هذا التطهير إلى الملأ الأعلى، **فالروح خالدة** والجسد فان[٣].

وأمّا خلاصة موقف الديانة اليهودية، فرغم أن كتاب العبرانيين المقدّس لم يقلْ إلا الشيء القليل عن **خلود الثواب والعقاب**، إلا أن هذه الفكرة أصبحت ذات شأن كبير في آراء الأحبار الدينية. فقد صوّروا النار على أنها جهنم (Ge Hinnom) أو شاول، وقسموها كما قسموا السموات إلى سبع طبقات تتدرج في درجات العذاب. ولا يدخلها من المختتنين إلا أخبثهم، وحتى الآثمون الذين يداومون على الإثم لا يعذبون فيها إلى أبد الآبدين، بل إن كل من يلقون في النار يخرجون منها مرة أخرى إلا ثلاث فئات: الزاني، ومن يفضح غيره أمام الناس، ومن يسب غيره. أما السماء فقد كانوا يسمونها جنة عدن (Gen Edon) وكانوا يصورونها في صورة حديقة تحوي جميع المسرات الجسمية والروحية. فخمرها عصرت من كروم احتفظ بها من الستة أيام التي خلق فيها العالم، والهواء فيها معطر بالروائح الزكية، والله نفسه يجتمع بالناجين من العذاب في وليمة أعظم ما يسر أصحابها أن يروا وجهه. بيد أن بعض أحبار اليهود يعترفون بأن أحداً لا يعرف قط ما وراء القبر[٤].

فالعبرانيون القدامى الأوائل قالوا إن للإنسان أنفاسًا تتردد لروحه، ودمًا يجري في العروق لحياته، وأعضاء تجمع في عملها الوظيفي والنفسي معًا، إلا أنهم آمنوا بأنه حتى عند انقطاع هذه كلها عن العمل، **فالميت لا يفنى ولا ينتهي**. أما ما يتبقى بعد الموت، فهو ليس روحًا مجردة من حقيقة المادة، لأن مثل تلك العقيدة لم تشرق على العقلية العبرانية، إلا بعد حقب طويلة، حينما تأثرتْ بالفكر

---

[١]- مقتطفات مدمجة من المرجع السابق، راجع الصفحات: من ١٥٩ إلى ١٦٣.

[٢]- كامل النجار، مقالة عنوانها: ماذا يقول علماء الأنثروبولوجيا عن الأديان؟، موقع مركز الدراسات والأبحاث العلمانية في العالم العربي، ٢٠١٣ / ٦ / ١٤ .

[٣]- أنظر: موسوعة الملل والأديان - الدرر السنية، لمجموعة من الباحثين بإشراف علوي بن عبد القادر السقاف، نسخة pdf بلا طبعة ولا تاريخ، ص ٥٩٩.

[٤]- وِلْ ديورَانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، ج ١٤، ص ص ٢١-٢٢.

اليوناني. إن الكيان البشري بعد الموت هو جسد هيولي، له شبه الجسد المادي، ولقد لقبوا هذا الكيان الهيولي بالرفايم، الأخيلة أو الأشباح[١].

والحقيقة أننا إذا نظرنا إلى الفكر الديني اليسرائيلي في القرون الأولى من حكم الملوك، وإلى أسفار موسى الخمسة وأسفار يوشع والقضاة، فلن نجد أية إشارة إلى مفاهيم أخروية محددة حقيقية. ومع هذا، يمكن القول بأن ثمة عناصر أخروية تسم الفكر الديني اليهودي في مرحلة ما قبل السبي. ولكن اليهود الذين يرون أنهم شعب الله المختار، كانوا دائمًا يذوقون صنوف الويل والعذاب الأرضيين، فتجربتهم التاريخية هزيمة تلو هزيمة، وانكسار إثر انكسار، على أيدي الآشوريين والبابليين، ثم زادتْ الأمور سوءاً بعد العودة من بابل، وتوقُّف سلسلة أنبياء اليهودية، وبعد إعادة بناء الهيكل. وقد عاد اليهود من المنفى تحدوهم تطلعات مشيحانية، وأمل في أن تسود جماعة يسرائيل مرة أخرى. ولكن الماشيَّح لم يأت بل تدهور حالهم وأصبح الحاضر تحفه المشاكل، وبدأتْ نذرُ الشرِّ تظهر في الأفق، فقد ظهرت الإمبراطورية الرومانية بقوتها الضخمة لتهيمن على الشرق الأدنى القديم، وفلسطين، ثم دمّرتْ الهيكلَ تمامًا على يد تيتوس، ثم القدس على يد هادريان.. وقد ساعد كل ذلك على انصراف اليهود عن الحاضر إلى **(التأمل الأخروي)** في آخر الأيام، إذ كان من غير المنطقي، من وجهة نظرهم، أن يتركهم الإله في عذابهم الدنيوي دون نهاية سعيدة. وقد تَرسَّخ لديهم الإيمان، تحت تأثير الأفكار الفارسية، بالفكرة الثنوية التي ترى أن الوجود يتكون من عالمين: العالم الحاضر ويحكمه الشيطان ومصيره الزوال، والعالم القادم ويحكمه إله الخير والنور؛ وهو عالم سيأتي بعد انتصار إله النور على إله الظلام، وهو عالم حرّ تنتشر فيه **السعادة الأبدية**[٢].

واليهودية تهتم بالأعمال أكثر من الإيمان، وهي في جوهرها أسلوب حياة لا عقيدة تعتقد، وهي في هذا تختلف عن المسيحية التي تعنى بالإيمان وتجعله يفوق العمل الصالح، فالاتجاه الخلقي عند اليهود في التصرفات اليومية أهم من الاعتقاد السليم، وتختلف اليهودية عن المسيحية كذلك في مجال تفكيرها، فمجال اليهودية ليس فيما وراء هذا العالم، ذلك الذي لن يقدر الإنسان العائش هنا على الأرض أن يدركه، وإنما مجالها الأوحد هو هذا العالم الحاضر، وفي دائرة المعارف العبرية يقرر "كوهلر" أن اليهودية ليست عقيدة أو نظامًا من العقائد يتوقف على قبولها الفداء أو الخلاص في المستقبل؛ ولكنها نظام للسلوك البشري، وناموس البر الذي يتحتم على الإنسان اتباعه، ويقرر الفكر اليهودي بناء على ذلك، أن الجزاء يكون حسب الأعمال لا حسب الاعتقاد. ولذلك نجد في نصوصهم (أشهد السماوات والأرض على أنه سواء كان المرء يهوديًا أم وثنيًا، رجلا أم امرأة، حُرّاً أم مقيدًا، فإنه سينعم بالجزاء حسب أعماله دون سواها. ولما كانت اليهودية دين أعمال لا دين إيمان، فمن الواضح تبعا لذلك ألا تتكلم عن الآخرة والبعث والحساب، فتلك أمور تتوقف على العقيدة، ولهذا **فقلما يشير اليهود إلى حياة أخرى بعد الموت، ولم يرد في دينهم شيء عن الخلود**، وكان الثواب والعقاب يتم في الحياة الدنيا، ولم تدر فكرة البعث في خلد اليهود، إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم سلطان في هذه الأرض ولعلهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس، أو لعلهم أخذوا شيئا منها عن المصريين، ومن هذه الخاتمة الروحية ولدتْ المسيحية. والدارس للكتب الإسرائيلية يجدها تسير مع الفكر الذي أوضحناه آنفا فهي لم يرد فيها شيء عن البعث واليوم الآخر، وإنما ورد حديث عن

---

[١]- أنظر: د. عزت زكي، الموت والخلود في الأديان المختلفة، مرجع سابق، ص ١٧٩.

[٢]- د. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، نسخة إلكترونية من إعداد موقع المكتبة الشاملة التابعة لأوقاف الشيخ محمد الراجحي، ج ١٤، الصفحات ٢٥٥-٢٦٤-٢٦٥.

الأرض السفلى والجب التي يهوى إليها العصاة ولا يعودون (وإن الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد). ويقول Arthur Hertzberg: إن الكتاب المقدس نفسه يعد الحياة الدنيا وحدها هي عالم الإنسان، وليس هناك اعتقاد بعد ذلك في بعث، وجنة أو نار. ومر الزمن واحتل الفرس بلاد بابل ودولتي اليهود، ووقع الأسر البابلي، ثم سمح "قورش" ملك الفرس لليهود بالعودة إلى فلسطين وإعادة بناء معبدهم، وكانت هذه العلاقة الطيبة بين الفرس وبين اليهود داعية لأن يدرس اليهود الديانة الزرادشتية ديانة الفرس، ومن تعاليم هذه الديانة، اقتبس اليهود الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت، ولأول مرة عرفوا أيضا أن هناك جنة ونارًا فنقلوا ذلك الاعتقاد إلى دينهم، وفي هذا الجو بدأ "أشعيا" كلامه الذي يشير إلى يوم البعث وإلى الحساب والجزاء، كما أخذ "دانيال" يحذر الناس ويذكرهم بيوم البعث و***الخلود الأبدي***، ومن قوله في ذلك: **(كثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار، إلى الازدراء الأبدي).** على أن اليهود عندما تكلموا عن الآخرة، لم يكونوا في أكثر الأحوال يعنون ما تعنيه الأديان الأخرى من وجود دار للحساب على ما قدم الإنسان في حياته الأولى، إنما كانوا يعنون بها شيئا آخر، فالشعب اليهودي عند الباحثين اليهود قسمان، قسم عاش حياته الدنيا سعيدًا حُرّاً، وهؤلاء يعدّهم الفكر اليهودي قد حصلوا على الجانب المادي من رضا إلههم، أما القسم الآخر وهم الذين فقدوا هذا الجانب وعاشوا تحت سلطان الجوييم أو عاشوا في المنفى مشردين فهؤلاء يرى الفكر اليهودي أن من حقهم أن يعودوا للحياة مرة أخرى؛ لينالوا نصيبهم من المتعة أو النعيم. وعلى العموم فإن فكرة البعث لم تجد لها أرضًا خصبة في عالم اليهود، وقد حاول بعض طائفة الفريسيين القول بها، ولكن هذه المحاولة لقيت معارضة شديدة، أما باقي الفرق اليهودية فالغالب أنها لم تعرف عنها الكثير[١].

ومن الغريب أنه بينما كان الاعتقاد بحياة أخرى بعد الموت من العقائد التي نادت بها أديان كثيرة في القديم مثل دين الفرس، فإن أمة إسرائيل لم تلتزم بهذه العقيدة في أول عهدها. صحيح أن فكرة غامضة راودتْ خيالهم عن عالم تحفه الظلال للأنفس في العالم السفلي "شيول"، ولكن هذا **العالم السفلي** كان مظلمًا خارجًا عن سلطان يهوه، واقتصر دين إسرائيل على الاهتمام بهذا العالم وشؤونه. ولعل هذا التركيز على الحياة الحاضرة هو الذى أبقى لليهودية خواصها الأدبية الأخلاقية في الإيمان ببر الله وعدله، اللذين يجب أن يتزكيا في هذه الحياة[٢].

على أن ضغط الأعصاب لم يعد محتملا في الأطوار الأخيرة من تطور الدين، فاضطر القوم إلى قبول عقيدة قيامة الأموات والحياة بعد الموت. ولئن يكن لدين الفرس بعض الأثر في هذا التطوّر، فإنه لا جدال في أن هذه العقيدة كانت في الواقع نمواً داخليًا في هذا الدين. وكان مردُها إلى عوامل ثلاثة: أولها: الإحساس بعدالة الله. وذلك لأن الاختبار البشري أقحم على العقول نتيجة منطقية، مؤداها أنه لابد أن يكون لله مجال أوسع من هذا العالم يزكي فيه عدله: ولذلك نجد مثلا في (أيوب ١٩ : ٢٦) هذا النص: **"وبعد أن يفنى جلدي هذا و بدون جسدي أرى الله"**. وقد رسخت هذه العقيدة في عصر الشهداء المكابيين.. العامل الثاني: الرقي المضطرد في الدين الشخصي وعلاقة الإنسان بالله، كما نرى ذلك ماثلا في سفر المزامير **"الله ليس له أموات، بل إله أحياء، لأن الكل يحيون لله، وليس مستساغاً ولا مقبولا أن أنفس البشر التي تستمتع بمثل هذه الصلة مع الله تنحدر إلى**

---

[١]- د. أحمد شلبي، اليهودية، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، ط١٠، ١٩٩٢م، ص ص ٢٠٥-٢٠٦، بتصرّف.

[٢]- أنظر: حبيب سعيد، أديان العالم، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية – القاهرة، ١٩٧٧م، ص ١٨٢.

(اللاشيئية) عند الموت". والعامل الثالث: توقع مجيء ملكوت الله، بعد كل أسباب الفشل والخيبة التي عانتها الأمة. فلا يعقل أن الذين جاهدوا وكافحوا و حاربوا وماتوا في سبيل قضية الأمة وتحقيق آمالها، لا يكون لهم نصيب في ذلك اليوم المجيد. تلك كانت صرخة اشعياء حين قال: **"تحيا أمواتك. تقوم الجثث. استيقظوا ، ترنّموا يا سكان التراب"**[١].

وقد تكون الخلاصة أن التوراة لم تذكر شيئًا عن الآخرة، ولا عن الملائكة، ولم تذكر جنة ولا نارًا، وكل ما تعد به المحسنين مادي دنيوي فحسب، وذكر الآخرة لم يرد في نص واحد أو صريح؛ وكل ما ورد فيها من إشارات مثل كلمة "آخرتهم" أو "آخرتها" فإنها يحتمل أن تؤول إلى نهاية الأمر؛ لذلك كانت الحياة الدنيا هي غاية همهم، والمادية هي مبتغاهم الأسمى. ولكننا بتأمل مصادرهم الأخرى كالتلمود مثلا، نجد أن التلمود حين يتحدث عن النعيم أو العذاب يرتبط حديثه بالدنيا لا بالآخرة؛ فيقول التلمود: "بعد موت اليهودي تخرج روحه وتشغل جسمًا آخر؛ أما اليهود الذين يرتدون عن دينهم بقتلهم يهوديًّا؛ فإن أرواحهم تدخل بعد موتهم في الحيوانات أو النباتات ثم تذهب إلى الجحيم، وتعذب مدة عام كامل ثم تعود ثانيًا، وتدخل في الجمادات ثم في الحيوانات ثم في الوثنيين ثم ترجع إلى جسد اليهودي بعد تطهيرها، وهذا التناسخ فعله الله رحمة باليهود؛ لأن الله أراد أن يكون لكل يهودي نصيب من الحياة الأبدية". وبمراجعة التلمود نجد أيضًا أن اليهود يتحدثون عن الجنة والنار؛ فيعتقدون الآتي: لا يدخل الجنة إلا اليهود؛ وسيظل المسلمون في النار إلى الأبد؛ لأنهم لا يغسلون سوى أيديهم وأرجلهم، والمسيحيون يدخلون النار لأنهم لا يختتنون، كل الناس يوم القيامة في النار إلا اليهود[٢].

فالتلمود حين يتحدث عن الجحيم، يقول بأنه لا سلطان له على مذنبي بني إسرائيل، ولا سلطان له على تلامذة الحكماء الحاخامات، ولكن بعض الحاخامات قالوا: إن الإسرائيليين الذين اقترفوا السيئات سيذهبون مع الأجانب إلى نار جهنم ، ويمكثون فيها اثني عشر شهراً، وسوف تحرق روحهم ، وسوف تثير الرياح أجزاءهم تحت نعال الصالحين. وفيما يتعلق بمصير غير اليهود في الآخرة يقول التلمود بأنه لا يدخل الجنة إلا اليهود، أما الجحيم فهو مأوى الكفار، ولا نصيب لهم فيه سوى البكاء، لما فيه من الظلام والعفونة والطين، ويبقون هناك خالدين. فعقيدة اليهود عن الجحيم تتلخص بأنه لا يخلد فيه إلّا غير اليهود كما لا يدخل الجنة إلّا اليهود، ومن يدخل النار من اليهود لا يبقى فيها أبد الآبدين، بل يخرج منها بعد مدة من العذاب الأليم[٣].

وللدخول إلى موقف الديانة المسيحية، يحسن بنا أن نزيد من شرح العالم السفلي (شيول) في اليهودية، لوجود اشتراك بين الديانتين في الكثير حوله، فالفكر اليهودي كان بدائيًا في هذه المسألة، ولكن تعاليم المسيحية ممثلة في (العهد الجديد) طوّرتْ ذلك المعتقد وتوسعت فيه أكثر.

ففي اليهودية نجد مقر الموتى (العالم الأسفل) يقع وقوعًا حقيقيًا تحت سطح الأرض، وهذا ما يؤكده (العهد القديم) بكل جلاء، ومن ذلك –على سبيل المثال- أن "موسى" حين نفذ قصاص عدالة الله في "بني قورح"، نجدهم ينزلون أحياء بكامل هيئتهم إلى (شيول) من خلال الشق الرهيب الذي حدث

---

(١)- نفس المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٢)- مناهج جامعة المدينة العالمية، كتاب الأديان والمذاهب، منشورات جامعة المدينة العالمية، نسخة إلكترونية موافقة للمطبوع، بلا رقم طبعة ولا تاريخ، ص ص ١٩٥-١٩٦.

(٣)- أنظر: محمد عبد الخالق كاظم، الخلود في جهنم، مرجع سابق، ص ٢٥.

على أثر زلزال في الأرض[١]. وأفضل ما يقال عن (شيول) في اليهودية، هو أنه حينما تصل الحياة بالإنسان إلى أقصى درجات التعاسة، فإن هذا المكان الذي يسمّى (أرض الظلمة والنسيان) يكون بلا شك مكاناً للراحة، وكمثال على ذلك نجد أن "أيوب" حين شعر أن وجوده أصبح عبئا لا يطاق، اشتاق إلى العالم السفلي، حيث تُبتلع الآلام في أرض النسيان. ونجد هذا النص حول ذلك: (هُنَاكَ يَكُفُّ الْمُنَافِقُونَ عَنِ الشَّغْبِ، وَهُنَاكَ يَسْتَرِيحُ الْمُتْعَبُون. الأَسْرَى يَطْمَئِنُّونَ جَمِيعًا، لاَ يَسْمَعُونَ صَوْتَ الْمُسَخِّرِ. الصَّغِيرُ كَمَا الْكَبِيرُ هُنَاكَ، وَالْعَبْدُ حُرٌّ مِنْ سَيِّدِهِ)[٢].

والعبرانيون القدامى حين اعتقدوا أن الإنسان يبقى بعد الموت، فإن ذلك الوجود بالنسبة لهم كان شاحبًا يكاد يكون غير حقيقي، في عالم سفلي بغيض، لا رجاء للإنسان فيه، ولذلك لا غرابة إن كانت آمال اليهودي تتركز في مستقبل أسرته وازدهارها على الأرض، ولا شيء سوى ذلك. وعلى العموم فكثير من آيات العهد القديم تصوّر هذا المكان بأنه (أرض السكوت) ولكنهم لا يهتمون كثيرا بالتفصيل في تصويرها، رغم وجود إشارات حول ذلك، منها مثلا أن النبي يُرى هناك وهو ما زال يتغطى بنفس الغطاء الذي اعتاد أن يغطي به رأسه وهو على الأرض.. ومنها أن الملوك يجلسون هناك على شبه عروش.. ومنها أن الكل هناك أشباح في أشباح، وصور مرئية دون جسم مادي[٣]. ومن الخطأ أن نقول إن تلك العقيدة عن مقر الموتى وخلودهم الأبدي في العالم الأسفل وليدة الفكر الكتابي؛ فقبل التوراة وموسى والشعب العبراني، كانت العقيدة عن (شيول) موجودة منذ زمن سحيق[٤].

والمسيحية لا شك أنها وُلدتْ من رحم اليهودية، فاتفقتْ مع اليهودية في الكثير، ومن ذلك الكثير ما يهمنا عن الخلود، فالعالم السفلي **(شيول)** تحوّل فأصبح **(الهاوية)** في العهد الجديد، وتغيّرت صورته في المسيحية، فلم يعد مكان السلبية والجمود والعزلة والمساواة بين الأخيار والأشرار، بل أصبح (محطة انتظار) وحالة وسطى بين الموت والقيامة، حيث ينتظر هناك الأبرار في سلام وسعادة في قسم خاص بهم، وفي المقابل ينتظر الفجار والأشرار في القسم الآخر الخاص بالعذاب في تلك الهاوية، وتفصل بين القسمين هوة عظيمة مثبتة[٥].

ثم تأتي (قيامة الأجساد) التي تحتل مكانة واضحة في المسيحية، حيث كان يسوع يشارك عصره الاعتقاد في قيامة جسدية من الموت، حيث نجد –مثلا- في إنجيل يوحنا: (لاَ تَتَعَجَّبُوا مِنْ هذَا، فَإِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ صَوْتَهُ، فَيَخْرُجُ الَّذِينَ فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الْحَيَاةِ، وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الدَّيْنُونَةِ)[٦].

ثم يكون **(الخلود الأبدي)** إما في نعيم دائم وإما في عذاب دائم، حيث نجد في نصوص المسيحية المقدسة الكثير حول هذا، وسنكتفي بهذه الآيات:

---

[١]- أنظر: د. عزت زكي، الموت والخلود في الأديان المختلفة، مرجع سابق، ص ١٨٥.
[٢]- سفر أيوب ٣، الآيات: ١٧-١٨-١٩.
[٣]- د. عزت زكي، المرجع السابق، ص ١٨٣.
[٤]- أنظر إلى معتقدات قدماء بلاد الرافدين عن العالم السفلي على سبيل المثال، في الفصل الثالث من بحثنا هذا.
[٥]- د. عزت زكي، المرجع السابق، ص ص ٢٠٣-٢٠٤، بتصرّف منّي في الصياغة والاختصار.
[٦]- إنجيل يوحنا ٥، الآيتان: ٢٨-٢٩.

١- (وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ، **هؤُلاَءِ إِلَى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، وَهؤُلاَءِ إِلَى الْعَارِ لِلازْدِرَاءِ الأَبَدِيِّ**. وَالْفَاهِمُونَ يَضِيئُونَ كَضِيَاءِ الْجَلَدِ، وَالَّذِينَ رَدُّوا كَثِيرِينَ إِلَى الْبِرِّ كَالْكَوَاكِبِ إِلَى أَبَدِ الدُّهُورِ)[١].

٢- (وَيْلٌ لِلْعَالَمِ مِنَ الْعَثَرَاتِ! فَلاَ بُدَّ أَنْ تَأْتِيَ الْعَثَرَاتُ، وَلكِنْ وَيْلٌ لِذلِكَ الإِنْسَانِ الَّذِي بِهِ تَأْتِي الْعَثْرَةُ! فَإِنْ أَعْثَرَتْكَ يَدُكَ أَوْ رِجْلُكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَعْرَجَ أَوْ أَقْطَعَ مِنْ أَنْ **تُلْقَى فِي النَّارِ الأَبَدِيَّةِ** وَلَكَ يَدَانِ أَوْ رِجْلاَنِ. وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ عَيْنُكَ فَاقْلَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَعْوَرَ مِنْ أَنْ تُلْقَى فِي **جَهَنَّمِ النَّارِ** وَلَكَ عَيْنَانِ)[٢].

٣- (أَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ: «دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ، فَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ، وَمَضَى مِنْ هُنَاكَ. وَإِذَا وَاحِدٌ تَقَدَّمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيَّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِيَ **الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ**؟» فَقَالَ لَهُ: «لِمَاذَا تَدْعُوني صَالِحًا؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ. وَلكِنْ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ **الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةُ** فَاحْفَظِ الْوَصَايَا». قَالَ لَهُ: «أَيَّةَ الْوَصَايَا؟» فَقَالَ يَسُوعُ: «لاَ تَقْتُلْ. لاَ تَزْنِ. لاَ تَسْرِقْ. لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ. أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَأَحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. وَكُلُّ مَنْ تَرَكَ بُيُوتًا أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أَبًا أَوْ أُمًّا أَوِ امْرَأَةً أَوْ أَوْلاَدًا أَوْ حُقُولاً مِنْ أَجْلِ اسْمِي، يَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ **وَيَرِثُ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ**)[٣].

٤- (أَمَّا نُفُوسُ الصِّدِّيقِينَ فَهِيَ بِيَدِ اللهِ، فَلاَ يَمَسُّهَا الْعَذَابُ. وَفِي ظَنِّ الْجُهَّالِ أَنَّهُمْ مَاتُوا، وَقَدْ حُسِبَ خُرُوجُهُمْ شَقَاءً، وَذَهَابُهُمْ عَنَّا عَطَباً، أَمَّا هُمْ فَفِي السَّلاَمِ. وَمَعَ أَنَّهُمْ قَدْ عُوقِبُوا فِي عُيُونِ النَّاسِ؛ فَرَجَاؤُهُمْ مَمْلُوءٌ خُلُوداً، وَبَعْدَ تَأْدِيبٍ يَسِيرٍ لَهُمْ ثَوَابٌ عَظِيمٌ، لأَنَّ اللهَ امْتَحَنَهُمْ فَوَجَدَهُمْ أَهْلاً لَهُ)[٤].

٥- (فَاذْكُرْ خَالِقَكَ فِي أَيَّامِ شَبَابِكَ، قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ أَيَّامُ الشَّرِّ أَوْ تَجِيءَ السِّنُونَ إِذْ تَقُولُ: «لَيْسَ لِي فِيهَا سُرُورٌ». قَبْلَ مَا تَظْلُمُ الشَّمْسُ وَالنُّورُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ، وَتَرْجِعُ السُّحُبُ بَعْدَ الْمَطَرِ. فِي يَوْمٍ يَتَزَعْزَعُ فِيهِ حَفَظَةُ الْبَيْتِ، وَتَتَلَوَّى رِجَالُ الْقُوَّةِ.. يَخَافُونَ مِنَ الْعَالِي، وَفِي الطَّرِيقِ أَهْوَالٌ، وَاللَّوْزُ يُزْهِرُ، وَالْجُنْدُبُ يُسْتَثْقَلُ، وَالشَّهْوَةُ تَبْطُلُ. لأَنَّ الإِنْسَانَ ذَاهِبٌ إِلَى **بَيْتِهِ الأَبَدِيِّ**.. لْنَسْمَعْ خِتَامَ الأَمْرِ كُلِّهِ: اتَّقِ اللهَ وَاحْفَظْ وَصَايَاهُ، لأَنَّ هذَا هُوَ الإِنْسَانُ كُلُّهُ. لأَنَّ اللهَ يُحْضِرُ كُلَّ عَمَلٍ إِلَى **الدَّيْنُونَةِ**، عَلَى كُلِّ خَفِيٍّ، إِنْ كَانَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا)[٥].

٦- (ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، **رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ**. لأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيبًا فَآوَيْتُمُونِي. عُرْيَانًا فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضًا فَزُرْتُمُونِي. مَحْبُوسًا فَأَتَيْتُمْ إِلَيَّ. فَيُجِيبُهُ الأَبْرَارُ حِينَئِذٍ قَائِلِينَ: يَا رَبُّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعًا فَأَطْعَمْنَاكَ، أَوْ عَطْشَانًا فَسَقَيْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ غَرِيبًا فَآوَيْنَاكَ، أَوْ عُرْيَانًا فَكَسَوْنَاكَ؟ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ مَرِيضًا أَوْ مَحْبُوسًا فَأَتَيْنَا إِلَيْكَ؟ فَيُجِيبُ الْمَلِكُ وَيَقُول لَهُمْ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ. «ثُمَّ يَقُولُ أَيْضًا لِلَّذِينَ عَنِ الْيَسَارِ: اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلاَعِينُ إِلَى

---

[١]- سفر دانيال ١٢، الآيتان: ٢-٣.

[٢]- إنجيل متى ١٨، الآيات: ٧-٨-٩.

[٣]- إنجيل متى ١٩، الآيات: ١٤-١٥-١٦-١٧-١٨-١٩- ٢٩.

[٤]- سفر الحكمة ٣، الآيات: ١-٢-٣-٤-٥.

[٥]- سفر الجامعة ١٢، الآيات: ١-٢-٣-٤-٥-١٣-١٤.

النَّارِ الأَبَدِيَّةِ الْمُعَدَّةِ لإِبْلِيسَ وَمَلاَئِكَتِهِ، لأَنِّي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمُونِي. عَطِشْتُ فَلَمْ تَسْقُونِي. كُنْتُ غَرِيبًا فَلَمْ تَأْوُونِي. عُرْيَانًا فَلَمْ تَكْسُونِي. مَرِيضًا وَمَحْبُوسًا فَلَمْ تَزُورُونِي. حِينَئِذٍ يُجِيبُونَهُ هُمْ أَيْضًا قَائِلِينَ: يَا رَبُّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعًا أَوْ عَطْشَانًا أَوْ غَرِيبًا أَوْ عُرْيَانًا أَوْ مَرِيضًا أَوْ مَحْبُوسًا وَلَمْ نَخْدِمْكَ؟ فَيُجِيبُهُمْ قِائِلاً: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ لَمْ تَفْعَلُوهُ بِأَحَدِ هؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ، فَبِي لَمْ تَفْعَلُوا. **فَيَمْضِي هؤُلاَءِ إِلَى عَذَابٍ أَبَدِيٍّ وَالأَبْرَارُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ)**[١].

فالمسيحيون يؤمنون بقوة أن الموت ليس نهاية الإنسان، بل هو بداية الحياة الثانية الجديدة. وأن الحياة على الأرض مؤقتة؛ لأن المسيح علّم في كل مواعظه عن الحياة الأبديّة لكل المؤمنين به. ولما كانت الحياة في المسيحية تضحية وزهدًا يوميًا يزيد الحياة ازدهارا، فهكذا هو الموت أيضًا في نظرهم، فهو حب للحياة الجديدة وفرح بالانتقال إليها. وتؤكد المسيحية أنه يجب على الإنسان المؤمن أن يستعد للموت استعدادا جيدا، لأن الموت يأتي فجأة، لا يعرف الإنسان متى وأين وكيف يكون. إذ يترك المؤمن كل شيء وراءه وإلى الأبد، ويترك كذلك جسده فريسة للديدان والفساد، ولكن أمل المؤمنين بعد الموت هو القيامة، حيث **السعادة الأبدية** التي لا يأكلون فيها ولا يشربون وإنما فرحًا يفرحون وتسبيحًا يُسبّحون الله[٢].

وهناك في المسيحية **"الفنائيون"** الذين ينادون ويرون **(الخلود الشرطي)** فهم يعتقدون أنه بعد فترة من العقاب الجزائي للأشرار، سيكون من نصيب هؤلاء الأشرار **الفناء الكلّي**[٣].

وهذا ما يذكّرنا وينقلنا إلى موقف بعض المسلمين أيضًا، الذين يعتقدون بـ **(فناء النار)** ، فالمسلمون جميعًا يتفقون على خلود الكفار في النار، والقرآن الكريم بلا شك واضح وصريح جدًا في هذه المسألة، حيث نجد آيات كثيرة مثبتة لهذا الخلود، ولكن المسلمين انقسموا في فهمهم لهذا الخلود إلى فريقين:

أ- الفريق الأول: يرون أن هذا الخلود في جهنم أبدي دائم، ويستدلون بآيات كثيرة، منها مثلا: **(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً)**[٤]. ومنها مثلا: **(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)**[٥]. ومنها مثلا: **(إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى)**[٦]. ومنها أيضًا: **(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً)**[٧]. ومنها مثلا: **(وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا**

---

[١]- إنجيل متى ٢٥، الآيات: من ٣٤ إلى ٤٦.
[٢]- الأب صبري المقدسي، الموجز في المذاهب والأديان، مرجع سابق، ص ٢٢٠.
[٣]- د. عزت زكي، الموت والخلود في الأديان المختلفة، مرجع سابق، ص ٢٤٣.
[٤]- سورة النساء، الآيتان ١٦٨-١٦٩.
[٥]- سورة المائدة، الآيتان: ٣٦-٣٧.
[٦]- سورة طه: الآية: ٧٤.
[٧]- سورة الفرقان، الآية: ٦٥.

خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً)[١]. ومنها مثلا: (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ)[٢]. ومنها مثلا: (لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ)[٣]. ومنها أيضًا: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ)[٤]. ومنها مثلا: (إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)[٥]. ومنها مثلا: (وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)[٦]. ومنها أيضًا: (وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)[٧]. إلى آخر تلك الآيات الكثيرة المشابهة، التي فهموا منها الخلود الأبدي المستمر بلا نهاية، والاستقرار الدائم، واستحالة الخروج أو الفناء أو تخفيف العذاب إلى أبد الآبدين.

ب- الفريق الثاني: يؤمنون بالخلود في جهنم لأزمنة طويلة تصل إلى آلاف السنين عند بعضهم؛ ولكنهم لا يرون أن هذا الخلود أبديّ أو دائم إلى أبد الآبدين، وقد حكى هذا القول الكثير من أئمة الإسلام كابن تيمية وابن القيم وغيرهما من مختلف المذاهب الإسلامية، ويستدل أنصار هذا الرأي على صحة معتقدهم بآيات أخرى من القرآن الكريم، منها مثلا: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ)[٨]. ومنها مثلا: (يَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)[٩]. ومنها مثلا: (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلْطَّاغِينَ مَآباً * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً)[١٠].

والحال مشابهة في مسألة **(خلود المؤمنين والصالحين في الجنة)** فالأمر متفق عليه عند جميع المسلمين، والقرآن واضح وصريح في هذه المسألة، والغالبية العظمى من المسلمين تؤمن أنه خلود أبدي دائم لا نهاية له، واستدلوا بآيات كثيرة، منها مثلا: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا)[١١]. ومنها مثلا: (قَالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلك الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[١٢]. ومنها أيضًا: (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

[١]- سورة الإسراء، الآية: ٩٧.
[٢]- سورة السجدة، الآية: ٢٠.
[٣]- سورة فاطر، الآية: ٣٦.
[٤]- سورة البقرة، الآيتان: ١٦١-١٦٢.
[٥]- سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٤-٦٥.
[٦]- سورة التوبة، الآية: ٦٨.
[٧]- سورة الجن، الآية: ٢٣.
[٨]- سورة هود، الآيتان: ١٠٦-١٠٧.
[٩]- سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.
[١٠]- سورة النبأ، الآيات: ٢١-٢٢-٢٣.
[١١]- سورة النساء، الآية: ١٢٢.
[١٢]- سورة المائدة، الآية: ١١٩.

الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)[1]. وكذلك: **(خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)**[2]. **)** . إلى آخر تلك الآيات الكثيرة المتشابهة.

وقالت أقلية محدودة جدًا من المسلمين أن خلود المسلمين الصالحين في الجنة طويل، ولكن النهاية هي فناء الجنة أيضًا، واستدلوا بحجج عقلية ليس هذا مقام سردها، وبأدلة نقلية قليلة نسبيًا، أبرزها: **(وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)**[3].

مع ضرورة الانتباه إلى أن غالب المسلمين يرون أن هذا الخلود يكون بالروح والجسد معًا في الحياة الثانية، ويختلف المسلمون في أصحاب الكبائر هل يخلدون في النار أم لا، فيرى الفريق الأول أنهم تحت مشيئة الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم فدخلوا الجنة، وأنهم إذا دخلوا النار لا يخلدون فيها، وأن مصيرهم الخروج والانتقال إلى الجنة، ويستدلون بآيات كثيرة، أبرزها مثلا آية النساء: **(إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)**[4]، بالإضافة إلى نصوص كثيرة من السنة النبوية ليس هذا مقام تفصيلها. ويرى الفريق الثاني أن أصحاب الكبائر خالدون مخلدون إلى الأبد في النار، ويستشهدون بعموم الآيات الدالة على خلود العصاة، وأن القرآن الكريم لا يحتوي على أيّة آية صريحة تدل على أن أصحاب الكبائر يخرجون من النار بعد دخولها، ومن الآيات العامة التي يستدلون بها ما مرَّ بنا أعلاه في الفسق، والإجرام، والمعصية، وما شابه ذلك، مثل: **(وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ)**. ومثل: **(إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى)**. ومثل: **(وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)**.

وقد حاور القرآن الكريم من ينكر البعث والخلود، معتقدًا أَنَّ الحياة هي حياتنا هذه فقط، ونموت بعدها ونصبح تراباً ولا نعود. فيرد عليه القرآن أن الذي أنشأ النشأة الأولى قادر على إعادة الحياة لما خلق مرة ثانية: **(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)**[5].

وختامًا ربما لا نبالغ إذا قلنا إن هذه النزعة -أي نزعة الإنسان إلى البقاء الدائم- من أوسع النزعات، أي أنها نزعة نفسية إنسانية شاملة؛ يشترك فيها غالب البشر؛ باستثناء من تحوّل عن حب البقاء إلى الرغبة في الموت لأسباب دينية، أو ظروف صحية طارئة مثلا، أو غير ذلك مما شابه. فمع أن الأصل أن غريزة البقاء تجعل الإنسان يهرب من الموت، إلا أننا نجد في البشر من يطلب الموت ويتمناه رغبة في تحقق الوعود التي وعده بها دينه من نعيم وسرور دائمين في دار الخلود مثلا، ومن

---

[1]- سورة إبراهيم، الآية: ٢٣.
[2]- سورة الفرقان، الآية: ٧٦.
[3]- سورة هود، الآية: ١٠٨.
[4] سورة النساء، الآية: ٤٨.
[5]- سورة يس، الآيات من ٧٧ إلى ٨٢.

الناس أيضًا من يقدم على الانتحار، نظرًا لما حلَّ به في حياته من صعوبات ومعانيات جعلته ييأس منها ويرى الموت أحسن وأرحم له.

فالمنتحر مثلا أو من يفكر في الانتحار، لا يقرر هذا فجأة، بل نتيجة سلسلة من التراكمات التي جعلته يختلف عن غيره من غالبية الناس الخاضعين لغريزة البقاء، من الذين يحبون الحياة والبقاء على قيدها، وفي الحقيقة هناك كثير من البحوث الميدانية والمدارس النفسية والدراسات السريرية (الإكلينيكية) التي تناولتْ الأسبابَ العديدة، التي تُحْدِث هذا التحوّل في الإنسان، فتجعله يفضل الموت على الحياة. ومنها بحث كبير يتناول بالتفصيل الأسباب والعوامل المؤدية إليه، وخاصة الاجتماعية والوراثية والدينية منها، ويورد فيه مؤلفه إميل دوركايم تعريفات كثيرة للانتحار، منها مثلا: أنه كل ميتة تنجم –بنحو مباشر أو غير مباشر- عن فعل إيجابي أو سلبي، جرى تنفيذه بيد الضحية ذاتها[١].

ولموضوع الانتحار أهمية كبرى عند الفلاسفة، إلى درجة جعلت الفيلسوف الجزائري البيركامو يقول: "هنالك مشكلة فلسفية هامة وحيدة، هي الانتحار. فالحكم بأن الحياة تستحق أن تعاش، يسمو إلى منزلة الجواب عن السؤال الأساسي في الفلسفة"[٢].

ومن كل ما سبق لا يظهر لنا أن حب الخلود والرغبة فيه أمر مشترك بين جميع البشر، فرغم أن الغالبية منهم تشعر بتلك الرغبة بشكل أو بآخر، فقد يصيب السأم والملل الإنسان أحيانًا، فيرغب في الرحيل؛ ولذلك يلحُّ عليَّ بيتا زهير الشهيران في الخروج وفرض فلسفته في هذه الجزيئة، حيث يقول ابن أبي سلمى في معلقته التي نظمها على البحر الطويل:

سَئِمتُ تَكاليفَ الحَياةِ وَمَن يَعِش ** ثَمانينَ حَولاً لا أَبا لَكَ يَسأَمِ
رَأَيتُ المَنايا خَبطَ عَشواءَ مَن تُصِب ** تُمِتهُ وَمَن تُخطِئ يُعَمَّر فَيَهرَمِ[٣]

ومن الناحية النفسية أيضًا نجد أن **(غريزة البقاء)** هي التي تجمح بنا نحو الرغبة في الخلود، أي أنها تدفعنا للحلم والعمل والتخيّل، والتصديق بما نشعر أنه سيحقق لنا هذا الحلم دنيويًا، بإطالة عمر الإنسان إلى أبعد حد، أو بالخلود الأبدي في العالم الآخر. ولذلك يرى الكثيرون ومنهم "توماس هوبز" أن مسيرة الإنسان كلها –من أولها إلى آخرها- قائمة على غريزة حب البقاء[٤].

كما يؤكد آخرون بصياغات مختلفة على أن وعي الإنسان لظاهرة الموت، انعكس على نفسيته في المستوى اللاشعوري، حيث صُدم بمصيره الحتمي، وهذا ما شكّل انفعالاً في عقله الباطن، ما أدّى إلى تصورات مشحونة بهذا الانفعال تّم التعبير عنها في الدراسات النفسية بعقدة التخلي أو النبذ. ومعلوم أن لكل عقدة نفسية لدى الإنسان ضروبًا تعويضية لا شعورية، تسعى بالإنسان إلى إعادة توازنه، وتتراوح بين الإيجابية و السلبية تبعاً للانفعال الذي واكب النفس تجاهها. فهي عقدة الإحباط الانفعالي، عقدة الاستبعاد، التي تصبح في صورتها المصعّدة فلسفة في الوجود الإنساني. فالإنسان

---

[١]- دراسة إميل دوركايم قيمة في الحقيقة، وهي من أشمل ما اطلعت عليه في هذا الموضوع. عنوانها "الانتحار" وتتجاوز ٥٠٠ صفحة، ترجمة حسن عودة، صدرت عن الهيئة العامة السورية للكتاب.

[٢]- البيركامو، أسطورة سيزيف، ترجمة أنيس زكي حسن، دار مكتبة الحياة – بيروت، ١٩٨٣م، ص١١.

[٣]- ديوان زهير بن أبي سلمى، دار الكتب العلمية، نسخة الكترونية، قافية الميم، ص١١٠.

[٤]- العقد الاجتماعي: الأسس النظرية وأبرز المنظّرين. وهو بحث منشور -بلا إشارة لمؤلفه- في عدة أماكن بنسخة pdf.

مُلقى في هذا العالم فريسة التخلي وحصر العزلة الذي يتصف بأنه مقضّي عليه ميتافيزيقياً. وعلى ذلك، فإن ضروب التعويض عن هذه العقدة تتبدى -عند البعض- في مستويات عّدة: **المستوى الأول:** معاناة من ألم التخلي والفقد بما يؤدي إلى الانكفاء و العزلة في الحياة واجترار الكآبة والاستسلام للموت. **المستوى الثاني:** تعذيب الإنسان نفسَه و تحميلها ألواناً من حياة سوداوية كئيبة. **المستوى الثالث:** حيث يلجأ الإنسان إلى الحلول الصوفية أو الإيمان بالتقّمص أو التناسخ أو بوجود حياة بعد الموت. **المستوى الرابع:** حيث يميل الإنسان إلى الانتحار و رفض الحياة وربما تنتابه نوازع عدوانية و سادية. **المستوى الخامس:** أن يتزن الإنسان وفق المبدأ الرواقي حيث القبول بالموت و العمل في الحياة كأن الإنسان خالد، واعتبار الموت جزءاً من الحياة. والجدير ذكره هنا هو أن الأديان السماوية جاءت بحلول لهذه العقدة و ضروب تعويضية صالحت الإنسان مع الموت، عبر وجود حياة بعد الموت يحاسب فيها الإنسان من قبل الرب على كل أعماله في الدنيا، فقدّمت علاجًا نفسيًا لموضوع يؤرق الإنسان منذ وعيه لظاهرة الموت، وخلقتْ معادلاً موضوعياً لهذا الأمر يتجلى في اتباع قواعد أخلاقية في الحياة للفوز بعالم ما بعد الموت في منحاه الإيجابي[1].

وأختم بأنني -كباحث- أرى أن حب البقاء السالف الذكر مبني على حب سابق، ففي كل إنسان سوي قدرٌ من (حب الذات)، وهو حب غريزي طبيعي يقتضي وجوده في الإنسان وجودَ حبٍ آخر هو (حب البقاء)، فرغبة الإنسان في الديمومة رغبة مبنية على حبه لنفسه بالتأكيد. والاقتناع بوجود هذا الترابط بين هذين الحبين مهم جدًا للتدليل على أهمية دراستي هذه، فأهميتها نابعة منطقيًا من رغبة كل إنسان يحب نفسه في البقاء الأبدي الخالد، وبالتالي فمن المفترض أن تكون مثل هذه الدراسات التي تبحث في التصورات الفلسفية المختلفة لموضوع (الخلود بعد الموت) مهمة لغالب البشر؛ لأن غالب البشر يحبون ذواتهم، وتزعجهم احتمالية الفناء والعدم.

وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن حب النفس الوارد في الفقرة السابقة مرتبط أيضًا بشيء آخر غير حب البقاء، وهو الخوف من عكس البقاء، أي (الخوف من الموت) فالرهبة من الموت ظاهرة نفسية شائعة ذائعة في مختلف عصور بني الإنسان وبقاعهم؛ ولكنها تزيد وتتضاعف ألف مرة ومرة، إذا ارتبطت بفكرة (العدمية) والتلاشي النهائي، ففكرة العدم أو الفناء هذه فكرة موجودة مقلقة، وتؤمن بها تيارات فلسفية ومذاهب عقائدية مختلفة، ككثير من الفلسفات والتوجهات اللادينية والإلحادية والمادية المتعددة. ومن هنا ظلَّ الإنسانُ من بدايات وجوده وحضاراته الأولى إلى اليوم، منشغلا بمصيره بعد مغادرة الحياة الحالية، ومهتمًا بمعرفة حقيقة المعتقدات المتعلقة بالخلود، سواء على المستوى الروحي أو على المستوى الفيزيقي الجسدي، من باب السعي إلى إراحة النفس وإزالة قلقها المؤلم.. وهذا الانشغال والاهتمام الكبيران من بني الإنسان، جاء كردة فعل طبيعية على (جبروت الموت) وتسلطه عليهم دون استثناء أو تفرقة، وعجزهم عن التغلب عليه أو الإفلات من قبضته.

إن رهبة الموت في نظري بلا أدنى ريب هي أم الرهبات المقلقة لهذا الكائن القلق المسكين الحائر المسحوق بين السماء والأرض، وإذا وصل الإنسان -مهما كان دينه ومعتقده- إلى قناعة قوية بأنه سيخلد بعد موته في عالم جديد، فلا شك أن هذه القناعة ستريحه من كثير من القلق النفسي الناتج عن الخوف من فكرة الفناء والزوال والتلاشي، كما أنها ستدفعه من ناحية ثانية إلى البحث والعمل والاهتمام بالطرق والسلوكيات الحسنة التي تكفل له خلودا سعيدًا أو جيدًا في ذلك العالم الثاني.

---

[1]- د. بشار خليف، شعائر الموت ومعتقداته في تراث المشرق العربي مقاربة أنثروبولوجية، مجلة الثقافة الشعبية الفصلية العلمية المتخصصة – البحرين، العدد ٨.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر:

١- القرآن الكريم.

٢- الكتاب المقدّس - العهد القديم.

٣- الكتاب المقدّس - العهد الجديد.

٤- برت إم هرو، كتاب الموتى الفرعوني عن بردية آني بالمتحف البريطاني، ترجمة د. فيليب عطية، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط١، ١٩٨٨م.

٥- خزعل الماجدي، متون سومر – الكتاب الأول: التاريخ والميثولوجيا واللاهوت والطقوس، الأهلية للنشر – عَمّان، ط١، ١٩٩٨م.

٦- خليل عبدالرحمن، كتاب (الأفستا) المقدّس في الزرادشتية، روافد للثقافة والفنون – دمشق، ط٢، ٢٠٠٨م.

٧- طه باقر، ملحمة كلكامش أوديسة العراق الخالدة، وزارة الإرشاد العراقية - سلسلة الثقافة الشعبية،١٩٦٢م.

٨- قاسم الشواف، ديوان أساطير سومر وأكاد وآشور – الكتاب الرابع عن الموت والبعث والحياة الأبدية، بإشراف أدونيس، دار الساقي – بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

قائمة المراجع العامة:

٩- أ. س. رابوبرت، مبادئ الفلسفة، دار العالم العربي – القاهرة، ط١، ٢٠١٢م.

١٠- أ.و.ف. توملين، فلاسفة الشرق، دار المعارف، ط٢، ١٩٩٤م.

١١- إبراهيم رجب عبدالله، الموت والخوف منه عند فلاسفة اليونان والإسلام، بحث منشور بمجلة جامعة الأنبار للعلوم، عدد ٤، مج ١، ٢٠٠٩م.

١٢- إبراهيم يوسف النجار، مدخل إلى الفلسفة، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء، ط٢، ٢٠١٣م.

١٣- ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحقيق محمد عمارة، دار المعارف- القاهرة، ط٢.

١٤- أحمد أمين سليم، تاريخ العراق –إيران- آسيا الصغرى، دار المعرفة الجامعية -الإسكندرية، ١٩٩٧م.

١٥- أحمد أمين سليم، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم: مصر. العراق. إيران، دار النهضة العربية – بيروت، ١٩٨٩م.

١٦- أحمد أمين سليم، دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية – بيروت، ط ١٩٩٢.

١٧- أحمد شلبي، اليهودية، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، ط١٠، ١٩٩٢م.

١٨- أحمد علي عجيبة، دراسات في الأديان الوثنية القديمة، دار الآفاق العربية – القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.

١٩- أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم: مصر والعراق وسوريا واليمن وإيران، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، ط٢، ١٩٦٣م.

٢٠- أحمد كمال، بغية الطالبين في علوم وعوائد وصنائع وأحوال قدماء المصريين، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

٢١- أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت، ١٩٨٧م.

٢٣- إريك هورنج، وادي الملوك أفق الأبدية، ترجمة محمد العزب، مكتبة مدبولي – القاهرة، ١٩٩٦م.

٢٤- إيمان لفتة حسين، الطقوس الجنائزية في بلاد وادي الرافدين خلال الألف الثالث قبل الميلاد، مجلة جامعة القادسية - العراق، المجلد (٨) العدد (٤)، ٢٠٠٩م.

٢٥- بثينة منصور الحلو، قلق الموت لدى كل من الشيوخ والشباب، بحث منشور في مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد، العدد ٩٥.

٢٦- بشار خليف، شعائر الموت ومعتقداته في تراث المشرق العربي مقاربة أنثروبولوجية، مجلة الثقافة الشعبية الفصلية العلمية المتخصصة– البحرين، العدد.٨

٢٧- بلخير بقة، أثر ديانة وادي الرافدين على الحياة الفكرية سومر وبابل، رسالة ماجستير في التاريخ القديم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الجزائر، ٢٠٠٨م.

٢٨- البيركامو، أسطورة سيزيف، ترجمة أنيس زكي حسن، دار مكتبة الحياة – بيروت، ١٩٨٣م.

٢٩- توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، دار النهضة العربية – القاهرة، ط٢، ١٩٦٧.

٣٠- جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت، ١٩٨٤م.

٣١- جريدة "شمس" الورقية السعودية، تقرير عنوانه: الشنتوية ديانة اجتماعية، العدد ١٥٨٤ / ٢٠١٠-٠٥-١٤.

٣٢- جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت، ١٩٩٣م.

٣٣- جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، دار الآفاق العربية – القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

٣٤- جمال ندا السلماني، التحنيط في مصر القديمة (لماذا وكيف)، مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد / العدد ١٠٤.

٣٥- جورج بوليتزر، مبادئ أولية في الفلسفة، دار الفارابي -بيروت، ط٥، ٢٠٠١م.

٣٦- جون كولر، الفكر الشرقي القديم، المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت، ١٩٩٥م.

٣٧- جون ويلسون، الحضارة المصرية، ترجمة أحمد فخري، مكتبة النهضة، pdf بلا تاريخ.

٣٨- جيمس هنري بريستيد، فجر الضمير، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة، نسخة إلكترونية بلا تاريخ.

٣٩- حامد إبراهيم، نظرية النفس بين أرسطو وابن سينا، مجلة جامعة دمشق، المجلد ١٩- (١+٢) ٢٠٠٣م.

٤٠- حبيب سعيد، أديان العالم، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة، ١٩٧٧م.

٤١- حسين العودات، الموت في الديانات الشرقية، الأهالي للطباعة والنشر – دمشق، ط٢، ١٩٩٢م.

٤٢- حنان قرقوتي، حياة الروح بعد الموت عند المسلمين وغيرهم، دار الألوكة للنشر، ٢٠١٣م.

٤٣- خزعل الماجدي، إنجيل بابل، الأهلية للنشر والتوزيع – عمان الأردن، ط١، ١٩٩٨م.

٤٤- ديوان زهير بن أبي سلمى، دار الكتب العلمية، نسخة إلكترونية، قافية الميم فقط.

٤٥- رينيه ديكارت، انفعالات النفس، ترجمة جورج زيناتي، دار المنتخب العربي، نسخة pdf بلا تاريخ.

٤٦- زاهي حواس، مقالة عنوانها: وادي الملوك كنز لا يفنى، جريدة الأهرام، ٤ مارس ٢٠٠٦م، السنة ١٣٠- العدد ٤٣٥٥٢ .

٤٧- سامي المغلوث، أطلس الأديان، مكتبة العبيكان للنشر – الرياض، ط١، ٢٠٠٧م.

٤٨- ستيبان اودويف، على دروب زرادشت، دار دمشق للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٣م.

٤٩- ستيفاني دالي، أساطير من بلاد ما بين النهرين، ترجمة د. نجوى نصر، دار جامعة أوكسفورد – نيويورك، بيسان للنشر والتوزيع – بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٥٠- سلامة موسى، مصر أصل الحضارة، كلمات عربية للترجمة والنشر – القاهرة، نسخة pdf بلا طبعة ولا تاريخ.

٥١- سليمان مظهر، قصة الديانات، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط٤، ١٩٩٥م.

٥٢- سيد القمني، رب الثورة أوزيريس، المركز المصري لبحوث الحضارة – القاهرة، ط٢، ١٩٩٩م.

٥٣- سيد عويس، الخلود في التراث الثقافي المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع، ١٩٩٩م.

٥٤- الشفيع الماحي أحمد، زرادشت والزرادشتية، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، الحولية ٢١، الرسالة ١٦٠، ٢٠٠١م.

٥٥- الأب صبري المقدسي، الموجز في المذاهب والأديان / الجزء الأول، منشورات سركيس اغاجان، ط١، ٢٠٠٧م.

٥٦- صبري محمد خليل، فلسفة الأديان الشرقية القديمة: مدخل نقدي مقارن، بحث منشور من جامعة الخرطوم، نسخة إلكترونية بلا تاريخ.

٥٧- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - تاريخ الفرات القديم، كلية دار المعلمين العالية – بغداد، ط٢، ١٩٥٥م.

٥٨- عبد الحليم نور الدين، محاضرات جامعية عنوانها: مظاهر البعث والخلود في مصر القديمة، نشرتها مكتبة الإسكندرية في كتيب pdf ضمن فعاليات الموسم الأثري السابع.

٥٨- عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم مصر والعراق، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١٢م.

٥٩- عبدالله محمد أبو هشه، في صحبة الفلاسفة مدخل لأعمالهم الفلسفية الرائدة، دار الحكمة – لندن، ط١، ٢٠١١م، ج١.

٦٠- عزت زكي، الموت والخلود في الأديان المختلفة، صادر عن الكنيسة الأسقفية، دار الجيل للطباعة – القاهرة،١٩٧٢م.

٦١- علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، آفاق عربية للصحافة – بغداد ١٩٨٥م.

٦٢- علي عبدالفتاح المغربي، الفكر الديني الشرقي القديم، مكتبة وهبة – القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

٦٣- فراس السواح، دين الإنسان، دار علاء الدين – دمشق، ط٤، ٢٠٠٢م.

٦٤- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة – سورية وبلاد الرافدين، دار علاء الدين – دمشق، ط١١، ١٩٩٦م.

٦٥- فرديناند ألكييه، التوق إلى الخلود، ترجمة سنا خوري، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ط١، ٢٠٠٩م.

٦٦- ك. ما تفييف و أ. سازونوف، حضارة ما بين النهرين العريقة، الحرس الفني -موسكو ١٩٨٦، تنفيذ مطبعة دار المجد- دمشق ١٩٩١.

٦٧- كارم محمود عزيز، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، مكتبة النافذة – الجيزة، ط١، ٢٠٠٦م.

٦٨- كامل سعفان، معتقدات آسيوية، دار الندى – مدينة نصر، ط١، ١٩٩٩م.

٦٩- ل. ديلابورت، بلاد ما بين النهرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٧م.

٧٠- لطفي وحيد، أشهر الديانات القديمة، مكتبة معروف إخوان – الإسكندرية، ط١، ١٩٩٨م.

٧١- محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الفكر العربي، ط٤، ١٩٩٤م.

٧٢- محمد إبراهيم بكر، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديم، مطابع هيئة الآثار – القاهرة، نسخة pdf.

٧٣- محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية -بيروت- لبنان، نسخة إلكترونية موافقة للطبعة الورقية رقم ٢.

٧٤- محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية – بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

٧٥- محمد العريبي، الديانات الوضعية في الشرقين الأدنى والأقصى، دار الفكر اللبناني، بيروت، نسخة pdf بلا تاريخ.

٧٦- محمد سليمان حسن، تيارات الفلسفة الشرقية، دار علاء الدين – دمشق، ١٩٩٩م.

٧٧- محمد عبد الخالق كاظم، الخلود في جهنم، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، ١٤٢٦هـ

٧٨- محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي من طاليس إلى أفلاطون، دار المعرفة الجامعية، ط ٥، ١٩٧٣.

٧٩- محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مطبعة البيت الأخضر بمصر، ١٩٣٨م.

٨٠- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة – القاهرة، ط ٣، ١٩٧٩م.

٨١- مركز نون للتأليف والترجمة، دروس في الأديان، الناشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، نسخة pdf بلا رقم طبعة ولا تاريخ.

٨٢- مسعد بري، تطور الفكر الطوطمي (دراسة في الجغرافية الاجتماعية)، جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية / قسم الجغرافيا، العام الدراسي ٢٠١٠ م.

٨٣- مناهج جامعة المدينة العالمية، كتاب الأديان والمذاهب، منشورات جامعة المدينة العالمية، نسخة إلكترونية موافقة للمطبوع، بلا رقم طبعة ولا تاريخ.

٨٤- نائل حنون، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ط٢، ١٩٨٦م.

٨٥- نخبة من الباحثين العراقيين، حضارة العراق، دار الحرية للطباعة – بغداد، ١٩٨٥، ج١.

٨٦- نعيم فرح، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار الفكر، نسخة pdf بلا رقم طبعة، ١٩٧٢م.

٨٧- نوري إسماعيل، الديانة الزرادشتية، دار علاء الدين – دمشق، ط٢، ١٩٩٧م.

٨٨- نيقولا جرمان، تاريخ مصر القديمة، دار الفكر للدراسات والنشر – القاهرة، ط ٢.

٨٩- هنية مفتاح القماطي، الفكر الديني القديم – دراسة في نشأة المعتقدات، منشورات جامعة قاريونس – بنغازي، ط١، ٢٠٠٣م.

٩٠- وِل ديورَانت، قصة الحضارة، دار الجيل - بيروت، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – تونس، ١٩٨٨ م.

٩١- ولْ ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله المشعشع، مكتبة المعارف - بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

٩٢- ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ترجمة د. أحمد قدري، دار الشروق، ط١، ١٩٩٦م.

٩٣- يسر محمد سعيد مبيض، اليوم الآخر في الأديان السماوية والديانات القديمة، دار الثقافة – الدوحة، ط١، ١٩٩٢م.

قائمة الموسوعات والمعاجم:

٩٤- أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، دار العلم للملايين – بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ج١.

٩٥- أبو هلال الحسن العسكري، معجم الفروق اللغوية، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، ط١، ١٤١٢هـ.

٩٦- أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر – بيروت، ١٩٧٩م.

٩٧- أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، مجمل اللغة لابن فارس، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ج١.

٩٨- أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب – القاهرة، ط ١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، ج ١.

٩٩- إسماعيل بن حمّاد الْجَوْهَري، معجم الصحاح في اللغة، دار العلم للملايين – بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.

١٠٠- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات - بيروت – باريس، ط١، ١٩٩٦م.

١٠١- جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٨٢م.

١٠٢- حسن نعمة، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني - بيروت، ١٩٩٤م.

١٠٣- خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات الفلسفية، دار الفكر اللبناني – بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

١٠٤- رينهارت بيتر آن دُوزِي، تكملة المعاجم العربية، وزارة الثقافة والإعلام - الجمهورية العراقية، ط ١، ١٩٧٩م، ج ٤.

١٠٥- عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، نسخة إلكترونية من إعداد موقع المكتبة الشاملة التابعة لأوقاف الشيخ محمد الراجحي، ج ١٤.

١٠٦- عبدالمنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٠م.

١٠٧- علي بن الحسن الهُنائي الأزدي، المُنَجَّد في اللغة، عالم الكتب – القاهرة، ط ٢، ١٩٨٨م.

١٠٨- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الفلسفي، نشرته الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٨٣م.

١٠٩- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، منشورات دار الدعوة، (مادة: خلد)، نسخة إلكترونية.

١١٠- محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط ١، ٢٠٠١م، ج ٢.

١١١- محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية – الكويت، دون رقم طبعة ولا تاريخ، ج ٨.

١١٢- محمد بن مكرم بن منظور، معجم لسان العرب، دار صادر – بيروت، ٢٠٠٣م.

١١٣- محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط٨، ٢٠٠٥م.

١١٤- مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع - الأردن، ٢٠٠٩م.

١١٥- الموسوعة العربية السورية، دار الفكر - دمشق، مج ٨، موقع الموسوعة الإلكتروني/الفلسفة والعقائد.

١١٦- موسوعة الملل والأديان - الدرر السنية، لمجموعة من الباحثين بإشراف علوي بن عبد القادر السقاف، نسخة pdf بلا طبعة ولا تاريخ.

١١٧- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، النسخة الإلكترونية.

قائمة المراجع المأخوذة من مواقع إلكترونية:

١١٨- أمين الوزان، مقالة عنوانها: الديانة الشنتوية، نشرها د. أحمد القاضي أستاذ المذاهب المعاصرة بجامعة القصيم، في موقع (العقيدة والحياة) الذي يشرف عليه. على الرابط التالي:

http://www.al-aqidah.com/art/s/608

١١٩- الحقبة الفرعونية، الموقع الالكتروني للهيئة المصرية العامة للاستعلامات. على الرابط:

http://www.sis.gov.eg/Ar/Templates/Articles/tmpArticles.aspx?CatID=796#.VllYjdKrTZ4

١٢٠- العقد الاجتماعي: الأسس النظرية وأبرز المنظّرين. وهو بحث منشور -بلا إشارة لمؤلفه- في عدة مواقع الكترونية بنسخة pdf.

١٢١- رشيد بوطيب، سيرة جاك دريدا بحسب بينوا بيترز، موقع كتّاب العراق، ٢٠١١/٠٢/٠١م. وكذلك نجد المقالة في الموقع الالكتروني لجريدة الحياة السعودية بتاريخ ٢٠١١/٢/١ الموافق ١٤٣٢/٢/٢٧، رقم العدد: ١٧٤٦٩.

١٢٢- عبدالرحمن بدوي، فلسفة خلود النفس، الموقع الإلكتروني لمؤسسة الصدرين للدراسات الاستراتيجية. على الرابط:

http://alsadrain.com/maowsoaa/mostalahat/144.htm

١٢٣- صفاء محمود، متون الأهرام، موقع مجلة حركة مصر المدنية، ٥ مارس ٢٠١٢م. الرابط:

http://www.civicegypt.org/?p=20589

١٢٤- طقوس الموت عند الفراعنة: حفل زفاف إلى العالم الآخر، تحقيق منشور بمجلة اليمامة السعودية، عدد ٢٠١٢/٥/٢٦م. على الرابط:

http://www.alriyadh.com/alyamamah/article/966770

١٢٥- عمرو محمد عباس محجوب، مقالة عنوانها: تأملات في الميثولوجيا النوبية، موقع صحيفة سودانايل، ١٩ كانون٢/يناير ٢٠١٥م. وكذلك على موقع حريات الفلسفي السوداني، على الرابط:
http://www.hurriyatsudan.com/?p=172800

١٢٦- فراس السواح، مقالة عنوانها: الوصايا العشر في ديانة مصر القديمة، الموقع الالكتروني لمجلة الأوان، الخميس ١٩ آذار (مارس) ٢٠٠٩م. على الرابط:

http://go.shr.lc/1XmHHVU

١٢٧- فراس السواح، هبوط عشتار إلى العالم الأسفل، **موقع مجلة معابر السورية**، بتاريخ

٢٠٠٧-٠٩-١٦. ومواقع ومجلات الكترونية أخرى مختلفة.

١٢٨- كامل النجار، مقالة عنوانها: ماذا يقول علماء الأنثروبولوجيا عن الأديان؟، **موقع مركز الدراسات والأبحاث العلمانية في العالم العربي**، ٢٠١٣ / ٦ / ١٤ .

١٢٩- لطيف شاكر، مقالة عنوانها: عقيدة الموت والخلود، **موقع الحوار المتمدن**، بتاريخ

٢٠ / ٧ / ٢٠١٠.

١٣٠- مؤيد عبد الستار، صخرة زرادشت الحكيم، مقال في **موقع جريدة "الاتحاد" الوطني الكردستاني** اليومية السياسية، الصفحة الأخيرة، ٥ ديسمبر ٢٠٠٥م. على الرابط:

http://www.alitthad.com/paper.php?name=News&file=article&sid=22086